شرح

الزيارة الجامعة الكبيرة

الجزء الثاني

من تأليفات :
مفتاح علوم أهل البيت عليهم السلام
العالم الرباني والحكيم الصمداني مولانا الأوحد الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي
أعلى الله مقامه
١١٦٦ - ١٢٤١هـ

طبع بأمر وإشراف
المرجع الديني الكبير خادم الشريعة الغراء
المولى المجاهد الحاج ميرزا عبد الرسول الأحقاقي الحائري
دام ظله العالي

أعدّه وعني بتصحيحه ومراجعته
لجنة السيد الأمجد لإحياء تراث الشيخ الأوحد الأحسائي
والمشايخ العظام أعلى الله كلمتهم

مفتاح علوم أهل البيت عليهم السلام

العالم الرباني والحكيم الصمداني مولانا الأوحد الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي

أعلى الله مقامه

المرجع الديني الكبير خادم الشريعة الغراء

المولى المجاهد الحاج ميرزا عبد الرسول الأحقاقي الحائري

دام ظله العالي

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين ، قال العبد المسكين أحمد بن زين الدين الإحسائي.

قال عليه السلام عصمكم الله من الزلل

العصمة لغة المنع وفي الاصطلاح عند العدلية هي اللطف المانع للمكلّف من ترك الواجبات وفعل المحرمات يفعله الله تعالى به غير مانع من القدرة وهو مانع من الداعي وهذا يتمشى على قول مَنْ يرى أن الإرادة غير داخلةٍ في مفهوم القدرة، وأما مَنْ قال بدخولها فيلزم من سلبها سَلب القُدْرَةِ فيرتفع التكليف ولا يَسْتَحِق ثواباً ولا عقاباً وهي عندهم كيفية تستلزم أموراً أربعة.

الأول : صدق الأقوال لمنِعها من إرادة الكَذب مع القدرة عليه.

الثاني: حسن الأفعال لمنِعها من إرادة قبحها كذلك.

الثّالث: حفظ الحقوق عن التعطيل لاقتضائها الصلاح.

الرابع : حفظ نظام المعاش والمعاد عن التقريرات على الباطل الموجب لفسادِهما أو اختلالهما بحسب الأمور العقليّة والنّقلية، وقد تقدم لها بيان فراجعه وهي مجمع الكمالات لاجتماع آثار الصفات والأفعال فيها لأنها مظهر تلك الآثار ومحلها، وهي عدالة الوجود وترتيبه الطبيعي كما هو صفة الحق جل وعلا قال صلى الله عليه وآله وسلم (بالعدل قامت السموات والأرض).

وحيث تقرّر أن الأثر يشابه صفة مؤثرة في تأثيره فيه وجب أن تكون العصمة

مستلزمة لقصر ميلها إلى الخير والحق مع القدرة على الشر والباطل وإلاّ لم تشابه صفة المؤثر فيها، فقصر ميلها إلى الخيرات بالاختيار والشوق الذاتي إلى المجانس، وإذا أراد الله تعالى عصمة عبده غمسه في أنوار صفاته بحقيقة ما هو أهله في بدء شأنه في علم الغيب على ما هو عليه فانكشفت عنه الظلمات فكان بمحبة نفسه وشهوتها يميل حيث مالت محبة الله لا يفارق رضا الله ولا يفارقه بل يكون محلّ إرادته وخزانة محبّته ومتعلّق رِضاهُ كما روي عنهم عليهم السلام (إذا شِئنا شاء الله).

والزّلل هو الخطأ والذنب ويصدق الخطأ الذي هو عدم الصّواب على الكذب في القول كالإخبار عن نفسه بما ليس بحقّ في الواقع سواء جهل المخالفة أم علمها أم علم الموافقة بالفطرة وجهلها بالتغّيير لخلق الله وهو التطبع على خلاف الفطرة كما أخبر تعالى عن المنافقين (قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهُ) هذه شهادة بالفطرة (وَالله يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُه) وهذا هو الواقع (وَالله يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ) كذبهم في شهادتهم بما هو المطابق للواقع، لأنهم من جهة تغييرهم الفطرة وملاحظة الأغراض الدنياوية لأنهم يعلمون أنّه لرسولهُ وإلا لما قامت عليهم الحجّة لقوله تعالى (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا) فلمّا أخبروا بما هو مخالف لما ركّبوا عليه أنفسهم كذّبهم الله والذي ركّبوا عليه أنفسهم هو التغيير لخلقِ الله بالأعمال المخالفة للحقّ حتى كان ذلك التبديل والتغيير فطرة ثانيةً خلقت من هيئَاتِ أعْمالِهِمْ بل خُلِقَتْ بأعمالهم كما قال الله تعالى (وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ)يعني أنّا لا نفهم ما تقول ولا نعرف حقيته لأن قلوبنا غلف فقال الله تعالى إن قلوبهم لم نخلقها في الأصل غُلفاً ولكن لمّا لم يقبلوا الحقَّ من عندنا وأنكروا جعلنا قلوبهم بإنكارهم الحقّ بعد البيان غُلفاً قال تعالى (بَل طَبَعَ الله عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً) يعني به القليل الذين

لم يطبع على قلوبهم لأجل قبولهم الإيمان أو قليلاً من مسائل الإيمان وأحكامه ممّا لم يظهر لهم أنه مناف لغرضهم، ستره الله عن بصائرهم ليكون أنسا للمؤمنين، فبفطرتهم الأولى عرفوا رسالة محمد ﷺ واستيقنتها أنفسهم وبفطرتهم الثانية الخبيثة أنكروا رسالته، فحكم عليهم بحكم الفطرة الثانية لأنها هي التي مضوا عليها في أعمالهم وأقوالهم والفطرة الأولى عَطّلوُهَا ولم يجعلوا لها أثراً ولا حكماً ولا عولوا على مقتضاها فلم يجر عليهم شيء من أحكامها إلاّ ما تقُومُ به الحجة عليهم وذلك لبقائها في نفسها محصورة في حصنِها قد أحاطت بها الأعداء من كل جانب ومكان وإنما أبقاها الله تعالى لأن بقاءَهُ بها لا بالفطرة الثانية وإنّما طلب سبحانه بقاءهُ إلى أجلٍ هو بالغه لتبلغ عليه الحجة وتتم الكلمة على ما سبق له في علمه حين كان منه ما كان ، ويصدق الخطأ في الاعتقادات بأن يكون منه اعتقادٌ يخالف ما الواقع عليه فإذا اعتقد ما يخالف الوجود كان عدما وهو باطل سواء كان بعد الاعتقاد المطابق أم بعد العلم بالمطابق، فاعتقد خلافه تكبّراً أو حسداً أو لشيء من غرض الدّنيا، أم قبل الاعتقاد إما لعدم التّوفيق أو لتقصيره في الطلب، أو لاتباع الأهواء أو لعدم المبالاة وأمثال ذلك، فإذا وقع منه ما يخالف الواقع فقد (افْتَرَىَ عَلى الله الكَذِبَ) لأن المعنى يكون هكذا إذا اعتقد قيام زيد أو قال بأنّه قام فإن معنى ذلك أنه اعتقد أو قال إن الله قد أحدث قيام زيد بفعل زيد وفي الواقع لم يحدثه الله بفعل زيد ولم يقم زيد وذلك كقوله تعالى (أَلَمْ تَرَ إِلى الذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ الله يُزَكِّي مَن يَشَاء وَلاَ يُظْلمُونَ فَتِيلاً انظُرْ كَيفَ يَفْتَرُونَ عَلى الله الكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا) يعني إذا زكى نفسه ولم يجعلهُ الله زكياً فقد (افْتَرَى عَلى الله كَذِبًا) بأن ادعى أن الله جعله زكيا والله سبحانه لم يجعله زكياً ، ويصدق الخطأ في كل موضع

يثبتُ شيئاً بذاته أي قائماً بذاته ولو في النّسبة إليه والإسناد كما لو قلت أنا أفعل ولم تقل بالله أو إنشاء اللهُ لأن كل ما سوى الله إنما هو شيء بالله وأما بذاته فليس شيئاً، ويصدق الخطأ في الأعمال بأن يفعل شيئاً من الأعمال ليس ممّا أمر الله به على ألسنةِ أوليائه بالحدود التي حددَها لهُم، فإنْ كان عالماً بالمخالفة فهو خطأ وذَنب، وإنْ كان في الأخذ كما لو كان مقَلّدا منْ لم يصحّ تقليده أو كان مُستقِلاًّ ولم يكن مجتهدا، وإن كان جاهِلاً بالمخالفة ظانا للإصابة بالظن المعتبر شرعاً فلا يصدق الخطأ هنا، وإن لم يكن بالظن المعتبر شرعاً فيصدق عليه الخطأ، وإن كان جاهلاً بالتكليف ففي ما تعم به البلوى لا يعذر في الخطأ وفي المسائل النادرة الوقوع وفيما يدق دليله من المعتقدات فلا يبعد العذر ويصدق الخطأ في الأحوال على نحوٍ يطول ذكر بعضه ومنه عدم الاستقامَةِ فيما أُمِرَ كما أمِرَ وعدم الخشية في مقام الرهبةِ ، ومنه الالتفات إلى غير ما أُمِر بالمضي فيه ، ومنه استعمال فضول الكلام والطعام والأفكار والأنظار والحركات بل فضول الأشياء كلّها والتقصير في التبليغ والأداء وفي احتذاء كلّ ما جرى عليه نظام الإيجاد والوجود وانتظام الموجود.

والحاصل كل ما أشرنا إليه ومثله مما ليس مراداً له سبحانه وتعالى بالذات أو بالعرض عن قصد وعلم أو بلا علم أو بلا قصد على ما فصل في محالها فهو من الزلل بقول مطلق، وقد عصم اللهُ سبحانه وله الحمد محمداً ﷺ من جميع ما أشرنا إليه ونحوه من الزللِ الظاهر والباطن في الأحوال والأعمال والأقوال والإضمارات والاحتمالات بحقيقة ما هم أهله بأن أفاض عليهم من الإمدادات النّورية لسعة قابليّتهم وقوتها ما كشف به عنهم ظلمات الإنكار والشكوك والجهل والغفلة والسّهو والتكلّف والدعوى بغير الحقّ والنِّسيَان والفَواحش ما

ظهر منها وما بطن والمعاصي كبيرها وصغيرها والتساهل فيما يراد منهم والتماهل فيما يراد منهم تعجيله ، وبالجملة بحيث يكون عملهم فيما يراد منهم طبق إرادة الله ووفق مشيته وعين محبته لأنهم محال فعله ولا فعل لهم غير فعله إلاّ بفعله (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلـكِنَّ الله رَمَى) فهم في جميع أفعالهم كالحديدة المحمية في النار حتّى احمرّت فإنها لا تحرق إلا بما ظهر فيها من آثار النار وفعلها بل المحرق إنّما هو النّار بفعلها الظاهر على الحديدة وهو قوله تعالى (وَمَا رَمَيْتَ) الآية، وإنّما أسنده إليه ظاهراً كما تقول أحرقته الحديدة والمحرق حرارة النار في فعلها فبذلك لحقيقة ما هم أهله كانوا معصومين من الزّلل وكلّما يتفرع منه وعليه ويلزمه أصولاً وفروعاً.

وقوله عليه السلام (وآمنكم من الفتن) الأمان ضد الخوف، والفِتَن جمع فتنة ولها معان متعددة باختلاف المقامات:

منها الضلال والهداية قال تعالى (إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاء وَتَهْدِي مَن تَشَاء).

ومنها الاختبار وقيل التخليص من الغش قال تعالى (وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا).

ومنها الاختبار قال تعالى (ألم أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ)يعني لا يختبرون.

ومنها الحجة قال تعالى (ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ وَالله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ)يعني حجتهم.

ومنها الإحراق والتعذيب قال تعالى (إِنَّ الذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ) أي أحرقوهم وعذبوهم.

ومنها الكفر قالت تعالى (أَلاَ فِي الفِتْنَةِ سَقَطُواْ) أي في الكفر.

ومنها الشرك قال تعالى (وَالفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ القَتْلِ) أي والشِركُ.

ومنها الجنون قال تعالى (بِأَييِّكُمُ المَفْتُونُ) أي المجنون.

ومنها الإيقاع في الإثم قال تعالى (وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي) أي لا توقعني في الإثم.

ومنها العذاب قال تعالى (يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ) أي يعذبون.

ومنها الإفساد قال تعالى (مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ) أي لستم عليه أي على الله بمفسدين أحداً بإغوائكم واستهزائكم (إِلا مَنْ هُوَ صَالِ الجَحِيمِ) أي إلاّ من في علم الله أنه يستوجب الجحيم بسوء أعماله.

ومنها الابتلاء قال تعالى (وَجَعَلنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً) أي ابتلاء.

ومنها المحنة قال عليه السلام (المؤمن خلق مفتّناً أي ممتحناً بالذنب فيتوب ويذنب فيتوب) وعنه عليه السلام (إن الله يحبّ المفتّن التّواب) أي الممتحن بالذنب، وعنه عليه السلام (من دخل على السلطان فُتِن أي امْتُحِنَ إن وافقه خاطَرَ بدينه وإن خالفه خاطر بروحه).

ومنها القتل قال تعالى (إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الذِينَ كَفَرُواْ) أي يقتلكم.

ومنها الصدّ قال تعالى (وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) أي ليصدّونك.

ومنها المحبّة قال تعالى (إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ) أي محبّة أو بمعنى مِحْنة بالنون.

وهذه المعاني كلها في الحقيقة ترجع إلى الاختبار والابتلاء، وإن كان بنوع من

التأويل في بعضها وقد آمنكم الله سبحانه من جميع أنواعها ممّا لا يكون به بلوغ الدرجات العاليات والتفصيل تطويل يستغنى عنه لظهوره، وهذا الأمان لازم للعصمة وهو حكم كلّي في عموم التزكية لهم مطلقا وإنّما تجري عليهم بعض هذه الأنواع لرفع درجتهم كما قلنا وهم بذلك عالمون، وهذا البعض في الحقيقة ليس في حقهم بل ولا في حق من هو من شيعتهم ومحبّيهم من الفتنة، وإنّما هو من الفضل والهديّة من الله سبحانه إلى عبده المؤمن ولو كشف لك لرأيت أن هذه الفتنة المخصوصة ليس لك مطلوب في أعمالك خير منها، وفي الحديث (لو كشف لكم الغطاء لما اخترتم إلاّ الواقع) ، فيعود الكلام إلى أن الله سبحانه آمنهم من فتنة الضلالة والشرك والكفر والتخلص من الغشّ والجنون والإيقاع في الإثم والعذاب والإفساد والامتحان بالذنوب والصد والمحبّة لغير ما يحب الله.

والفتنة بمعنى الحجة لأنها حجة داحضة عند الله، وأمّا حجتهم فهي حجة الله لا تكون بمعنى الفتنة إلا بمعنى فتنة غيرهم من متمّمات القابليات بحكم الذوْد والإيراد، وفائدة الفتنة إظهارُ ما بالقوّة بالفعل والمراد بهذه القوة الإمكان لأنّه هو المتقدم على ما بالفعل في الممكن بخلاف ما بالقوّة المتعارفة حيث يطلقونها على موجود في الغيب ويزعمون أنّها متقدّمة على ما بالفعل وليسِ كذلك، بل ما بالفِعل في الوجود قبل ما بالقوّة في الغيب وبعده في الشهادة، فإذا كان بعده في الشهادةِ كان قبله في الغيب بل هو عينُ الكونِ الأوّل، وإنّما كان ما بالفعل قبل ما بالقوة في الغيب لأنه أوّل كون الشيء وهو أقرب إلى المبدأ، ولا جائز أنْ يكون الأقرب إلى المَبْدأ ما بالقوة وإلاّ لكان الأقرب إلى المبدأ أضعف لأنّ ما بالقوة أضعف فيلزم أن يكون كلّما بعد عن المبدأ أقوى وهذا خلف، وإنما

كان ما بالقوة مُتقَدماً على ما بالفعل في الزمان لأنّ أول الفيض ما بالفعل وكلما بعد عن المبدأ ضعف وخفيت روحانياته وكمنت في باطنه لأنّه في قوس النزول يقرب من الزمان، وما يلي المبدأ في الدهرِ وما بالفعل دهري لا زماني فكلّما نزل كمنت الدهريات وأخذت الزمانيات في القرب من الظهور حتى يصل الموجود إلى الزمان فتكمن الدهريات التي هي بالفعل في الزمانيات فتكون بالنسبة إلى ظهورها بالفعل في قوس الصعود بالقوة لعدم وجودها بالفعل، فالعقل الذي هو بالفعل منذ بَرز هو بالفعل فلمّا تنزل أخذ في البُطونِ إلى أن وصل إلى النطفة فكان فيها بالقوّة وهي أول درجةٍ له في الصعود والأخذ في القرب من الظهور إلى فعليّته، وفي العلقة أقرب وفي المضغة والعِظَام فإذا كسي لحماً وتمت الخلقة كانت النفس الفلكية الحيوانية التي هي آخر يقظة العقل بالفعل، فإذا نشأ المولود وعقل كان عقله الآن بالفعل وهو عين كونه بالفعل قبل نزوله إلى النفس في قوس النزول، وهذا معنى قولنا أنّ ما بالفعل قبل ما بالقوة في الدهر وبعده في الزمان، فإذا كان بعده في الشهادة أي في الزمان كان قبله في الغيب أي الدهر بل هو عين الكون الأول ، ومرادنا بقولنا بخلاف ما بالقوة المتعارفة... إلخ، هذا لأنّهم يتكلمون على حكم القوس الصعودي في الزَّمان، ومرادي بقولي وفائدة الفتنة إظهار ما بالقوة بالفعل وفسرت هذه القوة بالإمكان أنَّ الإمكان الّذي مفهومه تساوي طرفيه بالنسبة إلى الممكن لأن الله تعالى أمْكنه بفعله هكذا فَلهُ لِحاظانِ، أحدهما في نفسه وهو تساوي الطرفين والآخر بالنسبة إلى الممكن وهو هنا يترجح فيه أحد الطرفين، لأن الممكن قبل كونه ليس شيئاً ويكون حين يكون مرجحاً لأحدِ مَيليهِ، إذ ميله إلى طرف دون الآخر إنما هو بالاختيار لأن

الآخر له كما أن ما مال إليه له أيضاً ولكنّه يقدِّر للترجيح مُرجحاً فيرجّح هذا الطرف الذي مال إليه بما يقدره ويتخيل راجحيّته وإن كان عنده مرجوحاً في نفس الأمر مثل أن يتخيّل قرب نفع ما رجّحه وإن كان فيه ضرر ويغمض فيه بملاحظة هذا النفع الحاضر عما فيه من الضرر مع علمه بذلك وبحسن ما لم يرجحه وبسلامِتَه من الضرر وذلك لسُوء نظره لنفسه، وقد يحسن النّظر لنفسه فيرجّح ما فيه السلامة والظفر، وهذا هو الاختيار بدون الاضطرار لأنه إنّما هو لغرَضه ولو شاء ترك، وكل ما سمعت من الترجيح ممّن أحسن أو أساء إنما هو مع تكوّنه حين كوّنه الله تعالى لا قبله إذْ هو قبل التكوين ليْس شيئاً فلا يُسْند إليه شيء فكما أنّه جائز الطَرَفَيْنِ ليَصحّ اخْتِيَاره لا يرجّح إلا بِأحَدِ جائزَيْنِ ولا يُكلف إلاّ بِأحَدِ جائزَيْنِ ولا يخاطب إلا بِأحَدِ جائزَيْنِ وَكُل ذلِكَ بالتّخيير ليصح الاختيار فإذا صدر من الفعل اختراع التكوين ظهر به المكون على ما اخْتارَهُ حين كوِّنَ، فالفِتنة لهذا المكوّن ليخرج ما في إمكانه حين التكوين إلى الفِعلِ أنْ يرد عليه الخطاب بما يُطْلبُ منه كمثل ما لا يطلبُ منه ولا يمنعه عن مَيْله إلى شهوة نفسِه حين وُجدَ ما قُدّم إليه من أنواع التّرغيب والتَرهيب لعَرْضِها عليه بالتخيير كما قال تعالَى(أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ)بل يكون ذلك باعثاً على ما يتخيّل ترجيحه في مَيْله مُحِقّاً أوْ مُبْطِلاً لتكليفه بأحد جائزين وخطابه بأحد جائزَيْن بغير منع للآخر ولأنّ ما مال إليه هو مختار في تركه لو شاء، لتمكنه من ضدّه كتمكنه منه، بل التكوين إنّما هو مادّته وصورته إنما هي ما مال إليه إذ ذلك صورة إجابته، فافهم فقد فصحتُ لك من سرّ القدر فهذه الفتنة ممّا آمنهم الله منها بالعصمة التي هي حقيقة ما هم أهله، فلما كان زيتهم الذي هو قابليتهم يكاد يضيء قبل الإيجاد أي يكادُ يقول بلى

قبل أنْ يقال لهُ ألسْتُ بربّك كان ألسْتُ بربِّك خطاباً له بها أحَب فقد اتفقَتْ محبّة الفاعل ومحبّة القابل فيكون الفاعل في سُؤَالِه لَهُمْ إنّما هُوَ لرَفْعِ درجاتهم بتكليف الإيجاد لا للاختبار.

قال عليه السلام وطهركم من الدنس وأذهب عنكم الرجس أهل البيت وطهركم تطهيرا

الطهارة نقيض النجاسة وتطلق على الأعم من إزالة الخبث، وتستعمل في إزالة الخبث والوسخ ورفع الحدث والقرائن تُميز بينها وفي قوله تعالى (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ)قيل معناه أصلح عملك، فهي بمعنى الإصلاح، والعمل صفة المكلف فهو ثوبه الذي يستره أو يكشف عورته ومنه قوله تعالى (فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا)، أو بمعنى التقصير أي وثيابك فقصر أو لا تلبسها على فخر وكبر فالثياب هنا القلب، لأن التكبر في القلب قال تعالى (كَذَلِكَ يَطْبَعُ الله عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ)، والثّياب يطلق على القلبِ كما قال امرؤ القيْس فسُلي ثيابي من ثيابِكِ تنسلي، أي فسُلي قلبي من قلبكِ، وقول الشاعر فشككتُ بالرمح الأصم ثِيابَهُ أي قلبَهُ، أو بمعنى اغسل ثيابَك بالماء، وقيل على هذا كني بالثياب عن القلب، أو بمعنى لا تكن غادراً فإنّ الغادر دنس الثياب يعني القلب، وفي قوله تعالى (فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَالله يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ)وقيل هنا المراد بها الطهارة من الذنوب والأكثر على أنها الطهارة من النّجاسة لقول الباقر والصّادق عليهما السلام (إنّها نزلت في أهل قبا وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال لهم ماذا تفعلون في طهركم فإن الله قد أحسن عليكم الثناء فقالوا نغسل أثر الغائط)ولا منافاة بينهما في قوله تعالى (إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ)أي ينزهون أديانَهُم وأعراضهم عن أدبارِ الرجال والنساء وذلك تهكم منهم بآل لُوطٍ عليه السلام .

وفي قوله تعالى(وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ)أي ينقطع دمهن يعني ينْقَينَ وهذا على قراءة التخفيف، وأما على قراءة التشديد فالطهارة بمعنْى الغسل.

وفي قوله تعالى(وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ)أي من الحيض والحدث والدنس وسوء الخُلق ومن مَد نظرهن إلى غير أزواجهِن ومن مس غير أزواجهن.

وفي قوله تعالى (يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً)أي عن أن يمسها إلا الملائكة المطهّرون، أو عن التغيير والتحريف والتبديل والباطل، أو عن درك غير المؤمن، أو عن تأويل المبطلين بمعنى أنهم إذا احتملوا في آيةٍ منه باطلا أبطلت احتمالهم آية منه أخرى فلا يقدر أحد على تغييره.

وفي قوله تعالى (وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء طَهُورًا)يعني نظيفا يزيل الخبث ويرفع الحدث الأكبر والأصغر.

وفي قوله تعالى (وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا)والمراد بالشراب الخمر وهو في الدنيا رجس كما قال تعالى (إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ)والرجس هو النجس لأنّه يصد عن ذكر الله وعن الصلاة ويوقع البغضاء والعداوة بين الناس، وهذه نجاسات خبيثة من عمل الشيطان، فأخبر سبحانه أن الخمر في الآخرة طهور لأنّه إذا شرِبَهُ المؤمن أحدث له الصحو الذي لا يكاد يوصف فيعلم بسببه ما لم يكن يعلم ويجد من محبة إخوانه وأزواجه وولدانه في نفسه ما لا يوصف، ويتّصل بشربه ذلك بمراتب من المعارف والتلذذ بمناجاة الله والانغماس في مراضيه ما يحتقر عندها جميع لذات الجنّة لأنه يحصل له صحو يكاد يتصل به الوجود المطلق فلهذا قال تعالى (شَرَابًا طَهُورًا) كما أنَ خمر الدنيا يوصله إلى تلك النجاسات فهو بعكسه.

والدنس لغةً الوسخ وهو يستعمل في دنس النسب مِنَ الزِّنا والنكاح بغير طيب النفس وبالمهر الحرام وبالشبهة، بل ومن الدنس ما يلحق أم الزوجة وأباها وأخواتها وخالاتها وعمّاتها، ومن الدنس الزنا إلى سبعة آباء فورد (ولد الزنا لا يطهر إلى سبعة آباء)ومعناه أنه إذا كان الأب الأول ولد زنية والأولاد الستّة ولد رشدة فالأخير منهم ليس بطاهر بمعنى أنّ نطفته التي توَلّد منها ليَسْتْ بطَاهِرَةٍ، وبيانه أنّ وَلدَهُ الأول الذي هو أولُ السِتّة طَهُرَ بالعقد الصحيح عقلهُ، والثاني طهر بالعقد الصحيح عقله ونفسه، والثالث بالعقد الصحيح طهر عقله ونفسه ولحمُه، والرابع بالعقد الصحيح طهر عقله ونفسه ولحمُه وعظمه، والخامس بالعقد الصحيح طهر عقله ونفسه ولحمُه وعظمُه ومضغته، والسادس بالعقد الصحيح طهر عقله ونفسه ولحمه وعظمه ومضغته وعلقُته، وهذا الولد السادس لابن الزّنا آخر نجاسَتِه لأن نطفته التي توَلد منها ليست بطاهرةٍ، والسابع بالعقد الصحيح طهر كله عقله ونفسُه ولحمُه وعظمُه ومُضْغَته وعَلقَتُه ونطفتُه.

وبيان آخر أن الولد الأوّل تطهر نفسه والثاني نفسه ولحمه والثالث نفسه ولحمه وعظمه والرابع نفسه ولحمه وعظمه ومضغته، والخامس نفسه ولحمه وعظمُه ومضغته وعلقتُه، والسَّادس نفسه ولحمه وعظمه ومضغته وعلقته ونطفته، والسّابع طهر كُلّهُ لأنَهُ في نفسه طاهر وقد تَولد من طاهرٍ فهو نجيب فقوله (لا يطهر إلى سبعةِ آباء) يحتمل أن يكون السَّابع خارجا عنهم لأنّه الغاية، فإن قلنا بخروجها كان نجيباً وَإنْ قلنا بدُخولها فإنْ أُريدَ دُخول الأوّل الذي تولّد من الزنا في هذه السبعة فلا شك في عدمِ طهارته، وَإلاّ فهذا السابع يكون نجيباً ويعرف ذلك بخروجه من دليلٍ آخر وإن قلنا بدخول الغاية مع الجهل بالقرينة.

ومن الدنَس ما قد يلحق العقَل والنفس والجسم في أمور المعارف والمعتقدات

والأحوال والأعمال والأقوال من الريب والشك في العقل الذي هو مقرّ اليقين والاستقامة والثبات والطمأنينة، ومن الجهل والغفلة والسهو والنسيان في النفس التي هي مقر العلم والحفظ والتذكر والتخيّل ومن مباشرة الشهوات وترك الأعمال واستثقالها وطلب الرّاحات في الجسم الذي هو محلّ الأعمال على اختلاف أحوالها. ومن الدنس الريب وهو أول الشكّ والميل إلى التردد وقد ينشأ عن الفرض ثم الاحتمال والتجويز فإذا حصل ذلك للقلب غير ماقتٍ لهُ ولا مستوحش منه انقلب شكّاً وهو على الأصح التردد بين الطرفين بين الحق والباطل فيميل إلى الحقّ بوجوده ويعرف حقيته بفطرته ويميل إلى الباطل بماهيته ولا ينكر بطلانه بفطرته التي ارتدّ إليها لما غيّر فطرته الأولى وبدّل خلق الله، لأنه حين عصى وعمل بخلاف ما علم حدثت له الفطرة الثانية المخلوقة بمعصيته وهو قول الصّادق عليه السلام (وإذا لم يرد الله بعبده خيرا وكَلَهُ إلى نفسِه فكان صدره ضيّقاً حرجاً)فإن جرى على لسانه حق لم يعقد قلبه عليه وإذا لم يعقد قلبه عليه لم يعطه الله العمل به، فإذا اجتمع ذلك عليه حتّى يموت وهو على تلك الحال كان عند الله من المنافقين وصار ما جرى على لسانه من الحقّ الذي لم يعطه الله أن يعقد قلبه عليه ولم يعطه العمل به حجة عليه وقول الرضا عليه السلام في قوله تعالى (وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلهُ يَجْعَل صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا)قال(ومن يرد أن يضلّه عن جنته ودار كرامته في الآخرة لكفره به وعصيانه له في الدنيا يجعل صدره ضيقاً حرجاً حتى يشكّ في كفره ويضطرب من اعتقاده قلبه حتى يصير كأنما يصعّد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون)وهذا مآل الشك لأنّه يؤدي إلى الكفر، ولذا قال أمير المؤمنين عليه السلام (لا ترتابوا فتشكّوا ولا تشكّوا فتكفروا)هـ.

لأن الرّيب مبدأ الشك والشك مبدأ الكفر.

ومن الدنس النفاق وهو إظهار الإسلام أو الإيمان وإبطان الكفر لا بمعنى أنهم لا يعلمون ما الإيمان بل بمعنى أنهم يعلمونه ويجحدونه، يعلمونه بالفطرة الأولى فطرة الله ويجحدونه بالفطرة الثانية فطرة الشيطان التي حدثت من تغييرهم فطرة الله بأمر الشيطان كما حكى الله عنهم (وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلقَ الله)وذلك قول الله تعالى (وَجَحَدُوا بِهَا) أي بولاية محمد وعلي وآلهما صلى الله عليهما وآلهما الطاهرين (وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلمًا) لآل محمد حقهم (وَعُلُوًّا)عليهم أي طلباً للعلو عليهم.

وقال أبو الحسن عليه السلام في المنافقين (ليسوا من الكافرين وليسوا من المؤمنين وليسوا من المسلمين يظهرون الإيمان ويصيرون إلى الكفر والتكذيب لعنهم الله تعالى).

أقول : قوله عليه السلام (ليسوا من الكافرين) يعني ظاهراً لإظهار كلمة الإسلام وإلاّ فهم كفار كما قال عليه السلام (وليسوا من المؤمنين وليسوا من المسلمين) فإذا لم يكونوا مؤمنين ولا مسلمين كانوا كافرين، ولذا قال (ويصيرون إلى الكفر) بل هم أشد وأسوأ حالاً من الكفار ولهذا قدّمهم الله تعالى في ذكره إدخالهم النار قال تعالى (إِنَّ الله جَامِعُ المُنَافِقِينَ وَالكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا)وقدمهم على المشركين قال تعالى(لِيُعَذِّبَ الله المُنَافِقِينَ وَالمُنَافِقَاتِ وَالمُشْرِكِينَ وَالمُشْرِكَاتِ)الآية.

ومن الدنس وقف القلب فقد تمر عليه ساعة في ليل أو نهار يكون فيها واقفاً وهو سهوه ويكون من الملاَلِ إذا كان ذكره لله تعالى لغرض دنيوي أو أُخْرويّ وقد يكون من اشتغاله بما لا يعنيه وأمثال ذلك من كل ما ليس لله، فإن كانت علّة وقفه لطخَ أهل الباطل فمن فضل الله سبحانه أن ينكت فيه ما شاء من الإيمان

بعد ذلك إن شاء، وإن كانت علّة وقفه ذاتيّةً فمِنْ عدْلِه عزّ وجل أن ينكت فيه ما شاء من الكفر بعد ذلك إن شاء، وفي الكافي عن الشحّام قال (زاملتُ أبا عبدالله عليه السلام قال فقال لي اقرأ فافتتحتُ سورة من القرآن فقرأتها فرَق وبكى ثم قال عليه السلام : يا أبا أسامة ارعوا قلوبكم بذكر الله تعالى واحذروا النكتَ فإنه يأتي على القلب تارات أو ساعات الشك من صباح ليس فيه إيمان ولا كفر شبه الخرقة البالية أو العظم النّخِر يا أبا أسامة أليس ربما تفقّدت قلبك فلا تذكر به خيراً ولا شرّاً ولا تدري أين هو قال قلتُ له بلى إنه ليُصيبني وأراه يصيب الناس قال أجل ليس يعرى منه أحد قال فإذا كان ذلك فاذكروا الله تعالى واحذروا النكت فإنه إذا أراد بعبدٍ خيراً نكتَ إيماناً وإذا أراد به غير ذلك نكت غير ذلك قال قلتُ وما غير ذلك جعلتُ فداءك ما هو قال إذا أراد كفراً نكت كفراً)هـ .

أقول (النكث) بالمثلثة أخيراً نقض العهد وفي بعض النسخ بالمثنّاة وعلى المشهورة يكون المعنى أن الله قد أخذ عليكم أن تذكروه في الضمير والعمل والقول ولا تكونوا من الغافلين فأعطيتموه العهد من أنفسكم وأشهد عليكم أولياءه وملائكته فلا تنقضوا ما عاهدتم عليه فينكث في قلوبكم بنقضِكم ميثاقكم كفراً ، وعلى النسخة الأخرى يكون المعنى احذروا أن ينكتَ في قلوبكم بغفلتكم كفرا ، وقولنا إن كانت علة وقفه من لطخ أهل الباطل فمن فضل الله سبحانه أن ينكت فيه ما شاء من الإيمان ... إلخ، لا نريد به أنّه ينكت في قلبه حين وقفه وإنّما نريد أنه حين النكت تميل ذاته أي وجوده إلى الإيمان فينكت بذلك ما اقتضاه وجوده بميله من مراتب الإيمان ويلزم ميل وجوده إلى الإيمان ميل ماهيّته إلى الكفر، فبترجيحه ميله إلى الإيمان مع تساويهما بالنسبة إلى ذاته المركبة

منهما نكت اللهُ في قلبه ما شاء من الإيمان، وبالعكس في نكت الكفر، فالمراد بهذا الوقف عدم الترجيح لأحد الطرفين ويسمّى سهو القلوب فإذا استقل كلّ ميل إلى ما يناسبه ولم يستقر عليه بل ينتقل النظر إلى ضده مستقلا وينتقل عنه إلى الآخر قبل استقراره وهكذا فهو الشكّ والفرق بين الشك وبين الوقف عدم الاستقلال، هذا ما يجري عليه الصنع من لدن العقل والنفس الأمّارة لأن ميل الوجود بالعقل والماهية بالنفس الأمّارة ولهذا قال عليه السلام (فإنه يأتي على القلب تارات أوْ ساعات الشكّ) وكون القلب في تلك الحال لا يذكرُ به خيراً ولا شرّاً ولا يَدري أَيْنَ هُوَ لا يَلزَمُ مِنْهُ عَدمُ مَيْلِه إلى شيءٍ من الطرفين لأنّ ذلك لا يمكن في حقِّ المُحدَث لأنّه لا يَستغني عن المدَد في بقائه ولا ينتَفعُ بالمدد حال الوقف المفروض لو أريد به عدم الميل بالكلية لأن هذا المَيل هُوَ القابليةُ للمَددِ، فلا بُدَ للقلب من أحد أربعةِ أحْوَالٍ إمّا حال الثبات والمحض على الإيمان أو الكفر وإمّا حال الاستقلال في الميل بدون استقرارٍ بأن يتوجه إلى طرفٍ بكلّ ميله ولا يستقرّ عليه حتى ينتقل إلى ضده ولا يستقر على الضّد حتّى ينتقل إلى الأول، وهكذا وهو الشك، وأمّا حال ميله بصفة ذاته لا بها مع صفة فعلها بل بصفة وجوده إلى الخير وبصفة ماهيته إلى الشرّ، وهذا الميل بدون صفة الفعل الذي هو الانبعاث لا يذكر به خيرا ولا شرّاً ولا يدري أين هو وهو وقف في الظاهر لا في الحقيقة بل هو ميل ذاتي خالٍ عن الانبعاث الفعلي أي الباعث على الفعل من الجوارح أو من الجنان أي خالٍ عن انبعاث إلى اعتقاد أوْ إلى شك أو قولٍ أو عملٍ ، وأما حال السجود الحقيقي وهو سجود القلب بين يدي الله تعالى تحت العرش وهذه الحال أقوى أحوال وقف المخلوق فإنه لا يشعر بنفسه ومثاله كحال دخول الشخص

في النوم وحال انتباهه من النوم فإنه لا يشعر بنفسه في الحالين أبداً وهذا أقوى أحوال الوقف وهو في الحقيقة أسرع أحواله سيراً إلى اللهِ تعالى.

ومن الدنس الطبع على القلب بسبب المعاصي التي يأتيها العبد بعد العلم والقلب غير منكر لها وهذا قلب المنافق وهو قول الباقر عليه السلام (ما من عبد مؤمن إلا وفي قلبه نكتة بيضاء فإذا أذنب ذنبا خرج في تلك النكتة نكتة سوداء، فإن تاب ذهب ذلك السواد وإن تمادى في الذنوب زاد ذلك السواد حتى يغطي ذلك البياض فإذا غطّى البياض لم يرجع صاحبه إلى خير أبداً وهو قول الله عز وجل (كَلا بَل رَانَ عَلى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ).

أقول: المراد أنه كلّما أذنب ذنبا جراءة على معصية الله أو عدم مبالاةٍ بالذنب أو بالوعيد عليه خلق الله سوادا بذلك الذنب على الوجه الخاصّ بذلك الذنب من القلب وهكذا حتّى لا يبقى بياض في ذلك القلب وهو الرين المذكور في الآية الشريفة وهو الطبع في قوله تعالى (بَل طَبَعَ الله عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ).

فقوله عليه السلام (ما من عبد مؤمن) لا ينافي قولنا وهذا قلب المنافق لأنّ المنافق يسمّى مؤمنا بسبب إقراره بالشهادتين ظاهرا وهو قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ الله أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ)نزل في رجل من المنافقين.

وفي الكافي عن جميل بن درّاج عن أبي عبدالله عليه السلام قال إنَّ الطَيّار دخل عليه فسأله وأنا عنده فقال له جعلتُ فداءك أرأيت قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا) في غير مكان فهي مخاطبة المؤمنين أيدخل في هذا المنافقون قال نعم يدخل في هذا المنافقون والضلال وكلّ من أقرّ بالدعوة الظاهرة).

أقول : هذه الآية وسبب نزولها منافقٌ ثالث وهذه الرواية صريحة في المُدّعى فقوله تعالى(بَل طَبَعَ الله عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ)صريح في ما قلنا من أن الله خلق الطبع على قلوبهم بكفرهم وذلك لما قلنا مراراً مكرراً أن الله خالق كُلِّ شيء وكلّ مخلوق فيخلق من مادة وصورة، فمادة الطبع من نهيه سبحانه وصورته من مخالفة نهْيِه، كما أنه عز وجل يخلق نور القلوب وهداها من مادة أمره ونهيه والصورة من موافقة أمره ونهيه فقال (بَل طَبَعَ الله عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ) الذي هو مخالفة أمره ونهيه فافهم.

ومن الدنس نكس القلب وذلك أن الله سبحانه لمّا خلق العقل الكلّي وهو أول خلق من الروحانيين يعني الأربعة عن يمين العرش خلق ضدّه وهو الجهل الكلي من البحر الأجاج ظلمانياً، فكان في أسفل السافلين تحت الثرى لأنّه في مقابلة أعْلى عليّين مكان العقل وجعل في العقل رؤوساً بعدد الخلائق مَن وُلِد وَمَنْ لم يولد إلى يوم القيامة ولكل رأسٍ وجهٌ مكتوب عليه اسم صاحبه وكان في الجهل الذي هو ضده رؤوسٌ كذلك، ولما خلق الإنسان جامعاً خلقه من العقل والجهل فكان الإنسان مجمع العالمين، فكان فيه لجامعيته مِرْآتانِ إحداهما عن يمين قلبه وجهها إلى السماء مقابلة للرأس المختص بذلك الشخص من العقل وعلى ذلك الوجه غشاوة تكشف قليلاً قليلاً وكلّما انكشف بعض من ذلك الوجه أشرق نوره على تلك المرآة إلى أن يبلغ فينكشف كله على مرآة قلبه ويعرف الجيد والرديئ ويكلّف، وهذا النور المشرق هو صورة ذلك الوجه وشبَحُهُ وهو عقل ذلك الشخص، والثانية عن شمال قلبه وجهها منكوس على عكس الأولى إلى جهة الثرى مقابلة للرأس المختص بذلك الشخص من الجهل الأول الكلّي وعلى وجه هذا الرأس غشاوة على نحو ما في رأس العقل الكلّي والصورة المنطبعة منه

في مرآة الشمال هي قلب الكافر المنكوس وهو في الحقيقة ميت لأنّه لم يقبل الحياة من مولاه وهو نور الإجابة، فإن قبل نور الإجابة قلبَتْه ملائكة الرحمة المكتوبة وجعلت وجهه إلى السماء فذهبَتْ عنه صورة الجهل وانطبعت فيه صورة رأس العقل وإليه الإشارة بقوله تعالى (أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ)فحياته بالعمل فيكون العمل روحاً لتلك الصورة فإن لم يكن فهو ميت وهذا القلب المنكوس قلب المشرك لأنه لم يقبل نور الإجابة فبقي على أصل خلقته لإنكاره حين أجاب العقل وإنما كان في الأصل منكوساً لأنّ العقل ناظر إلى الجهة العليا يتلقّى المدد من ربّه والجهل ضده فهو ناظر إلى نفسه وإلى مكانه تحت الثرى (نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ) لأنه أنكر فانكبّ والعقل سبق فأصاب فضرب الله مثلهما فقال (أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ).

ومن الدنس قلب فيه نفاق وإيمان لأن فيه نكتة سوداء فالخير والشرّ فيه يعتلجان فأيهما كانت منه غلب عليه يعني حين مال إلى أيهما غلب فإن أدركه أجله على نفاقه هلك فإن أدركه على إيمانه نجى لأن الأجل يأتي بما الشيء عليه كما قال تعالى (وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ).

ومن هؤلاء معارون وهم مَنْ كانَتْ طينتهم خبيثة وأصابهم لطخ من المؤمنين وهؤلاء ينزع منهم اللطْخ يوماً ما فيرجعون إلى أصل طينتهم ، روى يونس عن بعض أصحابه عن أبي الحسن عليه السلام قال (إن الله تعالى خلق النبيين على النبوّة فلا يكونون إلاّ أنبياء وخلق المؤمنين على الإيمان فلا يكونون إلاّ مؤمنين وأعار أقواماً إيماناً فإن شاء تمّمه لهم وإن شاء سَلبَهُمْ إياهُ قال وفيهم جَرَتْ (فمستقرّ ومستودع) وقال لي إنّ فلانا كان مستودعاً إيمانه فلمّا كذب علينا سُلِب إيمانه ذلك).

أقول : أراد عليه السلام بقوله فلاناً محمد بن مقلاص المكنى بأبي الخطاب الغالي لعنه الصادق عليه السلام .

ومن كانت طينته طيبةً من هؤلاء وإنّما أصابه لطخ من الكافرين أو المنافقين، فذلك الذي في مشيّة الله تعالى أن يتمّم له إيمانه، وقولي في المقامين أصابَهُ لطخ مبنيٌّ على المتعارف لا على الحقيقة لأن الحقيقة في هذه المَسأَلة خَفيةٌ ولكني أشيرُ إلى وجه المسألة لأهلها وهو أن هؤلاء خلقهم الله بين المؤمنين والكافرين وهو ما رواه محمد بن مسلم عن أحدهما عليهما السلام قال سمعته يقوُل (إن الله تعالى خلق خلقاً للإيمان لا زوال لهُ وخَلقَ خلقاً للكفر لا زوال له وخلق خلقاً بين ذلك واستودع بعضهم الإيمانَ فإنْ شاء أن يتمه لهم أتمه وإن شاء أن يسلبهم إياه سلبهم وكان فلانٌ منهم مُعَاراً).

أقول : قوله عليه السلام (وخلق خلقاً بين ذلك) أي بين الإيمان الثابت والكفر الثّابت وليس ذلك لأنهم مركبون من الاثنين بل المراد أنّهم موقوفون عن الحكم عليهم ولهم حتى يقع منهم المقتضي من إيمان أو كفرٍ فيلحقون بحكم أهل ذلك المقتضي والذي يسلبه عنهم الصلوح للشقّ الآخر في الحكمة لا في الإمكان لأنه لا يسلب عنه أبداً.

ومعنى قوله (أتمّه لهم) أنه إذا كان منهم المقتضي لأحد الشقين لا يكون مستقلاً لإيجاد متعلقه وسلب خلافه بل ذلك شيء لله يقف على إرادته فإن أراد أتمه وإن لم يرد لم يتمه فالمستعار بهذا المعنى، وقد يعبّر عنه بالقلب الّذي فيه نفاق وفيه إيمان.

ومن الدنس حديث النفس والوسوسة وذلك لما كانت النفس في ذاتها مفتقرة لا

يمكنها أن تسكن عن طلب المدد إمّا بجهة وجودها من الخيرات والأمور المطابقة للواقع ومما ينبغي كما ينبغي، وإمّا بجهة ماهيّتها من الشرور والأمور المجتثّة والموهومة والباطِلة التي ليس لها قرار ولم تتعلّق بها أمر الله من طاعته وذكره ومعرفة صفاته، وجب أن تدور على شهواتِها من المعاصي في بعض أحوالها، وفي حال عدم اشتغالها تدور على نفسها وعلى عوالِمِها من جهة الماهيّة ودعاواها فتفرض حدوث القديم تعالى وقدم الحادث وفسق الأنبياء وإنكار الضروريات وأنواع السفسطة وأمثال ذلك، وأصل ذلك ومنشأهُ الغفلة عن ذكر الله تعالى وعدم الاشتغال بالطاعات والتكاسل عنها وطلب راحةّ النّفس والتَّوْسعة عليها، وربّما يكثر على النفس حتى يكون عادةً لها بحيث يحصل لها في حالة الطاعة وربّما تجري على المؤمن فيتألم منها ويتوهّم أنّها تضر باعتقاده وعلاجُها الإعراض عنها إذا عرضت والالتفات إلى ذكر الله ففي الكافي عن جميل بن درّاج عن أبي عبدالله عليه السلام قال قلت له(إنّه يقع في قلبي أمر عظيم فقال قل لا إله إلاّ الله قال جميل فكلّما وقع في قلبي شيء قلتُ لا إله إلاّ الله فذهب عني).

أقول : ومن العلاج العلم بأنّها لا تضرّ فإنه إذا علم ذلك لم يخف منها وإذا لم يخف منها لم يشتغل بالاحتراز عنها ويقل ذكرها فتذهب ففيه عن أبي عبدالله عليه السلام قال (جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال يا رسول الله هلكتُ فقال له هل أتاك الخبيثُ فقال لك من خلقك فقلتَ الله تعالى فقال لك الله مَن خلقَهُ فقال له أي والذي بعثك بالحقّ لكان كذا فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذلِكَ والله محض الإيمان، قال ابن أبي عمير فحدثّتُ بذلك عبد الرحمن بن الحجاج فقال حدثني أبو عبدالله عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنما عنى بقوله هذا والله محض الإيمان خوفهُ أن يكون قد هلك حيث عرض ذلك في قلبه).

أقول : وإذا علم أنه لا يضره واستعمل له الإعراض عنه إلى الذكر مثل لا إله إلا الله كما مر ومثل ما في رواية ابن مهزيار عن الجواد عليه السلام إلى أن قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (إنّ ذلك لصريح الإيمان فإذا وجدتموه فقولوا آمنا بالله ورسوله ولا حول ولا قوة إلا بالله) والمراد أنّه إذا وجد شيئا من ذلك ذكر الله وأعرض فإنه يذهب لأنّ الخبيث إنما يريد أن يطاع وهذه هي (النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا) إلاّ بالله لأن كيده ضعيف وإنما مثله (كَمَثَلِ الكَلبِ إِن تَحْمِل عَلَيْهِ يَلهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلهَث).

وَمِنَ الدَّنس أيضاً ما يعرض في العبادات والأقوال والأحوال من الغفلات والمناجاةِ والدّعاوى وغير ذلك وقد تقدّمت الإشارة إلى بعضها إجمالاً لأنّ ذكرها مفصلاً لا يكاد يسعه كتاب.

والحاصل أنّ كلّ ما أشرنا إليه وما لم نشر إليه من أشباهه من النّقائص التي تعرض للعقول والأرواح والنفوس والطبائع بل والموادّ والصور فإنّ الله سبحانه من عظيم فضله عليهم قد طهّرهم من جميع هذه الأدناس وغيرها بحقيقة ما هم أهله من النور والإخلاص والإقبال على الله في كلّ حالٍ حتى أنّه ورد عنهم عليهم السلام في قوله تعالى(وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ) أنّهم هم الّذين عنده وأنّهم هم الذين (لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُون يُسَبِّحُونَ الليْل وَاللهارَ لا يَفْتُرُونَ)ولهذا قال (وَسِرَاجًا مُّنِيرًا) و(سِرَاجًا وَهَّاجًا) أي ليس فيه شيء من الظلمة وقال تعالى (وَإِنَّكَ لعَلى خُلُق عَظِيم) فاختصّهم بما هم أهله كما قال تعالى (الله أَعْلمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالتَهُ) وقوله عليه السلام (وأذهب عنكم الرجس وطهّركم تطهيراً) الرِجس في قوله تعالى (كَذَلِكَ يَجْعَلُ الله الرِّجْسَ عَلى الذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ)هو

اللعنة في الدنيا والعذاب في الآخرة، وفي قوله (فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ) أي نتناً إلى نتنِهِمْ والمراد من النّتن الكفر أي كفراً إلى كفرهم والرِّجز والرجس واحد وهو العذاب، والرجس هنا هو ما في الآَية (إِنَّمَا يُرِيدُ الله لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ) لأنه اقتباس من الآية واستعير الرجس للذنوب كما استعير الطهر للتقوى لأن المقترف للذّنوب والقبائح يتلوّث قلبه وروحه ونفسه وحواسه وجوارحه وكل جسده وعِرْضه بالذنوب والقبائح كما يتلوّث بَدَنُهُ وثيابُهُ بالأرْجاس التي هي النجاسات والمجتنب لها تبقى تلك منه نقيةً طاهرة مصونةً من الأكدار كالثوب الطَّاهر النّقي من النّجاسات والأوساخ والطهارة تقدم مَعْناهَا.

وهذه الفقرة اقتباس من الآية والمراد منهما واحد وهو أن الله سبحانه قد أذهب عنهم الرجسْ الذي هو النجاسة الظاهرة والباطنة في كل رتبة من مراتب وجوداتهم وفي كل حالٍ من أحوال تكليفاتهم من جميع النجاسات ومن الكبائر والصغائر والمكروهات الظاهرة والباطنة ومنها ترك الأولى وكل ذلك لحقيقةِ ما هم أهْلهُ.

فإنْ قلت : إنهم عليهم السلام كثيراً ما يفعلون المكروهات ويتركون الأولى فكيف يكونون مطهّرين من كل دنسٍ لأن المكروهات وترك الأولى معاصٍ في حق مثلهم والقرآن مشحون بمثل هذا كما يصدر من الأنبياء المعصومين عليهم السلام ويحكم الله عليهم بالمعصية بذلك وقد ورد (حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين).

قلتُ : ما ورد أنّهم يفعلون ذلك فإنّه واجب عليهم لأنّهم المعلّمون للبشر ويحتاج كمال الأداء عن الله سبحانه أن يفعلوا ذلك لبيان الجواز فقد يكون القول غير كاف ومن كان عارفاً بمقامهم عند الله تعالى وبما هم عليه في نفس الأمر

يعرف أنّ أعمالهم وأقوالهم منحصرة في واجب وحرام، والواجب منه بالأصالة في التكوين وواجب بالطبع المستقيم للتكميل كسائر المندوبات إذا لم يقتض الأداء تركها لبيان الجواز، والحرام منه حرام بالأصالة لنفي المانع في التكوين وحرام بالطبع السليم للتكميل كسائر المكروهات إذا لم يقتض الأداء فعلها لبيان الجواز، ثم ما اقتضاهُ الأداء في الصورتين منه ما لا يكون الأداء إلاّ به فيلحق بالواجب أو الحرام الأصليين في العمل أو القول مع وجوب بيان جواز خلافه أيضاً في العمل أو القول، ومنه ما يكون أكمل في الأداء وقد لا يتوقف عليه وهذا يلحق بالواجب أو الحرام في التكميل أو اللطف بالمكلّفين فيقتضي الطبع المستقيم إيقاعه لطفاً بالرعيّة مع وجوب بيان جواز خلافه في القول أو العمل، وهذا كما يجري في الشرعيات يجري في الوجوديات (وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)فلا يعملون إلاّ الراجح عندهم عليهم السلام ولا يتركون إلاّ المرجوح عندهم عليهم السلام (لا يَسْبِقُونَهُ بِالقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ) وإنما قلنا إنه واجب عليهم أو حرام على ما أشرنا إليه من التفصيل لأنهم عليهم السلام ما ترك الله سبحانه حين أشهدهم خلق ما خلق وأنهى إليهم علمه وجعلهم أولياء ذلك شيئاً إلا أعلمهم علمه ولا يتجاوز العقل الكامل راجحا عرف رجحانه إلاّ عمله ولا مرجوحاً عرف راجحيّتهُ إلاّ تركه، وإنّما أكّد الفعل في الآية وفي هذه الفقرة لرفع ما عسى أن يتوهّم من أنّ (طهَّر) الّذي هو الفعل قد يكون رافعاً للنجاسة الظاهرة الخبثية دون الحدثية وقد يزيل صورة الخبثية دون حقيقتها أو حُكمها دون لونها أو جرمها ولونها دُون رائحتها وكذلك الحدثية وقد تكُونُ الطهارة مبيحة غير رافعة للحَدَثِ وقد تكون رافعة للحدث غير كاملةٍ كما لو توَضأ ولم يقرأ الأدعية المخصوصة فقد ورد أنه لا يطهر

منه إلاّ الأعضاء المغسولة وقد تكون كاملة ولم تكن مزيلةً لبعض الأوساخ الغير المانعة فإذا قال طهّر تطهيراً وأكّده بالمصدر أفاد حصول التّطهير على أكمل وجهِ وأصحّه في كل ما ينبغي فلما قال (إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) بتقديم الإرادة الدالة على كمال الاعتناء ولم يكتف بمعناها الذي يدل عليه يذهب ويطهّر دلّ ذلك على التّطهير من كلّ ما يحتمل ويفرض من حدث أو خبث أو دنس أو وسخ أو نقص أو ما لا ينبغي أو غير كمال ما ينبغي ظاهراً وباطنا كبيراً وصغيراً مما يكون عن القصد أو النسيان أو الغفلة أو السهو أو التقصير أو القصور أو عدم الرضا أو الجهل أو التردد أو الالتفات أو الشكّ أو الإنكار، وفي هذه الآية غاية الغاية في الطهارة والتطهير وكمال النهاية وقال عليه السلام ذلك عن قول الله وهو سبحانه طهرهم بعلمه وكفى به خبيراً بصيراً.

وعن مولانا الباقر عليه السلام (نزلت هذه الآية في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلي بن أبي طالب وفاطمة والحسن والحسين صلواتُ الله وسلامُه عليهم وذلك في بيت أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين صلوات الله عليهم ثم ألبسهم كساء له خيبريا ودخل معهم فيه ثم قال اللهم هؤلاء أهل بيتي الّذين وعدتني فيهم ما وعدتني اللهم أذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيرا، فقالت أم سلمة وأنا معهم يا رسول الله قال أبشري يا أم سلمة فإنّك إلى خير).

وعنه عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى أن قال (فقالت أم سلمة ألستُ من أهلك فقال إنك إلى خير ولكن هؤلاءأهلي وثَقَلي، وقال في آخرالحديث الرجس هو الشكّ والله لانشك في ربّنا أبداً).

وفي آخر حديث العيّاشي (ويطهّركم تطهيرا من ميلاد الجاهليّة).

وفي العلل عن الصادق عليه السلام (نزلت هذه الآية في النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين والحسن والحسين وفاطمة فلما قبض الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وآله وسلم كان أمير المؤمنين ثم الحسن ثم الحسين ثم وقع تأويل هذه الآية (وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ الله) وكان علي بن الحسين ثم جرت في الأئمة من ولده الأوصياء فطاعتهم طاعة الله ومعصيتهم معصية الله).

أقول: قد ذكر عليه السلام في هذه الفقرة جميع الأئمة عليهم السلام كما جرى عليه تأويل هذه الآية بنحو ما ذكر جده الصادق عليه السلام في هذا الحديث، والإشارة إلى بيان إرادة العموم من هذه الآية هو أنه لما كان فعل الله سبحانه جاريا على مقتضى القابليّه في كلّ شيء كان التطهير المشار إليه بكمال المبالغة والتطهير والتنزيه والتزكية على غاية ما يمكن أن ينبغي صادِرا من فَوّارة القَدرِ لما يحقّ له ويقتضيه من القابلية فكان ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعليّ وفاطمة والحسن والحسين صلوات الله عليهم ولم يكن غيرهم ممّن يصلح أن يكون قابلاً لذلك التطهير الخاصّ، فلمّا وجد علي بن الحسين وكان صالحا انبسط عليه فلما وجد الباقر محمد بن علي عليهما السلام وكان صالحاً انبسط عليه وهكذا إلى الحجة المنتظر عجل الله فرجه وسَهّل مخرجَهُ وانتهى ذلك التّطهير بانتهاء ما يصلح أن يكون قابلا من الإمكان إذ لا يحتمل الإمكان أزيد من هذا العدَدِ إلاّ بقلب الحقائق وتغيير الذوات ولو فُرِضَ قلبُ ما نزَل إلى هذا المقام لكان هو ذلك المعدود بذلك العدد فلا يكون إلاّ ما كان، وإنّما قلنا هنا في حقهم عليهم السلام فلا يكون إلا ما كان مع أنا نقول إنّ كل ما في الإمكان مما سواهم يصلح أن يكونَ مَعهُ غيره لخلوّ بعض من الإمكانات عما سواهم لأنهم عليهم السلام ملأوُا

أرْكان كلّ شيء فعلى كلّ فرض لا يكون إلاّ ما كان فافهم ، وما يوجد في الأوهام الباطلة ذلك فيه لحاظان أحدهما هو في نفسه وقد ملأوا أركانه بنسبة ما يستحق من الوجود والشيئِية، وثانيهما ما يريده المبطل منه وذلك ليس موجودا وليس بشيء مثاله كالسراب فإنّه في نفسه موجود وشيء ومن جهة ما يريد منه الظمآن من الريِّ وأنه ماءٌ ليس موجوداً وليس بشيء وهو قوله تعالى (وَالذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ الله عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَالله سَرِيعُ الحِسَابِ) .

قال عليه السلام فعظمتم جلاله وأكبرتم شأنه

قال الشارح : فعظمتم جلاله بالعقد والقول والعمل ولم يقع منهم ما يدل على عدمه من ارتكاب مباح وأكبرتم شأنه كالسابق أو أفعالُهُ.

أقول العظمة هي الكبرياء المعنوية واستعظم تكبر وأعْظَمَهُ وعظّمه تعظيما وقرَه توقيراً أي خَشَع لعظمته والعظمة تظهر بصفةٍ هي كنه الكبرياء فيستحقر مَنْ يشاهد نور تلك الصفة نفسه وكل شيء سوى الله ومنه ما روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما معناه أنه سمع رجلاً يقول ما شاء الله وشاء محمد صلى الله عليه وآله وسلم ما شاء الله وشاء علي فقال صلى الله عليه وآله وسلم لا تقل هكذا ولكن قل ما شاء الله ثم شاء محمد ما شاء الله ثمّ شاء علي عليه السلام إنّ مشيّة محمّدٍ في مشيّة الله كمثل الذبابة تطير في هذا العالم وإنّ مشيّة عليّ فى مشيّة الله كمثل البَعُوضة تطير في هذا العالم) .

أقول : إذا أردت أن تتخيّل هذه الصفة من أثر العظمة فأنا أمثّل لك بها تقرّب به إلى فهمك فأقول : إنّ نسبة ظاهرك إلى ظاهر العالم كنسبة باطنك وما تتخيّل

به إلى باطن العالم الذي هو أثر تلك العظمة وأنت إذا نسبت نفسك إلى جبل من الجبال التي على وجه الأرض رأيت جسمكَ أحقر من أن يوصف أو ينسب إلى الجبل، فإنك إذا رأيتَ شخصاً تحت الجبل وأنت بعيد عنه رأيته كالذرّة عند الجبل وأعظم الجبال إذا نسبته إلى الأرض وجدته بهذه النسبة والأرض جميعها إذا نسبتها إلى هود بن آيسة وهو النجم الصغير عند الوسطى من الثلاث النجوم المتأخرة من بنات نعش وهو المعروف بالسّها كان بقدر الأرض خمس عشرة مرّة على ما ذكره بعض علماء الهيئة مع أنّه من صغار النجوم لا يراه البصر الضعيف لصغره، وهو إذا نسبته إلى جميع العالم رأيته شيئاً في غاية الصغر والحقارة فإذا نسبتَ جسمك إلى جميع العالم ظهر لك ما يكادُ يتحقق من حقارة جسمك وصغرك، ونسبة غيبك إلى غيب جميع العالم كنسبة شهادَتِك إلى شهادته في الصّغر والضعف والحقارة وجميع العالم أثر من صفة تلك العظمة وذلك لأنّ العظمة التي هي الذّات المقدّسة لا تقدّر بقدر ولا تتوهّم بالأوهام ولا يعرف شيء كيف هو إلاّ بما دل عليه وقد دلّ على ذلك بما أظهر من آثار فعله وهذه العظمةُ المشارُ إليها المبحوث عن آثارها وصفاتِها هي عظمةُ فعله في آثاره ومشيّته، وهي الدّالّة على ما شاء من صفات عظمتِه وتظهر عظمة فعلِه في آثاره وجميع العالم آثاره.

فإذا عرفتَ أنّ غيب جميع العوالم آثار عظمة فعله وعرفت حقارة غيبك في غيوب جميع العوالم ظهر لك ما لا تقدر على وَصْفِ شيء منه من العظمة وقد جعل الله سبحانه محمّدا وآله ﷺ خزائن هذه الغُيوب فتعظيمُهمْ لِجَلالِ الله لا يساويه تعظيم شيء من خلقِ الله تعالى لأنّهم محال مشيته والكلمات التي ملأت أركان كل شيءٍ، بل بالاقتداء بهم والأخذ عن تعليمهم يعظّم الله تعالى ويقبل

ممن عظّمه تعظيمه إذا كان عنهم وبسبيل تعظيمهم وتظهر العَظَمَةُ بصِفةِ القدس فلا تظهرُ على قلب وفؤاد إلاّ ويرفع شأن الله ومقامَهُ عن كلّ ما في الإمكان من الذّوات والهيئات والأعمال من التسبيح والتقديس فلو قال قائل لا إله إلا الله والحمد لله مثلا فهو عند من ظهرت عليه هذه العظمة بالاعتبار الثاني منزّه عن ذلك التهليل والتحميد فعلى الاعتبار الأوّل يؤوّل قوله تعالى (سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ) وعلى الاعتبار الثاني يؤوّل قوله تعالى (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ) يعني بدون استثناء كما وقع في الآية الأولى، وأمّا ما مجَّدَهُ به المرسلون وعباده المخلصون بما يليق بجلاله فإنما هو مقبول لعدم قدرتهم على أزيد منه فهو ينسب إليه تعالى بالنسبة إلى حالهم وقدرتهم وأمّا بالنسبة إلى مقامه تعالى فهو منزه عنه والمرسلون ممدوحون بما فعلوا ممّا هو منزّه عنه فأبان عن مدحهم على ذلك بقوله تعالى (وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ) بعدما نزّه نفسه عن وصفهم وما أثنوا به عليه تعالى ثم حمد نفسه بنفسه بعظيم الثناء بأنه لا يليق به وصف واصفٍ إلا ما وصف به نفسَهُ بنفسه لا بغيره فقال (وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ).

والجلال العظمة أو بمَعْنَاها على الاعتبار الثّاني فإنّه في قوله تعالى (تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ) كذلك بقرينة الإكرام فإنَّهُ بعطف الإكرام عليه المقتضي للمغايرة يدل على إرادة معنى العِزةِ منه وما وَرَدِ في تفسير قول الله عزّ وجلّ أي (استولى على ما دقّ وجلّ) بمعنى أنّ عزّ بمعنى دَق وأنَّ جَلّ بمعنى عَظُمَ فهو بالاعتبار الأوّل للعظمة، وإذا قلتَ يجلّ عن أنْ تحيط به الأوهَام فهو بمعنى يعظم على الاعتبار الثاني.

ثم إن الجلال قد اختلف فيه في اصطلاح أهل العرفان هل يراد منه نور الجمال والجمال نور الذات أم الجمال نور الجلال والجلال نور الذات وأعْلى الحجب مع ظهورآثار القهر عنه في الاعتبارين، والأولى أن نقول إذا لوحظ فيه معنى العزّة والقدس كان إطلاقه على نور الذات أولى والجمال ضياء الجلال وإن لوحظ فيه معنى العظمة بالاعتبار الأول جاز فيه أنْ يُقَال أنه نور الجمال وأنّ الجمال نور الجلال، ولا يُنافيه ظهوره بالقهر لأنّ لجماله جلال ولجلاله جَمَالٌ والفاء في قوله عليه السلام (فعظمتم) للتفريع لأن تعظيمهم لجلاله وما بعده متفرّع على ما تقدم من قوله (اصطفاكم بعلمه وارتضاكم لغيبه ... إلى آخره) فيكون تعظيمهم لجلالِهِ بمشيته من الجهة التي ذكرها عليه السلام من الاصطفاء والارتضاء والاختيار والاجتباء والإعزاز والتخصيص والانتجاب والتأييد والرّضا، وإذا كان كذلك كان على وفق محبّته كما يشاء ويريد فليس بعد ثنائه على نفسه بنفسه ثناء أخص ولا أعمّ ولا أكمل ولا أشمل مِن ثنائهم عليه أنه بكل لسانٍ وبكل لغةٍ في كلّ رتبةٍ فعظّموا جلاله بأنفسهم حيث لم يَخْلُقِ الله غيرهم فلما خلق خلقهُ علّمُوهُمْ الحمد والثّناء فعظموا جلاله بما خَلقَ وفيما خلق حتّى عُبِدَ الله في أرضه وسمائه بدعائهم إلى الله وبهداهم إلى رضاهُ فكان ذلك التعظيم لجلاله سبحانه بما عقدت عليه الضمائر وانطوت عليه السرائر وبما نطقت به الألسن وعبدت به الحواسّ والجوارح والأركان بحركاتها وسكناتِها ونُموِّها وذُبولها وتفرّقها وافتراقها واجتماعها وأعمالها وأقوالها وأحوالها على نحو ما أشرنا إليه سابقاً وهم عليهم السلام على ذلك كله الولايةُ والقيّوميّة(إن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ

وَالأَرْضِ إِلا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ

القِيَامَةِ فَرْدًا) وحيث كانوا أول الخير وآخره ومعدنه ومأواهُ ومنتهاه كانوا هم الدعاة إلى الله وهم دعوة الحق وسبّاق الخلق والهداة إلى الحق والخلق بهم يهتدون (يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لهُ وَخَشَعَت الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إلا هَمْسًا) اللهم صل على محمد وآل محمد.

قال عليه السلام وأكبرتم شأنه

أكبر بمعنى أعظم أي جعله في نفسه عظيماً وهذه العظمة على الاعتبارين السابقين وأكبر بمعنى أعظم في اعتبارَيْه، والشأن هو الأمرُ والحال والمقام ومعنى أنّهم أكبروا أمرَهُ أي أعظموا ما يحدثه من أفاعيله وأحكام مقاديره وحكيم تدابيره في أنفسهم، بمعنى أنهم إذا تدبروا في مصنوعاته وما هي من لطيف الحكمة مع اشتمالها على الآيات الدّالاّت على تقدس ذاته وتوحد صفاته وأسمائه وتجليات إراداته مع عجيب من التعريف وبديع من التوصيف بغير تكييف ولا تحديد على أكمل ما يمكن مع البيان في الاستدلال بما يقصر عنه المقال وجدوا فيه من الحكم والأسرار ما لا تدركه الأبصارُ ولا تقدّره غوامض الأفكار ووجدوا صنعاً متقناً عن علم محكم وأمر مبرم يشهد للرَّبّ بالوحدانيّة والتفرّد بالصنع الأكمل الأتَمّ، وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله تعالى (كُل يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) وقد قيل وما ذلك الشأن فقال (من شأنه أن يغفر ذنبا ويفرج كربا ويرفع قوما ويضَعُ آخرين).

وروى القمّي قال (يحيي ويميت ويرزق ويزيد وينقص).

وروي أيضاً أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا قرأ قوله تعالى (وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ) الآية

يبكي بكاءً شديدا وذلك من عظم ما يرى من شأن الله الذي يحدثه، وأما الحال فإن الله لا يُعلم كيف هو في سر ولا علانية إلا بما دل عليه من آثار أفعاله فلما رأوا عليهم السلام الأمثال التي ضربها للخلق وعقلوها وجدوا فيها آيات قدرة لا تتناهى وعلم لا يغايا وكرم لا يحد وجود لا ينفد وفضل سرمد وفيض ومدد وغناء مطلق وبقاء محقق، فما نظروا في أية حالة من أحوال صفاته إلا وجدوا ما تهيم فيه الأفكار وتنحسر دونه الأبصار حتى قال سيدهم الأفخر ونبيهم المطهر محمد صلى الله عليه وآله وسلم (اللهم زدني فيك تحيرا)، وذلك لما ظهر له مما لا يكاد يهتدي إليه سبيلا إلا بتعليم الله سبحانه وهو قوله تعالى (وَعَلَمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ الله عَلَيْكَ عَظِيماً) لأنه كلما علمه ما يتحير فيه تجلى له بما يحيره ، فإذا تحير فيه تفضل عليه بعظيم من عطائه وعلمه إياه وهكذا وليس لهذا السر نهاية ولا لهذا التحير غاية ، وليس ذلك إلا لعظيم حال الربوبية المتقدس عمن دخل في الإمكان، فيكبرون هذا الشأن الذي هو حال العظمة والسلطان على الوجهين السابقين.

وأما المقام فإنهم عليهم السلام لما أشهدهم الله خلق أنفسهم ووجدوا ألا حقيقة لهم ولا لأحد مما سوى الله عز وجل إلا ما تعرف لهم به من وصفه لهم فحقيقتهم ذلك الوصف لا غير وكان سبحانه ولا وصف ثم أقام بفعله الوصف بنفسه ، فالوصف إنما هو شيء بما شيئه سبحانه وتعالى علموا أنهم هم وسائر الخلق (لا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا) وكما قال عليه السلام في الدعاء (ليس لنا من الأمر إلا ما قضيت ولا من الخير إلا ما أعطيت) وأنه يجب عليهم منه ويجب منهم له جل وعلا أنهم لا يأتون إلا ما له منهم ولا يطلبون إلا ما لهم منه كما أنهم ليسوا إلا عنه وبه ومنه وله وإليه وخافوا

مقامه وأماتوا أنفسهم في رضاه ومحوا اعتبار إنيتهم في أمره ونهيه ، فأكبروا مقامه على الاعتبارين السابقين وذلك لأن الله عرفهم أنفسهم في كتابيه التدويني والتكويني فأنزل عليهم في كتابه التدويني (وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا)، أي ذوي شيئية وتحقق وشعور بما يفعل بهم (وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ)(وَهُمْ رُقُودٌ) ، أي لا شيء إلا تشييئنا لهم القائم بفعلنا قيام صدور (وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ اليَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ) أي نيسرهم لما خلقناهم له من طاعة ومعصية وخير وشر وسعادة وشقاوة وبقاء وفناء وغنى وفقر وصحة وسقم وعلم وجهل وسرور وحزن وحركة وسكون و نطق وسكوت ورضى وغضب وحياة وموت وجنة ونار (وَكَلبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالوَصِيدِ) ، الكلب الغضب المكالب على دعوى الإنيّة باسط ذراع وجوده وذراع ماهيّته أي يدي مادته وصورته بفناء الكهف المأَوّلِ بالقلب أو بباب فوّارة النور.

وفي تفسير الكاشي (وَكَلبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ) أي ناشرة قوّتيها الغضبيّة والشهوانيّة (بِالوَصِيدِ) أي بفناء البدن ولم يقل (وكلبهم هاجع) لأنّها لم ترقد بل بسطت القوتين في فناء البدن ملازمة له لا تبرح عنه والذراع الأيمن هو الغضب لأنه أقوى وأشرف وأقبل لدواعي القلب في تأديته والأيسر هو الشهوة لضعفِها وخسّتِها.

أقول : تأويله على خلاف تأويلنا لتقريره اليقظة في الرُّقُود ونحن نقول إنما هو بالظنّ وفي بادئ الرأي (لوِ اطَّلعْتَ عَليْهِمْ لوَليْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا) أي لو أشرفتَ ببصيرة فؤادك على حقيقتهم لوجدت أنك أشرفت على غير شيء وعلى غير ثباتٍ ولا ثابتٍ و(لوَلّيت) ممّا ليس بشيء فِراراً إلى الشيء الثابت الذي هو المفزع

والملتجى ومقوّي الضعفاء ومغني الفقراء (وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا) أي ولمُلِءَ صدرك خوفاً، لأنّك اعتمدت على غير شيء وتوهّمْتَ ثبات غير ثابتٍ لأنّك طَلبتَ الرِّي من السَّراب والبَلل من التّراب والتجأت إلى غير ربّ الأرْبَاب ، وأنزل عليهم في الكتاب التكويني أنْ خَلقَ صورة الشَّخْص في المرْآة المُقابلة له شبحاً ومثالاً له بدناً لا روح فيه معلّقاً بظهور الشخص له به، فالصورة ليست شيئاً إلاّ ظهور الشخص بها بكينونة ظاهريّته التي هي مقابلته لها لأنّ مادّتها هيئة صورته وظهورها وصورتها التي هي هيئة قابليّتها لذلك الظهور بها بالانطباع هي هيئة المرآة ولونها ومقدارها وصقالتها وتلك المادة صفته وهي له ووجودها هو ظهوره لها بها وحركتها وسكونها نور حركته وسُكُونه بل ليْسَتْ شيئاً غيرهُ وملكوتها وملكوت جميع صفاتها وأحوالها بيد الشخص التي هي ظهوره لها بها.

فلمّا عرّفهم أنفسهم بهذين وما أشبههما كالنور من السّراج والأصوات من المتكلم والصَّدا من الصوت والإبصار «بكسرة الهمزة» والإسماع والسماع والأفهام والأوهام والتخيلات والعلوم والعقول وما أشبه ذلك عرفوه حقّ ما يمكنهم من معرفته كما نقل أو نسب إلى علي أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال:

اعتصامُ الـورى بمغفرتِـكْ
عجز الواصفون عن صِفتِكْ
تُـبْ علينـا فإنّنـــا بشَــر
ماعرفنـاك حـقّ معرفتـكْ

ولم يعلموا ما هو ولا أين هو ولا كيف هو إلاّ بما عرّفهم من ذلك فأكبروا شأنه وعظموا جلاله وقدره وخافوا مقامه لأن الذي لا يُعرف ولا يُدْرَى ما يريد

أن يفعل إلاّ بما شاء أن يعلموه لا يؤمَنُ مكره وهذا إذا كان الخائف منه مستقِلاّ بدونه قائما بنفسه فكيف بمن الخائف منه ليس هو إلاّ عبارة عن أثر فعله المتقوّم به تقُوّمَ صدورٍ وهذا أيضا يتحقّق على الاعتباريَنْ السَّابِقَيْنِ في العظمة لأنها بمعنى الكبرياء وإن كانت أكثر ما تستعمل فيما ظهر والعظمة فيما بطن فافهم.

قال عليه السلام ومجّدتم كرمه وأدْمنَتم ذكره

قال الشارح قدس سرّهُ ومجّدتم كرمه أي عظّمتم ذاته الكريمة المشتملة على الصفات الحميدة أو كرامته إليكم أو الأعم، وأدمنتم ذكره أي أدْمتم، والذكر ما يذكر الله به من العِبادات وترك المنهيّات أو الذكر اللِسَّاني، فإنه ورد في أخبارٍ كثيرة أنهم صلوات الله عليهم كانوا مُداومين على الذكر اللّساني حتى في الأكل وغيره وظاهرها أنها كانت من معجزاتهم كما ورد أنهم عليهم السلام يختمون القرآن عند الركوب انتهى.

أقول : المجد الشرف الواسع والعلوّ والكمال والرفعة والكرم والعزّ وروي (المجد حَمل المغارم وإيتاء المكارم).

والمجد أيضاً في الرجل شرف الآباء، وتمجيد الله سبحانه الثّناء عليه بالمحامد التي تنبغي لكرم وجهه وعز جلاله، والمجيد بمعنى الماجد وجمعه أمجاد وشريف وأشراف كأشهادِ في شهيد وشاهد، والكرم ضدّ اللّؤْمْ والحُسْنُ والرّضا ومنه قوله تعالى (إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ) أي حسن مرضيّ في جنسه أو كثير النفع.

والكريم هو الموصوف بالكرم وهو الجامع لأنواع الخير والشرف والفضائل والفواضل، ووصف يوسف عليه السلام بالكرم لأنه اجتمع له شرف النبوة والعلم

والعدل ورياسته ورياسة الدنيا، والكرم الذي هو بذل المعروف وسخاء النفس بما يقتضي إيثار الغير بالخير ويطلق على محبة النفس للقيام بأوامر الله تعالى واجتناب نواهيه ومنه قوله تعالى (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) أي لله لسخاء نفسه بمحبّة طاعة الله تعالى ويطلق على العمل بما يقتضي حفظ الدنيا والدين من الأعمال لمداراة الأغيار كما في هذه الآية (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) أي أشدكم تَقِيّةً ومداراةً للأغيار.

وفي حديث إكرام الضيف قال عليه السلام (أكرموا الضيف) وذكر من إكرامه تعجيل الطّعام وطلاقة الوجه والبشاشة وحسن الحديث حال المواكلة ومشايعته إلى باب الدار) فإن هذه وما أشبهها من بذل المعروف (ومكارم الأخلاق التي خصّ بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم عشرة اليقين والقناعة والصبر والشكر والحلم وحسن الخلق والسخاء والغيرة والشجاعة والمروّة) ولمّا كانت العرب يُسمّون الخمر بابنة الكرم فلما جاء الله بالإسلام وحرّمها نهاهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال (لا تقولوا الكرم فإن الكرم قلب المؤمن لأنّه معدن التقوى) يعني به معدن تقوى الله وتقوى النفْس وتقوى الناس.

وأمّا الكرم في حق الواجب جل وعلا فقسمان ذاتي وفعليّ، أمّا الذاتي فهو ذاته سبحانهُ ولا مغايرة ثمَ (إِنَّمَا اللهُ إِلـهٌ وَاحِدٌ) وما يعبّر عنه على أي حالٍ كما قلتُ لك هو ذاته فهو في عنوان وصفِه نفسَهُ لخلقه حين تعرَّفَ لَهُمْ بهِمْ أي بذواتهم وذلك الوصف الذي ليس كمثله شيء من خلقه هو خلقه سبحانه ليعرف به يعني بذلك الوصف لأنّه إنما وصف نفسه لهم به وهو حقائقهم منه ولا يصِحُّ أن يكون لِوَصْفِه الذي يُعْرَفُ به مثْلٌ، ويجب أن يكون ذلك الوصف أحدي المعنى فلا يوجد فيه رحمة ولا كرم ولا علم وكذا سائر الصفات يغاير الذات وإنما هو

واحد من كل جهة بكل اعتبار ولذا كان من عرفَهُ فقد عرفَ ربه لأنه آية معرفته ودليله في النفس.

أمّا الفِعلي فيظهر بأثره فهو في الآثار ظاهِرٌ أمّا ذات الكرم الفعلي فهو نفس الفعل وأوّل مظاهره في نفسه إمكان الممكنات قبل أكوانها وهي العرش الأعْلى ثم في الماء الأول فلمّا خلق منه الأنوار الأربعة التي منها الخلق والرزق والحياة والممات جعلها أركان العرش فالعرش مركّب منها وعبارة عنها فكان العرش خزانة كرمه ولهذا قال تعالى (رَبُّ العَرْشِ الكَرِيم) وهو السماء في قوله تعالى (وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ) وفيه خزائن الأشياء كما قال عز وجل (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ) فتتعلق آثار كرمه من العرش بالأشياء على حسب قابليتها ويختلف وصفه سبحانه بعبادته بها وبالثناء عليه بها إذ كل شيء يسبّح بحمده بلغته وبلسان ذاته فلا غاية لتسبيحها ما لم تفنَ، فلمّا أدخلهم عليهم السلام أبواب حرَمَه وعرفَهُمْ مواقع كرمه ومواضع فضله ونعمه مجّدوا كرمه بالتمجيد الذي لا ينفد أبد الآبدين تمجيد التعظيم والتشريف والتكريم والعز والعلو والكمال والرفعة في صنوف العبادات وأنواع الطاعات وأجناس الاعتقادات كما هو أهله وكما ينبغي لكرم وجهه وعزّ جلاله.

وأمّا ما تقدم من معاني الكرم على حسب استعمالات لفظ الكرم في تصاريف اللّغة من الحسن والرضا وكثرة النفع والخير والشرف والفضائل والفواضل وشرف النبوة والعلم والعدل والرياسات وبذل المعروف وسخاء النفس في إيثار الغير بالخير ومحبّة النفس للقيام بأوامر الله تعالى واجتناب نواهيه ومداراة الأغيار لحفظ الدنيا والدين، وما ذكر في إكرام الضيف كما تقدّم وما ذكر

في مكارم أخلاق النبي ﷺ من اليقين والقناعة والصبر والشكر والحلم وحسن الخلق والسخاء والغيرة والشجاعة والمروّة.

وما ورد أنّ الكرم قلب المؤمن لأنه معدن التقوى ، والكرم هنا بسكون الراء من الكرم بفتحها فهي وما أشبهها من الصّفَات الحميدة فهي آثار كرم الله الفِعْلي، وإنّما اختلفت لاختلاف محالِّها وقوابلها وكل واحدٍ من هذه المعاني له مراتب مختلفة في القوّة والضّعف على حسب مراتب محالها صاعدةً ونازلةً فاذا اعتبر المتوسّم حقائق صاعدِها وجدَها غير متناهية في مراتب الصعود والشرف وإذا اعتبر مراتب نازلها وجَدها غير متناهية فِي مراتب النزول ولم تخرج بترامي ضعفها عن أصل الشرف بل حيث ما يوجد موجود فلا يفارقه شيء منه على حسبه إلى أن يفنى الوجود، بل لولا أصل هذا الكرم لم يوجد موجود لأن الوجود فرع الكرم فلا يوجد الوجود حيث يُفقد الكرم فالكرم أصل كل خير ولقد اشتمل أدنى مراتبه على خيرات لا تتوهمها الأوهام ولا تنال صفتها الأفهام وأعلى ما يمكن أن يعرف من ذلك ما أوقف الله عليه أولياءه عليهم السلام من عجائب مظاهر كرمه وهو حقائق ما أشرتُ إلى ظاهره بدقائق الإشارات فلمّا عرفوا وأشرفوا من الباب الذي فتح لهم نظروا من مثل سَمّ الإبرة إلى ما شاء الله من نور الكرم فشكروا الله فشكر لهم ما شكروه به وأثنوا عليه بمدائح ما هو أهله من الكرم وهو قوله عليه السلام (ومجّدتم كرمه).

وقوله عليه السلام (وأدْمَنتمْ ذكره) أدْمَنَ بمعنى أدَامَ كما ذَكَرَهُ الشارح وبمعنى لازم وواظب عليه والذكر الحقيقي هو التوحيد الحقيقي الذي هو معرفة النفس إذ ليس لله من عبده ذكر أعلى منه ولا أشرف منه لأنّه إثبات الثابت بلا إثبات ونفي

المنفي بلا نفي فهو ذكر الله الأكبر، ودونه استغراق وجوداته في القيام بأوامره ونواهيه كما أمر سبحانه بأن يذكره بامتثال أوامره واجتناب نواهيه فلا تعرض طاعة إلاّ ويذكر الله وأنه أمره بها فيفعلها ولا معصية إلاّ ويذكر الله وأنه نهى عنها فيتركها وهو الذكر الكثير كما قال تعالى (وَالذَّاكِرِينَ الله كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ) وسئل النبي ﷺ فقال ما معناه (ليس هو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، وإن كان ذكراً ولكن أن تذكر الله عند الطاعة فتفعلها وعند المعصية فتتركها، فإذا لم يكن فعل مأمور به أو منهي عنه فقلبُه يذكر الله تعالى في وجدانه كما اختصّ به نبيّه ﷺ في قوله تعالى (وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ)،وفي مخلوقاته بالتفكّر فيها وما أودع من العبر والآيات لأولي الألباب كما قال تعالى (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) إلى أن قال تعالى(وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً) . وهذا أحد وجوه التفكر فإنّ العارف مرةً ينظر في وجوه الحكمة في وجود المصنوعات فيقول (مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً) ومرّةً ينظر ما فيها من العبر الدالة على فناء الدنيا وبقاء الآخرة وسرعة هجوم الموت كما قال تعالى(أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ الله مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ) ومرةً ينظر فيما كُتِبَ فيها من أدلة العلوم على كل مسألة أصليّة أو فرعيّه يعرفها أهل العلم عليهم السلام ومَنْ علّموه مِنْ شيعتهم ما علّموه وهو قوله تعالى (وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ) وهذا معنى قوله عليه السلام (المؤمن صَمْتُه فكر وكلامه ذكر ونظره اعتبار).

ومرّةً ينظر ما فيها من علامات الحوادث المتجدّدة والغائبة عن المشاهدة وما

أشبه ذلك فيستنبط من تلك الآيات صحة الأعمال والإخلاص والزهد والتقوى والعلوم والاعتقادات التي هي أُس الديانات والعبادات ومبدأ الطاعات ونهاياتها كما قال عليه السلام (وما يضمر النبي أفضل من اجتهاد المجتهدين) وذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم (تفكّر ساعة خير من عبادة سنةٍ) ويكون لسانه رطباً بذكر الله لأنّه إمّا في صلاة وهو يسبح ويذكر ويقرأ وإما في كلام في أمر معيشةٍ وهو ذكر إذا حبس كلامَهُ على ما يَعنيه وتَرَكَ فضوُل الكلامِ وإلا فلسانه ذاكر إلاّ في حال النوم فإن نيته وسبحته إذا وضعها تحت رأسه تسبّح للسانه وإلاّ في فكر يشغله النّطق عنه فإنه يسبح أي خياله وفكره للسانه فقد تقرر أن المؤمن لا يغفل عن ذكر الله أبداً لأنه ينتقل من ذكر إلى ذكرٍ، وكل مرتبة من مراتب الخير فهم عليهم السلام أصلها وفرعها ومبدؤها وغايتها ولهم في كل مرتبةٍ من المراتب المرضية مراتب لا يصل إليها خلق غيرهم ولا يدانيها فهم على الحقيقة هم المديمون ذكر الله والملازمون له والمواظِبُون عليه، بل ورد عنهم أن مقامهم أعلى من مقام الذاكرين وإنّما هم أبداً عند الله كما روي عن الصادق عليه السلام وقد ذكرناه سابقاً ونذكره هنا تخفيفاً للمؤنة عن المراجعة قال عليه السلام يا مفضّل قوله تعالى (وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَيْل وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ) إلى أن قال عليه السلام (ألستم تعلمون أن من في السموات هم الملائكة ومن في الأرض هم الجن والبشر وكل ذي حركة فمن الذين قال ومن عنده قد خرجوا من جملة الملائكة والجن والبشر وكل ذي حركة فنحن الذين كنا عنده) الحديث.

فقد أخبر أنهم الذين عنده في الآية وقد ذكر تعالى فيها إن من عنده (يُسَبِّحُونَ اللَيْل وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ) ولا شكّ أنهم على الحقيقة هم الذين لا يأخذهم سهو

الغفلات فهم الذين أدمنوا ذكره على اختلاف مراتبه وعلى اختلاف معاني الإدمان من الإدامة التي هي عدم ترك شيء والملازمة التي هي المسابقة والمبادرة إلى ما يرد منه عند أول وجدانه والمواظبة التي هي المحافظة على أوقاته وهم عليهم السلام السابقون إلى الخيرات وقادة السّابقين إلى أعالي الدرجات.

قال عليه السلام ووكدتم ميثاقه وأحكمتم عقد طاعته

قال الشارح ووكدتم ميثاقه الذي أخذ الله تعالى من بني آدم من ظهورهم كما نطقت به الآية والروايات والتذكير بالنظر إلى خواص أصحابهم الذين خلعوا جلباب الشهوات عن أنفسهم بالرياضات ظاهرا وبالنظر إلى غيرهم فقولهم مع تأيّدهم بالمعجزات مفيد لليقين فكأنهم ذكروا، وأحكمتم عقد طاعته بالمواعظ الشافية أو مع أخذ البيعة عنهم أو بالتبليغ مع المعجزات والنصوص أو بإقامة الحدود بالنظر إلى بعضهم صلوات الله عليهم انتهى.

وكد بمعنى أكد والتوكيد التقوية والتوثيق وفي القاموس (والتوكيد أفصح من التأكيد وتوكد وتأكد بمعنى)، والميثاق هو اليمين المؤكدة لأنّها يستوثق بها أو العهد المؤكد باليمين أو مطلق العهد ويستعمل في معان متعددة كلها ترجع إلى مطلق العهد منها العقد كما قال تعالى(وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا) ومنها تبليغ الرسالة قال تعالى (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ) أي تبليغ الرسالة والدعاء إلى التوحيد والمراد بالميثاق هو المأخوذ في الذر كما قال تعالى (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى) الآيات.

وإنّما قال من ظهورهم ذريتهم ولم يقل من ظهره لأنه سبحانه أخذ من ظهر

كل شخصٍ أولاده كما أخذهم في هذه الدنيا حرفاً بحرف لأنه أخذه من صلب أبيه وترائب أمه فهو أخذ بالتوالد كما في الدنيا ولمّا كلفهم رجعهم إلى أصلاب آبائهم وترائب أمهاتهم وهو تأويل قوله تعالى (يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلبِ وَالتَّرَائِبِ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ) وأمّا المسيح عليه السلام فإنه لما مسح على ظهر آدم وذريته وأخرج من ظهورهم ذرّيتهم بالمسح المعبر عنه بالولادة المعنويّة وكلفهم ورجعهم إلى أصلاب آبائهم في صلب آدم لم يرجع عيسى عليه السلام فسمي المسيح لبقاء المسح عليه، ولم ينتفِ حكمه بالإرجاع.

والميثاق المأخوذ في الذر هو جميع ما يريد الله من جميع خلقه من حيوان ونبات وجماد ومن فتش عن ذلك في القرآن والسنّة وجد ذلك أظهر من الشمس في رابعة النهار (لِمَن كَانَ لَهُ قَلبٌ أَوْ أَلقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)، ومن أنكر ذلك فقد أخطَرَ بنفسه والواجب على المؤمن الذي يدعي أنه من رعية محمد وأهل بيته صلى الله عليه وعليهم أنّه إذا سمع ما لا يحتمله من أهل الحق أن يتفهم ولا يسارع بالإنكار فان لم يفهم فلا ينكر ما لا يفهم (بَل كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ).

وفي التوحيد بإسناده إلى أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام قال (أخبرني عن الله عز وجل هل يراه المؤمن يوم القيامة قال نعم وقد رأوه قبل يوم القيامة فقلتُ متى قال حين قال لهم (أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى) ثم سكت ساعة ثم قال وإنّ المؤمنين يرونه في الدنيا قبل يوم القيامة ألستَ تراه في وقتك هذا قال أبو بصير فقلتُ له جعِلتُ فداك فأحدث بها عنك فقال: لا فإنك إذا حدّثتَ به فأنكره منكرٌ جاهلٌ بمعنى ما تقول ثمّ قدر أن ذلك تشبيهٌ كفر وليست الرؤية بالقلب كالرؤية بالعين تعالى الله عما يصفه المشبهون والملحدون).

فتأمّل في قوله عليه السلام (فأنكره منكر جاهل بمعنى ما تقول) يعني أنّه يقول أن الله يراه المؤمن بقلبه وذلك الجاهل يقدّر أن ذلك تشبيه فإنه بهذا الإنكار والتقدير يكون كافراً مع أنه يريد به التنزيه على زعمه لكنه مخالف للواقع، فما ظنّك بإنكار هذا المشهد العظيم الذي نطق به القرآن صريحاً ووردت به الأخبار المتواترة معنى. والحاصل أن الأخبار الواردة في ذكر الميثاق المأخوذ كثيرة جداً وأريد أن أذكر شيئاً منها يفهم العارف المنصف أن الميثاق المأخوذ هو جميع التكاليف وما يريد الله سبحانه من عباده، وأنّ المأخوذ عليهم هو جميع الخلق من الحيوانات والنباتات والجمادات فمن الأخبار عن حمران عن أبي جعفر عليه السلام قال (إن الله تبارك وتعالى حيثُ خلق الخلق خلق ماءً عذباً وماءً مالحا فامتزج الماءان فأخذ طيناً من أديم الأرض فعركه عركاً شديداً فقال لأصحاب اليمين وهم كالذر يدبون إلى الجنة بسلام وقال لأصحاب الشمال إلى النار ولا أبالي، ثم قال (أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ) ثم أخذ الميثاق على النبيين فقال ألستُ بربكم فإن هذا محمّد رسولي وإنّ هذا علي أمير المؤمنين قالوا بلى فثبت لهم النبوة وأخذ الميثاق على أولي العزم إنّي ربّكم ومحمّد رسولي وعلي أمير المؤمنين وأوصياؤه من بعده ولاة أمري وخزّان علمي عليهم السلام وإن المهدي به أنتصر لديني وأظهر به دولتي وأنتقم به من أعدائي وأُعْبَدُ به طوعاً وكرهاً قالوا أقررنا به يا رب وشهدنا ولم يجحد آدم ولم يعزم فثبتت العزيمة لهؤلاء الخمسة ولم يكن لآدم عزم على الإقرار به وهو قوله تعالى (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا) قال عليه السلام إنما هو فترك ثم أمر ناراً فأجّجت فقال لأصحابَ الشمال ادخلوها فهابوها فقال لأصحاب اليمين ادخلوُها

فدخلوها فكانت عليهم برداً وسلاماً فقال أصحاب الشمال يا رب أقِلنا فقال قد أقلتكُم اذهبوا فادخلوها فهابُوهَا فَثم ثَبتت الطاعة والولاية والمعصية).

وفي التهذيب في الدعاء بعد صلاة الغدير عن الصادق عليه السلام (ومننتَ علينا بشهادة الإخلاص لك بموالاة أوليائك الهداة المهديين من بعد النذير المنذر والسراج المنير وأكملت الدين بموالاتهم والبراءة من عدوهم وأتممتَ علينا النعمة التي جدّدت لنا عهدك وذكّرتنا ميثاقك المأخوذ منّا في مبدء خلقِك إيّانا، وجعلتنا من أهل الإجابة وذكّرتنا العهد والميثاق ولم تُنسِنا ذكرَك فإنّك قلت (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا) بمنِّكَ ولطفِك بأنك أنت اللهُ لا إله إلا أنت ربّنا ومحمد عبدُك ورسولك نبيّنا وعلي أمير المؤمنين والحجة العظمى وآيتك الكبرى والنّبأ العظيمُ الذي هم فيه مختلفون وعنه مسؤولون).

وفي الكافي بإسناده عن عبد الرحمن الحذّا عن أبي عبدالله عليه السلام قال (كان علي بن الحسين عليه السلام لا يرى بالعزل بأساً أتقرأ هذه الآية (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى) فكلّ شيء أخذ الله منه الميثاق فهو خارج وإن كان على صخرة صمّاء).

أقول: قول الصادق عليه السلام في الدعاء (وأتممت علينا النعمة التي جددت لنا عهدك وذكرتنا ميثاقك المأخوذ منا في مبدأ خلقك إيّانا) يريد به أنّ ما أخذه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم الغدير هو تجديد النعمة التي هي عهدك وهو تذكيرك إيّانا ميثاقك في الذر الذي هو مبدأ خلقك إيانا، وأشار إلى أن ذلك العهد في الذر هو هذا العهد يوم الغدير وإنّ المبلغ هنا وهناك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الله تعالى وأنه لم

يزد عما كان هناك ولم ينقص، وإن هذا المشهد صورة ذلك المشهد وظاهره وإن هذا هو ذكر الله وأن قبوله هنا يكون ممن لم ينسه الله ذكره وأنه بهذا القبول الذي هو ظاهر ذلك القبول جعلهم من أهل الإجابة في المشهدين وإن المكذّب هنا هو المكذب هناك كما قال تعالى(فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ) يعني أنّهم كذبوا هناك فكيف يؤمنون هنا.

وقوله عليه السلام في الحديث بعد هذا (وإن كان على صخرة صماء) فيه تلويحان أحدهما أن المنافقين يكون منهم هنا ما كان منهم هناك والصخرة الصماء قلوبهم القاسية فهي كالحجارة أوْ أشدّ قسوةً، وثانيهما أن الصّخرة الصماء قد أخذ عليها الميثاق وإلا لما خرجت ولم يحسن إيجاد ما ليس بمكلّف وقد أشرنا إلى هذا الوجه في رسائلنا خصوصا هذا الشرح.

وفيه بإسناده إلى بكير بن أعين قال سألتُ أبا عبدالله عليه السلام (لأَيِّ عِلةٍ وَضَعَ اللهُ الحَجَرَ فِي الرُّكْنِ الذِي هُوَ فِيهِ وَ لَمْ يُوضَعْ فِي غَيْرِهِ وَ لأَيِّ عِلةٍ تُقَبَّلُ وَ لأَيِّ عِلةٍ أُخْرِجَ مِنَ الجَنَّةِ وَلأَيِّ عِلةٍ وُضِعَ مِيثَاقُ العِبَادِ وَالعَهْدُ فِيهِ وَلَمْ يُوضَعْ فِي غَيْرِهِ وَكَيْفَ السَّبَبُ فِي ذَلِكَ تُخْبِرُنِي جَعَلَنِيَ اللهُ فِدَاكَ فَإِنَّ تَفَكُّرِي فِيهِ لَعَجَبٌ، قَالَ فَقَالَ سَأَلتَ وَأَعْضَلتَ فِي المَسْأَلةِ وَاسْتَقْصَيْتَ فَافْهَمِ الجَوَابَ وَفَرِّغْ قَلبَكَ وَأَصْغِ سَمْعَكَ أُخْبِرْكَ إِنْ شَاءَ اللهُ إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَضَعَ الحَجَرَ الأَسْوَدَ وَهِيَ جَوْهَرَةٌ أُخْرِجَتْ مِنَ الجَنَّةِ إِلَى آدَمَ عليه السلام فَوُضِعَتْ فِي ذَلِكَ الرُّكْنِ لِعِلةِ المِيثَاقِ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا أَخَذَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ حِينَ أَخَذَ اللهُ عَلَيْهِمُ المِيثَاقَ فِي ذَلِكَ المَكَانِ وَفِي ذَلِكَ المَكَانِ تَرَاءَى لَهُمْ وَ مِنْ ذَلِكَ المَكَانِ يَهْبِطُ الطَّيْرُ عَلَى القَائِمِ عليه السلام فَأَوَّلُ مَنْ يُبَايِعُهُ ذَلِكَ الطَّائِرُ وَهُوَ وَاللهِ جَبْرَئِيلُ عليه السلام وَإِلَى ذَلِكَ المَقَامِ يُسْنِدُ

القَائِمُ ظَهْرَهُ وَهُوَ الحُجَّةُ وَالدَّلِيلُ عَلى القَائِمِ وَهُوَ الشَّاهِدُ لِمَنْ وَافَاهُ فِي ذَلِكَ المَكَانِ وَالشَّاهِدُ عَلى مَنْ أَدَّى إِلَيْهِ المِيثَاقَ وَالعَهْدَ الَذِي أَخَذَ اللهُ عَزَّ وَجَل عَلى العِبَادِ وَأَمَّا القُبْلَةُ وَالاسْتِلامُ فَلِعِلةِ العَهْدِ تَجْدِيداً لِذَلِكَ العَهْدِ وَالمِيثَاقِ وَتَجْدِيداً لِلبَيْعَةِ لِيُؤَدُّوا إِلَيْهِ العَهْدَ الذِي أَخَذَ اللهُ عَلَيْهِمْ فِي المِيثَاقِ فَيَأْتُوهُ فِي كُلِّ سَنَةٍ وَيُؤَدُّوا إِلَيْهِ ذَلِكَ العَهْدَ وَالأَمَانَةَ اللذَيْنِ أُخِذَا عَلَيْهِمْ أَلا تَرَى أَنَّكَ تَقُولُ أَمَانَتِي أَدَّيْتُهَا وَمِيثَاقِي تَعَاهَدْتُهُ لِتَشْهَدَ لِي بِالمُوَافَاةِ وَوَاللهِ مَا يُؤَدِّي ذَلِكَ أَحَدٌ غَيْرُ شِيعَتِنَا وَلا حَفِظَ ذَلِكَ العَهْدَ وَالمِيثَاقَ أَحَدٌ غَيْرُ شِيعَتِنَا وَ إِنَّهُمْ لَيَأْتُوهُ فَيَعْرِفُهُمْ وَ يُصَدِّقُهُمْ وَ يَأْتِيهِ غَيْرُهُمْ فَيُنْكِرُهُمْ وَ يُكَذِّبُهُمْ وَ ذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَحْفَظْ ذَلِكَ غَيْرُكُمْ فَلَكُمْ وَ اللهِ يَشْهَدُ وَ عَلَيْهِمْ وَ اللهِ يَشْهَدُ بِالخَفرِ وَ الجُحُودِ وَ الكُفْرِ وَ هُوَ الحُجَّةُ البَالِغَةُ مِنَ اللهِ عَلَيْهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ يَجِيءُ وَ لَهُ لِسَانٌ نَاطِقٌ وَ عَيْنَانِ فِي صُورَتِهِ الأُولى يَعْرِفُهُ الخَلقُ وَ لا يُنْكِرُهُ يَشْهَدُ لِمَنْ وَافَاهُ وَجَدَّدَ العَهْدَ وَ المِيثَاقَ عِنْدَهُ بِحِفْظِ العَهْدِ وَ المِيثَاقِ وَ أَدَاءِ الأَمَانَةِ وَ يَشْهَدُ عَلى كُلِّ مَنْ أَنْكَرَ وَ جَحَدَ وَ نَسِيَ المِيثَاقَ بِالكُفْرِ وَ الإِنْكَارِ فَأَمَّا عِلةُ مَا أَخْرَجَهُ اللهُ مِنَ الجَنَّةِ فَهَل تَدْرِي مَا كَانَ الحَجَرُ قُلتُ لا قَال كَانَ مَلَكاً مِنْ عُظَمَاءِ المَلائِكَةِ عِنْدَ اللهِ فَلَمَّا أَخَذَ اللهُ مِنَ المَلائِكَةِ المِيثَاقَ كَانَ أَوَّل مَنْ آمَنَ بِهِ وَ أَقَرَّ ذَلِكَ المَلَكُ فَاتَّخَذَهُ اللهُ أَمِيناً عَلى جَمِيعِ خَلقِهِ فَأَلقَمَهُ المِيثَاقَ وَ أَوْدَعَهُ عِنْدَهُ وَ اسْتَعْبَدَ الخَلقَ أَنْ يُجَدِّدُوا عِنْدَهُ فِي كُلِّ سَنَةٍ الإِقْرَارَ بِالمِيثَاقِ وَ العَهْدِ الذِي أَخَذَ اللهُ عَزَّ وَ جَل عَلَيْهِمْ ثُمَّ جَعَلهُ اللهُ مَعَ آدَمَ فِي الجَنَّةِ يُذَكِّرُهُ المِيثَاقَ وَيُجَدِّدُ عِنْدَهُ الإِقْرَارَ فِي كُل سَنَةٍ فَلَمَّا عَصَى آدَمُ وَ أُخْرِجَ مِنَ الجَنَّةِ أَنْسَاهُ اللهُ العَهْدَ وَ المِيثَاقَ الذِي أَخَذَ اللهُ عَلَيْهِ وَ عَلى وُلدِهِ لِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم وَ لِوَصِيِّهِ عليه السلام وَجَعَلهُ تَائِهاً حَيْرَانَ فَلَمَّا تَابَ اللهُ عَلى آدَمَ حَوَّل ذَلِكَ المَلَكَ فِي صُورَةِ دُرَّةٍ بَيْضَاءَ فَرَمَاهُ مِنَ الجَنَّةِ إِلى آدَمَ عليه السلام وَ هُوَ بِأَرْضِ الهِنْدِ فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِ آنَسَ

إِلَيْهِ وَ هُوَ لا يَعْرِفُهُ بِأَكْثَرَ مِنْ أَنَّهُ جَوْهَرَةٌ وَ أَنْطَقَهُ اللهُ عَزَّ وَ جَل فَقَال لهُ يَا آدَمُ أَ تَعْرِفُنِي قَال لا قَال أَجَل اسْتَحْوَذَ عَليْكَ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاكَ ذِكْرَ رَبِّكَ ثُمَّ تَحَوَّل إِلى صُورَتِهِ التِي كَانَ مَعَ آدَمَ فِي الجَنَّةِ فَقَال لآِدَمَ أَيْنَ العَهْدُ وَ المِيثَاقُ فَوَثَبَ إِليْهِ آدَمُ وَ ذَكَرَ المِيثَاقَ وَ بَكَى وَ خَضَعَ لهُ وَ قَبَّلهُ وَ جَدَّدَ الإِقْرَارَ بِالعَهْدِ وَ المِيثَاقِ ثُمَّ حَوَّلهُ اللهُ عَزَّ وَ جَل إِلى جَوْهَرَةِ الحَجَرِ دُرَّةً بَيْضَاءَ صَافِيَةً تُضِيءُ فَحَمَلهُ آدَمُ عليه السلام عَلى عَاتِقِهِ إِجْلالا له وَتَعْظِيماً فَكَانَ إِذَا أَعْيَا حَمَلهُ عَنْهُ جَبْرَئِيلُ عليه السلام حَتَّى وَافَى بِهِ مَكَّةَ فَمَا زَال يَأْنَسُ بِهِ بِمَكَّةَ وَ يُجَدِّدُ الإِقْرَارَ لهُ كُل يَوْمٍ وَ ليْلةٍ ثُمَّ إِنَّ اللهَ عَزَّ وَ جَل لمَّا بَنَى الكَعْبَةَ وَضَعَ الحَجَرَ فِي ذَلِكَ المَكَانِ لأَنَّهُ تَبَارَكَ وَ تَعَالى حِينَ أَخَذَ المِيثَاقَ مِنْ وُلدِ آدَمَ أَخَذَهُ فِي ذَلِكَ المَكَانِ وَ فِي ذَلِكَ المَكَانِ أَلقَمَ المَلكَ المِيثَاقَ وَ لِذَلِكَ وَضَعَ فِي ذَلِكَ الرُّكْنِ وَ نَحَّى آدَمَ مِنْ مَكَانِ البَيْتِ إِلى الصَّفَا وَ حَوَّاءَ إِلى المَرْوَةِ وَ وَضَعَ الحَجَرَ فِي ذَلِكَ الرُّكْنِ فَلمَّا نَظَرَ آدَمُ مِنَ الصَّفَا وَ قَدْ وُضِعَ الحَجَرُ فِي الرُّكْنِ كَبَّرَ اللهَ وَ هَللهُ وَمَجَّدَهُ فَلِذَلِكَ جَرَتِ السُّنَّةُ بِالتَّكْبِيرِ وَ اسْتِقْبَالِ الرُّكْنِ الذِي فِيهِ الحَجَرُ مِنَ الصَّفَا فَإِنَّ اللهَ أَوْدَعَهُ المِيثَاقَ وَالعَهْدَ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ المَلائِكَةِ لأَنَّ اللهَ عَزَّ وَ جَل لمَّا أَخَذَ المِيثَاقَ لهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَ لِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله بِالنُّبُوَّةِ وَ لِعَليٍّ عليه السلام بِالوَصِيَّةِ اصْطَكَّتْ فَرَائِصُ المَلائِكَةِ فَأَوَّلُ مَنْ أَسْرَعَ إِلى الإِقْرَارِ ذَلِكَ المَلكُ لمْ يَكُنْ فِيهِمْ أَشَدُّ حُبّاً لِمُحَمَّدٍ وَ آلِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله مِنْهُ وَ لِذَلِكَ اخْتَارَهُ اللهُ مِنْ بَيْنِهِمْ وَ أَلقَمَهُ المِيثَاقَ وَهُوَ يَجِيءُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَ لهُ لِسَانٌ نَاطِقٌ وَ عَيْنٌ نَاظِرَةٌ يَشْهَدُ لِكُلِّ مَنْ وَافَاهُ إِلى ذَلِكَ المَكَانِ وَ حَفِظَ المِيثَاقَ).

وفيه بإسناده عن داود الرقّي عن أبي عبدالله عليه السلام أنه قال (لمَّا أَرَادَ اللهُ أَنْ يَخْلُقَ الخَلقَ نَثَرَهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَال لهُمْ مَنْ رَبُّكُمْ فَأَوَّلُ مَنْ نَطَقَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وَأَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عليه السلام وَالأَئِمَّةُ صَلوَاتُ اللهِ عَليْهِمْ فَقَالُوا أَنْتَ رَبُّنَا فَحَمَّلهُمُ العِلمَ وَ الدِّينَ

ثُمَّ قَال لِلمَلائِكَةِ هَؤُلاءِ حَمَلةُ دِينِي وَ عِلمِي وَ أُمَنائِي فِي خَلقِي وَ هُمُ المَسْئُولُونَ ثُمَّ قَال لِبَنِي آدمَ أَقِرُّوا لله بِالرُّبُوبِيَّةِ وَ لِهَؤُلاءِ النَّفَر بالوَلايَةِ وَ الطَّاعَةِ فَقَالُوا نَعَمْ رَبَّنَا أَقْرَرْنَا فَقَال الله لِلمَلائِكَةِ اشْهَدُوا فَقَالتِ المَلائِكَةُ شَهِدْنَا عَلى أَنْ لا يَقُولُوا غَداً إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ. أَوْ تَقُولُوا إِنَّما أَشْرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ وَ كُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَ فَتُهْلِكُنا بِما فَعَل المُبْطِلُونَ يَا دَاوُدُ وَلايَتُنَا مُؤَكَّدَةٌ عَلَيْهِمْ فِي المِيثَاقِ).

وروى القمي سئل الرضا عليه السلام عمّن كلم الله لا من الجن ولا من الإنس فقال السموات والأرض في قوله (اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ).

وبالجملة فإن من تتبع الأحاديث وجد أن الله قد أخذ على جميع ما خلقَ مِنَ الإنس والجن والملائكة والحيوانات والنباتات والجمادات طاعتهم عليهم السلام وأن كل ما سواهم لا يعرف شيئاً من طاعةِ الله إلا عن أمرهم وبتعليمهم وهدايتهم مثل ما تقدم من حديث جابر بن عبدالله من قوله صلى الله عليه وآله إلى أن قال (فمكثت الملائكة مائة عام لا تعرف تسبيحاً ولا تقديساً ولا تمجيداً فسبّحنا فسبَحت شيعتُنا فسبّحت الملائكة) إلى أن قال صلى الله عليه وآله (وكانت الملائكة لا تعرف تسبيحاً ولا تقديساً من قبل تسبيحنا وتسبيح شيعتنا).

وفي رواية ابن عباس عنه صلى الله عليه وآله إلى أن قال صلى الله عليه وآله (وكبّرنا فكبرت الملائكة وكان ذلك من تعليمي وتعليم علي عليه السلام وكان ذلك في علم الله السابق أن الملائكة تتعلم منّا التسبيح والتهليل وكل شيء يسبّح الله ويكبره ويهلّله بتعليمي وتعليم علي عليه السلام) فقوله صلى الله عليه وآله (وكل شيء يسبح الله ... إلخ)، هو كقوله تعالى(وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ) فيدخل في الآية كل شيء من الحيوانات والنباتات والجمادات وكلها تسبّح بتعليمه صلى الله عليه وآله وتعليم علي عليه السلام وليس ذلك إلا لأخذ الميثاق لهما

وللأئمة عليهم السلام على جميع الخلق ومثل الأخبار المتكثرة الدّالة على أن الماء الأجاج لم يقبل ولايتهم والأرض السّبخة.

كذلك عرضت ولايتهم عليها فلم تقبلها فكانت سبخة وكذلك الأشياء المُرّة إنّما كانت مُرةً لأنها لم تقبل ولايَتَهُمْ وهي في أخبارنا كثيرة وقد روي هذا من طرق العامّة وهو عن أنس بن مالك قال (دفع عليّ بن أبي طالب إلى بلال درهماً ليشتري به بطّيخاً قال فاشتريتُ به فأخذ بطيخةً فقوَّرها فوجدها مُرّةً فقال يا بلال رُد هذا إلى صاحبه وأتني بالدرهم إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لي إنّ الله أخذ حُبك على البشر والشّجر والثمَّر والبَذْرِ فما أجاب إلى حُبّك عَذُب وطاب وما لم يُحبّك خَبُثَ ومرّ وإنّي أظنّ أنّ هذا ممّا لا يُحبني) أخرجه المُلاّ في سيرته وفيه دلالة على أنَّ العَيْبَ الحادث إذا كان ممّا يطلّعُ به على العيب القديم لا يمنع من الردّانتهى .

أقول : قد قلنا لك أنّ جميع الخلق قد أُخذ عليهم الميثاق بالولاية لهم في الذّر حين جمع الخلائق فدعاهم إلى الإقرار بما أخذ عليهم من التّوحيد وقد ذكرنا أنّ شرط التوحيد ولايتهم إذ لا يوجد الشيء ولا يتحقق إلا بأركانه وهم أركان التوحيد لأن التّوحيد حقيقة هو وصف الحَقّ لخلقه وذلك الوصف له مقامان، أحدهما : جسد التوحيد وهيكله وهو من نورهم وشعاع ضوئهم وهو قول علي عليه السلام لكميل (نور أشرق من صبح الأزل فيلوح على هياكل التوحيد آثاره) فآثاره أجساد التوحيد وأبدانه وأشباحه فيمن سواهم فهي تلوح وتظهر على هيئة هياكل التوحيد، وهياكل التّوحيد هيئاتهم وأشباههم لأنّها حقيقة هي هيئة ذلك الوصف المحدث الّذي ليس كمثله شيء كما قال الحجّة عليه السلام في دعاء رجب (لا فرق بينك وبينها إلاّ أنّهم عبادك وخلقك) فأبان بقوله (لا فرق بينك وبينها)

بأن ذلك الوصف وتلك الهيئة ليس كمثله شيء وأبان بقوله (إلاّ أنّهم عبادك وخلقك) أنّ ذلك الوصف وتلك الهيئة محدث مخلوق لا يشابه مُحدَثاً مخلوقا وذكر الضمير في المستثنى لبيان أنّ ظهور المخلوقية المشابهة للأشياء، إنّما هي في ظواهرهم وأعاد ذكر المخلوقيّة الفارقة بين الحق والخلق بالتأنيث حيث قال (فتقها ورتقها ... إلخ) لبيان أنّ تلك الحقائق التي لم تظهر فيها المخلوُقيّة لعدم مشابهة الأشياء لها أنها في الحقيقة خلق لأنها أوصافه المخلوقة وأمثاله المحدثة ثم أبان أنّ تلك المقامات التي لا تعطيل لها في كلّ مكانٍ ليست غيرهم بقوله (فبهم ملأتَ سماءك وأرضك حتى ظهر ألاّ إله إلاّ أنت) فكانُوا أركان التّوحيد، أمّا في حقيّقتهم فالتّوحيد الّذي هو الوصف الأصلي الأجْلى والمَثلُ الأعلى هو هياكلُهُم وأشباحهم الّتي هي هيئاتُ ذواتهم وهو أوّل شبح وأوّل مظهر، وأمّا في حقّ من سواهم فأشباحهم الّتي هي هيئات ذواتهم إنما لاحت على هياكلهم عليهم السلام بمعنى أنّها أشعّة تلك الهياكل وأظلتها فهي إنّما تقوّمَتْ بها فهم أركان التّوحيد الهيكلي في حقّهم وحق من سواهم.

وثانيهما : نوُر التّوحيد وذاتُهُ وهو ولايتُهمْ وهو النّور الإلهيّ وهو أوّل ظاهر في أوّل مظهر وهو قوله عليه السلام (نور أشرق من صبح الأزل) وصبح الأزل هو فعل الله ومشيتُه وذلك الصبح أثر شمس الأزل عزّ وجلّ، وهذا النور هو وصفه نفسه سبحانه لعباده بالنور الّذي هو روح هياكل التّوحيد وهو غاية ما تعرّف به لهم ومبدؤه ومُنتهاه وهو النُّور الّذي أوجده باعتقاداتهم الحقّة المطابقة للواقع عنده وبأعمالهم الصّالحة الموافقة لأمره ومحبته ورضاه وأحوالهم الصادقة وأقوالهم المنطبقة على اعتقاداتهم الحقّة وأعمالهم الصّالحة وأحوالهم الصّادقة

ونيّاتهم الخالصة، لأن هذه جرت منهم على مقتضى أوامره واجتناب نواهيه التي هي هياكل إرادته ومحبّته وهذه الهياكل هياكل نوعية فهي موادّ لهياكل أعمالهم وأقوالهم وأحوالهم واعتقاداتهم فخلق من هذه الموادّ الزّاكية وهذه الهياكل الطّيبة مثلا له أسكنه روحا منه كان ذلك المثل بهذه الرّوح مقاماً له سبحانه ليس كمثله شيء لا فرق بينه وبينه إلا أنه عبدُهُ وآيتُهُ في عبدِهِ وخلقِهِ ظهر الله به لَمَنْ تَعرَّفَ له عنهم عليهم السلام فهم أركان التوحيد، وما سمعت مما ذكرنا لك وما لم تَسْمَع كلّه من ولايتهم، وولايتهم كما سمعت في الأخبار ونبهناك عليه من الاعتبار هي التي أخذ الله بها الميثاق عليهم بالقيام بها لأنّها ولايةُ الله والأداء إلى المكلفين بأن يلتزمُوا عبادة الله والطّاعة لهم عليهم السلام فوكّدوا ميثاقه بأن قاموا بولايته حق القيام الإمكاني وبالأداء باللطف في التبليغ إلى المكلّفين وإعانتهم باللطف في التبليغ والدعاء والاستغفار عن هفواتهم وتقصيراتهم وإيراد أوليائهم حياض ولايتهم وذوْدِ أعدائهم عن ورودها بإنكارهم وعداوتهم وهذا أيضاً من الولاية لأنه حق وكل حقّ فمن الولاية كما قال تعالى (هُنَالِكَ الولايَةُ لله الحَقِّ) قُرئ برفع الحق صفة الولاية وبالجرّ صفة لله والولاية هي تلك الصّفة الّتي هي الحق من التوحيد والنبوّة والإمامة والعبادات والاعتقادات وجميع ما يريد الله من عباده ويدخل فيه العقد والنذر والعهد واليمين وغيرها من الواجبات والمندوبات والرخص وجواز المكروهات والمباحات واجتناب المحرّمات والمكروهات والشبهات وهو ما أخذ عليهم من الميثاق.

بقي هنا شيء وهو أنّ ظاهر الأخبار وكلام العلماء أن التكليف في الذّر وأنّ المراد به في الملكوت في النفوس تحت اللوح المحفُوظ وأنه تكليف واحد والذي

انطوت عليه الأخبار ولوحت به من الأسرار لأولي العقول والأبصار أن الذر ذران الذر الأول والذر الثاني وأنّ المراد بهما مختلف يعرفه من عرفه بحسب مقامات الخطاب والمخاطبين فمرّة يراد بالأول ذر المعاني في العُقول والثاني ذرّ الصور في النفوس وبينهما برزخ وهو الأظلّة وورق الآس في الأرواح والتكليف في الأوّل كليّ مجمل، وفي الثاني شخصي مفصل وفي البرزخ نوعيّ مبين ومرّة يراد بالأول ذرّ الصّور في النفوس والثاني ذر البشرية في الأجسام وبينهما برزخ وهو ذر الأشباح في الأمثال والتكليف في الأول نفساني والثاني جسماني، وفي البرزخ في الخيال والحس المشترك.

والحق أنّ التكليف وأخذ الميثاق مساوق للوجود لأنهما مُتلازمان إذ التكليف أمر بقبول الخير والنور اللّذين هما الوجود للذوات والصفات الذّاتية والفعلية ونهى عن قبول الشر والظلمة اللذين هما العدم للذّوات والصفات الذّاتية والفعليّة والأمر هو المُقتضي لوجود المقتضى فيهما والنهي هو المقتضي لنفي المانع منهما ويتميز الوجودان الكونيّ والشّرعيّ كل منهما عن الآخر بقوة القابلية وضعفها، فإن كانت أركان القابلية ومشخّصاتها الستة التي هي الكم والكيف والوقت والمكان والجهة والرتبة ناقصة في القوّة والفعل عن استكمال الاستعداد كان ذلك القابل وجوداً تكوينيّاً وهذا هو الوجُود وكشف سبحاتِه حقيقة هيكل التوحيد وإن كانت أركان القابلية ومشخصاتها السّتة المذكورة تامّة في القوّة والفعل باستكمال الاستعداد كان ذلك القابل وجوداً تشريعيّاً وهذا هو التّشريع وكشفُ سُبحاته حقيقة نور هيكل التوحيد وهو نور صبح الأزل، فالتكليف في الأوّل غاية للوُجود مساوق وللوجود في الثّاني غاية للتشريع مساوق فتفهّمه فإنّه من غوامض الغيب المحفوظة عن الريب المنزّهة عن العيب.

قوله عليه السلام وأحكمتم عقد طاعته

الإحكام ضبط الشّيء وإتقانه وهو في اللغة وفي الاصطلاح كما قال البعض هو ما يصحّ معناه ويظهر لكل من عرف اللّغة وعلى ما كان محفوظاً من النسخ أوالتّخصيص أو منهما وعلى مستقيم النّظم السّالم من الخلل وعلى ما لا يحتمل إلاّ وجهاً واحداً ، وعقد الحَبل والبيع والعهد يعقد شدهُ وعقد الحاسب بأصابعه والعَقْد الزمان والعهد والعقدة بالضم الولاية على البلدة والضيعة والعقار والبيعة والبناء المعقود وعقود عُقِدت كالأبواب عطفت.

والمراد أنهم عليهم السلام قد أحكموا أي ضبطوا وأتقنوا عقد طاعته استمسكوا بالعروة الوثقى منه بطاعته في حقهم وأحكموا لشيعتهم ذلك الاستمساك وضبطوه بتعليمهم وقودهم بأزمة وجوداتهم الّتي من أضوائهم إلى ورود حياض الرّضوان وسَوقهم بعصيّ قطعوها لهم من عليّين من أشجار المزن وبدلالتهم إيّاهم وسيرهم بين أيدهم وإضاءة أنوارهم لهم في ظلمات العقبات التي في الصّراط في طريقهم وبسطِهم ذلك الطّريق وتوسعته حتى كان لكثير منهم أوسع مما بين الأرض والسماء بعد أن كان أدق من الشعرة وأحدّ من السيف، وذلك البسط بالدّعاء لهم وإنارة قلوبهم وطرد الشّياطين المتبرّعين عنهم والمتسلطين عليهم بذنوبهم بالتحمّل عنهم ذنوبهم والاستغفار لهم حتى أضاءت لهم سبل الرشاد وهو قوله تعالى(وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)وضبطوا لهم عقد البيع حين باعوا الله أنفسهم ببذلها في ولايتهم وطاعتهم بأن لهم الجنة ورضاهم ومحبّتهم وجوارهم في منازلهم، ولما كان البائع والمشتري إذا جَهِلا العوضيْن

لعدم رؤيته أو أحدهما لعدم معرفته وَكّل الجاهلُ مَنْ كانَ يعرف ما قد جهله الموكل، أو كان الشراء أو البيع من غير كامل كالطفل والمجنُون قام وليه مقامه في مصلحته ليرتفع الغرر ويكون ذلك إحكاماً وضبطاً للعقد والبيع كانوا هم الذين أوجبُوا عقد بيع شيعتهم أنفسهم على الله تعالى ببذل أنفسهم في طاعة الله بولايتهم لعلمهم بما جعله الله عوضاً لشيعتهم ونيابتهم عليهم السلام نيابة ولايةٍ لا وكالةٍ فهم يبيعون وهم يشترون وهم يؤدّون وهم يُربّون.

فإن قلت : إنّ الشيّعةَ هم المُجيبون ببلى في الذّر وهم المستجيبون في هذه الدار بل قد أجاب المؤمنون والأنبياء في هذه الدار قبل وجود محمّدٍ وأهل بيته لأنّهم صلّى الله عليه وعليهم حين أجاب المؤمنون من الأمم الماضية كانوا نطفاً في الأصلاب الزّاكية والأرحام المطهّرة كما ذكره العبّاس بن عبد المطّلب في شعره في مدح النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وقد تقدّم وذلك في قوله:

ثـمّ هبطـت البـــلاد لا بشـــر
أنــت ولا مـــضغـــة ولا عَـلق
بل نطفة تركـــب السفـــين وقد
ألجم نسراً وأهلـــهُ الغَــــرَق
تُنقـل مـن صالـــبٍ إلى رحـم
إذا مضى عالم بـــدا طبَـــق

فإذا كانُوا قد أجابُوا في الدّنيا قبل وجودهم عليهم السلام جاز أن يجيبُوا بدُونهم في الذّر لأنّ الترتيب في ذلك العالم طبق الترتيب في هذا العالم بل ما نستدل على شيء ممّا هناك إلاّ بمثله ممّا هُنا.

قلتُ : هذا الذي تُشير إليه إنما يجري على الظّاهر من القول وأمّا على الحقيقة فقد ذكرنا مراراً عن الأدلّة العقليّه والنقليّة أنهم عليهم السلام علّة كل الخلق، وأنّ شيعتهم خلقوا من شعاع نورهم وأنّهم يد الله الّتي ذكرها في كتابه حيث قال (قُل مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ)والمعنى أن تصريف كل شيء وتحريكه وتسكينه وإقباله وإدباره وغيبته وحضرته وقيامه وقوامه وقعوده ونفاده بيد الله ، بمعنى أنّ أسبابها التي هي تقوم بها قيام صُدورٍ وقيام ظهور وقيام تحقّقٍ وقيام عروض بيده سبحانه وهم يده وهم أمره الّذي به تقوم السماء والأرض وبه يقوم كل شيء فإذا عرفت هذا ونظرت إلى أخبارهم عرفتَ أنّ كل شيء لا يفعل شيئا من الخير ولا شيئاً من الشرّ إلاّ بهم، فالخير منهم وبهم والشرّ بهم لا منهم، وقد تقدم في حديث ابن عبّاس أنّ كل شيء لا يعرف شيئاً من التّسبيح والتّقديس وغير ذلك إلا بتعليم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتعليم عليّ عليه السلام.

وأمّا أنّ الشيعة هم المجيبُون فإنّما تلك الإجابة صدرت بتبعية فعلهم عليهم السلام وإجابتهم كما في قوله تعالى (وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ) أي إلى الخير وإلى الشرّ وإن كنت تحسب أنّهم هم السّائرون فإنهم مسيرون ولا يلزم منه الجبر كما ذكرناه في رسائلنا في بيان المنزلة بين المنزلتين لأنّ الأئمة عليهم السلام إنّما فعلوا لهم بهم وأجابوا باستجابتهم ففعلهم في فعل شيعتهم كالرُّوح في الجسد وقد أشرتُ إلى هذا المعنى في قصيدة نظمتُها في مرثية الحسين عليه السلام في بيان أنّ أنصاره خرج بهم للموت حين خرج بهم للحياة من حيث لم يعلموا فكلّ واحد يريد الموت لرضا الحسين عليه السلام وما رضي إلاّ رضي بذلك لهم صلوات الله عليه قلتُ:

يسعى بهم سعي القضاء في الأولى

حـــيــاتهم في موتـهـــم بالرضا

وأما أن الأنبياء الماضين وأممهم من المؤمنين قد استجابوا لله قبل أن يوجد محمد وآله ﷺ في الدّنيا فليس كذلك بل أنهم صلّى الله عليهم يظهرون في كلّ عالم كما شاءوا لأنهم المعلّمون للخلق ولا يجوز أن يفرض أنّ أحداً سبقهم على خير قط من الأوّلين والآخرين كما سمعت من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ ومثله قول عليّ عليه السلام في حديث السحابة حين سأله الحسن عليه السلام (ورأينا في الهواء ملكاً قائماً رأسهُ تحت الشّمس ورجلاه في قعر البحر وله يد في المشرق وأخرى في المغرب، فلما نظر إلينا قال أشهد ألاّ إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله وأنك وصيّ نبيّ الله حقّاً حقّاً بغير شك ومن شكّ فيك فهو كافر فقلنا يا أمير المؤمنين من هذا الملك وما بال هذه في المشرق وأخرى في المغرب فقال عليه السلام هذا الملك أنا أقمتُه بإذن الله تعالى في هذا الموضع ووكّلته بظلمات اللّيل وإيضاء النهار فلا يزال كذلك إلى يوم القيامة وذلك إنّما أعطاني الله تدبير أمر الدنيا فأنا أدبّرها بإذن الله تعالى).

وقال عليه السلام في بيان معرفته بالنورانية لسلمان وأبي ذرّ (يا سلمان ويا جندب قالا لبيّك يا أمير المؤمنين قال عليه السلام أنا الّذي حملتُ نوحاً في السفينة بأمر ربي وأنا الّذي أخرجتُ يونس من بطن الحُوت بإذن ربي وأنا الذي جاوزتُ موسى بن عمران بأمر ربّي وأنا الذي أخرجتُ إبراهيم من النّار بإذن ربّي وأنا الذي أجريت أنهارها وفجّرتُ عيونها وغرستُ أشجارها بإذن ربي وأنا عذاب يوم الظلة وأنا المنادي من مكان قريب قد سمعها الثقلان الجنّ والإنس وفهمه قوم إنّي لأسمع كلّ قوم

الجبّارين والمنافقين بلغاتهم وأنا الخضر عالم مُوسى، وأنا مُعلّم سليمان وداود وأنا ذو القرنين وأنا قدرة الله عزّ وجلّ يا سلمان ويا جندب قالا لبيّك يا أمير المؤمنين قال أنا محمّد ومحمّد أنا وأنا من محمّد ومحمّد مني قال الله تعالى (مَرَجَ البَحْرَيْنِ يَلتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ) يا سلمان ويا جندب قالا لبيّك يا أمير المؤمنين قال إنّ ميتنا لم يُمت وغائبنا لم يغب وإن قتلانا لم يقتلوا يا سلمان ويا جندب قالا لبيك يا أمير المؤمنين قال أنا أمير كلّ مؤمن ومؤمنة ممن مضى ومن بقي وأيدتُ بروح العظمة وأنا تكلمتُ على لسان عيسى بن مريم في المهد وأنا آدم وأنا نوح وأنا إبراهيم وأنا موسى وأنا عيسى وأنا محمّد أنتقل في الصور كيف أشاءُ من رآني فقد رآهم ومن رآهم فقد رآني، ولو ظهرتُ للناس في صورة واحدة لهلك فيّ الناسُ وقالُوا هو لا يزول ولا يتغير وإنما أنا عبد من عباد الله تعالى لا تسمّونا أرباباً وقولوا في فضلنا ما شئتم فإنكم لن تبلغوا كنه ما جعله الله لنا ولا معشار العُشر لأنّا آياتُ الله ودلائله وحجج الله وخلفاؤه وأمناء الله وأئمته ووجه الله وعين الله ولسان الله بنا يعذّب الله عباده وبنا يثيب ومن بين خلقه طهّرنا واختارنا واصطفانا ولو قال شخصٌ لم وكيف وفيم لكفر وأشرك لأنه لا يُسأل عمّا يفعل وهم يُسألون يا سلمان ويا جندب قالا لبيّك يا أمير المؤمنين قال من آمن بما قلتُ وصدّق بما بينتُ وفسرتُ وشرحتُ وأوضحتُ ونورتُ وبرهنتُ فهو مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان وشرح صدره للإسلام وهو عارف مستبصر قد انتهى وبلغ وكمل، ومن شك وعند وجحد ووقف وتحيّر وارتاب فهو مقصّر وناصب يا سلمان ويا حندب قالا لبيك يا أمير المؤمنين قال أنا أُحيي وأُميتُ بإذن ربي وأنا أنبئكم بما تأكلون وما تدّخرون في بيوكم بإذن ربّي وأنا عالم بضمائر

قلوبكم والأئمّة من أولادي يعملون ويفعلون هذا إذا أحبوا وأرادُوا لأن كلّنا واحد أولنا محمّد وآخرنا محمدٌ ، وأوسطنا محمد وكلنا محمدٌ فلا تفرّقوا بيننا فإنّا نظهر في كلّ زمان ووقت وأوان في أي صورة شئنا بإذن الله عزّ وجل كنّا، ونحنُ إذا شئنا شاء الله وإذا كرهنا كره الله الويل كلّ الويل لمن أنكر فضلنا وخصوصيتنا وما أعطانا الله ربّنا لأن من أنكر شيئا مما أعطانا الله فقد أنكر قدرة الله عزّ وجل ومشيته فينا) الحديث.

والاستشهاد في قوله عليه السلام في الحديث الأول (أنا أقمتُه بإذن الله) على أنّه الولي من الله على سائر خلقه فلا يكون شيء بأمر الله إلا عنه، وكذلك قوله (إنما أعطاني الله تدبير أمر الدنيا فأنا أدبّره بأمر الله تعالى) فإذا كان هو المدبّر لما يتعلق بالإيجادات كان تدبيره لما يتعلق بأمر التكليف بالطريق الأولى بالنّظر إلى من لا يعرفه بأمر الإيجادات كما هو المعروف عند عوامّ الناس، وإنما يعرفه في ذلك بما يتعلق بالتكاليف. وكذلك قوله في الحديث الثاني (أنا حملت نوحاً في السّفينة... إلخ) وقوله (أنا المنادي ... إلخ) وقوله (إني أسمع كلّ قوم ... إلخ) وقوله (وأنا الخضر عالم موسى وأنا معلم مُوسى ... إلخ) صريح في المدعى، وكذا قوله (وأنا تكلمتُ على لسان عيسى بن مريم) أصرح وأصرح منه قوله (أنتقل في الصور كيف أشاء) وأظهر من الكلّ قوله (فإنا نظهر في كل زمانٍ ووقت وأوانٍ في أيّ صورة شئنا) وكلّ هذا شواهد ما أولنا من قوله تعالى(وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا) كما سَبَق فإن فهمتَ وقبلتَ وإلا فلا تكذب بما لم تحط به علماً فتكون من أهل قوله (الويل كلّ الويل لمن أنكر فضلنا وخصوصيتنا وما أعطانا اللهُ ربنا لأنّ من أنكر ما أعطانا الله فقد أنكر قدرة الله عز وجلّ ومشيته فينا).

وإذا أردت تحقيق ما أشرنا إليه من تأويل قولهْ تعالى (وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ اليَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيدِ)، فاعلم أن الضمير الذي في (نُقَلِّبُهُمْ) المدلول عليه بالنون في التفسير الظاهر يعود إلى الله تعالى وهو ضمير المتكلم ومعه غيره أو المعظَّمِ نفسَهُ والمعلوم أنه لا يعود على الذات البحت و إنما يعود على مبدأ النسبة وهو مثال الذّات المعبر عنه هنا بفاعل التقليب لا الذّات البحت على أن معوده المتصف بالتكلّم بقيد التكلّم والتعظيم غير الذات، بل هو في الحقيقة هو الذي معه غيره فهم عليهم السلام التكلم وهم العظمة وهم ذلك المعنى فافهم.

وأما أن الأمم الماضية أجاب المؤمنون قبل أن يوجدوا فليس كذلك بل قد ورد النّصوص بالعموم والخصوص بأنهم عليهم السلام خُلقوا قبل كل شيء بألف دهرٍ.

وفي الحديث المتّفق عليه وهو قوله صلى الله عليه وآله وسلم (كنتُ نبياً وآدم بين الماء والطين)وروى ابن أبي جُمهور أن عليا عليه السلام قال (كنتُ ولياً وآدم بين الماء والطين) وما دل على أنهم الحجة على كل الخلق وقد دلت أخبارهم عليهم السلام على أن الحجة قبل الخلق ومع الخلق وبعد الخلق وما ذكرنا من حديث السّحابة وحديث معرفته بالنّورانية كما مرّ وغير ذلك ممّا لا يكاد يُحصى كلّها دالّة على سبقهم على جميع الخلق.

وأمّا الاستدلال بأنّ هذا الترتيب في ذلك العالم طبق الترتيب في هذا العالم فهو صحيحٌ والأمر كذلك ولكن الظّهور البشري من محمّد متأخّر عن الأمم الماضية، وأمّا الظّهور الوجودي فإنّه متقدّم وهو الّذي عليه المدار، ولا يتوهّم أنّ الكثيف المقابل للسراج هو الّذي وجد من نور من نور السراج وأمّا ما بينه وبين الكثيف المقابل فليس شيئاً لأنّه لو لم يكن شيء بينه وبين الكثيف لم يكن في الكثيف إشراق لعدم الواسطة ولئلا يلزم وجود الأبعد من المبدأ قبل وجود الأقرب، ولئلا يلزم

الفصل بين المفيض والفيض ولو قيل بأن ما ظهر في الكثيف هو الأول وهو الأقرب وليس بينه وبين المفيض فصل ولا وصل، لزم أن يكون لو حدث بعده كثيف بينه وبين الكثيف الأول كان أقل نورا من الأوّل وكان مستنداً إلى الأوّل مع أنّ الأمر بالعكس بل يكون أقوى نُوراً من الأول وكان الأوّل مستندا إليه وليس ذلك إلاّ لكونه موجودا إذ لا يصح وجود الأضعف قبل الأقوى وأمّا الظهور البشريّ فلا يلزم من تقدّم وجوده عدم تقدّم الظهور البشري فافهم.

وأمّا أحكام العهد فمنه عهد قابلات ومقبولات وقد مرّت الإشارة، ومنه تعهد والتزام بالوفاء وذلك في الحقيقة إقرار بالحق لذي الحقّ وباستحقاق الحقّ سبحانه وتعالى للحق كما في قوله تعالى (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)فأحكام هذا العهد والالتزام بتبيين المعرفة وتحبيب الطّاعة والحيلولة بينه وبين الشّياطين والشّهوات حتى يحبوا الطّاعة عن معرفة فتخلص نياتهم وتثبيت القلوب بالطّمأنينة والاستقامة بمحو الأوهام والشّكوك والتوقّفات والهموم ثلاث سنين حتى يستقر الحق باعتياد النفوس به الملزوم بالترغيب والترهيب مرّة بعد أخرى فهم يعلمون الحقّ بالحق، ويعلمون للحق ويقولون للحقّ ويُقرون للحقّ ويقرّون في الحقّ ويُقرون على الحق فأحكموه منهم عليهم ومن شيعتهم حتى قطعُوا ظهور الشّياطين وأقامُو لله الحقّ والدّين صلّى الله عليهم أجمعين.

قال عليه السلام ونصحتم له في السّرّ والعلانية
ودعوتم إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة

قال الشارح رحمه الله ونصحتم له أي لله تعالى عبادهُ في السّر والعلانية ودعوتم إيّاهم بالحكمة والموعظة الحسنة أي بالقرآن والسّنة أو مقرونة بالحكمة في القول

والفعل حتى بالجهاد والحدُود بالنظر إلى بعض وبالموعظة بالنّظر إلى آخر أو الجميع أو مندرجا انتهى.

أقول: النّصح الخلوُص وضد الغشّ وفلان ناصح أي نقيّة والنّصيحة تستعمل لمعان تعدّدت بتعدد مقاماتها، فالنّصح لكتاب الله التّصديق به والإيمان بمحكمه ومتشابهه وإنّ متشابهه أريد به المحكم وتأويله بالحقّ الّذي يؤدّي إلى محض التّوحيد وخالص العدل وصادق النبوّة ولطف الولاية وحقية يوم الدّين والوقوف عند عدم الظهور مع الإيمان والتّسليم وعدم الالتفات إلى ما يخالف ذلك.

والنصح لرسول الله ﷺ الإيمان به وبنبوته ورسالته وبما جاء به عن ربّه من أحوال النشأتين والانقياد لما أمر به ونهى عنه وقبول نصحه والاهتداء بإرشاده والاتّباع له في أقواله وأفعاله وأعماله واعتقاداته بحسب طاقة المكلّف. والنصح لأئمّة الهدى عليهم السلام الإخلاص في محبتهم والاحتمال لعلمهم والمتابعة لهم في أقوالهم وأفعالهم وأعمالهم وعدم الشك فيهم والاستقامة على ولايتهم والتّسليم لهم والرّد إليهم والإخبار فيما يرد عنهم في شأنهم وفضائلهم وبذل الجهد والمجهود في القيام بواجب حقّهم وقبول أوامرهم واجتناب نواهيهم والاتّباع في كلّ حال من الأقوال والأعمال وموالاتهم وموالاة وليهم وإن كان أبعد بعيد ومعادات عدوّهم وإن كان أقرب قريب ولله دَرُ دِعْبِل الخُزاعي حيث يقول في هذا المقام:

أحِب قصي الرحْمِ من أجل حُبكم
وَأهْجُرُ فيكم زَوْجَتي وبناتي

والاحتجاب بذمتهم والتّمسّك بحبلهم والاعتراف بحقهم والاعتصام بذمامهم والتوقّي بولايتهم والاتّكال على حبّهم والانتظار لرجعتهم والاستعداد

لنصرتهم والدّعاء بتعجيل فرجهم والمصابرة لأيّامهم وهويِّ الأفئدة إليهم ومعرفة أنّ الحقّ لهم ومعهم وفيهم وعندهم وبهم وعنهم وإليهم ومد البصائر إليهم في جميع الأحوال لأنهم وجه الملك المتعال.

والنصح لله التحقق بتوحيده وبرؤية عدله والقيام بأوامره والاجتناب لنواهيه وإخلاص النية في عبادته وخدمته ونصرة الحق فيه بمحبة من أحبّ له وبغض من أبغض له وفعل ما يرضى ورضا ما يفعل وقصر جملته من ظاهره وباطنه وسرّه وعلانيته على موافقة إرادته وطلب رضاه ومحبته وطاعة رسوله ﷺ وطاعة أوليائه عليهم أفضل الصلاة والسلام فيهم وفي فروعهم من جميع الطاعات على نحو ما ذكرنا في حقّه وحقهم عليه وآله السلام، وذلك كله هو التحقق بمعرفته تعالى على الحقيقة فهذا كله من النصح له سبحانه في السر والعلانية.

أما في السر ففي الاعتقادات والنيات و الأعمال فيما بينه وبين نفسه في الخفية والخلوة مما كان العلّة في إخفائه كراهة اطلاع الغير لتقية أو غيرها أو لا.

وأما الإعلان ففي الأفعال والأقوال مما كان العلة في إظهاره محبّة اطّلاعه، إما للتعليم والاقتداء والتعريف وإما لجمع القلب بالاجهار أو الاتفاق أو غير ذلك، لأن من تحقق بمعرفة الله سرت في بواطنه وظواهره وأركانه ومشاعره فلا ينفك عن تلك الحال في حال ولقد أشار عبد الله بن قاسم السهروردي في قصيدته التي نظمها في ذكر أحوال سلوك أهل التصوف في هذا المعنى قال :

من أتانا ألقى عصى السير عنه

قلتُ من لي بها وأين السبيل

وقوله عليه السلام (ودعوتم إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة) يشير به إلى

قوله تعالى (ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالتِي هِيَ أَحْسَنُ).

والمراد بالحكمة والله أعلم الدليل الذوقي الذي كان بعين الفؤاد وعلى مقتضى الفطرة التي فطر الله عليها العباد وذلك مفيد للمشاهدة والمعاينة، وذلك بقراءة ما كتب الله في ألواح كتب الآفاق والأنفس من الآيات الدّالاّت على معرفة الأشياء كما هي لأنها هي مرايا المعاني والأعيان وليس فيها شُبَه ولا أوهام ولا شكوك بل هي أشباح الأشياء وأظلتها بالحق الذي لا مرية فيه، مع أن هذا الدليل إنما ينتفع به المؤمن الذي امتحن الله قلبه للأيمان وهو من كان صادقاً مع الله ومع رسُوله ﷺ وأوصيائه عليهم السلام كما قال الباقر عليه السلام (ما من عبد أحبنا وزاد في حُبنا وأخلص في معرفتنا وسُئل مسألةً إلا نفثنا في روعه جواباً لتلك المسألة) وأمّا من قرع غير بابها وأراد دخول بيتها من ظهره فإنّه وإن عرف الدّليل وكيفيّة الاستدلال بها بمثل استعمال الرّياضات والأذكار المعروفة عندهم فإنه لا يوفق لحقّها ويوفّق لكشف ما أشكل عليه في مذهبه الباطل بصورة الحقّ فهو بغير قصد شرعيّ يهيم في أودية الباطل(أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ⋆ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ) فقد خرج من ظلمة جهل ودخل في ظلمة نفاق (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا) وظلمة إنكارٍ كما قال تعالى (يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ الله ثُمَّ يُنكِرُونَهَا)(أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ)، وفي الحقيقة هذا ليس حكمة بل هو استكبار وشيطنة وهي شبيهة بالحكمة ولهذا ضل في دليلها كثيرُون وزل في سبيلها عارفون، كما أشرنا إليه سابقا من بعض مقالات أهل التصوّف واعتقاداتهم ومن قال بقولهم واتبع آراءهُم وهذا الدّليل إذا تحقق لشخص كان علمه ضرورياً علم عيان

وإحاطة لا علم إخبار ومفهوم، ومعنى هذا أن ما تتصوّره وهو علمك إن كان بعد الرّؤية بالعين فهو علم عيان وإن كان بعد مُعاينَة أسبابه وما يتفرعّ عليها وما يتوقّف عليه فهو علم إحاطة وإن كان إنما سمعت الخطاب الملقى إليك فرأيت ببصيرتك ما دلك اللفظ عليه من جهة فهمك لا من جهة وضعه فهو علم إخبار، وهذا الخطأ فيه أكثر من الصواب إذ ربما تفهم منه غير ما وضع اللفظ له وغير ما أراد المخاطِب وإنما تفهم شيئا قد صاغَهُ لك الخيال بتلونه فينتقش فيه ما تلوَّن به وهذه الصّورة صورة العلم المفهوم، ونظيره إذا رأيت شيئاً من بعيد فظننت أنّه إنسان فإنه منتقش في مرآة خيالك صورة ما فهمت وهذا علم مفهوم ومظنون فلمّا قربتَ منه فإذا هو خشبة.

ودليل الحكمة المشار إليه هو علم العيان وعلم الإحاطة ودليله كتاب الله التّدويني والتكويني في الآفاق وفي الأنفس وعينه ومبصره الفؤاد وهو نور الله وهو التّوسم وهو الفراسة ولهذا قلنا إنّ هذا لا يقابله إلا الإنكار لأنّه قد عايَنَ فلا يُفقد، فيقابله الجهل كما في العلم ولا يتوقف فيقابله الشك كما في اليقين، والله سبحانه يحاكم صاحبه إلى فؤاده، وشرط صحته إنصافُ ربه سبحانه.

وأما (الموعظة الحسنة) فهي أن يجري في الاستدلال على حدود العقل الشرعي وهو (ما عُبد به الرحمن واكتُسِب به الجنان) كما قال عليه السلام والمراد أنّك تقف مع خصمك بين الاحتمالين فتدعوه إلى ما فيه السلامة والنجاة والاحتياط والراحة منهما مع قطع النّظر عن الخصوص حين الدّعوة على سبيل الفرض لتسهل معالجة الخصم وإمالتُه إلى الحق إذ لو دعوته إلى الخصوص مع إعراضه عنه لم يقبل ولعُمي عليه المنهج، فإذا تحاكمتُما إلى عقله كابره وأنكر معروفه وإذا

عرضت عن الخصوّص لم يبعد عنه فَقرّبه إليه على جهة الفرض وذلك كما قال مؤمن آل فرعون لمّا تآمرُوا على قتل مُوسى عليه السلام (أَتَقْتُلُونَ رَجُلا أَن يَقُول رَبِّيَ الله)وهو قولٌ إن لم ينفعكم لم يضركم والحال أنه قد جاءكم بالحقّ من ربّكم لأنّ الذي أتى به لا يشابه شيئاً من الباطل ولا يكون في وسع أحد من البشر الإتيان بمثله وما هذا شأنه يكون حقا ولا يكون إلاّ من عند من هو قادر على إيجادكم وتربيتكم، ولو جاز أن يكون في الاحتمال مع قطع النظر عن كونه حقا للعلّة الّتي ذكرنا كاذبا فإنّما كذبه على نفسه لأنّ ذلك لا يضر إلا من كذب وهو الّذي فرض كذبه (وَإِن يَكُ صَادِقًا)كما تشهد به سنّة من كان قبلكم مثل قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وغيرهم فإنّه معكم كمثل أولئك مع قومهم (يُصِبْكُم بَعْضُ الذِي يَعِدُكُمْ)، وإنما قال بعض ولم يقل يصبكم الّذي يعدكم لأنّ العالم بالله لا يحتم على الله فيجوز أن يعدهم بشيء يعفو الله عنه كما وعد يونس عليه السلام قومه بالهلاك عن الله ثمّ بدا له سبحانه فعفا عنهم وكشف عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتَعَهُمْ إلى حين.

وبالجملة فهذا ومثله هو دليل الموعظة الحسنة وهو يثمر علم اليقين لأنّه راجع اختيار ما فيه النّجاة من الاحتمالين المتنازع فيهما ويقابله الشّك والرّيب والتوقّف ولا يقابله الإنكار لأنه قد يكون في شيء يقطع بحصول النّجاة فيه وإن لم يحصل له الاطّلاع عليه من باب الإحاطة والمعاينة ولا يقابله الجهل لأنّه لم ينظر في وجود شيء وعدمه ليكون إذا وجد تحقّق فيكون ضده فقدان ذلك الشيء، وإنّما ينظر في شيء وضده وهما موجودان يعتلجان في وجه العقل عند باب القلب لأنّ الشخص قبل الطمّأنينة في الشّكّ والرّيب لتردده بين الطرفين

أو التوقف ما دام الوقوف بين متعادليْن فإذا رجح الحقّ واطمأن عليه كان اليقين الذي لا يقابَلُ إلاّ بالشّك والرّيب والتوقف فإذا استعمل الاستدلال بالموعظة الحسنة أفاد عند استكمال شرائطه التي من جملتها التوفيق من الله تعالى اليقين والله سبحانه يحاكِمُ صاحبَ هذا الدّليل يعني المستَدلّ به و المستدَلّ عليه (بفتح الدّال) عند قلبه وشرطُ انتاجه انصافُ عَقْلِكَ إذا حَكَمَ عليك.

وأمّا المجادلة بالّتي هي أحسن فهو دليل ظاهر أكثر الاستدلالات به من النّاس ومن المتكلّمين والفقهاء لأنّه يستند فيه إلى ما يدلّ اللّفظ عليه بظاهره أو ما يلزم ذلك من منطوق صريح أو غير صريح أو مفهوم أو غير ذلك أو إلى أحد القياسات الأربعة المنطقيّة، وبالجملة فكتبُ العلماء مشحونة منه بل وجود غيره فيها قليل والقرآن والأحاديث قد وردت بها ذكراً واستعمالا لأنّ عمدة قيام الحجج على العوامّ به لأنّ غيره من دليل الحكمة والموعظة الحسنة لا يكاد يعرف كونه دليلاً إلاّ عند أهلها.

والسّبيل هو الطّريق والمراد هنا الدّعاء إلى الله سبحانه بتوحيده وعدله وبيان صفاته وأسمائه وإلى القيام بأوامره والاجتناب عن نواهيه وإلى رسُوله ﷺ وقبول أمره والانتهاء عند نهيه وتصديقه في كلّ ما أتى به عن الله تعالى من أحوال النّشأتين وإلى أهل بيته صلّى الله عليهم بمحبّتهم ومحبّة محبّيهم ومعاداة عدوّهم والبراءة منهم وبموالاتهم والتسليم لهم والقبول عنهم والردّ إليهم والاهتداء بهُداهم، والاحتمال لعلمهم والاحتجاب بذمّتهم والاتكال على ولايتهم وحبّهم والإخلاص في الاعتراف بحقّهم والتمسك بحبلهم والإيمان بأنّ الحقّ لهم ومعهم وفيهم وبهم والتّصديق بالتّفويض إليهم والتّعويض عليهم وإنّ إياب

الخلق إليْهِم وَحِسَابُهُمْ عليَهْم وَإِنَّ فَصْل الخطاب عندهم وهذا كله من ولايتهم فيما يرجع إلى الصفَاتِ الفعلية باعتبار متعلّقاتها.

وأمّا ما يرجع إلى الذوات فهم سبيل الله تعالى فيما يشاؤه ويريدهُ ويقدّرهُ ويقضيه ويمضيه ويأذن له ويُوَقِتهُ ويكتبه ويؤجله في سائر خلقه بمعنى أن كل شيء من خزائن غيُوبه مما جعله لخلقه فقد جعله عندهم عليهم السلام ولم يجعل فيما خَصَّهُمْ به لأحدِ مِنْ خَلِقه نصيباً ولمْ يجعل لأحدٍ مِنْ خلقه شيئاً إلاّ مما جعله عندهم ولم يجعل لأحد مِنْ خلقه ممّا جعله عِنْدهمْ إلاّ بهم فهم السَّبيلُ أي سبيل الله إلى عباده وهم حقيقة ذلك كله، وظاهره وهم السبيل أي سبيل الخلق إلى الله على نحو ما تقدّم من توقّف قبول الأعمال والدّعاء والأذكار وغير ذلك على محبّتِهمْ وولايتهم والأخذ عنهم والرَّد إليهم والتسليم لهم والبراءة من أعدائهم وجميع ما ذكر سابقاً مما يثبت لهم ممّا ذكرنا سابقا وقد تقدمَ هذا المعنى مكرراً. والحاصل أنّهم عليهم السلام دعوا إلى سبيل الله الّذي هو الطريق الذي يحقّ أن يُسَبَّل فلا يكون لأحد أرادهُ مانع لأنه سبحانه منذ فتح باب الخير مَا سَدهُ عن طالب وإنّما أعمالهم تحجبُهم عن سلوك الطريق الموصل إلى الحق بدليل الحكمة المشار إليه سابقاً وبالموعظة الحسنة حتى لا يكون لأحد من الخلق حجة على الله تعالى.

قال عليه السلام وبذلتم أنفسكم في مرضاته وصبرتم علي ما أصابكم في جنبه

قال الشارح رحمه الله وبذلتم أنفسكم في مرضاته بالمداومة على العبادات أو بإظهار الشريعة وإن أصابهم ما أصابهم من الشهادة سرا أو جهرا فإنه روي في الأخبار المتكثرة أنهم قالوا (مَا منّا إلا وَهوَ شهيد)ونقل أيضا من سقي جَبَابِرَةِ

وطواغيت أزمنتهم السُّموم وصبرتم على ما أصابكم في جنبه أي في أمره ورضاه وقربه انتهى.

أقول إنهم عليهم السلام بَذلُوا أنفسهم في مرضاة الله سبحانه حتى أَضَروا بأنفسهم في المأكل والمشرب والمطعم والملبس كما هو مذكور في أخبارهم ولقد روى الشيخ في مجالسه بسنده (عن أبي جعفر محمد بن علي عليه السلام أن فاطمة بنت علي بن أبي طالب عليه السلام لما نظرت إلى ما يفعل ابن أخيها علي بن الحسين عليهما السلام بنفسه من الدأب في العبادة، أتت جابر بن عبد الله بن عمرو بن حزام الأنصاري، فقالت له يا صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، إن لنا عليكم حقوقا ، ومن حقنا عليكم أن إذا رأيتم أحدنا يهلك نفسه اجتهادا أن تذكروه الله و تدعوه إلى البقيا على نفسه، وهذا علي بن الحسين عليهما السلام بقية أبيه الحسين عليه السلام ، قد انخرم أنفه، وسفنت جبهته وركبتاه وراحتاه أذاب منه لنفسه في العبادة. فأتى جابر بن عبد الله باب علي بن الحسين عليهما السلام، و بالباب أبو جعفر محمد بن علي عليه السلام في أغيلمة من بني هاشم قد اجتمعوا هناك، فنظر جابر إليه مقبلا، فقال هذه مشية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسجيته، فمن أنت يا غلام قال فقال أنا محمد بن علي بن الحسين عليه السلام، فبكى جابر بن عبد الله رحمه الله .

ثم قال أنت والله الباقر عن العلم حقا، ادن مني بأبي أنت وأمي، فدنا منه فحل جابر أزراره ووضع يده في صدره فقبله، وجعل عليه خده ووجهه، وقال له أقرئك عن جدك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم السلام، وقد أمرني أن أفعل بك ما فعلت، وقال لي يوشك أن تعيش و تبقى حتى تلقى من ولدي من اسمه محمد يبقر العلم بقرا.

وقال لي إنك تبقى حتى تعمى ثم يكشف لك عن بصرك. ثم قال لي ائذن لي على أبيك، فدخل أبو جعفر على أبيه فأخبره الخبر، وقال إن شيخا بالباب، وقد فعل بي كيت وكيت، فقال يا بني ذلك جابر بن عبد الله.

ثم قال أمن بين ولدان أهلك قال لك ما قال وفعل بك ما فعل قال نعم أبا الله، إنه لم يقصدك فيه بسوء، ولقد أشاط بدمك. ثم أذن لجابر، فدخل عليه فوجده في محرابه، قد أنضته العبادة، فنهض علي عليه السلام فسأله عن حاله سؤالا خفيا، ثم أجلسه بجنبه، فأقبل جابر عليه يقول يا ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أما علمت أن الله تعالى إنما خلق الجنة لكم ولمن أحبكم، وخلق النار لمن أبغضكم وعاداكم، فما هذا الجهد الذي كلفته نفسك قال له علي بن الحسين عليه السلام يا صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أما علمت أن جدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فلم يدع الاجتهاد، وتعبد بأبي هو وأمي حتى انتفخ الساق وورم القدم، وقيل له أتفعل هذا و قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال أفلا أكون عبدا شكورا.

فلما نظر جابر إلى علي بن الحسين عليه السلام وليس يغني فيه من قول يستميله من الجهد و التعب إلى القصد، قال له يا ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، البقيا على نفسك، فإنك لمن أسرة بهم يستدفع البلاء، ويسأل كشف اللأواء، وبهم تستمطر السماء.

فقال يا جابر، لا أزال على منهاج أبويّ مؤتسيا بهما صلوات الله عليهما حتى ألقاهما، فأقبل جابر على من حضر فقال لهم والله ما أرى في أولاد الأنبياء مثل علي بن الحسين عليه السلام إلا يوسف بن يعقوب عليه السلام، والله لذرية علي بن الحسين عليه السلام أفضل من ذرية يوسف بن يعقوب، إن منهم لمن يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا).

وكذلك جميع الأئمة الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين فإنّهم أتعبوا أنفسهم في عبادة الله في الصلاة والصيام إلى حد لا يقوم به أحد من الخلائق لا ملك مقرب ولا نبي مرسل وكانوا يقتفون أثر جدهم صلى الله عليه وآله وسلم وكان إذا صلّى قام

حتى تنفطّر (تتفطر) رجلاه قالت عائشة(يَا رَسُول الله ﷺ لِمَ تُتْعِبُ نَفْسَكَ وَ قَدْ غَفَرَ الله لكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ فَقَال يَا عَائِشَةُ أَ لا أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً).

وغير ذلك مما يصعب حصره وروى الشيخ في أماليه بسنده عن محمد بن مسلم قال (دخلت على أبي جعفر عليه السلام ذات يوم و هو يأكل متكئا، قال و قد كان يبلغنا أن ذلك يكره، فجعلت أنظر إليه، فدعاني إلى طعامه، فلما فرغ، قال يا محمد ، لعلك ترى أن رسول الله ﷺ رأته عين و هو يأكل متكئا منذ بعثه الله إلى أن قبضه ثم رد على نفسه فقال لا و الله ما رأته عين يأكل هو متكئ منذ أن بعثه الله إلى أن قبضه. ثم قال يا محمد ، لعلك ترى أنه شبع من خبز البر ثلاثة أيام متوالية منذ أن بعثه الله إلى أن قبضه ثم إنه رد على نفسه، ثم قال لا والله، ما شبع من خبز البر ثلاثة أيام متوالية إلى أن قبضه الله، أما إني لا أقول إنه لم يجد، لقد كان يجيز الرجل الواحد بالمائة من الإبل، ولو أراد أن يأكل لأكل، و لقد أتاه جبرئيل عليه السلام بمفاتيح خزائن الأرض ثلاث مرار، يخيره من غير أن ينقصه الله مما أعد له يوم القيامة شيئا، فيختار التواضع لربه، وما سئل شيئا قط، فقال لا، إن كان أعطى، وإن لم يكن قال يكون إن شاء الله تعالى، وما أعطى على الله شيئا قط إلا سلم الله له ذلك، حتى إن كان ليعطي الرجل الجنة فيسلم الله ذلك له ، ثم تناولني بيده فقال وإن كان صاحبكم عليه السلام ليجلس جلسة العبد، ويأكل أكل العبد، ويطعم الناس خبز البر واللحم، ويرجع إلى رحله فيأكل الخبز والزيت، وإن كان ليشتري القميصين السنبلانيين، ثم يخير غلامه خيرهما، ثم يلبس الآخر، فإذا جاز أصابعه قطعه، وإن جاز كعبيه حذفه، وما ورد عليه أمران قط كلاهما لله رضا إلا أخذ بأشدهما على بدنه، ولقد ولي الناس خمس سنين ما وضع آجرة على آجرة، ولا

لبنة على لبنة، ولا اقتطع قطيعة، ولا أورث بيضاء ولا حمراء ، إلا سبع مائة درهم فضلت من عطائه ، أراد أن يبتاع بها لأهله خادما، وما أطاق عمله منا أحد، وإن كان علي بن الحسين عليهما السلام لينظر في كتاب من كتب علي عليه السلام فيضرب به الأرض، ويقول من يطيق هذا)هـ .

وفي رواية محمد بن قيس عن الباقر عليه السلام إلى أن قال عليه السلام (وَ لقَدْ أَعْتَقَ أَلفَ مَمْلُوكٍ مِنْ كَدِّ يَدِهِ وَ تَرِبَتْ فِيهِ يَدَاهُ وَ عَرِقَ فِيهِ وَجْهُهُ وَ مَا أَطَاقَ عَمَلَهُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ وَ إِنْ كَانَ لَيُصَلِّي فِي اليَوْمِ وَ الليْلةِ أَلفَ رَكْعَةٍ وَ إِنْ كَانَ أَقْرَبُ النَّاسِ شَبَهاً بِهِ عَلِيَّ بْنَ الحُسَيْنِ عليهما السلام وَمَا أَطَاقَ عَمَلهُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ بَعْدَهُ)هـ.

وبالجملة كلهم عليهم السلام في العبادة والخشوع لله والزهد والورع والكرم والقيام بالجهاد في سبيل الله تعالى جهاد النفس وجهاد الكفّار والبغاة قد بذلوا أنفسهم وأموالهم لم يبقوا فيهما بقيّة لأنفسهم ولا لمن سواهم حتى أضرّوا بأنفسهم في غاية الجهد ولقد كان جدّهم عليهم السلام (قَامَ صلى الله عليه وآله وسلم عَشْرَ سِنِينَ عَلى أَطْرَافِ أَصَابِعِهِ حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ وَ اصْفَرَّ وَجْهُهُ يَقُومُ الليْل أَجْمَعَ حَتَّى عُوتِبَ فِي ذَلِكَ فَقَال الله عَزَّ وَ جَل طه ما أَنْزَلنا عَليْكَ القُرْآنَ لِتَشْقى بَل لِتَسْعَدْ بِهِ)، وكان من ختام اجتهادهم وبذلهم أنفسهم في طاعة الله أنّ الله سبحانه لمّا خلق النور وخلق الظلمة وخلقهم من صفوة النور فهم زاكون طاهرون لم يشبهم كدر ولم تقع منهم معصية وخلق أعداءهم من صفوة الظلمة فهم خبيثون ليس لهم نور ولم تقع منهم طاعة وخلط باقي الطينتين لما بينهما من نوع المشاكلة، لأنّ بقية النور التي هي طينة المؤمن لم تكن صافية بل فيها شوبٌ ما من الظلمة لقوّة المزج المقوِّم لها وكثرته زيادة على ما يحصل به تقوّم النور وكذلك بقيّة الظلمة التي هي طينة المنافقين التّابعين لم تكن

صافية بل فيها شوب ما من النور من جهة المزج المقوّم لها وكثرته زيادة على ما يحصل به تقوم الظلمة، فلما أخذ المؤمنين بيمينه أصابهم من لطخ المخالفين فحكم بعدله أنّه لا يجاوز ظلم ظالم فشفّع محمد وأهل بيته الطيبين عليه وعليهم الصلاة والسَّلام عند الله سبحانه في شيعتهم وشرط عليهم فيما طلبوا منه وأجابهم إليه شروطاً قد عظّم بها مثوبتهم ورفع بها درجتهم إلى مراتب عنده لم يكونوا ينالونها إلا بتلك الشّروط وجعل هذه الشروط لتكميل شيعتهم لا لتكميلهم تشريفاً لهم وتنزيها لمقامهم عن توقف تكمّل ذواتهم على شرط لثلاثة أوجه.

الأول: إن استحقاق ذواتهم لغاية الكمال الإمكاني لم يكن مع أصل الشرط أو بعده بل استحقاقها ذاتي لأنها قبل الشروط وقبل القيود لأنّها ليست من الوجود المقيد من قوله تعالى (يَكادُ زَيْتُها يُضِيءُ وَ لوْ لمْ تَمْسَسْهُ نارٌ).

الثاني: لما كانت لطيفتهم من الله تعالى زائدةً على حقيقتهم وتلك الزيادة تكمل كلّ ناقص منهم بل لا تكميل لناقص من الخلق إلاّ بها ناسب أن يُنسب إليهم الاشتراط لتكون ما كمّلوا به إنما هو لشرطٍ شُرِط عليهم لإظهار تكرّمهم على محبيهم وشفقتهم عليهم فلا يكون ما فعلوه إلاّ بعوضٍ كما هو شأن غير المماليك، إنما يفعلون لمقابلة شيء وهم وإن كانوا مماليك له سبحانه لا يخرج أحد عن ملكه ولكنّه وهبهم أنفسهم فنزّلهم منزلة الأحرار تكرمةً لهم فلذا فوّض إليهم فقال تعالى(هذا عَطاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسابٍ).

الثالث: التنويه بهم بين سائر خلقه حيث تحمّلوا في رضاه من المشاق ما لا يحتمله غيرهم مختارين إذ لو شاؤوا لم يتحمّلوا ذلك ويقبل الله شفاعتهم فيمن شاؤوا فمن الشروط أنّهم يتحمّلون ذنوب محبيهم لانتسابهم إليهم فيرجعون

إليهم بما عليهم من الذنوب، ولهذا كثيراً ما يستغفرون من ذنوبهم الّتي تحملوها عن محبيهم فإذا كان المذنب من المؤمنين طيب الأصل كان ما وقع منه عليهم فتُعدّ مِن سائر ذنوبهم ومن هنا قول الله عز وجل لنبيه ﷺ (لِيَغْفِرَ لكَ الله ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ ما تَأَخَّرَ).

ومنها الدوام على المجاهدات الشاقة كما هو معروف بين المسلمين ومنها الشهادة فإنّهم عليهم السلام لم يمت أحد منهم حتف أنفه وذلك أنهم عليهم السلام باعوا أنفسهم على الله بنجاة محبيّهم من النار حتى مضوا كلّهم على الشّهادة فقد مات رسول الله ﷺ بالسمّ، وخرج عليّ عليه السلام مضرّجا بالدم بضربة ابن ملجم لعنه الله لعناً وبيلاً وعذبه عذاباً أليماً وضربت فاطمة الزهراء صلى الله عليها على ظهرها وجنبها حتى ألقت جنينها محسنا ولُطِم خدها وغُصِب حقّها وأوذيت في ذريتها وخُولف فيها قول أبيها ﷺ ولقد نقل عبد الحميد بن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة عن بعض الشيعة وأظنه مهيار الديلمي شعراً في هذه المعاني :

يا ابنة الطاهر كم تقـــرع بالظلم عصاك

غضب الله لخطب ليلة الطف عـــــراك

ورعى النار غدا فظّا دعا أمس حماك

مرّ لم يعطف لشكواك ولا استحي بكاك

واقتدى الناس به بعد فأردى ولـــداك

لهف نفسي وعلى مثلك فلتبك البواكـــي

فرحوا يوم أهانوك بمـــا ساء أباك

وتعرضت لأمر تاقـــه فانتهـــــراك

وادعيت ولقد أخبرهم أن رضاه في رضاك

وادعيت النحلة المشهود فيها بالصكــــاك

فاستشاطا ثم ما إن كذبا إذ كذبـــاك

فزوى الله عـــن الرحمـة زنديقــــا زواك

ونفى عن بابه الواسع شيطانا نفاك

والحسن بن علي بن أبي طالب ﵇ أهين وخُذِل وترك فريداً حتى جرحه الجراح لعنه الله بعدد ما في علم الله ومات بالسم كما مات جده رسول الله ﷺ سمّته جعيدة بنت الأشعث لعنها الله ومنع من الدفن بجوار جده ﷺ والحسين ابن علي ﵇ قتل بطف كربلاء غريبا وحيدا عطشاناً وهو يرى ماء الفرات بعدما قُتلِت أولاده وإخوانه وبنو عمه وبنو أخيه وحماته ونهبت أمواله وحرقت خيامه وسبيت نساؤه، وسيّرت هدايا إلى الشام على عجف المطايا وحملت معهن رؤوسهم على الرماح يشهّروهن مع الرؤوس من بلاد إلى بلاد لرضاء يزيد وابن زياد لعنهما الله ، وعلي بن الحسين ﵇ سمهُ الوليد بن عبد الملك بن مروان لعنهم الله تعالى ومحمد بن علي بن الحسين ﵇ سمه إبراهيم بن الوليد لعنهما الله وجعفر بن محمد ﵇ سمهُ أبو جعفر المنصور لعنة الله عليه،وموسى بن جعفر ﵇ سمّه هارون الرشيد بن المهدي لعنهما الله تعالى وعلي بن موسى ﵇ سمّه المأمون لعنه الله تعالى ومحمد بن علي ﵇ سمه المعتصم لعنه الله تعالى وعلي بن محمد الهادي ﵇ سمه المعتمد لعنه الله تعالى والحسن العسكري ﵇ سمه المعتز لعنه الله والحجة المنتظر صلى الله عليه وعلى آبائه الطاهرين غيّب الله شخصه فهو المضطر الذي يجاب إذا دعا عجّل الله فرجه وسهل مخرجهُ، ورزقنا طاعته آمين يا رب العالمين

ولو حاول شخص أن يحصي ما ترتّب على بذلِهم أنفسهُم في طاعة الله تعالى من المشاق والآلام والجُوع ومعاداة الأعداء الكثيرة في الله وما يَتَرَتَّبُ على ذلك لما كاد يحيط به.

وقوله عليه السلام (وصبرتم على ما أصابكم في جنبه) مترتب على قوله عليه السلام (وبذلتم أنفسكم في مرضاته) وذلك أنهم بذلوا أنفسهم في عبادته وصبروا على ما أصابهم في جنبه من مشقّة العبادة من التعب الشديد والسهر في قيام الليل والتفكر في العالم ومن الجوع في الصيام له حتى أنّهم ربما بقوا ثلاثة أيام صائمين لم يفطروا إلاّ بالماء وقد يربطون حجر المجاعة على بطونهم وصبَرُوا على ألم ذلك ومشقتِهِ، ومن كلفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وما لقوا في ذلك فصبروا في إقامة ذلك على مُعَاداة الأعداء ومجاهدة الباغين من الكافرين والمنافقين حتى جرى عليهم ما ذكرنا الإشارة إلى بعضه.

والجنب جهة الشيء ويطلق على الذات مثل أوذي في جنب الله أي ذات الله إذا أريد منه في الله وإن أريد غير ذلك يكون بمعنى الطاعة وقيل بمعنى الأمر وقيل بمعنى القرب والجوار فإذا قالوا عليهم السلام نحن جنبُ الله صحّ على المعاني الأربعة وكلّها رُويت عنهم عليهم السلام وقد مر ذكرُ ذلك.

والصبر هو الحبس، والمراد حبس النفس على المكروه وقد روي أن كلّ شيء من الأعمال الصالحة له أجر مقدّر إلاّ الصبر فإن أجره غير مقدّر قال الله تعالى (إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ)وهو على ثلاثة أقسام صبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، وصبر على المصيبة فالصبر على الطاعة واحد بثلاثمائة والصبر عن المعصية واحد بستمائة والصّبر على المصيبة واحد بتسعمائة.

أقول قد يفرق بين الصبر والبلاء فيكون الصّبر على المكروه بالاختيار كالصبر على الطاعة والصبر عن المعصية والصبر على المكروه بغير الاختيار كالصبر على المصيبة مصيبة الموت والصبر على الأمراض هو البلاء، كما في حديث بلال مؤذن النبي ﷺ (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَمَّا بَابُ الصَّبْرِ فَبَابٌ صَغِيرٌ مِصْرَاعٌ وَاحِدٌ مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ لا حَلقَ لهُ وأَمَّا بَابُ الشُّكْرِ فَإِنَّهُ مِنْ يَاقُوتَةٍ بَيْضَاءَ لَهَا مِصْرَاعَانِ مَسِيرَةُ مَا بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ لهُ ضَجِيجٌ وَحَنِينٌ يَقُولُ اللهمَّ جِئْنِي بِأَهْلِي قَال قُلتُ هَل يَتَكلمُ البَابُ قَال نَعَمْ يُنْطِقُهُ الله ذُو الجَلالِ وَالإِكْرَام وأَمَّا بَابُ البَلاءِ قُلتُ أَليْسَ بَابُ البَلاءِ هُوَ بَابَ الصَّبْرِ قَال لا قُلتُ فَمَا البَلاءُ قَال المَصَائِبُ وَالأَسْقَامُ وَالأَمْرَاضُ وَالجُذَامُ وَهُوَ بَابٌ مِنْ يَاقُوتَةٍ صَفْرَاءَ مِصْرَاعٌ وَاحِدٌ مَا أَقَل مَنْ يَدْخُلُ فِيهِ)الحديث.

والظاهر أنّ الصبر من حيثُ هو واحد وإنما ذكر مخالفاً لبعضهِ كما فرق في الحديث الأخير لأجل متعلقه فإذا حبس نفسه على تحمّل مشقّةِ الطاعةِ وترك المعصيةِ سُمّي صبرا وإذا حبس نفسه على تحمّل مشقة مصيبة الموت ومشقة الأوجاع والبَلايَا والمحن في الدّنيا سُمي بَلاَء، وفي الحالين حبس النفس على المشقة وهو الصّبر ثمّ اختلاف مراتبه في الحديث الأول الذي نقلناه بالمعنى لعَله لأنّ الصبر على الطاعة فيه ثواب موافقة أمر الله ومخالفة هوى النفس وهُوَ ضعيف لأنّ أصله عدمي.

والصّبر عن المعصية فيه ثواب موافقة نهيه ومخالفة هوى النفس وهذا وإن كان أيضا عدميّاً لكن استمدادُها بالمعصية أقوى من استمدادها بترك الطّاعة لأن ترك الطّاعة غذاءٌ ضعيف للنفس الأمارة لرجوعه إلى ضعيف الضدّ لا إلى تقوية

النفس بخلاف المعصية، فإنها غذاء للنفس الأمارة قوي لرجوعه الى تقويتها مع استلزام ضعف الضد ومثاله أن تفرض السير إلى الغرب فعل الطاعة والسير إلى الشرق فعل المعصية فإذا غرّبت لزمك أنّك لم تشرق وإذا لم تغرب لم يلزم منه أنك شرّقتَ الذي هو مثال المعصية ولكنه أسوء من التغريب، وإذا شرقتَ لزمك أنّك لم تغرّب وإذا لم تشرّق لم يلزم منه أنّك غربتَ الذي هو مثال الطاعة ولكنه ليس أسوء من التشريق ولا مساويا له بل التّشريق أسوء منه فلهذا كان الصبر عن المعصية ضِعفَ الصبر على الطاعة.

وأمّا الصبر على المصيبة فهو جامع للصبرين لموافقته أمر الله ومخالفته الهوى فيما هو ذاتي له كما في المعصية بل هو أبلغ لأنه ذاتي وجودي بخلاف ذاتي المعصية فلهذا كان الصبر على المصيبة مثل الصبرين الأولين.

وأما كون باب الصبر في أبواب الجنة صغيراً فلضيقه على السالك منه لأن الصبر حبس النفس على ما تكره مع استمراره وحبسها على ما تكره مع الاستمرار شديد الضيق عليها لعدم انبساطها معه، وأما كونه مصراعاً واحداً فلأنه لمّا كان حبساً مستمراً اقتضى الوحدة إذ ليس فيه انتقال ليكون فيه تعدد فافهم.

وأما أنه ليس له حلق لأنّ حلق الباب إنّما توضع للاستئذان،والصبر ليس فيه استئذان لا أنّه عدم الجزع وقد كان عدم الجزع موجوداً قبل المصائب والبلايا فهو ليس بجازعٍ قبلها فإذا وقعت بقي على الحالة الأولى فلو فُرِضَ أنّه جزع بعد المصيبة ثم صبرَ لم يكن ذلك مُنافِياً لعدم الاحتياج إلى الاستئذان الذي يراد منه عدم توقف الدخول فيه على أمرٍ خاص ويعبر عنه ظاهراً بالاستمرار على ترك الجزع بخلاف باب الشكر فإنه يحتاج إلى إنشاء عمل لا أنّه استمرار على الحالة

الأولى كالصبر فلذا كان لباب الشكر مصراعانِ وإنّما كان أبيض لما فيه من الرخاء وبرد القلب المعبر عنه بالبياض بخلاف الصبر فهو أحمر لما فيه من حرارة تجرع البليات والمصائب.

وأمّا باب البلاء فهو باب مثل باب الصبر في كونه صغيراً و مصراعاً واحداً وأما كونه أصفر فلأن البلاء وإن كان حبساً على ما تكره النفس لكنه لم يكن سببه اختيار الصابر لتكون تلك الحرارة مع الندم الذي منه اليبوسة المستلزمانِ للحمرة كما في الصبر، وإنما تلك الحرارة التي من ذلك الحبس كان معها الرضا الذي هو الرطوبة رطوبة الحياة المستلزمان للِصفرة فلذا كان أصفر فافهم.

قال عليه السلام وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة

قال الشارح رحمه الله وأقمتم الصلاة حقّ إقامتها بل لم يقمها غيرهم كما هُوَ حَقُّها من الإخلاص وحضور القلب كما هو متواتر عنهم وكذلك البواقي وتخصيصُها بالذكر من العبادات للاهتمام.

أقول : إقامة الصلاة إتمام ركوعها وسجودها وحفظ مواقيتها وحدودها وهيئاتها كما هو مأثور عن الشارع وقد يراد منها المحافظة عليها والمحافظة على الصلاة كما قال الصادق عليه السلام (إقبال الرجل على صلاته ومحافظته حتى لا يلهيه ولا يشغله عنها شيء)والمراد أنهم أقاموا الصلاة كما أمرهم الله تعالى في قوله لنبيّه صلى الله عليه وآله وسلم (فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ)وكما نهاهم الله سبحانه في قوله تعالى (وَ لا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ)، يعني أدّوا له ما هو أهله كما هم أهله بما ألهمهم من سلوك سبل ربّهم فحضروا عند مُناجاته إذا قرأوا كتابه وعند مناجاتهم عند دعائهم وطلب الإجابة وغابوا عند خدمته وهو معهم أينما كانوا وهم عنده أينما ظهر.

والصلاة من الله الرحمة وهي للمؤمنين مكتوبة ولغيرهم واسعة ومن الملائكة استغفار لشيعة علي عليه السلام يحومون حول عرشه سبعة آلاف سنةٍ وحول البيت المعمور سبع سنين وذلك لأنهم يصلون على محمد وآل محمد صلى الله عليه وآله وسلم فتكون صلواتهم عليه وآله تزكية له ولهم وصلواته على شيعتهم استغفار لهم واستشفاع فيهم قال الله تعالى(الذِينَ يَحْمِلُونَ العَرْشَ وَ مَنْ حَوْلَهُ) وهم الطائفون بالبيت المعمور ومن في أرجاء السموات والموكلون بكلّ شيء (يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ)، يعني يسبّحون الله بتزكية نبيّه وآله صلى الله عليه وآله وسلم وبالاستغفار لشيعتهم (وَ يُؤْمِنُونَ بِه) أي يقيمون ولاية عليّ عليه السلام فيما وكلوا به من تدبير أمر عذراً أو نذراً (وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلذِينَ آمَنُوا) يعني للذين آمنوا بولاية عليّ عليه السلام (رَبَّنا وَسِعْتَ كُل شَيْءٍ رَحْمَةً وَ عِلماً) وسع المؤمنين بفضله والكافرين بعدله (فَاغْفِرْ لِلذِينَ تابُوا) فلم يتولّوا أعداء علي عليه السلام وأنابوا إلى الله تعالى بولاية علي عليه السلام (وَ اتَّبَعُوا سَبِيلكَ)وهو الصراط المستقيم والنبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون وعنه مسؤولون (وقِهِمْ عَذابَ الجَحِيم) التي هي مأوى الظالمين الجاحدين (رَبَّنا وَأَدْخِلهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ التِي وَعَدْتَهُمْ)وجنة عدن هي مأوى محمد وآل محمد صلى الله عليه وآله وسلم وشيعتهم وعدهم في قوله تعالى(فَأُولئِكَ مَعَ الذِينَ أَنْعَمَ الله عَليْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَداءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً)(وَ مَنْ صَلحَ مِنْ آبائِهِمْ وَ أَزْواجِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ) أي ومن كان متوالياً من آبائهم وأزواجهم وأولادهم (إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ)الموصوف هو المعبود بالحق والاسم الأول محمد صلى الله عليه وآله وسلم والثاني علي عليه السلام وذلك قوله تعالى(عَزِيزٌ عَليْهِ ما عَنِتُّمْ)وقوله تعالى (وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الكِتابِ لدَيْنا لعَلِيٌّ حَكِيمٌ)(وَقِهِمُ السَّيِّئاتِ)وهي الموبقات التي ليس لها جزاء إلا الخلود

في الجحيم والعذاب الأليم وهذه السيّئات محبة أعداء الله وهي قوله تعالى (وَ الذينَ كَسَبُوا السَّيِّئاتِ) أي توالوا أعداء الله عن علم وبصيرة (جَزاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِها وَ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ما لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عاصِمٍ)الآية يعني ليس لهم إمام حق يأتمون به(وَ مَنْ تَقِ السَّيِّئاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ)وهو قوله تعالى(إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذلِكَ خَلقَهُمْ)أي للرحمة خلقهم وفيها صبغهم (وَذلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ)وهو تأويل قوله تعالى (وَأُدْخِلَ الجَنَّةَ فَقَدْ فازَ وَمَا الحَياةُ الدُّنْيا) ، يعني ولاية الأول كما روي عن الصادق عليه السلام (إِلاَّ مَتاعُ الغُرُورِ)لأنها سبيل الشيطان .

والصلاة من المؤمنين الدعاء لأنهم يقولون اللهم صل على محمد وآل محمد صلى الله عليه وآله وسلم والصلاة مشتقة من الصلة أي مدهم بمددك الهني السابغ الذي لا ينفد .

أو من الوصل أي صلهم بك كما قال تعالى(من أطاعهم فقد أطاعني و من عصاهم فقد عصاني)(ومن أحبهم فقد أحبني ومن أبغضهم فقد أبغضني)وهكذا.

أو من الوصلة وهي السبب يعني صِل بينك وبينهم بحجزة عنايتك وسبب لطفك ورحمتك والصّلاة من المؤمنين الدعاء كما قال تعالى لنبيه(وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ)أي ادْعُ لهم.

فإن قلت كيف يكون صلى بمعنى دعا وصلى إنما يستعمل مُعدّى بعلى وإذا كان بمعنى دعا كان معناه دعا عليهم وهو يكون بالمكروه بخلاف ما إذا عُدي دعا باللاّم فإنه يكون بالمحبوب.

قلنا إن صلّى عليهم مُعدّى بعلى بمعنى دعا لهم معدى باللام لا مطلق صلى بمعنى دعا وهم عليهم السلام أقاموا الصلاة على المعاني الثلاثة أمّا على معنى أنها من الله

الرحمة فلأنّهم محلّها بل هم الرحمة الواسعة حقيقةً كما دلّت عليه أحاديثهم وما يظهر من آثار الرحمة المغايرة لهم مما جاء في الكتاب والسُّنَة فعنهم عليهم السلام بدئت ولهم خلقت وعليهم أعلنَتْ بالثناء، فهم أقاموا صلاته عليهم وعلى ملائكته وأنبيائه ورسله والمؤمنين من عبادة أمّا إقامة صلاته سبحانه عليهم فكما مرّ من أنهم هم الرحمة وأنّهم تراجمة الرحمة لهم بلسان القبول المتوقف وجودها عليه ولغيرهم من سائر الخلق بلسان التشريع والتكوين في التبليغ والأداء.

وأمّا إقامة صلاة الملائكة فلصدورها من الملائكة عنهم على حكم (وَ نَضَعُ المَوازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيامَةِ)لأنّهم صلى الله عليهم هم خزائن الله سبحانه في كل شيء وقلوبهم هي الأَرض في قوله تعالى (والأَرْضَ مَدَدْناها وَأَلْقَيْنا فِيها رَواسيَ وَ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ وَ جَعَلنا لكُمْ فِيها مَعايِشَ) من إمدادات العلوم والعقول والأفهام والخيالات والمعارف والأعمال (وَمَنْ لسْتُمْ لهُ بِرازِقِينَ)منها يعني العلوم والعقول والأفهام والخيالات والمعارف والأعمال والأقوال والأحوال (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَما نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)ويدخل في حكم هذه الصلاة وإقامتها صلاة المؤمنين واقامتها، وإن اختلفت الهيئات ظاهراً أو كانت صلاة بعض المؤمنين أعلى من صلاة الملائكة والإقامة بحسبها وهذه الصلاة المشار إليها بالمعاني الثلاثة على كل فرضٍ من الاشتقاقات الثلاثة كلها من ولاية علي عليه السلام وأهل بيته الطاهرين وإقامتها على ما أمروا واعتقدوا وارشدوا وعملوا هي إقامتها، لأنها هي الصلاة والصلوات فروعها وصورها ومن ثمراتها وورقها وأغصانها وأصلها ولقاحها.

وفي حديث معرفة علي عليه السلام بالنورانية قال(يا سلمان ويا جندب قالا لبيك

يا أمير المؤمنين عليه السلام قال معرفتي بالنورانية معرفة الله عز و جل و معرفة الله عز و جل معرفتي بالنورانية و هو الدين الخالص الذي قال تعالى (وَما أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفاءَ وَ يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَ يُؤْتُوا الزَّكاةَ وَ ذلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ) يقول ما أمروا إلا بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم و هو الدين الحنفية المحمدية السمحة و قوله (ويُقِيمُونَ الصَّلاةَ) فمن أقام ولايتي فقد أقام الصلاة و إقامة ولايتي صعب مستصعب لا يحتمله إلا ملك مقرب أو نبي مرسل أو عبد مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان فالملك إذا لم يكن مقربا لا يحتمله و المؤمن إذا لم يكن ممتحنا لم يحتمله والنبي إذا لم يكن مرسلا لم يحتمله قلت يا أمير المؤمنين عليه السلام من المؤمن ومن الممتحن و ما حده وما نهايته حتى أعرفه قال عليه السلام يا أبا عبد الله قلت لبيك يا أخا رسول الله قال عليه السلام المؤمن الممتحن هو الذي لا يرد من أمرنا إليه شيء إلا شرح صدره له و لم يشك و لم يرتد اعلم يا أبا ذر أنا عبد الله عز و جل و خليفته على عباده لا تجعلونا أربابا و قولوا في فضلنا ما شئتم فإنكم لا تبلغون كنه ما فينا و لا نهايته فإن الله عز و جل قد أعطانا أكبر و أعظم مما يصفه واصفكم أو يخطر على قلب أحدكم فإذا عرفتمونا هكذا فأنتم المؤمنون قال سلمان قلت يا أخا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و من أقام ولايتك أقام الصلاة قال نعم يا سلمان تصديق ذلك قوله تعالى في كتابه العزيز (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاةِ وَ إِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلا عَلَى الخاشِعِينَ) فالصبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و الصلاة إقامة ولايتي فمنها قال الله تعالى (وَ إِنَّها لَكَبِيرَةٌ) و لم يقل و إنهما لكبيرة لأن الولاية حملها كبيرة إلا على الخاشعين و الخاشعون هم الشيعة المستبصرون)الحديث.

ففيما قال سلمان عليه السلام ومن أقام ولايتك أقام الصلاة تصريح بأنّ الولاية هي

الصلاة وإقامتها إقامة الصلاة وبالعكس وفي بيانه عليه السلام قال والصلاة اقامة ولايتي فعلم من الكلامين أن الصلاة التي هي ذات الركوع والسجود هي الولاية وأن اقامتها إقامة الولاية وأن نفس الصلاة هي التي هي ذات الركوع والسجود إقامة الولاية وليس في شيء من ذلك تدافع لأن ذات الركوع والسجود هي هيئة الولاية لأنّها أخصّ الأعمال وأشمل لخدمة الملك المتعال، بمعنى أنها مشتملة على جميع هيئات الخلق، أمّا الملائكة فمنهم ركوع كركوعها وسجود كسجودها وقيام كقيامها وقعود كقعودها ومتشهدون كتشهّدها ومنتقّلون كتنقلِها ومسلّمون كتسليمها.

وبالجملة كلّ عمل وتسبيح من أعمال الملائكة وتسبيحهم وحركة وسكون منهم فموجود في الصلاة ما يتضمّنة فهي عمود الدين وركن الإيمان والإسلام، وأمّا غير الملائكة فكذلك فذكر ذلك في أنواع الخلق ولو على سبيل الإجمال يطول به الكلام إلا أني أجمل لك ذلك وهو أنّ الصلاة صورة الولاية المطلقة والولاية جارية على الخلق بما هو عليه في وجوده التكويني والتشريعي فلا يتحرك شيء أو يسكن بل جميع أحواله إلاّ باقتضاء الولاية وتدبيرها من الولي فقد تضمّنت الولاية جميع ذرّات الوجود كما أشار سبحانه إلى ذلك بقوله (أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ)وقوله تعالى(يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ)فإذا كان هذا حكم الولاية ومقتضاها دلّ على أنّ ذلك أثر كينونيتِها وهي صفتها الذاتيّة وهذا يقتضي أنّ ما وصفها به الحكيم العليم بها يكون مشابهاً لصفتها الذاتيّة لأنّ الصفة اسم وعلامة للموصوف يعنيه من تلك الجهة لا يشتبه بغيره وإلاّ لم يكن اسماً وصفةً وعلامةً، فلمّا أخبر الحكيم العليم أنّ الصلاة هي ولايتي وأنها هي إقامة ولايتي دلّ ذلك على أنّ ذات الركوع و السجود هي إقامة ولايته لأنّها ظاهرها

وتدلّ على هيئتها وهي ولايته لأنها هي صورتها فإذا أطلق أقام الصلاة تناول إقامة الصلاة المعلومة وذلك إمّا من باب المجاز أو من الحقيقة بعد الحقيقة والمراد بذلك إقامة الولاية أي ما اقتضته الولاية من الأعمال والأقوال والاعتقادات والتأدّبات الإلهيّة وذلك صعبٌ مستصعب كما قال علي عليه السلام في الحديث المتقدم (و إقامة ولايتي صعب مستصعب)أي لا يحتمله بسهولة إلاّ محمد وأهل بيته صلى الله عليه وآله وسلم وأمّا كل من سواهم فإنهم قد تقع منهم الهفوات والتقصيرات حتى الأنبياء والمرسلون ومن تتبع أحاديثهم وجدها مشحونة بذلك.

ومن ذلك ما رواه (عن أبي حمزة الثمالي قال دخل عبد الله بن عمر على زين العابدين عليه السلام و قال له يا ابن الحسين الذي تقول إن يونس بن متى إنما لقي من الحوت ما لقي لأنه عرضت عليه ولاية جدي فتوقف عندها قال ثكلتك أمك قال فأرني آية ذلك إن كنت من الصادقين فأمر بشد عينيه بعصابة و عيني بعصابة ثم أمر بعد ساعة بفتح أعيننا فإذا نحن على شاطئ البحر تضرب أمواجه فقال ابن عمر يا سيدي دمي في رقبتك الله الله في نفسي فقال هبه و أر به إن كنت من الصادقين ثم قال يا أيها الحوت قال فأطلع الحوت رأسه من البحر مثل الجبل العظيم و هو يقول لبيك لبيك يا ولي الله فقال من أنت قال أنا حوت يونس يا سيدي قال أنبئنا بالخبر فقالت يا سيدي إن الله تعالى لم يبعث نبيا من آدم إلى أن صار جدك محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلا و قد عرضت عليه ولايتكم فمن قبلها من الأنبياء سلم و تخلص و من توقف عليها و تتعتع في حملها لقي ما لقي آدم من الخطيئة و ما لقي نوح عليه السلام من الغرق و ما لقي إبراهيم من النار و ما لقي يوسف من الجب و ما لقي أيوب من البلاء و ما لقي داود من الخطيئة إلى أن بعث الله يونس

فأوحى الله إليه أن يا يونس تول أمير المؤمنين عليا و الأئمة الراشدين من صلبه في كلام له قال فكيف أتولى من لم أره و لم أعرفه و ذهب مغتاضا فأوحى الله تعالى إلي أن التقم يونس و لا توهن له عظما فمكث في بطني أربعين صباحا يطوف معي البحار في ظلمات ثلاث ينادي أَنْ لا إِلهَ إلاّ أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظّالِمِينَ قد قبلت ولاية علي أمير المؤمنين و الأئمة الراشدين من ولده فلما آمن بولايتكم أمرني ربي فقذفته على ساحل البحر فقال زين العابدين عليه السلام ارجع أيها الحوت إلى وكرك و استوى الماء)الحديث رواه في البحار.

ولأجل مثل ما ذكر أشار في الحديث السابق بقوله عليه السلام وإقامة ولايتي صعبٌ مستصعب فإذا أردت إقامة الصلاة على الحقيقة الإضافية فالأنبياء والمرسلون والأوصياء والخصيصون من أشياعهم يقيمونها، كذلك وإن أردت إقامة الصلاة على الحقيقة الحقيقيّة ظاهراً وباطناً على أكمل وجهٍ لا يقيمُها إلا محمد صلى الله عليه وآله وآلهُ الثلاثة عشر المعصومون صلى الله عليهم أجمعين لأنّ الصلاة التي هي ذات الأركان التي هي صورة الولاية والصلاة التي هي الولاية التي هي باطن الوجود وعلة الوجود لا يقدر على القيام بهما كما يريد الله منهما إلاّ من جعلهم الله مظهر ذلك وحملتهُ وهم محمد وآله صلى الله عليه وآله فحقيقةّ الولاية أصل الإمام عليه السلام وحقيقة الصلاة فرع الإمام عليه السلام ، والإمام عليه السلام هو الواقف بين الططنجَيْن والبرزخ بين البحرين فالصلاة ولاية ظاهرة والولاية صلاة باطنة والإمام عليه السلام هو الحامل لأسرار الباطنة والمتحمّل لأعباء الظاهرة فافهم.

وقوله عليه السلام (وآتيتم الزكاة) أي أعطيتم الزكاة المستحقّين لها على حسب استحقاقهم والمراد أنهم أعطوا زكاة أموالهم والأموال هي ما قسم الله لهم من

فيضه وخيره فمن أموالهم ماشئتم بمشيّته ومن أموالهم ما أمكنهم بقدرته ومن أموالهم ما أوجدهم بفضله ورحمته، ومن أموالهم ما ألهمهم من معرفته ومن أموالهم ما علّمهم من أسرار خليقته ومن أموالهم ما أشهدهم من بديع صنعته ومن أموالهم ما أقدرهم عليه من مقتضيات ولايته ومن زكاة أموالهم ما أفاضوا بالله من موادّ الأشياء ومن زكاة أموالهم ما صبغوا من الصور في الأشياء ومن زكاة أموالهم ما ترجموا للقابلات ومن المقبولات، ومن زكاة أموالهم ما أمدّوا من التكوينات ومن زكاة أموالهم ما كلّفوا من التشريعات ومن زكاة أموالهم ما أوردوا وأصدروا ومن زكاة أموالهم ما قبلوا ورفعوا وما ردوا وأبطلوا وما صنعوا وما أحدثوا وما أحيوا وما أماتوا وما رزقوا وما حرموا وأصحّوا وأمْرَضُوا بإذن الله تعالى وكذلك جميع ما يتعلّق بالنظام، فإنهم عليهم السلام يؤدّون إلى كل محتاج ما يحتاج إليه من أموالهم مما وجب عليهم فيها أو استحبّ أو أبيح وتقدير الشيء المخرج مقدّر في الشرع.

أما في الظاهر فالأجناس المخرج منها تسعة وهي التمر والزبيب والحنطة والشعير والإبل والبقر والغنم والذهب والفضة.

وأمّا في الباطن فمنه حامل وقشر وهو ما يتعلق بالتكوينات ومنه محمول ولب وهو ما يتعلّق بالتشريعات وصورة المخرج منهما واحدة إلاّ أنّ المخرج من اللّبِ لب ومن القشرِ قشر والعبارة عنهما واحدة، والمراد أن ما كل ما كان في التكوينات فصورةٌ تثمِرُ ثَمَرةً وما كان من التشريعات فثمرةٌ تثمِرُ ذاتاً والكل في تسعة أجناس الإيمان والمعرفة والمحبّة والأنس وحوامل الذوات والأعمال وعوامِلُهما وأصول المنافع منهما والنبوة، ويدخل فيها البشرى والفال الحسن

والتأييد والإمامة ويدخل فيها علم الكشف وعلم الإحاطة وذكاء المؤمن، والفراسة وهي وما أشبهها من أقسام الصدقات يصرفها الفقيه المأمون عليه السلام على المستحقّين على حسب تأهلِهم واستحقاقهم (وما هُوَ عَلى الغَيْبِ بِضَنِينٍ)(أَفَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ)ويصرفها على الأصناف الثمانية العلماء والعاملون بطاعة الله والمنتصبون لمصالح المؤمنين وأصحاب البرازخ واللطخ الذين جعلوا أنساً للمؤمنين ليأنسوا بِلُغَتِهِمْ ويستقروا بصُورَهم وخصيص شيعتهم المستشهدون في سبيلهم وفقهاء شيعتهم من أهل القضاء والفتوى والمحبون المتوكلونَ على حبّهم وأهل الزهد والورع المستعدّون للرحيل عن دار الغرور وما نقصَ عنهم من جهة الاستحقاق أنفقوا عليهم من جهة الفضل لأنهم عليهم السلام قد التزموا بتتميم ما أعوز رَعيّتهم.

والحاصل أنهم آتوا الزكاة على أكمل ما يمكن وكلّ من هو دونهم فإنّما يؤتي الزكاة على حسب قدرته وسعة ماله، والذي لا يجد ما ينفق لا يصرف بل يصبر ويقتصِدُ ويقتصر على الإنفاق ممّا أتاه الله قال الله تعالى (لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَ مَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتاهُ الله لا يُكَلِّفُ الله نَفْساً إِلاَّ ما آتاها)فالأنبياء والمرسلون والخصّيص من الشيعة هم ذوا السعة كل بحسبه وأما محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته فهم خزائن الله تعالى التي لا تفنى وفيض الله الذي لا يغيض المعنيون بقوله تعالى (هذا عَطاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسابٍ).

تتمة توجبه ما في حديث يونس من الأشكال فيما قبل هذه الكلمة وذلك لأنّه قال (فكيف أتولى من لم أره و لم أعرفه)وهذا من مثل نبي معصوم كيف يحسن وقوعه بعد أن يأمره ربه وهو يعلم أنّ ربه سبحانه لا يأمره إلاّ بالحقِّ وأنّه لا يسأل

عمّا يفعل، وكيف يجوز الاعتراض على الله تعالى من أقل خلقه وأجهلهم فضلاً عن الأنبياء عليهم السلام المعصومين ومثل هذا الكلام لا يتسامح فيه ولو وقع من عوامّ الناس لاستحق العقوبة فكيف يصح أن ينسب إلى الأنبياء عليهم السلام.

الجواب أن النبي يونس عليه السلام كانت به حدّة واشتدّ غضبه لله لكثرة عناد قومه واصرارهم على معاصي الله وتكذيبه وردّ نبوته فلمّا سأله روبيل المراجعة لله تعالى لعّله أن يرحمهم امتنع وكذلك لمّا دعا عليهم أوحى الله في ذلك على جهة التخيير فلم يقبل لما فيه من الحدة والغضب لله تعالى.

كما روي عن الباقر عليه السلام قال (كتب أمير المؤمنين عليه السلام قال حدثني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن جبرئيل عليه السلام حدثه أن يونس بن متى عليه السلام بعثه الله إلى قومه و هو ابن ثلاثين سنة، و كان رجلا يعتريه الحدة و كان قليل الصبر على قومه و المداراة لهم، عاجزا عما حمل من ثقل حمل أوقار النبوة و أعلامها و أنه تفسخ تحتها كما يتفسخ الجذع تحت حمله و أنه أقام فيهم يدعوهم إلى الإيمان بالله و التصديق به و اتباعه ثلاثا و ثلاثين سنة، فلم يؤمن به و لم يتبعه من قومه إلا رجلان، اسم أحدهما روبيل و اسم الآخر تنوخا و كان روبيل من أهل بيت العلم و النبوة و الحكمة و كان قديم الصحبة ليونس بن متى من قبل أن يبعثه الله بالنبوة، و كان تنوخا رجلا مستضعفا عابداً زاهداً منهمكا في العبادة و ليس له علم و لا حكم و كان روبيل صاحب غنم يرعاها و يتقوت منها، و كان تنوخا رجلا حطابا يحتطب على رأسه و يأكل من كسبه، و كان لروبيل منزلة من يونس غير منزلة تنوخا لعلم روبيل و حكمته و قديم صحبته فلما رأى يونس أن قومه لا يجيبونه و لا يؤمنون ضجر و عرف من نفسه قلة الصبر فشكا ذلك إلى ربه و كان فيما يشكى أن قال يا رب

إنك بعثتني إلى قومي و لي ثلاثون سنة، فلبثت فيهم أدعوهم إلى الإيمان بك و التصديق برسالاتي و أخوفهم عذابك و نقمتك ثلاثا و ثلاثين سنة، فكذبوني و لم يؤمنوا بي، و جحدوا نبوتي و استخفوا برسالتي و قد توعدوني و خفت أن يقتلوني فأنزل عليهم عذابك فإنهم قوم لا يؤمنون. قال فأوحى الله إلى يونس أن فيهم الحمل و الجنين و الطفل و الشيخ الكبير و المرأة الضعيفة و المستضعف المهين، و أنا الحكم العدل، سبقت رحمتي غضبي لا أعذب الصغار بذنوب الكبار من قومك، و هم يا يونس عبادي و خلقي و بريتي في بلادي و في عيلتي أحب أن أتأناهم و أرفق بهم و أنتظر توبتهم، و إنما بعثتك إلى قومك لتكون حيطا عليهم تعطف عليهم بسجال الرحمة الماسة منهم، و تأناهم برأفة النبوة فاصبر معهم بأحلام الرسالة، و تكون لهم كهيئة الطبيب المداوي العالم بمداواة الدواء، فخرقت بهم و لم تستعمل قلوبهم بالرفق ولم تسسهم بسياسة المرسلين، ثم سألتني عن سوء نظرك العذاب لهم عند قلة الصبر منك و عبدي نوح كان أصبر منك على قومه، و أحسن صحبة و أشد تأنيا في الصبر عندي، و أبلغ في العذر فغضبت له حين غضب لي، و أجبته حين دعاني. فقال يونس يا رب إنما غضبت عليهم فيك، و إنما دعوت عليهم حين عصوك فو عزتك لا أتعطف عليهم برأفة أبدا و لا أنظر إليهم بنصيحة شفيق بعد كفرهم و تكذيبهم إياي، و جحدهم نبوتي، فأنزل عليهم عذابك فإنهم لا يؤمنون أبدا. فقال الله يا يونس إنهم مائة ألف أو يزيدون من خلقي يعمرون بلادي و يلدون عبادي و محبتي أن أتأناهم للذي سبق من علمي فيهم و فيك، و تقديري و تدبيري غير علمك و تقديرك، و أنت المرسل و أنا الرب الحكيم و علمي فيهم يا يونس باطن في الغيب عندي لا يعلم

ما منتهاه، و علمك فيهم ظاهر لا باطن له، يا يونس قد أجبتك إلى ما سألت من إنزال العذاب عليهم و ما ذلك يا يونس بأوفر لحظك عندي، و لا أحمد لشأنك، و سيأتيهم العذاب في شوال يوم الأربعاء وسط الشهر)الحديث.

فتدبّر هذا الحديث لتعرف حدته وغضبه وكذلك جوابه لروبيل لما طلب منه أن يدعو لهم وإنّ الله أحب أن يصبر عليهم على جهة الأفضلية وهو يريد اهلاكهم وقد قلنا إنّ ولاية علي عليه السلام ولاية الله تعالى وإن كل شيء عبارة عنها كما ذكرنا هذا المعنى في هذا الشرح مكرّراً، ومعنى أنه توقف هو ما سمعت من هذه الأخبار من غضبه وعدم قبوله شفاعة روبيل فيهم فإن هذا ومثله توقّفٌ في ولاية علي عليه السلام لأن من لم يتوقّف هو من لا يشهد لنفسه اعتباراً بل عدمها وفقدها فلا يغضب عند عصيان قومه حتى يؤمر بالغضب فإذا أمر بالغضب وطلب منه الأناة والحلم لم يجد في نفسه من الغضب ولا من الاستثقال ولا من الكراهة شيئاً بل يكون مؤتمراً إذا أُمر ومنتهياً إذا نُهي مسقطاً لاعتبار نفسه بالكلية كما أشار إلى ذلك في حكم ولاية علي عليه السلام بقوله تعالى (فَلا وَ رَبِّكَ) يا علي (لا يُؤْمِنُونَ) أي لا يقيمون ولايتك كما أريد (حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا(لك) تَسْلِيماً) بأن يسقطوا اعتبار أنفسهم كما قال (ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ)وهذا أدنى مقام ما تقتضيه الولاية من الصدق فإذا غضب لله قبل أن يؤمر أوْ لم يرق في موضع أمر فيه بالرقةِ أو لم يؤمر بالغِلظِ وأمثال ذلك فقد توقف في ولاية علي عليه السلام .

والعبارة الظاهرة عن هذا التوقّف قوله (فكيف أتولى من لم أره و لم أعرفه)فإذا سمعتَ هذا ونحوه من أهل العصمة عليهم السلام فمعناه أنه توقّف أو تردد في ولاية علي

ﷺ وهذا هو معنى ما روي أن الله وكله إلى نفسه طرفة عين فكان منه التوقف الذي سمعت ومنه قوله (يا تنوخا كذبني الوحي و كذبت وعدي لقومي لاو عزة ربي و لا يرون لي وجها أبدا بعد ما كذبني الوحي)وهو من التوقف فلمّا لم يصبر وهو من التوقف وكل إلى نفسه طرفة عين، وَهُوَ من التوقف فلما دعا على قومه استثنى جبرائيل ﷺ عن أمر الله في هلاك قومه ولم يسمع يونس وكذا قال كذبني الوحي ولم يكذبه وإنّما أخفى عليه جبرائيل حرفا وهو أن الوحي أتى أنّى أنزل عليهم العذاب ولم يقُل إني أهلكهم ولم يفهم هذا الحرف أو أن الحرف الذي أخفاه جبرائيل ﷺ هو قوله (إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللهُ).

وهو الاستثناء كما يدل عليه الحديث المتقدّم، ولم يسمع يونس هذا الحرف لأنه وكل إلى نفسه طرفة عين ومعنى هذا أنه بغضبه رجع إلى نفسه فافهم فقد ألقيتُ إليك مفتاحا من مفاتيح الغيب تفتح به كثيراً من مغلقات الغيوب إن عرفت الفتْحَ.

قال ﷺ وأمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر

الأمر بالشيء الدعاء إليه والحَثّ على إتيانه أو فعله والمعروف الفعل الحسن الراجح الإيقاع فيختصّ بالواجب والمندوب ، ويخرج المباح والمكروه لأنهما غير راجحي الإيقاع نعم مكروه العبادة الأصح أنه يدخل في المعروف لأن معنى كونه مكروهاً نقصان ثوابه لا أنه لا ثواب فيه، بل الحق أنّ ثوابه في نفسه لا ينقص وإنّما ينقص ثواب مقدماته وشروطه كما إذا حكم بكراهة الصّلاة في الحمام فإنّ الصلاة في نفسها لا ينقص ثوابها إلاّ بمثل عدم الإقبال عليها وذلك لا يختلف في المسجد والحمام وإنما النقص راجع إلى الشروط والمقدمات فإن الصلاة في المسجد وفي

الثياب البيض ومتعمِّما مثلاً أفضل منها في الحمام وفي الثياب السود وغير متعمٍم فالصلاة المكروهة نقصَت ثواب الثياب البيض وثواب المسجد وثواب التعمم، ومع ذلك فثوابها في نفسها لم ينقص وإن نقص ثواب شرطها وثواب زيادتها بالشرط المندوب فهي من الراجح فتدخل في المعروف ثم إذا عرفتَ هذا فنقول يمكن إدخال مكروه غير العبادات والمباح في الراجح فتكون من المعروف وذلك كما إذا فعل المباح لإذن الله في فعله والأخذ بإباحته وفعل المكروه لأن الله قد رخّص في فعله ولاسيما إذا ثقل على النفس الأخذُ بالرخصِة في مثل مواضع الحاجة والضرورة لا لأنه مرجوح عند الله وأنه لا حاجة أولى من ترك ما يكرهه الله، بل لأنّ النفس اعتادت تركه أوْ لئلاّ يُعَابَ به عند من علم به من الناس وأمثال ذلك فإن الأخذ بالرخصة والحال هذه راجحة بل قد يجب الأخذ بالرخصة على من لا يجوز الأخذ بالرخصة وعليها في الفقه مسائل كثيرة وهو قوله ﷺ إنّ الله يحبّ أن يؤخذ برخصه كما يحبّ أن يؤخذ بفرائضه فخذوا برخصة الله ولا تشدّدوا على أنفسكم أنّ بني إسرائيل لما شدّدوا على أنفسهم شدد الله عليهم هـ. فهم عليهم السلام أمروا بالمعروف الذي هو الفعل الحسن الراجح الإيقاع سواء تعلّقَ بالقوابل في التكوينيات في كل مرتبة أم بالأمثال في التشريعيات في الأحكام وفي الطرائق وفي الحقائق وأمرهم عليهم السلام بهذا المعروف الموصوف بما ذكرنا في كل عالمٍ فإنّهم في التكوين الأوّل حين شيَئهُمْ وعيّنهم هم أهل الأداء والتبليغ فمن قبل عنهم كما أمروه واستقامت فطرته واعتدلتْ بنيْتهُ فبتِلكَ الطينة الطيّبَة قبل الخير، وذلك حين قدّرهم وقد كان الناس أمّةً واحدةَ يصلح كل واحد منهم لقبول الخير والشرّ فبعث الله النبيّين مبشرّين ومنذرين على أيدي محمدٍ ﷺ وأهل

بيته الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين إلى يوم الدين ومن لم يقبل عنهم خرج بعدم قبوله عنهم من حدّ الإنسانيّة إلى حدّ البهيميّة فكانوا كما وصف في محكم كتابه (أولئك كَالأَنْعامِ بَل هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الغافِلُونَ)لاضطراب فطرته واعوجاج بينته فلمّا كان يوم الجمعة بعد العصر هبطوا إلى هذه الدار فجددوا ذلك العهد المأخوذ في العالم الأوّل في هذا العالم على حكم ما هنالك من أحكام شرع التكوينيات ومن نظام وجود التشريعات حتى أقاموا الدين المبين وشادوا الحقّ المبين.

والمراد بكون المعروف هو الفعل الحسن الراجح الإيقاع كونه حسناً في الوجود الواقعي التشريعي الّذي هو روح الواقعي التكويني ليدخل فيه ما كان في نفس الأمر الوجودي قبيحاً إذا كان رافعاً لما هو أقبح منه كالكذب لنجاة المؤمن فإنه وإن كان في نفس الأمر الوجودي قبيحاً إلا أنه إذا توقّف الدّفاع عن المؤمن عليه فإنه يكون في الواقعي التشريعي الذي هو روح الواقعي الوجودي حسنا واجباً لا أنّه ينقلب لذاته فيكون حسنا بل هو باقٍ على قبحه في نفس الأمر الوجودي وإنما حسن في التشريعي لأنه هو كذلك عند الله ونظير ذلك ما قال الله (فَإذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَداءِ فَأُولئِكَ عِنْدَ الله هُمُ الكاذِبُونَ)مع أنهم قد يكونون في نفس الأمر الوجودي صادقين إلاّ أنهم عند الله في الواقعي التشريعي هم الكاذبون وهم في الحقيقة كاذبون لأنهم لم يقبلوا من الله تعالى ما عاهدوه على قبوله منه من قبل والقبول منه هو روح الوجود التكويني.

واعلم أن المعروف الذي كانوا يأمرون به إنّما وجب الأمر به لأنه فرع الولاية وفرع الولي واسمه العلي كما أشار إليه سبحانه وتعالى بقوله (إِنَّ الله يَأْمُرُ بِالعَدْلِ)

هو علي عليه السلام وهو الميزان علي عليه السلام والقسطاس المستقيم وهو المعروف المأمور به أي باتباعه والقبول عنه والتسليم له والردّ إليه وبموالاته وموالاة أوليائه وبمعاداة أعدائه وهو معروف لأنه ضدّ المنكر الذي هو الثاني، وهو معروف لأنه معرفة الله وبه يعرف الله وصاحب الأعراف الذي يدخل الجنّة من عرفه ويدخل النار مَنْ أنكره ومعروف عند كل الخلق وعارف لكل الخلق والنقطة تحت الباء التي بها تعَرَّفَ الله لسائر خلقه وبها احتجب عنهم وبها عرَفهم وبها عرَّفهم وبها تعارفوا وعليها تعارفوا وفيها تناكروا (وَ الْإِحْسانِ) هو ابنه أبو محمد الحسن عليه السلام (وَ إِيتاءِ ذِي الْقُرْبى)هو أخوه أبو عبد الله الحسين عليه السلام ويجري لهما ما يجري لأبيهما صلى الله عليهم أجمعين فهم عليهم السلام المعروف المأمور به وهم الآمرون بالمعروف والمعروف صفتهم والمعروف اسمهم والمعروف فعلهم والمعروف دينهم والمعروف حكمهم والمعروف سنتهم والمعروف فرعهم فهم الآمرون بالحق والهادون بالحقّ وبه يعدلون وهم الحق قال تعالى (وَ إِنَّهُ) أي عليّ أمير المؤمنين عليه السلام (لَحَقُّ الْيَقِينِ فَسَبِّحْ) يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم (بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ)أي سبح الله بإقامة ولاية عليّ أمير المؤمنين عليه السلام (فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ وَ سَوْفَ تُسْئَلُونَ)وهنا لطيفة ينبغي التنبيه عليها على سبيل الإشارة وهي أنّ الله سبحانه لمّا أجرى حكمته في إيجاد المخلوقات على كونهم مختارين في قبول الإيجاد لأنه لا يخلق الشيء إلا على ما هو عليه وما هو عليه لا يتحقق إلا إذا قبل باختياره ولو خلق على غير اختياره لم يكن على ما هو عليه بل يكون على ما فَعل الله عليه وما فعل الله عليه يقتضي أن لا تختلف آثاره لأنه ليس بمختلف، بل يجب إلا تتعدد آثاره لأنه واحد بسيط لا اختلاف فيه ولا تعدُّد فيه ولا في جهته وقد بسطنا هذا في بعض رسائلنا (كالفوائد) وغيرها.

فإذا عرفت هذا فاعلم أنه لا بد من اعتبار اختيار المصنوع ولا يكون ذلك إلا بشيء منه أو عنه وهذا الذي قلنا باعتباره في الاختيار من القوابل ومتمِماتها ومكمِّلاتها منه ما هو شرطٌ لا يتحقق القبول إلاّ به كالماهية وكمتمّماتها كالوقت والمكان والجهة والرتبة والكم والكيف ومنه مكمّلات قد يوجد الشيء بدونها ولكن لا يكون كما ينبغي على أكمل وجه إلاّ بها وبقدر ما يحصل منها يحصل الكمال وهذا حكم جميع ما هو وجود وموجود من التكوينات وتشريعاتها، ومن التشريعات ووُجوداتها فما كان شرطاً وجب حصوله عندها فيجب في الحكمة على الحكيم أن يأمر المكلف به أمر إيجاب لتوقّف المشروط على الشرط والمكلّف لا يعرف ما ينفعه ممّا يضرّه إلاّ إذا أمر به وإذا كان للشرط أفراد فيجب أن تكون تلك اللطيفة التي هي حصّة من الشرط موجودةً في كل فردٍ منها فيؤمر بكلّ فردٍ منها وهذا هو المسمى في الشريعة بالواجب وعندنا هذا في التكوينيات والتشريعات واجب، وإذا كان ذلك مانعاً على هذا النحو فيجب النهي عنه وهو الحرام والقول في تفصيله وبيانه كما في الواجب وإن كان على العكس لأن هذا موجب وذلك مانع وإن كان متمماً للموجب أو المانع وجب اعتباره في الموجب والمانع إذا لم يكن بدل كالأمور الستّة مثلاً وجب اعتبارها في الماهيّة وإن كان له أفراد وجب اعتبار كلّ أفرادها في الماهيّة لئلاّ تفوت منها حصّة معتبرة في الماهيّة كما قلنا في الماهيّة وهذا واجب في الواجب وفي المانع واجب في المانع فيجب النهي عنه كما يجب النهي عن المانع وإن كان مترتباً عليه.

وأمّا المكمّلات فعلى قسمين قسم في بعض أفراده متمم دون بعض وهو جار في الموجب والمانع وهذا يكون الأمر به ليس على جهة الوجوب والنهي عنه في

المانع ليس على جهة التحريم، لأنه وإن كان في بعض أفراده حصة متمّمه والمتمِّم لا يستغني عنه إلاّ أنّه لما كان التكليف بكل الأفراد حرجاً لأنه قد يستغني عنه كما في البعض الخالي في نفس الأمر من المتمّم ومثل ذلك منفي بالكتاب والسنّة والتكليف بخصوص ما فيه الحصّة المتمّمة حَرَجٌ أيضاً لأن المكلّف لا يقدر على الاطلاع على ذلك مع أصالة عدم التكليف بذلك لأنّه مبني على التّخفيف (يُرِيدُ الله بِكُمُ اليُسْرَ وَ لا يُرِيدُ بِكُمُ العُسْرَ) كان مقتضى ذلك إمّا أن يسقط عنهم التكليف ويعوضهم بصدق النيّة بأنّه لو كلّفهم بأحد التكليفين قبلوا وتحمّلوا بأن يتمِّم لهم نقص ذلك من فضله بتهيئهم لقبول التكليف الشاقّ، وإمّا أن يسقط عنهم التكليف ولا يعوضهم ولما تمدّح سبحانه بأنه عظيم الفضل واسع الرحمة يعطي الكثير بالقليل كان ذلك دليل الدعاء إليه والترغيب في خيره فأسقط ذلك التكليف وقوى بفضل كرمه الضعيف فأَلحَقَ بفضله ما في بعضه المتمّم بالمكمّلِ البَحْتِ في التكليف وبالشّرط بالتفضل ، وقسم ليس في شيء من أفراده شيء من التتميم وإنّما هو تكميل للصنع الطبعاني وذلك كالسواك والمضمضة والاستنشاق والتمشّط والتكحل ولبس السراويل قاعداً والتعمّم قائماً ولبس النّعل اليُمْنى قبل اليسرى والخلع بالعكس وأمثال ذلك.

وقد أشرنا إلى هذا فيما سبق من أن جميع المستحبات والآداب من المتمّمات والمكمّلات وذلك في التشريعات والتكوينيات وهذا القسم أيضاً ليس الأمر فيه على جهة الوجوب وليس النهي فيه على جهة التحريم لعدم توقّف الصنع الطبعاني عليه ولا على ما قبله كما قلنا، نعم يتوقف عليهما فيمن يراد من إيجادهم الكمال والتكميل كالأنبياء المرسلين والملائكة المقرّبين والخصيصين من المؤمنين

ولهذا يكون وقوع غير الأولى وتركُ الأولى مثل ما أشرنا إليه تقصيرا في حقهم ويسمى عصياناً كما هو معروف ولهذا قال عليه السلام (حسنات الأبرار سيئات المقربين)، ويكون الوجوب عليهم، والتحريم إنّما هو في أنفسهم خاصّة لأنّ التكليف العام لا يكون فيه خصوص إلاّ بالتخصيص وما يراد منهم بالخصوص إنما ينزل على نفوسهم على جهة الخصوص، والنهي عن فعل الشيء قد يقال أنه لا يمكن إلاّ مع الفعل أو بعد الشروع في الفعل وإلاّ فهو وارد على ما ليس بشيء فلا أثر له لأن ترك الفعل عدم ولا أثر للقدرة عليه فيكون المطلوب هو الكف عن الفعل المنهيّ عنه وقيل المطلوب بالنهي هو ترك الفعل لأن العقلاء تمدح تارك الزنا وتعده ممتثلاً بمجرد الترك من دون ملاحظة الكف وأثرا لِقُدرَة الاستمرار عليه المقارن له ولو أريد الكف لما حصل له ثوابٌ على الكف بدون ملاحظته، ولعلّ المطلوب هو ما في الاستطاعة الإمكانية لأن الاستطاعة الفعلية لا تكون إلاّ مع الفعل لا قبله ولا بعده فهو بالاستطاعة الإمكانية يكلف في جميع ما يراد منه فعله وتركه فالأمر يتوجّه إلى فعل وُجد تصوّره في ذهن الآمر والمخاطب، والنهي يتوجّه إلى تركِ فعل وُجد تصوّره في ذهن الناهي والمخاطب، وكان هذا التّصور الذهني فيهما هو طريق الطالب وامتثال المخاطب في الفعل والتركِ والتّصور الذهني من الآمر أو المخاطب موجود بالفعل والفعلُ المطلوب فعله أو تركه ممكن لا يتوقّف إلاّ على الاستطاعة الإمكانية وهي حاصلة للمخاطب قبل الخطاب وحين الخطاب مستمرّة وحدها إلى أن يشرع في الفعل أو التّرك فتحدث معها الاستطاعة الفعليّة إلى أن يفعل وما دام تاركاً ثم تنقضي الفعليّة بانقضاء الفعل أو التّرك والإمكانية باقية، فإذا كان الفعل المطلوب فعله أو تركه ممكناً وطريقه إلى

الوجود أو العدم يعني طريق المخاطب إلى إيجاد الفعل إن شاء وتركه إن شاء كان ذلك الفعل واقفاً على برزخ الظهورِ والخفاء فإذا امْتَثَل المخاطب بالأمر أخرجه من ذلك البرزخ التهيُّئي إلى الوجود، وإذا امتثل المخاطب بالنهي أَنْزَلَهُ من ذلك البَرزخْ التَهيُّئي إلى الخفاءِ وإنّما قلنا الظهور والخفاء وإن كان معناهما الوجود والعدم لئلاّ يتوهم أن العدم هنا هو النفي المحض الصّرف الذي يعنون به ضدّ الوجوب وهذا غلط منهم، فإنّ ذلك ليس شيئاً ولا يخرج منه شيء ولم توضع له عبارة ولا اسم وإنّما توضع لعنوانٍ محدثٍ أحدثه الله تعالى بمقتضى أهوائهم وأوهامهم وإنّما هذا العدم مخلوق أمكنه الله بمشيّته فالأشياء ليست شيئاَ إلاّ إذا أُلبسَتْ حلّة الكون وهو قول علي عليه السلام في خطبة يوم الغدير والجمعة (وهو منشئ الشيء حين لا شيء إذ كان الشيء من مشِيّته).

وأمّا في الإمكان قبل أن يلبسه حلّة الوجود فتمكن شيئيّتهُ فهو شيء بالقوّة والصورة أوّل العِلمِ به ليس قبله إلاّ الوجه الذي لا يفنى، وهو ما في المشيّةِ لأنّها وإن كانت منتزعة وظِلاً إلاّ أنها انتزعت من إمكانه عند جميع أسباب وجوده وذلك حكم تام في المشيّة لكلّ شيء في وقته ومكانه وهذا وجهه الذي لا يفنى وتلك الصورة الذهنية منتزعة من هذا الوجه لأنه هو الخزانة العليا التي ليس وراءها له ذكر بكل اعتبارٍ وفَرْضٍ فلمّا كان ذلك الفعل معلّقاً بصورته الذّهنية المنتزعة من الخزانة الأوليّة كان المطلوب بالأمر إخراجه من ذلك البرزخ إلى الظهور والمطلوب بالنهي إنزاله من ذلك التعلق إلى ما في المشيّة من إمكانه فيكون المطلوب بالنهي وجوديّاً كالمطلوب في الأمر وهذا أحد الوجوه.

والثاني الصورة في النفس والوجه معناها في العقل.

والثالث الصورة في الخيال والوجه ما في اللوح المحفوظ من الصورة الجوهرية.

والرابع موادّ مصادرها العنصريّة التي هي محال قواها والوجه استُقُصَّائها التي تعود إليها فتفهّم ما قلنا يظهر لك ما أردنا.

فقوله عليه السلام (ونهيتم عن المنكر) يريد به أن المنكر الذي هو ضدّ المعروف في التكوينات والتشريعات قد نَهَوا عنه ودَلّوا المكلفين على طرق التخلّص منه لأنه هو المانع من الأكوان الوجودية والشرعيّة كما قال تعالى في ذكر النهي عن شرب الخمر قال تعالى (إِنَّما يُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَداوَةَ وَ البَغْضاءَ فِي الخَمْرِ وَ المَيْسرِ وَ يَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ الله وَ عَنِ الصَّلاةِ فَهَل أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ)فأخبر سبحانه بأن الخمر يغيّر الطباع ويوقع الشيطان بسبب تغييرها العداوة والبغضاء ويصدّ عن الدين فكان شربها مانعاً من وجود الصداقة والمحبّة ومن الصلاة وذكر الله، والمنكر الذي نهى سبحانه عنه المحرّمات من كل ما ورد الشرع الشريف بالنهي عنه من المحرمات التي جاء الشرع الشريف بالنهي عنها من الكبائر والصغائر حتى اللمم فإن جميعها موانع أشرنا إليها ، وإنّما نهى سبحانه لعلمه أنها تمنع من صلاح الكونَين قال تعالى في تمام الآية المتقدّمة (وَ يَنْهى عَنِ الفَحْشاءِ) كالزنا ونكاح المحارم والمساحقة واللواط وكل مستقبح في الفعل والقول والبخل كما قال تعالى (الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ وَ يَأْمُرُكُمْ بِالفَحْشاءِ)وكلّ سوء جاوز حده فهو فاحش وروي (إِنَّ الله يُبْغِضُ الفَاحِشَ الْمُتَفَحِّشَ)قال في النهاية و(قد تكرر ذكر الفحش و الفاحشة و الفواحش في الحديث و هو كل ما يشتد قبحه من الذنوب و المعاصي)وقد يكون الفحش بمعنى الزيادة والكثرة ومنه حديث دم البراغيث إن لم يكن فاحشاً فلا بأس به ومثله إن كان الالتفات فاحشاً في الصلاة أي كثيراً انتهى.

وهذا في الظاهر وفي الباطن هو صاحب الولاية الأولى المذكورة في قوله تعالى (بَل تُؤْثِرُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيا)فإنه هو المراد بالفحشاء لأنه تجاوز في القبح في السريرة والقول والعمل إلى حَد ما وصل إليه خلقٌ مِنْ خلق الله تعالى كما دلّت عليه رواياتُ أهل العصمة عليهم السلام وقد كنّي عنه أبو محمد العسكري عليه السلام بما يدلّ على ذلك فقال عليه السلام (أبو الدواهي)وفي ما بين الظاهر والباطن وما يجري على الخواطر وتكنّ الضمائر وتنطوي عليه السرائر مما لا يحبه الله وأمر بضده وبغيره من سوء النيّات، وتصور الأمور القبيحات إذا مال إليها بالاختيار والطلب لا بالوسوسة والنجوى وهو كارهٌ لها فإنّ ذلك مما عُفِيَ عنه ورُفع إثمه عن هذه الأمّة المرحومة أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم أمة الإجابة وهم الشّيعة من قوله تعالى (اسْتَجِيبُوا للهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ) أي إذا دعاكم للولاية كما قال تعالى (أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَ جَعَلنا لهُ نُوراً يَمْشي بِهِ فِي النَّاسِ) أي إماماً يهتدى بنوره.

وأما غير أمته الإجابة فلم يجر لهم من الله تخفيف وهو السر في قوله تعالى(آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِل إِليْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ) ولم يقل وسائر الأمّة أوْ والناس لأنه سبحانه إنّما خص بالتخفيف نبيه صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين فهذه من الفحشاء المنهي عنها أو (والمنكر) أي الشيء القبيح الفظيع الذي تنكره النفوس أو النفوس الطيبة وقوله تعالى (إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْواتِ) أي أقبحها وقوله تعالى (وَ تَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ)أي الحذف بالحصى فمن أصابَهُ نكحوه والفحش في الكلام والسّباب ولعب القمار وضرب المعازف والصفق بالأيدي واللعب بالدّيكة وعن الرضا عليه السلام في قوله وتأتون في ناديكم المنكر (كَانُوا يَتَضَارَطُونَ فِي مَجَالِسِهِمْ مِنْ غَيْرِ حِشْمَةٍ وَ لا حَيَاءٍ)وروى القمي كان (يضرط بعضهم على بعض).

ومنكر ونكير ملكان يسألان الميت في قبره سُميَا بذلك باسم صفتي ذَنْب الإنسان فإنه إذا أذنب أنكر غيرَهُ فالملك السائل عن هذا نكير وغيُرُه يُنكِر عليه لذنبه فالملك السائل عن هذا منكر وإلى هذا الأصل أشار ﵇ بقوله (هيهات ما تناكرتم إلاّ لِما بينكم من الذّنوب) والمنكر خلاف المعروف وأنكره ضد عرفه وفي الحديث (فَالذِي كَانَ فِي (مُعَاوِيَةَ (عليه الهاوية) فَقَال تِلكَ النَّكْرَاءُ تِلكَ الشَّيْطَنَةُ وَ هِيَ شَبِيهَةٌ بِالعَقْلِ وَ لَيْسَتْ بِالعَقْلِ).

فهم ﵈ نهوا عن المنكر بكل معنى على كمال ما ينبغي ممّا أُشير إليه وممّا لا يُشار إليه ظاهراً وباطناً.

أما الظاهر فالعمل وأمّا الباطن فهو الحمار يحمل أسفاراً وإلى ذلك أشار بقوله تعالى(إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْواتِ لَصَوْتُ الحَمِيرِ) أي أقبح وأنكر لأنه كان فظاً غليظ القلب فهو المنكر لأن عدده ثلاثمائة وعشرة وقد أشار إلى ذلك أمير المؤمنين ﵇ في جواب السائل الذي سأله وهو كافر فقال أخبرني عن نصف الشيء فقال مؤمن مثلي فقال أخبرني عن شيء فقال كافر مثلك هـ.

لأن شيء ثلاثمائة وعشرة وهو المنكر وهو الحمار في الآية وَ الحَمِيرَ في الآية الأخرى.

وقوله منكر لأنه هو صوت الحمار فلا ينطق بالمعروف أبداً وإن تلفظ بلفظٍ معروف فهو منكر عند نفسه لأنه لم يرد به إلا المنكر وقد كنى عنه أبو محمد الحسن العسكري ﵇ في تفسيره بقوله (أبو الشرور)اللهم زخه إلى ما قدّرتَ له في حكيم قدرِك وزِدْهُ من جزيل مد شمال قدرتك، حتى ترضى يمينُ قدرتك.

وما بين الظاهر والباطنَ وما يجري على الخواطر وتكن الضمائر وتنطوي عليه

السرائر مما لا يحبه الله ونهى عنه من سوء النيات وتصور الأشياء القبيحات إذا طلبها مختاراً كما تقدم فهذه من الأمور المنكرة التي نهى عنها ويعرف الفرق بين البرزخين كلٌ بأصله وهم عليهم السلام قد نهوا عن المنكر وعن استماع قوله وعن الميل إلى ما في الخواطر وإلى شيء من طريقته، وعن العمل بشيء من فروعه وهي المذكورة في المناهي في القرآن والأحاديث ، (والبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَكُمْ تَذَكَّرُونَ)في قوله تعالى (وَ ما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا)البغي المرأة الفاجرة ولا يقال للرجل الفاجرة ولا يقال للرجل بغيّ والبغي في الآية بسكون الغين طلب الظلم والفساد والحسد ولعلّه إنّما خصّ الثالث به لشدة بغيه من قوله تعالى(غَيْرَ باغٍ وَ لا عادٍ)فإنه باغٍ بالنسبة للميتة وطالبٌ لها وهو يجد غيرها وهي الدنيا كما في قصة النبي حنظلة عليه السلام عن الرضا عليه السلام وعادٍ يعدو شبعهُ منها بل لا يشبع أبداً بل لا يكاد يأكل من غيرها (فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْها فَمالِؤُنَ مِنْهَا البُطُونَ)فالبغي بسكون الغين صورة الظاهر في الظلم من قوله تعالى (وَ سَيَعْلَمُ الذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلبٍ يَنْقَلِبُونَ)وفي الفساد من قوله تعالى (وَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولئِكَ هُمُ الخاسِرُونَ)وفي الحسد من قوله تعالى (أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى ما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ)وبكسر الغين معنى الباطل لأن البغي هي المرأة الفاجرة ولا يقال للذكور وجرى عليه هذا حيث ادّعى ما ليس له وقعد مقعداً ليس له بأهل وذلك من قوله تعالى(إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ إِناثاً وَ إِنْ يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطاناً مَرِيداً لَعَنَهُ اللهُ).

وروى محمد بن مسعود العيّاشي في تفسيره عن محمد بن إسماعيل الرّازي (عَنْ رَجُلٍ سَمَّاهُ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَالَ دَخَلَ رَجُلٌ عَلى أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام فَقَالَ السَّلامُ عَلَيْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَامَ عَلى قَدَمَيْهِ فَقَالَ مَهْ هَذَا اسْمٌ لاَ يَصْلُحُ إِلاَّ

لأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام سَمَّاهُ اللهُ بِهِ وَ لَمْ يُسَمَّ بِهِ أَحَدٌ غَيْرُهُ فَرَضِيَ بِهِ إِلاَّ كَانَ مَنْكُوحاً وَ إِنْ لَمْ يَكُنِ ابْتُلِيَ بِهِ ابْتُلِيَ بِهِ وَ هُوَ قَوْلُ اللهِ فِي كِتَابِهِ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ إِناثاً وَ إِنْ يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطاناً مَرِيداً قَالَ قُلْتُ فَمَاذَا يُدْعَى بِهِ قَائِمُكُمْ قَالَ السَّلاَمُ عَلَيْكَ يَا بَقِيَّةَ اللهِ السلامُ عَلَيْكَ يَا ابْنَ رَسُولِ اللهِ)هـ.

وأيضاَ البغاء بالكسر والمدّ الزنا وبغيتُ الشيء أبغْيه بغَيْاً طلبتُه والاسم البُغاء بالضم كغراب والفِئةُ الباغية الخارجة على الإمام الحقّ عليه السلام ومنه حديث (يا عمار تقتلك الفئة الباغية)وحكم برزخ البغي كحكم برزخ الفحشاء والمنكر.

وقوله تعالى (يَعِظُكُمْ لعَلكُمْ تَذَكَّرُونَ)يعني ينهاكم عن الفحشاء والمنكر والبغي بعد أن أمر بالمعروف الذي هو العدل ضدّ الفحشاء الذي هو الاعتداء والإحسان ضد المنكر الذي هو الإساءة وإيتاء ذي القربى ضد البغي الذي هو طلب الميتة كما تقدم، وهذا النهي بعد ذلك الأمر أقرب لكم إلى الانتفاع بالذكرى فإنها تنفع المؤمنين فهذه الثلاثة أعني الفحشاء والمنكر والبغي ظاهرها وباطنها وما بينهما من البرازخ يطلق عليها المنكر الذي هو ضدّ المعروف وهم عليهم السلام أمروا بالمعروف ظاهره وباطنه في الأوصاف الثلاثة وما بينهما بكلّ معنى في الكونين على كمال ما ينبغي ونهوا عن المنكر كذلك صلّى الله عليهم أجمعين.

قال عليه السلام وجاهدتم في الله حق جهاده

هذه الفقرة من قوله تعالى (وَجاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهادِهِ)فإنه سبحانه خاطب المؤمنين بالعموم وعنى آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالخَصوص، قيل في الآية (فِي الله) أيَ في عبادة الله وقيل الجهاد بمعنى رتبة الإحسان ومعنى رتبة الإحسان هو أنّك تعبد ربّك كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك).

ولذلك قال (حَقَّ جِهادِهِ) أي جهاداً حقاً كما ينبغي بجذب النفس وخلوصها عن شوائب الرّياء والسمعة مع الخشُوع والخضوع والجهاد مع النفس الأمّارة واللوّامة في نصرة النفس العاقلة المطمئنة وهو الجهاد الأكبر ولذلك ورد عن النبي ﷺ أنّه رجع عن بعض غزواته فقال (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر)انتهى وهذه الغزوة غزوة تبوك ، وقيل في قوله (وَالذِينَ جاهَدُوا فِينا لنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلنا وَإِنَّ الله لَمَعَ المُحْسِنِينَ)أي جاهدوا الكفار ابتغاء مرضاتنا وطاعةً لنا أو جاهدُوا أنفسهم في هواها خوفاً منّا وقيل معناه اجتَهَدُوا في عبادتنا رغبة في ثوابنا ورهبةً من عقابنا (لنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلنا) أي السبيل الموصلة إلى ثوابنا وقيل لنوفقنّهم لازدياد الطاعات ليزداد ثوابهم وقيل (وَالذِينَ جاهَدُوا) في إقامة السنّة لنهدينّهم سبيل الجنّة وقيل والّذين يعملون بما يعلمون لنهدينّهم إلى ما لا يعلمون وقيل معناه جاهدوُا في حقّنَا ليشمل جهاد الأعادي الظاهرة والباطنَة (لنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلنا) سُبُل السَّيرْ إلينا والوصول إلى جنابنا، وفي الحديث (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لا يعلم)(وَإِنَّ الله لَمَعَ المُحْسِنِينَ)بالنصر والإعانة. وفي القمي (جاهَدُوا فِينا) أي صبروا وجاهدوا مع رسول الله ﷺ (لنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلنا) لنبُوَّئنّهم وعن مولانا الباقر عليه السلام هذه الآية (لآل محمّد وأشياعهم)وفي المعاني عنه عليه السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام قال (ألا وإني مخصوص في القرآن بأسماء احذروا أن تُغْلبُوا عليها فتضِلّوا في دينكم أنا المحسن يقول الله تعالى (وإنّ الله لمع المحسنين).

أقول : الجهاد عند المتشرّعة بذل النفس والمال لإعلاء كلمة الإسلام وإقامة شعائر الإيمان وهذا هو الجهاد الأصغر وهو جهاد الكفّار والمشركين والناصبين والباغين والعادين والخارجين على الإمام وأمثالهم ، وأمّا الجهاد الأكبر فهو

جهاد النفس (فإنّ أعدى أعدائك نفسك التي بين جَنْبيك)كما في الخبر وجهادُها بالرّياضات وهي قسمان.

قسم وضعوه أصحاب السيمياء والهيمياء والجوكيّة وأصحاب السحر والأعمال التي يتوقّف استعمالها على تسخير الملائكة والجان والشياطين والحيوانات بل الجمادات والنباتات وغير ذلك مما هو معروف عند أهله ليتوصّلوا بتسخير الأرواح وبقوة نفوسهم على سائر مطالبهم. ومنها رياضات أهل التصوّف ليجرّدوا أنفسهم لتنكشف لهم الأسرار وحقائق الأشياء.

أمّا الأولون فعملوا تلك الرّياضات لمقاصدهم لم تكن لله تعالى في شيء ولم يقصدوا بها شيئاً ممّا لله فحالهم معروف والمجاهدة للنفس بهذا النحو باطلة يضلّ الله بها أهلها عن سبيل الرشاد.

وأمّا الآخرون الذين هم الصوفيّة فأكثرهم له مقاصدُ ترجع إلى نحو ما قصد الأولون ويظهرونها على صورة ما لله من المجاهدة وقد شيّدوا هذا الإظهار بمختلف أقوالهم ومتناقض أعمالهم وأحوالهم وكلامهم ومتشابه هيئاتهم ويفعلون المعاصي بعد أن يرتّبوا لهم قواعد مثل (وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ اليَقِينُ)ويقرّرون أنّ العبادة والطّاعة إنّما هي نَفَقةُ الطريق إلى الله تعالى، فإذا وصل لم يحتج إلى شيء من العبادات لأن نفسَهُ هي ذاتُ الله من جهة الحقيقة وأنّ مخلوقيّتها موهومة فله حقيقة ومجاز حقيقتهُ هو الله ومجازهُ هو كونه مخلوقاً وعبداً وذلك موهوم ففي الطريق لا بأس بالعمل فإنه صورة وصفة وهي ترجع إلى مثلها وهو المجاز فإذا وصل واتصل كان هو الله ولا يعبد أحداً ومن هنا قال شاعرهم :

أنا ذلـك القدّوُس في قــدسِ العماء مُحجب
أنا قطبُ دائــرةِ الرحى وأنا العُلى المستوعِبُ
أنـا ذلك الفـرِدُ الــذي فيه الكمالُ الأعجبُ
وبكل صوتٍ طــائري في كـلِّ غُصنٍ يُطْرِبُ

إلى أن قال

وأقـولُ أنّي خلقـهُ والحــق ذاتي فاعجبــُوا
نـفسي أنــزِّه عن مقالــتِي التي لا تكــذِبُ
الله أهـلٌ للعُلى وبــريـق خلــقي خُلــبُ
أنـا لـم أكُنْ هو لــم يــزل ولأيّ شيءٍ أُطْنِبُ
ضــاع الكـلامُ فلا كلام ولا سكُوتٌ مُعْجِبُ
جمـعَتْ محاسِني العلا أنَـــا غــافرٌ والمذنِبُ

فتأمّل سوء مقصدهم من هذه وأمثالها فإنهم إذا وصلوا إلى هذا المقام عندهم لا يعبدون لأنّ الشيء لا يعبدُ نفسهُ بلا فرضِ مغايرةٍ هي في مقام اليقين ولذا قال تعالى (وَاعْبُدْ رَبَّكَ) يعني في مقام المجاز وهو الطريق إليه لأنه هو مقام فرض المغايرة (حَتَّى يَأْتِيَكَ اليَقِينُ) وهو الفناء في الله والاتّحاد به وهو مقام عدم المغايرة، ومثل ميلهم إلى الغنا والنغّمات وضرب الطبول ويتعلّلون بأن النفس خلقت من ألحان الأفلاك في حركاتها الموسيقية فإذا أصْغَت إليها انجذبَتْ إلى ما يشاكِلُها فتذكّرت نَشْأتها وأعرضت عن المشاغل الدنياويّة فأدركت المعارف الإلهيّة ويقولون إنّا ننظر إلى المُرْدَانِ الجميلةِ لنشاهد فيها آثار الجمال الإلهي وكلُّ هذه تَمْويهات النفس والشيطان دعتهم إليها شهواتُ نفوسهم الخَبِيثة لا يريدون بها

شيْئاَ لله ولا لشيْءٍ من طاعته بل للشيطانِ (وَلِتَصْغى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ لِيَرْضَوْهُ وَ لِيَقْتَرِفُوا ما هُمْ مُقْتَرِفُونَ)، فهذه الرّياضات طرقُ الشيطان إلى النَّارِ ومنهم من يرتاض برياضاتهم ويقتدي بهِم في اعتقاداتِهِمْ ويؤول من كلامهم ما يظهر له فسادهُ لحسن ظنّه بهم وإنْ كانوا لا يعملون من أعمالهم مثل الغِنَاء واستعمال الملاهي وترك العبادات وفعل المعاصي فهؤلاء رياضاتهم باطلةٌ كالذين من قبلهم وإن كان بعض هؤلاء قد يستعمل هذه الرياضات الباطلة لله بمعنى أنّه يحسِب أنّها توصل إلى ما يحب الله ويستدلّ في نَفْسه وعلى خصمه بمثل عموم (الحكمة ضالّة المؤمن حيثما وجدها أخذها)، وبما يلِفّقُ من مآخِذَ عقليّة يطول الكلام بذكرِها بلا فائدة وهو عمل باطل، لأنّ المؤمن ليس له ضالّة إلاّ طريقة الأئمّة الهداة عليهم السلام ولو لم يُقرِّروا طريقة الحق لكان لقائِلٍ أنْ يقول إنّهم حصل لهم بالأدلّة والقرائن أنَّ طريقة أوُلئك هي طريقة الهادين أو توصل إلى طريقتهم ولكنهم عليهم السلام قد دلّوا على الطريقة الحقة في المأكل والمشرب والملبس والنكاح والعلوم والأعمال ولم يتركوا شيئاً يوصل إلى الله تعالى إلاّ دلّوا عليه وأمروا به وعملوه ونهوا عن طريقة أهل الباطل وهم أهل السحر بأقسامه وأهل التصوف وعن اتباعهم وتأوّل كلامهم والميل إليهم والتّسمّي بأسمائهم وأمروا بالبراءة منهم وممّن يُؤوِّل كلامهم ويميل إليهم ويتسمّى بأسمائهم إلاّ للتقيّة كما دلّت عليه أحاديثهم فلا تكون طريقتهم الباطلة ضالّةً للمؤمن بحالٍ.

وأما أدلّتهم العقْليّة فباطلة لأنّ تلك العقول مكتسبة من الباطل فتَثْمِرُ مِنْ جنسِ بذرها.

وبالجملة فرياضات هؤلاء كلّهم باطلة تُوصِل إلى الباطِل وإن قصد بها

الجاهل المجاهدة في الله لأنّها في حقيقتها مجاهدة في الشيطان ولهذا حصل لهم كشف عن طرق الباطل فكانوا يقولون إن علم الله مستفاد من المعلوم والمعلوم أنت وأحوالك وأنّ الله سبحانه ما أوجد إلاّ نفسَهُ وأنّ حقيقة الخلقِ عين الحقّ سبحانه ولأن مشية الله أحديّة التّعلق وهي تنافي اختيار الحقّ سبحانه فليس له في مخلوقه إلاّ شيء واحد وأن أهل النار يَؤُول أمرهم إلى النعيم، وأنّ كلام الله قديم ليس هو غير ذاته وغير ذلك من الاعتقادات الشنيعة وما سمعت بعضهُ من الأعمال الفظيعة لأنهم إنما دعاهم إلى هذه الأمور التكبّر عن طاعة أئمّة الهدى عليهم السلام والاستنكاف عن ولايتهم فلا تَلُمْهُمْ ولُمْ مَن يدّعي من شيعتهم وطريقتُهُ طريقةُ أعدائِهِمْ ﴿فَإِنَّها لا تَعْمَى الأَبْصارُ وَ لكِنْ تَعْمَى القُلُوبُ التِي فِي الصُّدُورِ﴾.

والقسم الثاني من الرياضات ما أَسَّسَهُ محمد وأهل بيته الطاهرون صلى الله عليه وعليهم أجمعين وهي ما سنّهُ الله تعالى لهم ودَلّهم عليه من آدابه وبينهُ لهم في كتابه ومجملهُ أن تأكل كل ما تشتهي نفْسُكَ من الحلال ناظراً إلى إباحة الله وإذنه أوْ ندبه إليه لتقوى به على طاعة الله سبحانه مقتصِراً على ما يُخرِجُكَ عن الجوع المشغِل والشبع المثقل، مؤدياً لشكر تلك النعمة بالحمدِ لله على نعمِه وملاحظة أنّها منه وحدَهُ ابتدأكَ بها كرما وجوداً ومجتنباً من ذلك كلّ ما نهى الله عنه وعن كلّ شبهةٍ وكلّ مباح يؤدّي إليهما ولو في الاحتمال أو تميل معه نفسُك إلى الشهوات التي تطلبها نفسك لغير طلب الإباحة والإذن والندب من الله للتقوية على الطاعة بل لمجرّد الشهوة الحيوانيّة أو العاديّة فقد قال عليه السلام ﴿إِيَّاكُمْ وَ مَوَائِدَ المُلُوكِ وَ هُمْ أَبْنَاءُ الدُّنْيَا فَإِنَّ لِذَلِكَ ضَرَاوَةً كَضَرَاوَةِ الخَمْرِ﴾ حابساً نفسك وشهوتك على ما لله أو ما يؤدي إلى ما لله تعالى والشراب واللباس والنكاح كذلك، وينبغي لك الخلوة

عن الناس وهي خلوة أهل البيت عليهم السلام لا خلوة الصوفيّه والرهبانيّة بل هي أن تُخْلي قلبك عن كل ما سوى الله تعالى إلاّ ما كان لله من صلاة وعبادة وذكر وفكرٍ وذكر موتٍ واعتبار كما قال تعالى (أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَما خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ).

وقوله عليه السلام (المؤمن كلامه ذكر وصمته فكر ونظره اعتبار)بمعنى أنه لا يتكلم إلاّ فيما يعنيه بأن يقصر كلامه على ما كان من أمر الدين وأمر الآخرة وما كان من أمر الدنيا على أقل ما يكفيه من الكلام ، وإذا صمتَ فكّر فيما يراد منه وكيف يرضي مولاه في كلّ ما يتعلّق به من أحوال العبادة والعبوديّة وفي كيفية الاستعداد للقاء مولاه بما يرضى به عنه وكيفية التخلّص والانفصال واللحوق والاتّصال وإذا نظر اعتبر في المصنوعات عظمة الصانع واختلاف خفي تدبيره وسرعة حلول مقاديره من الغنى والفقر والصحة والسقم والهداية والضلالة والسعادة والشقاوة والفرح والحزن والرضى والغضب والموت والحياة، وفي تقلّب أحوال الدنيا وفي الموت وما بعد الموت ويقرأ كتاب الله فيرى سنة الماضين علم اليقين أو عين اليقين ويرى من نجا بما نجا ومن هلك بما هلك. وبالجملة يعيش في هذه الدنيا غريباً لا يعرف أحداً وإن كان بين الناس وبين أهله وأقاربه ومع هذا فلا يترك التكسب وطلب الرزق من الوجه الحلال. ومنه أنه لا يلهيه طلبُ الحلال عن ذكر الملك المتعال بل يُجْمل في الطلب كما قال تعالى (رِجالٌ لا تُلهِيهِمْ تِجارَةٌ وَ لا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَ إِقامِ الصَّلاةِ وَ إِيتاءِ الزَّكاةِ يَخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَ الأَبْصارُ)، ويجتهد في طهارته وفي صلاته لا على جهة الهَوَس والوسوسةّ بل على جهة شدّة الاعتناء بشأن خدمة الملك الجبّار جلّ جلالهُ بإخلاص النيّة له والتزام

الآداب الإلهيّة كأنه بين يدي الله سبحانه وبالصدق مع الله في كل المواطن بحيث لا يفقده حيث يحبّ ولا يجده حيث يكره. فإذا وقع منه خلاف ما وصفنا فليعلم أن هذا شأنه لشدّة فقره ولا ملجأ للفقير إلاّ الغني وليَنْدَمْ على ما فرّط ولا يشتغل بغم ما مضى عن الاهتمام بما يأتي، ثم لا يستحقر صغيرةً من طاعةٍ أو معصيةٍ من الواجبات والمحرّمات ومن المندوبات والمكروهات ومن الآداب والسنن ممّا هو شرط في الكونين كون التشريع وكون التكوين أو متمِّم لشرط أو مُكمّلٌ له أو متردّد بينهما ولا يزال كذلك حتّى يلحق بالّذين (صَحِبُوا الدُّنْيَا بِأَبْدَانٍ أَرْوَاحُهَا مُعَلقَةٌ بِالمَحَلِّ الأَعْلى)وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى (ما زال العبد يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أُحَبِهُ فإذا أحببته كنتُ سمعَهُ الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به) ، وقال عليه السلام (وخلق الإنسان ذا نفس ناطقة إن زكاها بالعلم والعمل فقد شابهت جواهر أوائل عللها وإذا اعتدل مزاجها وفارقت الأضداد فقد شارك بها السبع الشداد)انتهى.

أقول إذا قام بكلّ الآداب كان ممّن عناه علي عليه السلام بقوله (فإذا اعتدل مزاجها وفارقت الأضداد ...إلخ) ، وإن قام بالبعض كان له البعض كلٌّ بنسبته وهم عليهم السلام من أهل القسم الأوّل وبمثل ما ذكرنا يجاهدُ العاقل نفسه وقد جاهدوا عليهم السلام في الله سبحانه الكفار والمنافقين وجاهدوا أنفسهم حق الجهاد على حدٍ يقصر عنه جميع العباد، وذلك لأن الله سبحانه اجتباهم من جميع الخلق وآتاهم من نعمه ما لم يؤتِ أحداً من العالمين،فطلب منهم شكر تلك النعم فأوحى إليهم (وَجاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَباكُمْ) فقاموا بأمره كما أمرهم فأخبر عليه السلام عنهم بذلك الوفاء الذي هو غاية الشكر بقوله وجاهدتم في الله حق جهاده.

قال عليه السلام حتى أعلنتم دعوته

(أعلن) بمعنى أظهر ونشر (والدعوة) بمعنى الدعاء والسؤال ومنه (أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ) أي سؤاله لخلقه وعليه فهي مضافة إلى ضمير الفاعل والسؤال هو قوله تعالى (أَ لسْتُ بِرَبِّكُمْ)، حين سألهم قبل أن يخلقهم كل واحدٍ في وقت وجوده ومكان حدوده لمّا سألوه بلسان إمكانهم وهم عليهم السلام إذ ذاك هم الداعون السائلون لأنهم تراجمة وحيه ولسانه المعبّر عنه وهم أصل موادّ الخلق التي بألسنتِها الإجابة الإمكانيّةُ والتكوينيةُ، فسمع دعوة الله سبحانه من ألسِنَتِهم عند الأداء والتبليغ عنه سبحانه كلّ شيْءٍ ولأنهم الأعضادُ والأشهاد والمناة والمقدّرون والأذوادُ والحفظةُ والروّاد فقد أعلنوا دعوة إيجاده حتى ظهرت في كلّ شيء وانتشرتْ في سائر أقطار الأكوان وأعلنوا دعوة إمكانهم بألسنَة قبولهم بالإرشاد والإمداد لأنهم الأعضاد أو يكون المراد سؤالُهُ أي سؤالهم له وعليه فهي مضافةٌ إلى ضمير المفعول وذلك حين سألوه بعد أنْ أمكنهم قبل أن يخلقهم بألسنَةِ إمكاناتهم بعبارات قبولهم كلّ في وقت وجوده ومكان حدوده، فأعلنَوا دعوته أي دعوة خلقِه إيّاه سبحانه أي أظهروها ونشرَوُهَا بآثار هياكِل توحيدهم عليهم السلام هذا في حكم التكوين وأما في التّشريع فدعوته لهم إذا أُريدَ منها معنى السؤال يكون المراد به أنّه جلّ وعلا كلّفهم بالأمر والنهي وما ندب إليه وكرّهَهُ تخييراَ لأنّه سبحانه لم يرض أن يطاع بإكراه لعدم تحقّق الطاعة مع الإكراه كما أنّه لم يعص بغلبة لعموم قدرته فكان المكلف بأمره ونهيه غير مجبورٍ بل هو مختار في الامتثال بأمره والاجتناب عند نهْيه لتتحقّق الطاعةُ والمعصية ولهذا ورد

خطابه لهم في التكليف بصوُرة السؤال فقال (أَ لسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى) مختارين للقبول منه والأئمة عليهم السلام عيبة علمه تعالى ومستودع سرِّه وأمناءُ نهيه وأمره فبَلّغوا عن الله ما أمرهم بتبليغه حتى أعلنوا دعوته، ولمّا كانوا حملة ولاية الله والقوّامون بأمره ونهيه كان اتباعهم يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم وهذا لهم ليس غيره إلاّ الضلال وهو قوله تعالى (فَماذا بَعْدَ الحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ) فمن اقتدى بهم اهتدى إلى طاعة الله وإلى إجابة دعوته وقد حثوا على ذلك وبالغوا في الدعاء إلى الله حتى أعلنوا دعوته على المعنى الثاني الذي قلنا فيه إنّ دعوة مضاف إلى ضمير المفعول بمعنى الاستجابة لله وللرسول صلى الله عليه وآله وسلم كما في قوله تعالى (اسْتَجِيبُوا للهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ)وكلما يلحظ في التكوين يلحظ في التشريع وبالعكس ، والدّعوة أيضاً من دعاه بمعنى ناداه أي طَلب إقْبَالهُ ويصح في هذا المعنى الوجهان السابقان أي أنّ الله سبحانه طلب إقبالهم عليه ليقبلوا منه ظاهر فيضه وإمداده الذي به كونهم وبه قوامهم والأئمة صلى الله عليهم هم الوسائط في ذلك الطلب وهم المبعوثون به وهم المترجمون له وهم المؤدّون إلى خلقه وهم المبلِّغون فيضه إليهم، وحيث كان ذلك المدد والفيض لا يكون إلا فيهم ولا تصل آثاره إلى العباد إلاّ عنهم وبهم وطلب منهم التبليغ وبلّغوا عنه ما أراد منهم من التبليغ ظهر أنّهم أعلنوا دعوته على نحو ما أشرنا إليه ممّا تقدّم من أن الموادّ من شعاع أنوارهم والقبول من آثار هياكلهم وليقبلوا منه باطن فيضه وإمداده الذي به حياة كونهم وبه قوام ذواتهم وهم عليهم السلام أولُوا أمر الله ونهيه ، وأولياء أحكامه وحفظة شرائعه المبعوثون بدينه الداعون إلى سبيله (بِالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ)، فحَضّوا على الرضا وبالغوا في الأداء ودعوا إلى طاعة الله وعبادته وأمروا

بالمعروف ونهوا عن المنكر حتّى أقاموا الدين في السموات والأرضين وهو قولهم الحق (بنا عرف الله)(وَلَوْلانَا مَا عُبِدَ الله)وقول الحجة عليه السلام في دعاء رجب (فَبِهِمْ مَلأْتَ سماءَكَ وأرضك حتى ظهرَ ألاّ إله إلاّ أنت)فقد أعلنوا دعوته حين دعا عباده إلى معرفته وعبادته.

والدعوة أيضاً العبادة وفي الخبر الدعاء هو العبادة ويكون المعنى أنهم أعلنوا عبادته أمّا منهم فلأنهم عبدوه حقّ عبادته وجاهدوا فيه حق جهاده وإمّا من الخلق فلأنّهم أسَّسوا لهم العبادة وأمروهم بها واصطبروا عليها بل لم يقبل من أحدٍ من خلقِه عبادةً إلاّ ما وافقت مِلّتَهُمْ وسُنّتَهُمْ كما أمروا مصاحبة لِوَلايتهم ومحبّتهم ، وفي حديث علي بن الحسين عليهما السلام (وقد سُئِل كيْف الدعوة إلى الدين فقال تَقُولُ بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَدْعُوكَ إِلى الله عَزَّ وَجَل وَإِلى دِينِهِ وَجِمَاعُهُ أَمْرَانِ أَحَدُهُمَا مَعْرِفَةُ الله عَزَّ وَجَل وَ الآخَرُ العَمَلُ بِرِضْوَانِهِ وَإِنَّ مَعْرِفَةَ الله عَزَّ وَجَل أَنْ يُعْرَفَ بِالوَحْدَانِيَّةِ وَالرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالعِزَّةِ وَالعِلم وَالقُدْرَةِ وَالعُلُوِّ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَأَنَّهُ النَّافِعُ الضَّارُّ القَاهِرُ لِكُلِّ شَيْءٍ الذِي لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللطِيفُ الخَبِيرُ وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ هُوَ الحَقُّ مِنْ عِنْدِ الله عَزَّ وَجَل وَمَا سِوَاهُ هُوَ البَاطِلُ فَإِذَا أَجَابُوا إِلى ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلمُسْلِمِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلى المُسْلِمِينَ).

أقول: جِماع الدعوة أمران كما ذكر عليه السلام ومعرفة الله سبحانه تدور على شيئين أحدهما ما أشار إليه عليه السلام بقوله أن يُعْرَف بالوحدانية. . . إلخ ، وثانيهما المراقبة وحفظ السّرّ وذكر الله على كلِّ حالٍ وأمّا العمل برضوانه فهو القيام بأوامره واجتنابُ نواهيه على ما حدّدُوهُ من حدود الله وقوِامُ تلك الحدود ولايتهمْ

والاقتداء بهم والأخْذ عنهم والتسليم لهم والردّ إليهم والتفويض إليهم ومحبّتهم بالقلب واللّسان والأركان والاعتصام بذِمّتهِمْ والبراءة من أعدائهمْ واعتقاد أن الأعمال والمعارف لا تفيد شيئاً إلا بما ذكر بل تكون بغيرها معاصي وهباءً منثوراً، ولا يكون العمل برضوانه كما ذكرنا مقبولا إلاّ بمعرفتهم ولا تقبل معرفتهم إلاّ بمعرفة الله كما وصف نفسَهُ على ألسِنَتِهِمْ ولا تقبل معرفة الله إلا بمعرفتهم فجماع الدعوة أمران كلّ واحدِ منهما مرتبط بالآخر بل شرط له وركن له كما ذكرنا ففي الحقيقة هم أعلنوا دعوته بكلّ معنى على كل نحو، وفي حقّ الحقيقة الله سبحانه أعلن بهم دعوته كذلك وإلى هذا المعنى أشار عليه السلام في دعاء شهر رجب بقوله (فبِهِمْ مَلأْتَ سماءك وأرْضَك حتى ظهر ألاّ إله إلاّ أنت) ولو أراد خصوص الأوّل الذي هو الحقيقة لقال فملئوا سماءك وأرضك.

قال عليه السلام وبينتم فرائضه

البيان فصل ما بين الأشياء وتبيانُ كل شيء يحتاج إليه الناس ، ويقال البيان هو المنطق الفصيح المعرب عما في الضّمير والفرق بين البيان والتبيان هو أن البيان جعْلُ الشيء مُبيَّناً بدون حجّة، والتبيان جعل الشيء مبيّناً مع الحجة. وفي الحديث (أَنْزَلَ الله فِي القُرْآنِ تِبْيَانَ كُلِّ شَيْءٍ) يعني كشفه والإيضاح والسلطان والبيان والبرهان.

والفرائض جمع فريضة من فَرض أي أوجب وبمعنى وقّت ومنه قوله تعالى (فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الحَجَّ)، أي وقّت وبمعنى العقد والميثاق ومنه قوله تعالى (وَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِيما تَراضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الفَرِيضَةِ)أي لا جناح عليكم فيما تراضيتم من عقدٍ مستأنفٍ من بعد انقضاء مدة الأجل الأوّل فقوله (مِنْ بَعْدِ الفَرِيضَةِ)

أي من بعد العقد وهو الميثاق أيضاً كما قال (وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً)ويقال للواجب فرض إمّا مِنْ فرض بمعنى قدر وإما من فرض القوس وهو ما يوضع فيه الوتر لأنه به ينتَفع به لا بدونه.

فمعنى بَيْنتُم كشَفْتم ما ستَر من أسْرار فرائضه ورُخَصِه وأوضحتم ما غمض من أحكامه ومأخذِها وشيّدتم أركان تسلّطهِ على عباده بما حمّلكم من الولايةَ وأودع عنكم من مقاليد الهداية وأحكمتم عقد طاعته، وما أخذ على عباده من الميثاق على إجابة دعوته ونهجتم سبيل معرفته في واضح المنهج بما أقمتم على ذلك من الحجج فبيّنوا فرائض أمره وإرادته بحدودها حتى ظهر لمن أخذ عنهم واقتدى بهم واهتدى بهديهم ، إنّ من الفرائض ما حُدِّدَتْ بنفي الحدود وهي معرفته فإنّها أوّل الفروض ونهاية الطّاعة، لأنّها هيكل ظهوره لعباده فلو كانت محدودة لكان تعالى معروفاً بالحدود فيعرف بنفي كل ما يجوز وبوجوب كل ما يمتنع عن الإدراك لأن الشْيء إنما يعرف بصفته.

وعلى أنّ فَرَضَ بمعنى وقّت في العبادة ظاهر لأن منها ما هو موقّت في الوجوب والأداء كالصلوات والصيام ومنها موقّت في الوجوب كالزكاة ومنها موقت في الأداء كالحجّ ومنها موقت بالعمر كصلاة الزلزلة. وأمّا في المعرفة فحيث كان حقيقتها أنها صفته كان توقيتُها وجودها ووجودُها نفس وجود العارف وفرضُها أي توقيتها حين كونها معلومة أيٍ حين يقع عليها العلم بها ، وأوّل وقتها هذا وآخره فناؤه في علة مبدئه وكونها معلومة هو ظهور العالم بها الذي هو هو لها ، لأنّ الظّاهر إنما هو هو بظهوره وهو وهو كلامُه بظهوره بها فهو أولُهَا وآخِرها ولا أوَّل لها ولا آخر غيره فلا أَوَل لها وإلاّ لكان لهُ آخر ولا

آخر لها وإلاّ لكان له أوّل بل الأول والآخِرُ له وهو خلقهُ وهو بكل خلقٍ عليم، ثم لما كان فناء العارف إنّما هو بكمال التجريد وكشف سبحات الجلال وكمال التجريد محو جميع الإشارات والنسب والاعتبارات وكل ما سوى الثابت بذاته سبحانه حتى لا يبقى إلاّ الباقي فإذا نفيتَ كلّ راجع إلى غيره ومستند إلى سواه حصلتَ على آيته ووقعتَ على نشأتك من صفته ولست إلا ما وصفَ لك من صفته وتعرّف لك بأصل فطرته كان باب ابتدائك حين خرجت بابَ فنائك حين دخلت، كما قال سيد الشهداء عليه السلام في آخر دعاء يوم عرفة في مناجاته كما روي (إلهي أمرت بالرجوع إلى الآثار فارجعني إليك بكسوة الأنوار و هداية الاستبصار حتى أرجع إليك منها كما دخلت إليك منها مصون السر عن النظر إليها و مرفوع الهمة عن الاعتماد عليها إنك على كل شيء قدير).

ولمّا كان بَدْءُ بَدْئِك حين خرجْت هو بابُ فنائك حين دخلت وكان تعدّد المكلّفين إنما هو لاختلاف المشخّصات ومنها الرتبة والجهة وجب أن يكون لكل مكلّفٍ باب لبدئه وعوده لا يشاركه فيه غيره لأن المشاركة إنما تتحقق في الكل وذلك يوجب الاتحاد ، وأما المشاركة في البعض فتوجب تعدد المخرج بسبب البعض الذي لم تقع فيه الشركة فظهر مما ذكرنا أن التّوقيت ظهر في مراتب لا تكاد تنضَبط لاختلاف المراتب الموقّتَاتِ وهذا التوقيت في نفسه مختلف فمنه مع السَرَمد صلى الله على محمدٍ وآل محمد ومنه مع أوّل الدهر ومنه مع وسطه ومنه مع آخره ومنه مع المثال ومنه مع أوّل الأجسام أو الأعراض على اختلاف مراتبها من الوجود من حق وباطل ، ولكل رأيتُ منهم مقاماً شرحُهُ في الكتاب ممّا يطولُ وذلك تأويل قوله تعالى (فَسالتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها).

وعلى أنه بمعنى قدّر ففي الأعمال جرت الحكمة على طبق الموضوعات كما أنه من الأعمال احْتِمال القوابل فقد بيّنوا بكلٍّ معنى يحتمله البيان جميع فرائضه سبحانه بكل معنىً يحتمله الفرض من الوجوب والعقد والميثاق والتوقيت والتقدير والثبوت والحكم على حدّ لا يدانيه سواهم ولا يحمِل أعباءَهُ إلاّ هم.

قال عليه السلام وأقمتم حدوده

إقامةُ الشّيء تعديلُ أركانه وحفظُها من أن يقع زيغ أو نقص في شيءٍ منها أو من مُتَمّماتِها أَوْ مِنْ مُكَمّلاتِهَا.

والحدود هي الأحكام لأنها حدودُ أفعال المكلّفين وأحكامُها إمّا كونُها حدود أفعال المكلّفين فلأنّها تضْبطُهَا عن الإفراط والتَّفْريط وتحبسُهَا على الاعتِدال الذي به قبولُ الخير والحق لا بغيره، فالأحكام في الحقيقة تحديد الأفعال وتَعديلها على مقتضى الحق الذي هو الحكمة الإلهية باطناً والأمر بالأعمال الصالحة منها والنهي عن القبيحة منها ظاهراً وما يترتب على ذلك من الثواب في الموافقة والعقاب في المخالفة فهو ما خلقه الله بمُقْتضَى ما يفعلون من أعمالهم وهو سبحانه (سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ).

وأما كونها أحكاماً فلأنّها في الوجود تشريعاتٌ وجوديّة وتكليفات ذاتية وفي الشرع ميولات فعليّة وضعية ودواعٍ سببيّة اقتضائيّة تكون بها وجودات تشريعيّة وإنما قلنا إن الميولات فعلية لأنها منسوبة إلى الفعل لا إلى الذّات ، وأمّا وضعية فلملاحظة قوابلها من أفعال المكلفين لأن تمييزها وتشخصها إنما هو بتلك القوابل، وأما دواعٍ فلملاحظة أنها بواعث أي ميولات لاقتضاء الفعل

، وأمّا سببيّة فلملاحظة تَضايفها لأنها لا تظهر إلاّ بالقابل ولا يتحقّق القابل إلاّ بها وذلك من حيث هي هي كما هو شأنُ الأحكام الوضعيّة ، وأمّا اقتضائية فلملاحظة أنّها منشأ قوابلها لأنها من نفوسها فهي اقتضتها وإن كانت إنما تتعيّن بها، ففي الأول وجودات اقتضت شرعاً قد نصّت عليه وحكمت به ، وفي الثاني تكليفات اقتضت وجوداً وحكمت به بنَصّها عليه.

فإذا عرفت ما أشرنا إليه ظهر لك أنّ الأحكام حدود أفعال المكلّفين وحدود لوازمها وأنّ الحدود أحكامُ ميولات الفعل وأنّ الميولات التي هي الأحكام باعتبارٍ ومنشأ الأحكام باعتبارٍ آخر لها ظاهر وباطن فباطنها ما سمعتَ مما أشرنا إليه وظاهرها الأوامر والنواهي الشرعيّة المعروفة وكل ذلك حدود الله أي أحكامُهُ، وقد أقاموا حدود الله في كل رتبةِ أشرنا إليها من الأحكام والحدود بحقّ إقامتها من التعديل والحفظِ اللذين بهما كمال إقامتها على ما ينبغي على حدّ لا يقوم به غيرهم عليهم السلام كما بيّناه غير مرّة في نظائرها.

قال عليه السلام ونشرتم شرايع أحكامه

قال الشارح وإن كان من الصادقِيْن أكثر فإنه كان لأبي عبدالله عليه السلام أربعة آلاف مُصَنِّفٍ ومن غير المصنّفين ما لا يحصى وكتاب الرجال لابْنِ عقدة في بيان أحوالهم وكتبهم والإضافة من قبيل خاتم فضّة أوْ أدلّة الأحكام من الكتاب وغيره (وسننتم) أي بيّنتم (سُنته) مفردا أو جمعاً وإضافة السنّة بمعنى الطريقة إلى الله لكونه منه تعالى أو سنة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم سُنته تعالى انتهى.

أقول: نشر ضدّ طوى أي بسطوا لكم للخلق شرائع أحكامه أو بمعنى أحيى كما في الدعاء (وَبِهَا تَنْشُرُ مَيْتَ العِبَادِ) أيْ تحيي.

والشرائع جمع الشريعة هو الدين مأخوذ من الشريعة التي هي مورد النّاس للاستسقاء سُمّيت بذلك لوضوحها وظهورها وحاجة الخلق إليها كحاجتهم إلى الماء بل أعظم بل هي الماء حقيقة.

والمراد أنّهم عليهم السلام أحيوا شرائع أحكامه إمّا بالتحمّل لها والقيام بها أو بالحفظ لها وتبليغ المكلّفين إيّاها كما حدّ الله سبحانه أو بالمعونة للمستجيبين من المكلّفين بالهداية والدعاء والتسديد والتّوفيق والقود إليها والذّود عن خلافها والعمل بمقتضاها على أكمل وجه، وأشد مواظَبَة ومحافظة بين ظهراني المكلّفين أو المستجيبين فإن ذلك أدْعى لهم إلى القيام وتحمّل مشاقّها أوْ باستنباط أحكامها مِنْ ثمارِ مقتضيات القوابل من أحوال المكلفين في بيوتها من الجبال والشجر ومما يعرشون وربط كلٍّ منها بما يشاكله من أفعالهم وأقوالهم وأعمالهم وما انطووا عليه من معتقداتهم ونيّاتهم حتّى أقاموا تلك الحدود وشيّدوا طاعة الإله المعبود فأداروا أفلاكها على أقطابها في كلّ قرنٍ وقدّروا أقواتها بين أراضيها وسماواتها في ستّة أيّام سواء للسَّائلين، يوم الأحد في شريعة آدم عليه السلام ويوم الاثنين في شريعة نوح عليه السلام ويوم الثلاثاء في شريعة إبراهيم عليه السلام ويوم الأربعاء في شريعة موسى عليه السلام ويوم الخميس في شريعة عيسى عليهم أجمعين السلام ويوم الجمعة في شريِعتهم التي شرعها لهم جدهم السيّد الأكبر صلى الله عليه وآله وسلم الطاهرين فالخمس الأول فروع السادسة لأنّها الجامعة لجميع أحكام الخمس وإنّما اختلف بعض أحكامها باختلاف الموضوعات كما ترى اختلاف بعض أحكام هذه الشريعة باختلاف موضوعاتها، فإن المصلّي العاجز عن القيام في الصلاة يكون فرضه الصلاة من جلوس فالصَلاة من قيام مع القدرة هي الصلاة من جلوسٍ مع العجز بعينها وإنما اختلفت باختلاف المتعلّق كما اختلفت صورة الوجه الواحد في المِرْآتين

المختلفتين وقوله تعالى (شَرَعَ لكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَ الذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ)الآية ، وقوله تعالى (قُل ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ)، وقوله تعالى (ما يُقالُ لَكَ إِلاَّ ما قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ)وأمثال ذلك مما يوهم فرعيّة شريعة محمد ﷺ على الشرائع الأول وتبعيتها لها فإنّما جرى في الظاهر بهذه الصورة على ما تفهم العوام والأعراب من أن الأنبياء عليهم السلام سبقوا وشرائعهم قبل شريعة محمد ﷺ ولمّا كانت الأنبياء عليهم السلام عند عوام النّاس في زمَنِ محمّدٍ ﷺ حقّاً وأنهم همُ الداعون إلى الله صدقاً، من جهة أنّهم سمعوا ذلك بالأخبار المتواترة ولم يكونوا حضروهم لتحصل من بعضهم النفرة عنهم لاستثقال التكليف فيقع منهم الإنكار بل اعتقدوا نبوّتهم لوجود المقتضي وهو التواتر وزوال المانع حسن أن يقال في إخْبارهم أنّ هذا النبي ﷺ المرسل إليكم حاله كحال الأنبياء ولم يقل له في تكليف أمته إلاّ ما قد قيل للرسل من قبله في تكليف أممهم وما شرَّع لأمّته من الدين إلاّ ما شرعوا لأممهم ولم يكن يأتي بأمرٍ مبتدع غير ما أتوا به أممهم عن الله تعالى ليكون هذا أدْعَى لهم إلى القَبُولِ منه لدخوله ﷺ عندهم في جملة من أقرّوا بهم وصدّقوهم ودخولهم في نحو من كان عندهم أنّهم يجب عليهم القبول من الدعاة إلى الله تعالى بالحق فلهذا أتى التنزيل بصورة تبعيّته وفرعيّته لتأخّر دولته ﷺ في ظاهر الزمان لظاهر البشريّة وذلك لا يدلّ على أصالة فرعيّته وتبعيّته ليكون ﷺ تابعاً لمن تقدّم من الأنبياء بل هم التّابعون السائرون تحت لوائه الذي حمله وصيّه علي بن أبي طالب عليه السلام بل لا يوجد حقّ من دين أو غيره عند أحد من الخلق إلا ما كان عنهم وبهم لأنّهم الوسائط بين الله تعالى وبين جميع الخلق في كلّ شيء صدر من فعل الحق.

ففي الكافي في صحيح مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ قَال (سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام يَقُولُ لَيْسَ

عِنْدَ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ حَقٌّ وَلا صَوَابٌ وَ لا أَحَدُ مِنَ النَّاسِ يَقْضِي بِقَضَاءٍ حَقٍّ إِلا مَا خَرَجَ مِنَّا أَهْلَ البَيْتِ وَإِذَا تَشَعَّبَتْ بِهِمُ الأُمُورُ كَانَ الخَطَأُ مِنْهُمْ وَالصَّوَابُ مِنْ عَلِيٍّ عليه السلام).

وفيه عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام ما بمعناه وفيما قال أمير المؤمنين عليه السلام لسلمان وأبي ذرّ (أنا الخضر معلم موسى وأنا معلم سليمان بن داود).

وأمثال ذلك مما هو صريح في المُدّعى فإذا عرفت ما أشرنا إليه ظهر لك أن المراد من الشرائع التي نشرَوُها جميعُ الشرائع مع ما يدلّ عليه ظاهر اللفظ من أن الجمع المضاف الأصل في استعماله إفادتُه العموم.

وقد تقدّمت الإشارة إلى أنّ الأحكام يراد منها ظاهراً الأحكام الشرعية الخمسة وباطناً جميع أحكام الوجود من مقتضيات الكون الوجودي والكون الشرعي من الأسباب الفعلية والمادية والصُوريّة والغائية والمتممات للماهيّة من الوقت والمكان والرتبة والجهة والكم والكيف ومتمّماتِ كلٍ منها ومُكملاتها كما أشرنا إليه مراراً فإن لكلٍ منها كوناً وشرعاً فللكون شرع وللشرع كون وقد نشروا شرائع تلك الأحكام التي هي أحكام الله سبحانه في صنعه وشرعه وإليه الإشارة بقوله تعالى (وَأَوْحى رَبُّكَ إِلى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الجِبالِ بُيُوتاً وَ مِنَ الشَّجَرِ وَ مِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِها شَرابٌ مُخْتَلِفٌ أَلوانُهُ فِيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ)فأوحى إليهم سبحانه أن يفتحوا تلك الأبواب ويسكنوا تلك القباب ويستخرجوا منها الأسباب ويسلكوا بها طريق ربّ الأرباب ويثجوا من أفواههم طيّب الشراب فيه شفاء من جميع الأوصاب لكل ذرّة في الوجود من الماء الأول إلى التراب.

قال عليه السلام وسننتم سنته

السّنة الطريقة والسيرة وهي في الحقيقة مجاز الخالق إلى خلقه أيْ طريق إيجاده إيّاهُمْ وإرشاده لهم على ما تقتضيه الحكمة الإلهيّة والعناية الربّانيّة ومجاز الخلق إلى خالقهم أي طريق قبولهم منه الإيجاد والإرشاد كذلك ولهذا سميّت الطريقة المخصوصة سُنة إذا كانت على المقتضى الطبيعي المتناسق من حق وباطل، وإنّما تنسب إليه تعالى دونهم لأنها منه قصدها وبه جورُهَا لا منه فالجائر منها ليست سنتّه والقصدُ منها منه وبه وله وإليه دونهم وإن كانت بهم هي سنّته تعالى المستقيمة في مستقيم قبولهم منه تعالى ومعوّج عدم قبولهم منه قال تعالى (فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلهُ يَجْعَل صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ كَذلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلى الذِينَ لا يُؤْمِنُونَ وَ هذا صِراطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً) يعني في الجعلين إنّ ربّي على صراطٍ مستقيم فيجري الجعل المستقيم باستقامته على ما تقتضيه قوابل الأعمال وأعمال القوابل من الحق والباطل، وكان الجعل الواحد جعلين لتعلق الأول بالمجعول المحبوب المرضي، والثاني بالمجعول المكروه المغضوب وكلا الجعلين محبوب وموافقة المجعولين للجعلين محبوب وفي الدعاء (لا يخالف شيء منه محبتك).

وسَن سُنّةً أي وضع طريقةَ متناسقة ولا تكون سنة إلاّ كانت تدور على أصل هو قطب واحدٌ يجمعها فلو كان لها أصلان قطبان لها لم تدر في حق أو باطل والمثال في ذلك أن الرحى لا تدور على قطبين وإنّما تدور على واحد فإن كان في وسطها الحقيقي دارت مستقيمة كالحق وإن خرج عن الوسط الحقيقي اعوجّت

استدارتها كالباطل وكلما بعد القطب عن الوسط الحقيقي اشتد اعوجاجها وبالعكس، ويقال (سنّ الماء على وجهه أرسله إرسالاً).

فقوله عليه السلام (وسننتم سنّته) يعني وضعتم طريقته وجعلتموها كذلك لأنهم محال مشيته (لا يَسْبِقُونَهُ بِالقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ)بل هو الفاعل عنهم أو بهم كما أشار إليه قوله تعالى (وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللهَ رَمى)ومثله سنّ بمعنى أرسل فيكون على هذا سننتم سنّته أي أرسلتم شريعته التي هي الماء الذي جعل الله منه كل شيء حيّ وهو العِلمُ على وجوه القوابل فقابل بالاستجابة وقابل بعدم الاستجابة ويفيد هذا المعنى أنهم شرعوا لكل مكلّفٍ من جميع ذرّات الوجود ما تقتضيه قابليته من الأحكام لم يحبسوا عن شيء ما اقتضاه من الأحكام بل أرسلوا جميع الشرائع والسُّنن وأطلقوا قيودها حتى حامت أطيارها ووقعت على أفنانها وغرّدت في أغصانها التي في أوطانها لم يقع منها شيء في غير موضعه ولا بغير اختياره بل أرسلوها في التقدير بأكمل تدبير على صراط مستقيم ذلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ.

قال عليه السلام وصرتم في ذلك منه إلى الرضا وصدقتم من رسله من مضى

قال الشارح رحمه الله وصرتم في ذلك المذكورات منه تعالى إلى الرضا أي صار ووقع ذلك منكم بحيث رضي الله عنكم أو كنتم راضين عن الله تعالى وإن لم يكن إظهارها كما تحبّون ويؤيده قوله وسلّمتم له القضاء في منعكم الطواغيت من إظهار شعائر الله كما ينبغي أو في جميع الأمور، والرضا متعلق بالمظلومية لا بالظلم أو بما قدّره الله تعالى من أن لا يكون التكليف بالإلجاء بل يكون بالاختيار

(لِيَجْزِيَ الذِينَ أَساؤُا بِما عَمِلُوا وَ يَجْزِيَ الذِينَ أَحْسَنُوا بِالحُسْنَى)وصدّقتم من رسله من مضى أي جميعهم مفصّلاً بأخبار الله إيّاكم أعدادهم وأحوالهم وإن وجب علينا التصديق مُجملاً انتهى.

أقول: قد بيّن الشارح رحمه الله كثيراً من المقصود من هذا الكلام وأنا أبيّن بعض ما لم يشر إليه من أسباب ما ذكر إن شاء الله تعالى، فقوله وصرتم في ذلك من القيام بما أراد منكم وهو (فَعَظَّمْتُمْ جَلالَهُ وَأَكْبَرْتُمْ شَأْنَهُ وَمَجَّدْتُمْ كَرَمَهُ وَأَدَمْتُمْ ذِكْرَهُ ووَكَّدْتُمْ مِيثَاقَهُ وَ أَحْكَمْتُمْ عَقْدَ طَاعَتِهِ وَ نَصَحْتُمْ لهُ فِي السِّرِّ وَ العَلانِيَةِ وَ دَعَوْتُمْ إِلَى سَبِيلِهِ بِالحِكْمَةِ وَ المَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَ بَذَلْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فِي مَرْضَاتِهِ وَ صَبَرْتُمْ عَلَى مَا أَصَابَكُمْ فِي جَنْبِهِ وَ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَ آتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَ أَمَرْتُمْ بِالمَعْرُوفِ وَ نَهَيْتُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَ جَاهَدْتُمْ فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ حَتَّى أَعْلَنْتُمْ دَعْوَتَهُ وَ بَيَّنْتُمْ فَرَائِضَهُ وَ أَقَمْتُمْ حُدُودَهُ وَ نَشَرْتُمْ شَرَائِعَ أَحْكَامِهِ وَ سَنَنْتُمْ سُنَّتَهُ) إلى هذه الفقرة فالإشارة بذلك إلى هذه الأحرف إن اعتبر ما منهم وهي قوابلهم وإن اعتبر ما منه تعالى وهو إمدادهم من كرمه فالإشارة إلى قوله (اصطفاكم بعلمه وارتضاكم لغيبه) إلى قوله (وطهّركم تطهيراً) ويجوز أن تكون الإشارة إلى المجموع.

فعلى الأول يكون المعنى على أن الله تعالى رضي عنهم أنّهم بشدّة قيامهم بأوامرهم واجتهادهم وحسن قبولهم عنه حتى بلغوا فيه الغاية بل تجاوزوا النهاية كانوا أهل أن يرضى الله عنهم لأنّهم أتوا بكلّ ما يمكن مما يدخل تحت استطاعتهم لأنه أمرهم بذلك بقوله (فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ)عالمين بما أتوا وبمِفصوله وبموصوله وعلى أنّهم رَضُوا عن الله لما أراهم الله سرّ ما أراد منهم ظهر ألا مطلب لهم أفضل ولا أكمل ولا أجمل ولا أجلّ منه استبشروا بذلك عن

علم ورضوا عن الله تعالى وإلى هذا أشار الحجة عليه السلام في دعاء شهر رجب بقوله (المستبشرون بأمرك)الدعاء.

وعلى الثاني وهو اعتبار ما منه يكون المعنى على أنّ الله تعالى رضي عنهم أنّه سبحانه كانت غاية رضاه لهم فيما أجرى عليهم من فضله ورحمته وسابغ نعمه وكرمه حيث لا يمكن في المشية وجود خيرٍ يرضاه ويحبّه إلا أجراه لهم فبيّن ذلك بقوله (اصْطَفَاكُمْ بِعِلمِهِ وَارْتَضَاكُمْ لِغَيْبِهِ وَاخْتَارَكُم لِسرِّهِ وَاجْتَبَاكُم بِقُدْرَتِهِ وأَعَزَّكُمْ بِهُدَاهُ وَخَصَّكُمْ بِبُرْهَانِهِ وَانْتَجَبَكُمْ بِنُورِهِ وَأَيَّدَكُمْ بِرُوحِهِ وَرَضِيَكُمْ خُلفَاءَ فِي أَرْضِهِ وَحُججاً عَلى بَرِيَّتِهِ وَأَنْصاراً لِدِينِهِ وَحَفَظَةً لِسرِّهِ وَخَزَنَةً لِعِلمِهِ وَمُسْتَوْدَعاً لِحِكْمَتِهِ وَتَرَاجِمَةً لِوَحْيِهِ وَأَرْكَاناً لِتَوْحِيدِهِ وَشُهَدَاءَ عَلى خَلقِهِ وَأَعْلاماً لِعِبَادِهِ وَمَنَاراً فِي بِلادِهِ وَأَدِلاءَ عَلى صِرَاطِهِ عَصَمَكُمُ الله مِنَ الزَّلَلِ وآمَنَكُمْ مِنَ الفِتَنِ وَطَهَّرَكُمْ مِنَ الدَّنَسِ وَأَذْهَبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ وَطَهَّرَكُمْ تَطْهِيراً).

فتأمّل رحمك الله في هذه الكلمات الشريفة كيف تضمنت من الفضائل والفواضل ما لا تدركه الأفهام ولا تحيط به الأوهام مما خصّهم به مما يدل على أنّه لو بقي مقام عند الله تعالى من مقامات الرضا الإمكانية لم ينزلهم فيه لم يحسن من الحكيم العليم أن يخصّهم بهذه الخواصّ التي لم تبقِ شرفاً ولا مجداً ولا تكريما إلا تضمنته وأحاطت به وعلى أنهم رضوا عن الله تعالى أنّهم عليهم السلام لم يكن في أنفسهم من طلب الفضائل والقرب والتشريف والتكريم شيء يجدون بفقده نقصا في رضاهم أو توقّفاً حيث أعلمهم أسرار ما اصطنع إليهم وحقائق ما أسدي إليهم فشاهدوا من ذلك ما يزيد على رضاهم من قرب لا يتناهى وتشريفٍ لا يحصى وتكرمةٍ لا تُستقصى ينقلهم في رضوانه من مقام إلى مقام أعلى ومن إجمال إلى

تفصيل ومن تفصيل إلى تحصيل ومن تحصيل إلى تحصيل فكل مقام حصلوا فيه حصل لهم به فوق الرضا وهكذا في سير لا غاية له ولا منتهى.

فإن قلت: الراضي بشيء إذا لم يكن حابساً نفسه بقيد القناعة لا يطلب غيره وإنما يطلب غيره إذا لم يرض به أو رضي به قانعاً ورضا القانع رضا فقدان لا رضا وجدان هذا وقد قال سيدهم رسول الله ﷺ بإرشاد الله (رَبِّ زِدْنِي عِلماً)وهذا يدل على عدم حصول الرضا لعدم حصول المطلوب الذي فيه كمال الرضا كما هو المدّعى لأن الطلب تعب والرضى راحة.

قلتُ إنّ الذي به كمال الرضا كما هو المدّعى هو ما حصل لهم ولكن لما كان ذلك ملأ الإمكان ظاهره وباطنه وغيبه وشهادته فإنّ الذي لهم كلّما سوى الله تعالى حتى أنفسهم من قوله تعالى (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ)وكان ذلك لا يتناهى في الإمكان أبدا ولا يسعه ظاهر الإمكان وجب في الحكمة أن يصل إليهم بالتدريج، لأن المتشخّص من حيث حدوده المشخّصة له لا يسع ما لا تكتنِفه الحدود إلا بالتدريج الذي لا يتناهى ولما كان كلما سوى الله تعالى قائماً بفعل الله قيام صدور وكل شيء بيده وجب أن يسألوه ما لهم عنده لأنّه إنّما ينزل على حسب القابل وليس قابل لذلك إلاّ السؤال منه سبحانه فسئل ﷺ ما له عند الله ولو لم يكن لهم غير ما وصل إليهم والعياذ بالله لم يكن ما وصل إليهم موجباً لكمال الرضا إلاّ مع اعتبار القناعة أو العلم بأنه ليس شيء غيره، وهذا الطلب راحة لأنّه طلب محبوب فيه كمال الراحة وإليه الإشارة بقوله ﷺ (وَجُعِلتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاةِ)وإنّما يكون مثل هذا الطلب تعباً عند من لم يعرفه ولم يذقه وأما مَنْ علم عِلم مُعَايَنة فإنّه إنّما يستريح به كما أشار إلى هذا أمير المؤمنين عليه السلام (وَاسْتَلانُوا مَا اسْتَوْعَرَهُ الْمُتْرَفُونَ).

وعلى الثالث وهو اعتبار المجموع وهو ما منهم من القوابل وما منه وهو إمدادهم من كرمه على أن الله تعالى رضي عنهم يكون المعنى أنه سبحانه لمّا خلق ذلك النور وجعل تلك الصفة جاء المجموعُ نورِيّا بشريّاً واسعاً كريما وسع الغيب بغيبه وشهادته والشهادة بشهادته وغيبه لا يحسن في الحكمة، والإمكان أن يكون لله رضاَ إلاّ فيهم ولهم فرضي عنهم لأنهم محل رضاه ومستودع محبّته ولا يسع رضاه ومحبّته الغير متناهِيَيْن غيرهم عليهم السلام لأن حقائقهم في الإمكان غير متناهية وعلى أنّهم رضوا عن الله تعالى يكون المعنى أنهم رضوا عن الله تعالى ما أقامهم فيه حين أشهدهم خلق السّموات والأرض وخلقَ أنفسهم واتخذهم أعضاداً لخلقِه وأشهاداً عليهم ومناة لذواتهم وأعمالهم وآجالهم وأرْزاقهم وجميع أحوالهم وحياتهم ومماتهم ومبتلون لهم وبهم واذواداً لشيعتهم عن المعاصي والرذائل، ولأعدائهم عن الطاعات والفضائل على نحو ما ذكرناه مراراً وحفظة لهم وعليهم وُرواداً لخلقه يقدمون شيعتهم إلى الجَنّة ينْزلُون كُلاًّ مَنْزِلهُ ويسوقون أعداءهم إلى جهنم ينزلون كلاًّ منزلهُ فلم يبق كمال في الإمكان إلا جعله لهم ممّا كان أو يكون فقد رضوا عن الله سبحانه رضا وجدان.

وقول الشارح رحمه الله وإن لم يكن إظهارها كما تُحِبون جارٍ على الظاهر من أحوال البشرية وكذلك ما استشهد به من قوله عليه السلام (وسلّمتم له القضاء) وإلاّ فلو شاء وأجرى على ما يحبّون ظاهراً كما جرى على ما يحبون باطناً بل جعل ذلك إليهم فهم أجروا بإذن الله ما جرى من محبوب ومكروه راضين بِكِلا الحاليْنِ وما يظهر منهم عليهم السلام من التألم والشكوى عند جميل البلاء وعظيم الخطب فشيء لاحق للبشريّة ولازم فهم في هذا المقام يجري عليهم كما يجري على غيرهم ويتألّمون كما

يتألّم غيرهم وحيث كانوا عالمين بما لقوا وصاروا إليه يرجح عندهم ذلك الجانب حتى يتنعّمون بذلك التألم في جنب الله لانغماسهم في ما يرضيه ولا يجري عليهم من مكاره الدنيا إلا بما يرضيه سبحانه كما سمعت مما رُوي عنهم عليهم السلام أنّ الحسين عليه السلام وأنصاره عليهم السلام لم يجدوا ألم الحديد وأنهم في شدّة عطشهم قلوبهم ثلجةٌ باردة وذلك لانصراف جميع حواسّهم ومداركهم إلى المحل الأعلى، فجرت عليهم الآلام والقتل الذي أزهق أنفسهم وهم متنعمون بنعيم اليقين والمعاينة يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً.

فإذا عرفت ما بيّنّا لك ظهر لك أن رضاهم بكل ما جرى عليهم من محبوب ومكروه رضا وجدان لا رضا فقدان وكذلك في منع الطواغيت لهم من إظهار شعائر الله تعالى كما ينبغي وأنا أضرب لك مثلاً بيانا لو أرادوا منع الطواغيت عن التسلّط بل قتلهم جميعا حتى لا يبقى منهم أحد على وجه الأرض أكانوا متمكنين من ذلك أم لا؟

فإن قلتَ لم يتمكنوا .

قلتُ لك إنّي أتكلّم مع من يعرفهم وأنت لم تعرفهم. وإن قلتَ إنهم متمكنون من ذلك قلت يجوز لهم أن يتمكنوا من منع الظالمين ولا يمنعونهم فيكونون قد أعانوهم على الظلم. فإن قلت لو منعوهم لم يحصل التمكين من المعصية وإذا لم يحصل لم يتمكن المكلف من الطاعة وأيضاً يرتفع حكم قوله تعالى (لِيَمِيزَ اللهُ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّب) وقوله (لِيَهْلِكَ مَنْ هَلكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ يَحْيى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ)وقوله تعالى (ألم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَ هُمْ لا يُفْتَنُونَ)وما أشبه ذلك.

قلت : هذا حقّ ولكن يلزم من ذلك أنّهم راضون بما يكرهون كما يرضى

المريض بالكي طلباً للعافية ويلزم من هذا أن الرضا كما يتعلّق بالمظلوميّة كما قال الشارح يتعلّق بالظلم من باب فعل الضرر لدفع الأضرّ ووجوب القبيح لدفع الأقبح كوجوب الكذب لنجاة المؤمن ولا يريد أن الرضا يتعلّق بالظلم أوّلاً وبالذات لأن الرضا به لذاته رضا فقدانٍ وقوله أو بما قدّره الله تعالى من أن لا يكون التكليف بالإلجاء بل يكون بالاختيار. . . إلخ صحيح كما أشرنا إليه قبل هذا إلاّ أنه لا ينحصر التعلق فيه كما هو ظاهر (أَوْ).

و قوله عليه السلام (وصدّقتم من رسله من مضى) أي جميعهم مفصّلاً . . .إلخ، هذا بيان ظاهري قشري لأن تصديقهم للأنبياء ليس بمجرّد معرفة عددهم وأسمائهم والإقرار بأنهم أنبياء كما هو ظاهر كلام الشارح بل بالأدلّة القاطعة والحجج الواضحة وإظهار المعجزات لهم أي للأنبياء الدالة على صدقهم أو للمنكرين لهم الدالة على صدق المصدّقين للأنبياء في نبوتَهم وما أشبه ذلك ومنها معرفة أسمائهم وأحوالهم وأعدادهم وبيان ما أوتوا من الوحي والمعجزات فافهم.

قال عليه السلام فالراغب عنكم مارق واللازم لكم لاحق والمقصر في حقكم زاهق

قال الشارح فالراغب عنكم مع ظهور ذلك عنكم مارق عن الدين وإن لم يكن معتقداً لمذهب الخوارج لأن من لم يقل بإمامتهم فهو كافر كما وردت به الأخبار المتواترة عن العامة والخاصّة واللازم لكم بالقول بإمامتكم أو مع متابعتكم لاحق بكم بل هو مسلم كما روي أن (سلمان منا أهل البيت) أو لاحق بالحقّ والمقصّر في حقكم وإمامتكم أو رتبتكم العالية أو متابعتكم أو الجميع زاهق باطل انتهى.

أقول : رغب المتعدّي بعن بمعنى زهد والمارق هو الذي مرق من دين الله كما يمرّق السهم من القوس أي تجاوز بغير مهلة أي من زهد فيكم ولم يطلبكم بفؤاده وحقيقته مارق عن دين الله بمجرّد عدم الرغبة بعدما تبيّن له الحق وهو المعرفة بهم وهو معنى قوله تعالى (وَمَنْ يُشاقِقِ الرَّسُول) أي يعاديه بسبب نصبه لعلي والأئمة من ولده عليهم السلام خلفاء من بعده ويخالفه في نصبه ويخالفهم وينصب لهم العداوة بأن يقاتلهم أو يردّ قولهم أو يصغّر قدرهم أو ينكر فضائلهم الظاهرة، أو يصرف وجوه الناس عنهم أو يقدّم عليهم غيرهم أوْ يُعادي محبّهم لأجلهم أو يِوالي عدوّهم لأجلهم أو يحكم بخلاف حكمهم متعمّداً كل ذلك عن علم منه بما فعل أنّه خلاف الحقّ (مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ) عليهم السلام وهو سبيل الله وهو الحق من الله (نُوَلِّهِ ما تَوَلَى) من سلوك سبل الضلالة والغيّ وموالاة أعداء الله ومعاداة أولياء الله أي نخلّي بينه وبين نفسه وشيطانه المقيّض له حين عشا عن ذكر الرحمن (وَ نُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَ ساءَتْ مَصِيراً)، فإن هؤلاء من حيث أنهم عالمون بالحقّ كان خروجهم منه ليس لشبهة ليتوقفوا في الخروج ومروقهم من دين الله الّذي هو ولايتهم عليهم السلام كما يمرق السهم من القوس لسرعة انتقالهم من الحقّ لأنّهم من نوع الباطل وقد اشربوا في قلوبهم أتّباعه والميل في عالم الأظلة وأنكروا هناك الحقّ وأهله (فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ).

(واللازم لكم . . . إلخ) ، يعني أنّ من لزمهم بالإئتمام بهم والرّد إليهم والإيمان بظاهرهم وباطنهم وسرهم وعلانيتهم وحيهم وميتهم وأولهم وآخرهم والتسليم لهم فيما يعلمون وما لا يعلمون بحيث لا يجدون منهم ومن كل ما صدر عنهم حرجاً كما قال سبحانه في شأن محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ظاهرا ، وفي شأن

علي بن أبي طالب عليه السلام باطناً (فَلا وَ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ)، أي لا يكمل إيمانهم إن أريد بهذا الإيمان إيمان الخصيصين ولا يتم إيمانهم إن أريد به إيمان الخواصّ ولا يؤمنون مطلق الإيمان الخاص إن أريد به إيمان المحبين ولا يسلمون إن أريد به مطلق الإيمان لغة أي أريد به مطلق الخروج عن الكفر كما قال الله سبحانه (يا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ الله أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ)فإنها نزلت في شخص من المنافقين الذين أظهروا الإسلام وأبطلوا الكفر وهو أبو الملاهي (حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ) مما يختلفون فيه واختلط عليهم أمره (ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيماً)وينقادوا بظاهرهم أو بظاهرهم وعدم إنكار باطنهم أو بظاهرهم وبباطنهم.

فالتسليم شرط في الإيمان الأول إذا اختلفوا في إسرار الاعتقادات وفي الخطرات والواردات بل قد يحصل هذا التسليم لأهل هذا الإيمان بمجرد حضورهم عند الإمام عليه السلام لاستنارة قلوبهم بمقابلته أو بحديثه أو بتعريفه أو بإرادته أو بذكره عند غيبته بل قد يكون ذلك لهم برؤيته في المنام أو بذكره كذلك وهذا هو الذي أشار إليه الصادق عليه السلام في قوله (عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام قَال إِنَّكُمْ لا تَكُونُونَ صَالِحِينَ حَتَّى تَعْرِفُوا وَ لا تَعْرِفُونَ حَتَّى تُصَدِّقُوا وَلا تُصَدِّقُونَ حَتَّى تُسَلِّمُوا أَبْوَاباً أَرْبَعَةً لا يَصْلُحُ أَوَّلُهَا إِلا بِآخِرِهَا ضَل أَصْحَابُ الثَّلاثَةِ وَتَاهُوا تَيْهاً بَعِيداً وخسروا خُسْراناً مُبِيناً)فجعل هذا التسليم نهاية الإيمان من الأبواب وروحها وبه قوامها فإن الثالث الذي هو الصلاح بلا معرفة يكون خائنا ، والثاني الذي هو المعرفة بلا تصديق يكون إنكارا ومنكرا والأول الذي هو التصديق بلا تسليم يكون نفاقا ومن الشواهد على ذلك أعدادها فالأول عدده

أي عدد نفاق مائتان وإحدى وثلاثون ، والثاني ثلاثمائة وعشرة والثالث ستمائة وإحدى وستون.

وفي الثاني وهو إيمان الخواص شرطه التسليم في الاعتقادات وفي الأحكام الشرعية فيما يتعلق بالمقاصد النفس والعقل والنسب والمال والدين وتشير إلى هذا حسنة الكاهلي قال (قَال أَبُو عَبْدِ الله عليه السلام لوْ أَنَّ قَوْماً عَبَدُوا الله وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لهُ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَحَجُّوا البيْتَ وَصَامُوا شَهْرَ رَمَضَانَ ثُمَّ قَالُوا لِشَيْءٍ صَنَعَهُ الله أَوْ صَنَعَهُ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم أَلا صَنَعَ خِلافَ الذِي صَنَعَ أَوْ وَجَدُوا ذَلِكَ فِي قُلُوبِهِمْ لكَانُوا بِذَلِكَ مُشْرِكِينَ ثُمَّ تَلا هَذِهِ الآيَةَ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ثُمَّ قَال أَبُو عَبْدِ الله عليه السلام عَليْكُمْ بِالتَّسْلِيم).

ورواية الشَّحَّام عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام قَال قُلتُ لهُ إِنَّ عِنْدَنَا رَجُلا يُقَالُ لهُ كُليْبٌ فَلا يَجِيءُ عَنْكُمْ شَيْءٌ إِلا قَال أَنَا أُسَلِّمُ فَسَمَّيْنَاهُ كُليْبَ تَسْلِيم قَال فَتَرَحَّمَ عَليْهِ ثُمَّ قَال أَ تدْرُونَ مَا التَّسْلِيمُ فَسَكَتْنَا فَقَال هُوَ وَ الله الإِخْبَاتُ قَوْلُ الله عَزَّ وَجل الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَأَخْبَتُوا إِلى رَبِّهِمْ)انتهى.

وعن جابر الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام في حديث طويل فيه (لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ)(قال جابر فقلت له يا ابن رسول الله و كيف لا يسأل عما يفعل قال لأنه لا يفعل إلا ما كان حكمة وصوابا وهو المتكبر الجبار والواحد القهار فمن وجد في نفسه حرجا في شيء مما قضى الله فقد كفر ومن أنكر شيئا من أفعاله جحد)انتهى.

وفي الثالث وهو مطلق الإيمان الخاص وهو إيمان المحبّين من هذه الفرقة وهم

على ظواهر الخواص كما أن الخواص على ظاهر الخصيصين وهؤلاء على ظواهر أئمتهم عليهم السلام كما قال علي عليه السلام لكميل حين قال له (أولستُ صاحب سرّك قال بلى ولكن يرشح عليك ما يطفح منّي) وهؤلاء إذا اختلفوا شرط إيمانهم التسليم إذا كان الإمام عليه السلام حاضرا أو كان من الضروريات بين المسلمين لأن ما فيه نوع دقّةٍ أو شبهة لو كلّفوا بمحض التسليم لكانوا غير مستطيعين لذلك لأن أحدهم إنما يكون مسلماً إذا لم تنبهه على ما كان يجهل فهو مسلم حين غفلته وسكوته لأنّه إذا التفت تصوّر الكفر.

ولقد سمعت من شخص من صلحائهم ونحن نعلّمهم معرفة الله فسبقني إلى الكلام فبادرته وقلت له اسكت لا تتكلم لما فهمت من سوء كلامه فسبقني وقال البارحة رأيتُ ربّي وعنده جروان جبرائيل وميكائيل ويريد بالجروين كلبَيْن صغيرين ، ولقد حضرتُ شخصاً من كبارهم فذكروا الحسين عليه السلام والعرش فقال ابنه الحسين أفضل من العرش فقال استغفر الله العرش موضع الربّ ، وحج واحد منهم فقال لشخص وهو يطوف بالكعبة نحن نطوف بقبر ربّنا وأمثال ذلك مما لا يحصى لكثرته فهؤلاء على ظاهر الإيمان والمحبّة لأهل البيت عليهم السلام وهم في غفلتهم وسكوتهم مؤمنون، بل ورد في الحديث ما معناه حين قال رجل للصادق عليه السلام (كيف يقبل من هؤلاء مع ما هم عليه من الجهل قال عليه السلام ما معناه إن لم يقبل منهم حتى يكونوا مثلكم لا يقبل منكم حتى تكونوا مثلنا) مما يدل على أنه يقبل منهم وإن الله تعالى (يدخل محبيّ عليَ عليه السلام ومحبي محبيه الجنة) فإذا اختلفوا لا يشترط في إيمانهم التسليم إلاّ مع حضور الإمام عليه السلام أو في الضروريّات المجمع عليها بين المسلمين لأن غير ذلك لا تقوم الحجة عليهم به وكثير من هؤلاء يرجى أمرهم إلى يوم القيامة ومنهم المعار الإيمان نعوذ بالله.

فإن قلت : كيف تجعلون المستعار من الشّيعة وهو بأدنى شيء ينقلب.

قلتُ : إنّه لا يخرج من الإيمان إلاّ إذا انقلب وقبل أن ينقلب يجوز أن يثبت إيمانه إذا جرَتْ له العناية بخاتمة الخير فهو من المؤمنين. وفي الكافي عَنْ أَبي عَبْدِ الله عليه السلام قَال (إِنَّ الله جَبَل النَّبيِّينَ عَلى نُبُوَّتِهِمْ فَلا يَرْتَدُّونَ أَبَداً وَجَبَل الأَوْصِيَاءَ عَلى وَصَايَاهُمْ فَلا يَرْتَدُّونَ أَبَداً وَجَبَل بَعْضَ المُؤْمِنِينَ عَلى الإِيمَانِ فَلا يَرْتَدُّونَ أَبَداً وَمِنْهُمْ مَنْ أُعِيرَ الإِيمَانَ عَارِيَّةً فَإِذَا هُوَ دَعَا وَأَلَحَّ فِي الدُّعَاءِ مَاتَ عَلى الإِيمَانِ).

فقوله (وجبل بعض المؤمنين) وقوله منهم صريح في أن مِنَ المعارين من المؤمنين مَنْ هُو إذا لم يرتد وألحّ في الدعاء مات على الإيمان بل هو أصرح في المدّعى لأنهم إذا جاز دخولهم في المؤمنين حال كونهم معارين ما لم يصدر عنهم ما يسلبه منهم ففي لحاظ ثبوته بالإلحاح في الدعاء جاز بطريق أولى. وفي الرابع وهو مطلق الإيمان لغةً يعني مطلق الخروج عن الكفر وهو إيمان المنافقين وشرطه التسليم في الحكم عليهم من الإمام عليه السلام فإنهم إذا سلّموا بظاهر أقوالهم وأعمالهم حصل لهم هذا الإيمان وهو الإسلام المغاير للإيمان وإن سلموا بظاهرهم وباطِنِهِمْ كانوا من أهل الثالث ، وفي الكافي عن أبي جعفر عليه السلام قَال (لَقَدْ خَاطَبَ الله أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ عليه السلام في كِتَابِهِ قَال قُلتُ فِي أَيِّ مَوْضِعٍ قَال فِي قَوْلِهِ وَلوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا الله وَاسْتَغْفَرَ لهُمُ الرَّسُولُ لوَجَدُوا الله تَوَّاباً رَحِيماً فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ فِيمَا تَعَاقَدُوا عَليْهِ لئِنْ أَمَاتَ الله مُحَمَّداً أَلا يَرُدُّوا هَذَا الأَمْرَ فِي بَنِي هَاشِمٍ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ عَليْهِمْ مِنَ القَتْلِ أَوِ العَفْوِ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً).

وبالجملة فاللازم لهم بالتسليم لهم على اختلاف مراتبه لاختلاف مراتبهم

وبالأخذ بقولهم والردّ إليهم والمحبّة لهم ظاهراً وباطناً وسلوك رضاهم بالجنان والأركان واللسان لاحق بهم ومعهم حيثما كانوا إلاّ أنهم في اللحوق بهم والكون معهم والمجاورةِ لهم في مراتبهم عندهم عليهم السلام على حسب مراتبهم في الإيمان بهم والإخلاص لهم وفيهم (ولكلٍ درجات مما عملوا وليوفّيهُمْ أعمالهم وهم لا يظلمون)وهو قوله تعالى (فَأُولئِكَ مَعَ الذينَ أَنْعَمَ الله عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَداءِ وَ الصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً) فاللزوم لهم مختلف على مراتب لا تكاد تحصى واللحوق بهم على حسب اللزوم وشرط اللزوم للشيء أن يكون اللازم مع الملزوم سواء كان لزوم مساوقةٍ كلزوم بعضهم لبعض أو متابعة ونسبة وإضافة ولحوق واختصاص وما أشبه ذلك كسائر شيعتهم ممّا سواهم من دون الدرَّة إلى الذّرّة، فإن تقدم عليهم فهو زاهق وإن تقدّم بهم فهو مارق فالمفرط فيهم حتّى يتجاوز بهم إلى مقام الأزل بأن لا يجعل لهم ربّا يؤوبُون إليه زاهق أي هالك وهو قوله عليه السلام (يَهْلِكُ فِيَّ اثْنَانِ مُحِبٌّ غَالٍ وَمُبْغِضٌ قَالٍ)وهو المُقَصّرِ في حقّهم بأن يعدل بهم غيرهم من سائر الخلق أو يتقدّم عليهم في قول أو فعلٍ وهو هالك وهو المقصّر في حقهم فإن حقّهم على جميع الخلق أن يرفعوا مقامهم عن جميع الخلائق ويضعوا مقامهم عن مقام الخالق جل وعلا فمن أزالهم عن مقامهم الذي أقامهم الله فيه بوضع أو برفع فهو هالك وإلى هذا المقام أشار علي عليه السلام بقوله (نحنُ صنائع الله والخلق بعد صنائع لنا) أي نحن الذين اصطنعنا الله سبحانه لنفسه واختصنا وجعلنا محال مشيّته وخزنة علمه وحفظة حكمه والخلق بعد أنْ خلقنا سبحانه لذلك ولندعو إليه بالحق خلقهم سبحانه لنا أي أن الخلق صنعهم الله لنا وجعلنا أولياءه فيهم، وهذا في بيان مقامهم وإبانته من مقام الخالق

بالوضع لأنهم (عِبادٌ مُكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ)ومن مقام الخلائق بالرفع لأن الله خلق الخلق لهم فكيف يعدل بهم غيرهم من الخلق الذين إنّما خُلِقوا كرامة لهم وهذا هو المقصّر في حقهم وهو زاهق أي هالك ودينه بذلك باطل زاهق أي زائل وباطل وجاء فيهم تأويل قوله تعالى إخباراً عن حالهم يوم القيامة (فَكُبْكِبُوا فِيها هُمْ وَ الغاوُونَ) يعني الذين أغووهم حتّى صدّوهم عن علي عليه السلام وأهل بيته عليهم السلام (وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ) يعني جنوده شياطين الإنس والجنّ شياطين الإنس أهل النفاق وشياطين الجن أهل المنكر لأنهم ذرية إبليس، (قالُوا وَهُمْ فِيها يَخْتَصِمُونَ) أي يلعن بعضهم بعضاً ويقول الأتباع لأئمتهم (تَالله إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ) في دار الدنيا حيث أتانا الداعي من الله النذير المحذر من عذاب الله فدلنا على سبيل الله الذي في سلوكه النجاة فتركناه واتّبعناكم عالمين بأن اتّباعكم لا ينجي من عذاب الله (تَالله إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ ⋆ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ العالَمِينَ) أي أن النذير أوضح لنَا أنّ طاعة ولي الله هي طاعة الله فمن أطاعه فقد أطاع الله ومن عصاه فقد عصى الله وخالفناه وأطعناكم وهو قد أخبرنا أن طاعتكم معصية الله ومعصيتكم طاعة الله تعالى فسوّيناكم بالله حين أطعناكم في معصية وليّ الله وخذلانه وهو الذي طاعته طاعة الله ومعصيته معصية الله ووليه ولي الله وعدوّه عدّو الله وهؤلاء يهود هذه الأمة ونصاراها ومن الدليل على ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم المجمع عليه بين العامة والخاصة (لتركبن سنن من كان قبلكم حذوا النعل بالنعل والقذّة بالقُذّة حتى لو سلكوا جُحر ضب لسلكتموه (لدخلتموه) فقد كان من الأمم الماضية يهود وكان بعدهم نصارى وبيانه في الكافي عن الباقر عليه السلام (يَعْنِي المُشْرِكِينَ الذِينَ اقْتَدَوْا بِهِمْ هَؤُلاءِ فَاتَّبَعُوهُمْ عَلى شِرْكِهِمْ وَهُمْ قَوْمُ

مُحَمَّدٍ ﷺ لَيْسَ فِيهِمْ مِنَ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى أَحَدٌ وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ قَوْلُ الله عَزَّ وَجَل كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ كَذَّبَ أَصْحابُ الأَيْكَةِ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ لَيْسَ هم اليَهُودُ الذِينَ قَالُوا عُزَيْرٌ ابْنُ الله وَلا النَّصَارَى الذِينَ قَالُوا المَسِيحُ ابْنُ الله سَيُدْخِلُ الله اليَهُودَ وَالنَّصَارَى النَّارَ وَيُدْخِلُ كُل قَوْمٍ بِأَعْمَالِهِمْ وَقَوْلُهُمْ وَما أَضَلنا إلا المُجْرِمُونَ إِذْ دَعَوْنَا إِلى سَبِيلِهِمْ ذَلِكَ قَوْلُ الله عَزَّ وَجَل فِيهِمْ حِينَ جَمَعَهُمْ إِلى النَّارِ قالَتْ أُخْراهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ وَقَوْلُهُ كُلما دَخَلتْ أُمَّةٌ لعَنَتْ أُخْتَها حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيها جَمِيعاً بَرِئَ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ وَلَعَنَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً يُرِيدُ بَعْضُهُمْ أَنْ يَحُجَّ بَعْضاً رَجاءَ الفَلَجِ فَيُفْلِتُوا مِنْ عَظِيمِ مَا نَزَلَ بِهِمْ وَلَيْسَ بِأَوَانِ بَلوَى وَلا اخْتِبَارٍ وَلا قَبُولِ مَعْذِرَةٍ وَلَاَ حِينَ نَجاةٍ).

قال عليه السلام والحق معكم وفيكم ومنكم وإليكم وأنتم أهله ومعدنه

قال الشارح كما قال رسول ﷺ (الحق مع عليٍّ عليه السلام وهو مع الحق أينما دار) وقال ﷺ (اللهم أدر الحقّ معه حيثما دار) ، كما رواه العامة في صحاحهم ومن طرق الخاصّة متواتراً عن النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام عنه ﷺ أنه قال(الحق مع الأئمة الإثنى عشر) وفيكم أي في متابعتكم و منكم، كما رُوي متواترا أنَّ كل حقّ بأيدي الناس فهو منّا وكل باطلٍ فهو منهم وذكر جماعة من العلماء انتساب جميع العلماء إلى أمير المؤمنين عليه السلام حتى الخوارج ومرادهم أن كل حق يوجد في كلامهم فهو منه عليه السلام ، وإليكم أي إن ذكر الحق غيرهم فهو يرجع إليهم أو إن استنبطوا شيئا من الحق فهو يرجع إلى استنباطهم مثله حتى اهتدوا إلى استنباطه، ويظهر ذلك كله من تَتبّع آثارهم فإن الكلمات الحقة التي تذكرها الصوفيّة في كتبهم فالكلّ منهم إمّا تقيّة من شيعتهم

وإمّا سرقة من مخالفيهم كما يظهر من كلمات الحسن البصري وغيره فإن جميعها منقولة من أمير المؤمنين عليه السلام (وأنتم أهله) لأن جميع علوم الأنبياء إلى نبينا صلى الله عليه وآله وسلم ومنه صلى الله عليه وآله وسلم إليهم مع إمامتهم وعصمتهم ومعدنه كما ذكر انتهى.

أقول في القاموس الحق من أسمائه تعالى أو من صفاته أو ضد الباطل والأمر المقضي والعدل والإسلام والمال والملك والواجب والموجود الثابت والصدق والموت والحزم وواحد الحقوق انتهى.

فعلى الأوّل في المسمى أن الله معهم بالاصطناع والاختيار والرحمة والعناية واللطف وغير ذلك من جهات الفضل لا مطلق المعيّة فإن ذلك لا يختصّ بهم بل الله سبحانه مع كل شيءٍ وإنما المراد بهذا المع أنهم لّما جاهدوا في الله في جميع ما أراد منهم مجاهدة لا يقوم بها أحد من الخلق غيرهم شكر الله مجاهدتهم وهداهم سبيل رضاه أي رضاهم عنه ورضاه عنهم فلا يغفلون عنه طرفة عين لأنهم هم الذين عنده في قوله تعالى (وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَ لا يَسْتَحسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَيْل وَ النَّهارَ لا يَفْتُرُونَ) كما تقدم عن الصادق عليه السلام أنهم هم من عنده وحيث كانوا كذلك كان معهم في كل حالِ حيث يحبّ ويرضى وشهد لهم بأنهم محسنون فقال (وَ إِنَّ الله لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ).

فهذا المع لا نهاية له ولا غاية لأنه ظاهر ربوبيّةٍ لا تُثنى وعبودية بها لا تُمَنَى وذلك كالقائم فإن ربوبيّته لا تثنّى بالقيام بل توحّد بأحداثه والقيام لا يقدّر بالقائم وإنما يقدر بنفسه لا غيره وهو غير مقدّر في الإمكان يعني أنه غير مقدّر إلاّ بأنه غير مقدّر وهذا هو المع الخاص العام بخلاف المع العام الخاصّ، فإنه ظاهر رُبوبيّة مقدرة التعلّق وعبودية مقدرة التحقّق وإلى الأول أشار الصادق عليه السلام

بقوله (لنا مع الله حالات نحن فيها هو وهُو نحن إلاّ أنّه هو هو ونحن نحن) وبالاستثناء إلى بعض الثاني وهو حالهم الثاني وأما فيكم فلا يصح على المعنى الأول إلا على تأويل مشية الله فيهم لأنهم محال مشيّته وعلمه وحكمه وأوامره ونواهيه وأمثال ذلك بمعنى عندهم وفيهم على حدّ معنى قوله تعالى في الحديث القدسي(ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن) أي وسع أمري ونهي وأحكامي على خلقي وظهوري على عرشي برحمانيّتي.

وأما منكم وإليكم فيمكن تصحيحه كالذي قبله على معنى إن الله منكم أي من نوركم بدأ خلقه وإليكم إيابهم أو من أنواركم قدّر الأعمال الصالحات وإليكم تعود ومن ظاهركم وخلافكم وخلفكم قدّر الأعمال الطالحات وإلى جهات ظهورها من خلفِكم وخلافكم وما أشبه ذلك مما يصح أن ينسب إليه.

وأما وأنتم أهله فلا بأس به فإنهم أهل الله على المعنى المجازي لأنّهم عليهم السلام مجاز الحقّ إلى الخلق ومجاز الخلق إلى الحق.

وأمّا معدنه فلا يجوز وإن صحّ تأويله يعني معدن علمه وحكمه وما أشبه ذلك لأن إطلاق ذلك عليه ظاهراً ممنوع منه فلا يجوز التأويل الصحيح فيه هذا إذا أريد به الواجب الوجود سبحانه، وأمّا إذا أريد به الاسم الحق المخلوق فيصح المعنى في الستة الوجوه فإنّ ذلك الاسم الحق المخلوق الذي هو ذو الجلال والإكرام معهم لا يفارقهم ولا يفارقونه لأنهم أمر الله أما تسمع قوله تعالى (إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُول لهُ كُنْ فَيَكُونُ)، ولأنهم شرط ظهوره كما أنه شرطَ تحققهم مبني أحدهما على صاحبه وهو أيضاً فيهم لأنهم محالّه والقوام بأحكامه ومنهم تظهر آثاره في متعلّقاتها وإليهم يرجع بآثاره وهم عليهم السلام أهله لأنّهم

ظاهره في جميع الأشياء ومعدنه لأنّهم قابليات ظهوره وهم زيت مصباح نوره وهذا الاسم هو الصّفة والفرق بينهما إذا نسبا إلى الله تعالى إنما هو بالاعتبار لأنه إن لوحظ فيه معنى الاسمية وهو جهة القصد والتعيين فهو اسم وإن لوحِظ فيه معنى الفعليّة وهو جهة الكيف والأحداث فهم صفةٌ ، وهذا الاسم اسم للظاهر بكل شيء وهذه الصفة صفة للإظهار لكلّ شيء ولا يقصد منهما ما يقع على الذّات وإنّما يعيّن جهة الذات إلى الخلق وتلك الجهة نفس ذلك الاسم لا غير لأن الذات البحت غيب مستور عن غير ذاته البحت وليس هناك اسم ومسمى وإنّما هو إلهٌ واحدٌ ولا كلام لأحد من خلقه فيه بصواب بل من تكلم فيه، فإنما يقول بالباطل وذلك لأنه المجهول المطلق لا يعرفه أحدً إلاّ من حيث يجهله وإذا قيل اسمه فليس إلا فعله المخلوق بنفسه وليس له صفة لذاته غير نفس ذاته بلا اعتبار تعدّد ولا كثرة ولا مغايرة بكل فرضٍ واعتبارٍ فإنّ التعدد والكثرة والمغايرة والفرض والاعتبار والإمكان والحيث واللّم والأين والمتى والوقوع وما أشبه ذلك خلقه محدثة بفعله ولا يجري عليه ما هو أجراه وما بيَّنه بالحدود لا يبنيه تعالى الله (سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ).

وإذا قيل صفته فليس إلاّ فعله لأن الفعل صفة نفسه وإلاّ صفة فعله من الوحدة والسرعة (وَ ما أَمْرُنا إلاَّ واحِدَةٌ كَلمْحٍ بِالبَصَرِ)، وانقياد كل شيء لفعله (مَا شَاءَ الله كَانَ وَ مَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ)، وما أشبه ذلك وعلى اعتبار هذا الاسم وهذه الصفة يصح المعنى في الأحوال الستة بمعنى أن الاسم الذي هو الحق المخلوق وصفته أيضا معهم وفيهم ومنهم وإليهم وهم أهله ومعدنهُ ، فمعهم كونه وفيهم وقوعه ومنهم بدء آثاره وتعلّقاته و إليهم مردّ آثارِه وأحكامها وهم عليهم السلام على هذا

أهله لأنهم محلّه وعلّة ظهوره وعضد تعلّقاته ومتعلقاته وهم معدنه أي معدن ظهوره أو مدد ظهوره.

وعلى الثاني وهو أن المراد بالحق ضدّ الباطل أنّ الولاية في قوله تعالى(هُنَالِكَ الوَلايَةُ لله الحَقِّ) على قراءة رفع الحق هي ولايتهم وهي الحق من ربهم كما قال تعالى(وَآمَنُوا بِما نُزِّل عَلى مُحَمَّدٍ وَ هُوَ الحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ أَصْلحَ بالَهُمْ ذلِكَ بِأَنَّ الذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الباطِل وَ أَنَّ الذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذلِكَ يَضْرِبُ الله لِلنَّاسِ أَمْثالَهُمْ).

فالحق المنزّل على محمّد ﷺ هو ولاية علي عليه السلام على الباطن وعلى باطن التأويل الحق عليّ عليه السلام أو مع لحاظ ظاهر الظاهر المنزل على محمد ﷺ وهو الآية الكبرى آية نبوته أو آية توحيد الله الكبرى كما قال تعالى (لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الكُبْرى) على أنّ الكبرى مفعول رأى لا صفة آيات قال علي عليه السلام (ليس لله آية أكبر مني ولا نبأ أعظم مني) وقوله عليه السلام هذا يتوجّه على أحد معنيين ، إمّا أن يراد ليس لله آية على نبوة محمّد ﷺ واختياره من سائر خلقه أكبر مني ، أو ليس لله آية على توحيده ووجوده بعد محمد ﷺ أكبر مني لأن محمدا ﷺ آية أكبر منه وعلى الوجهين وهما باطن التأويل أو مع لحاظ ظاهر الظاهر في قوله تعالى (وَالذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ آمَنُوا بِما نُزِّل عَلى مُحَمَّدٍ وَ هُوَ الحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ)، روى القمي أنها (نزلت في أبي ذر و سلمان و عمار و مقداد لم ينقضوا العهد وَ آمَنُوا بِما نُزِّل عَلى مُحَمَّدٍ أي ثبتوا على الولاية التي أنزلها الله وَ هُوَ الحَقُّ يعني أمير المؤمنين عليه السلام).

فعلى الوجه الأول يكون الباطل ولاية من تقدّم عليه، وعلى الثاني يكون الباطل من تقدم عليه ويجوز أن يراد بالحق الذي هو ضد الباطل ما هو أعم من

الوجهين وهو قوله ﷺ (عليّ مع الحقّ و الحقّ مع عليّ يدور معه حيثما دار).

فإذا قلنا الحق معهم يكون المعنى أن الولاية معهم أو أن عليّا عليه السلام مع أهل بيته ومع نفسه الطاهرة وأهل بيته معه لا يفارقهم ولا يفارقونه وعلى العموم كما هو ظاهر الكلام، كذلك كما تقدّم من رواية الشارح أن كلّ حق بأيدي الناس فهو منا وكل باطل فهو منهم فهذا الحق على المعاني الثلاثة معهم، وفيهم يكون على المعنى الأوّل فيهم أي عندهم وإن قلنا الولاية هي النور كان الكلام على ظاهره، وعلى المعنى الثاني أنه عليه السلام واحد منهم أو ملازم لهم وملازمون له على هدى واحدٍ ، وعلى المعنى الثالث ظاهر ، ومنهم على المعنى الأول أن الولاية منهم أنّ آثارها وأحكامها وما يترتّب عليها في الحقيقة صفتهم لأنّ الولاية التي عندهم من ولاية الله وهو قوله تعالى(وَ هُوَ الحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ) أي أن ولايتهم هي الحق من الله يعني من ولاية الله تعالى لأن الله سبحانه هو الولي ولم يكن له ولي من الذلّ، فاختار له أولياء من العزّ والتكرم و (إذ كان لا تُدْرِكُهُ الأَبْصارُ ولا تحويه خواطر الأفكار) ، فجعلهم حملة لواء ولايته وأقامهم في سائر عالمه فالولاية الحق ذات الله تعالى ومظهر هذه الولاية يعني فعلها ومحل فعلها وأثر فعلها ذواتهم عليهم السلام وهو قول علي عليه السلام (ظاهري ولاية وباطني غيب لا يدرك) أي وباطني ولي وما ظهروا به من الولاية من الحق تعالى على الخلق هو صفتهم وشأنهم وفعلهم وقولهم وعملهم وهي أثر ربُوبية العالم إذ مربوب وهي الأمانة التي عرضت (عَلى السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ وَالجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلنَهَا) الآية، على بعض الوجوه فيها فما ظهروا به من الولاية منهم وإليهم مصير أمورها وهم أهله ومعدنه وهو ظاهر .

وعلى المعنى الثاني أنهم نور واحد و طينتهم واحدة فكلّ من كُل وفيهم ومنهم وإليهم وهم أهله ومعدنه كما تقدم على التأويلات المذكورة .

وعلى المعنى الثالث أظهر.

وعلى الثالث وهو إذا أريد بالحق الأمر المقضي وهو الأكوان الوجودية المقضية في كل مرتبةٍ من مراتب الفعل من الكون والعين والقدر والقضاء والإذن والأجل والكتاب سواء تحقق شيء منها في مرتبة أو أكثر والأكوان التشريعية المقضية في كل مقام من مقام التكليف الإلهي كذلك سواء كان مطابقاً للواقعي الوجودي الشرعي المتحدّ أم الواقعي التكليفي المتعدد، وسواء كانت الأكوان الأولى فيها أم في شرعها، والثانية فيها أم في وجودها كل ذلك معهم أي عندهم أو مصاحب لهم قائم بهم كقيام النور بالمنير وفيهم وهم محله وعيبة ملكوته وخزنة سرّه ومنهم بدأ أو بُدِىءَ لأنهم علته وأصله لأنه صفتهم ونورهم وفرعهم وإليهم مردّه أو ينتهي أمده أو هم غايته لأنّهم علته الغائيّة وهم أهله الذين لهم خُلِق وشُرع أو بهم خلق وشُرع أو فيهم كذلك أو إليهم ينتهي أو هم أسسوه أو قاموا به أو أظهروه أو نشروه أو قرروه أو ثبّتوه بالحجج أو حفظوه وهم معدنه أي أصله الذي بني عليه أو منه استخرج أو به تقوم أو علّته الفاعلية بإذن الله أو الماديّة أو الصورية أو الغائيّة.

وعلى الرابع وَهُوَ العَدْل أنه معهم أي أنه صفتهم وظاهرهم (وَظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ العَذابُ) أو شمالهم (وَ كِلتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ) .

أو مصاحبهم لا يفارقهم ولا يفارقونه أو سيرتهم وطريقتهم (وَمِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ).

أو هم خزّانه القوّام به أو حملة مبادئه وأسبابه ومنشأ أحكامه وفيهم أنهم مطارح أسباب أحكامه من الله تعالى ومظاهر أسباب مقبولاته وأوائلها وجعل

قابلياتها أو عندهم أو بهم أو عنهم كذلك ومنهم بدأ لأنهم مظاهر علله أو بُدىء لأنّه صفتهم أوْ أُبدِىء لأنه فعلهم أو أنهم خزنته أو حملته أو القوام به وإليهم تنتهي ثمرته أولهم أُقيم ولأجلهمْ شرِعَ وهم أهله الذين شيّدوا أركانه وعَلوا بُنيانه في سبيلي الله التكويني والتشريعي وهم معدنه أي ليس عندهم ظلم ولا فسق فهم معدن العدل والصلاح.

وعلى الخامس وهو الإسلام ، وللإسلام إطلاقات يطلق على الإقرار بالشهادتين وهو مغاير للإيمان إذا كان الإقرار باللسان خاصة على ما هو المعروف قال تعالى (قالتِ الأَعْرابُ آمَنَّا قُل لمْ تُؤْمِنُوا وَلكِنْ قُولُوا أَسْلمْنا وَ لمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ) ولو وافقه الاعتقاد بالشهادتين صدق عليه الإيمان لهذا الاعتقاد ولو كان مع عدم اعتقادهما بمعنى عدم نفيهما وإثباته صدق عليه السلام وهل يصدق عليه الإيمان لأجل الصورة احتمل العدم لظاهر الآية المذكورة ، واحتمل الجواز لأنه مع اعتقاد عدمهما سمي في القرآن فاعل ذلك مؤمنا وهو أسوأ حالاً ممن لم يعتقد العدم كما قال (يا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لمَ تقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ الله أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ) فإنها نزلت في منافقين أظهروا الشهادتين فسمّاهم الله مؤمنين بذلك مع أنه قد ورد فيهم أنهم ما آمنوا بالله طرفة عين.

وفي تفسير القمي (مخاطبة لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذين وعدوه أن ينصروه و لا يخالفوا أمره و لا ينقضوا عهده في أمير المؤمنين عليه السلام، فعلم الله أنهم لا يوفون بما يقولون فقال (لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ الله) الآية، و قد سماهم الله مؤمنين بإقرارهم و إن لم يصدقوا)انتهى.

والاحتمال الثاني أقوى عندي والأخبار ظاهرها أن الإسلام مغاير للإيمان

وتدلّ أيضاً على اتّحادهما في مادة وافتراقهما في أخرى، أمّا الافتراق فظاهر وأمّا الاتحاد ففي قوله تعالى (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ)وهو الإيمان أو الكامل منه.

وفي الكافي قال (قَال أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام لأَنْسُبَنَّ الإِسْلامَ نِسْبَةً لَمْ يَنْسُبْهُ أَحَدٌ قَبْلِي وَ لا يَنْسُبُهُ أَحَدٌ بَعْدِي إِلا بِمِثْلِ ذَلِكَ إِنَّ الإِسْلامَ هُوَ التَّسْلِيمُ وَ التَّسْلِيمَ هُوَ الْيَقِينُ وَ الْيَقِينَ هُوَ التَّصْدِيقُ وَ التَّصْدِيقَ هُوَ الإِقْرَارُ وَ الإِقْرَارَ هُوَ الْعَمَلُ وَ الْعَمَلَ هُوَ الأَدَاءُ إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَمْ يَأْخُذْ دِينَهُ عَنْ رَأْيِهِ وَ لَكِنْ أَتَاهُ مِنْ رَبِّهِ فَأَخَذَهُ إِنَّ الْمُؤْمِنَ يُرَى يَقِينُهُ فِي عَمَلِهِ وَ الْكَافِرَ يُرَى إِنْكَارُهُ فِي عَمَلِهِ فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا عَرَفُوا أَمْرَهُمْ فَاعْتَبِرُوا إِنْكَارَ الْكَافِرِينَ وَ الْمُنَافِقِينَ بِأَعْمَالِهِمُ الْخَبِيثَةِ)هـ.

فالإيمان الكامل هو الإسلام الكامل الحقيقي وأوّل ما يخرج الكافر من دار الكفر يدخل دار الإسلام وبين هذه المرتبة والمرتبة الكاملة منه مراتب متعددة يجتمعان في بعضها في الجملة، ويفترقان في بعض على ما هو المعروف ، وإذا أطلق الحق على الإسلام فيراد به الخالصُ سواء كان كل أحوال الشخص أم بعضها كما لو اعتقد وعرف وأقرّ وعمل أم كان منه بعضه من أبْعاضها وكلّ خالصٍ منه معهم عليهم السلام سواء كان تمام الاعتقاد الحق والمعرفة والإقرار والأعمال الحقة أو بعضها أو أبعاضها أو بعض بعضها على نحو المعيات السابقة، وسواء كان ذلك كله أصل الأصول كالذي هم قائمون به ويراد منهم أم فروعه كما قامت به الأنبياء والمرسلون والملائكة المقربون والصديقون وفروع فروعه كما يكون من الخصيصين والخواصّ من المؤمنين أم من تبعيّة ذلك كما كان من سائر المؤمنين أم من تبعية الأتباع وهكذا كما يكون من الحقِّ من سائر الخلق إلى الجمادات المجيبة وكون الإسلام الذي هو الحق إنه صفتهم ولازمهم أو أحدهما لازم الآخر الحق مع علي وعلي مع الحق يدور معه حيثما دارَ.

وفرعهم لكونهم علة أو موصوفين به أو أنه فعلهم أوْ أثر فعلهم أو أنّ أحدهما مبنيّ على صاحبه وفيهم على نحو ما تقدّم من نظائر هذه الظرفية أو بمعنى انحصاره فيهم ودخول أتباعهم معهم فيه بالتبعيّة حال الاتّباع.

وروى القميّ عن الصادق عليه السلام (إن الصراط أدق من الشعر و أحد من السيف فمنهم من يمر عليه مثل البرق و منهم من يمر عليه مثل عدو الفرس و منهم من يمر عليه ماشيا و منهم من يمر عليه حبوا و منهم من يمر عليه متعلقا فتأخذ النار منه شيئا و تترك منه شيئا) هـ.

وهذا الأخير هو من يدخل معهم عليهم السلام في هذا الحق في حال الاتباع دون حال المعصية فإنّ المعصية هي متاع النّار وما تتعلق به من الشخص وتصدر عنه هو البعض الذي تأخذه وهو حكمه تعالى في قدره قال تعالى (مَعاذَ الله أَنْ نَأْخُذَ إِلاَّ مَنْ وَجَدْنا مَتاعَنا عِنْدَهُ) ومنهم بدؤه، لأنّ أوّل التّسليم على نحو ما تقدّم في حديث أمير المؤمنين عليه السلام ما صدر عنهم قبل خلق جميع الخلق حين كونهم قبل الخلق والتكوين وقبل مواقع صفات تمكين التكوين تكوَّنوا بتمكينه مسلمين بتَسْليمهم له سبحانه والمعنى أنّه جل وعزّ خلقهم بكينونته فهم غير مكوّنين كتكوين من سواهم لأنّ تكوين من سواهم لا يكون إلاّ بعد وقوع رؤوس المشيئة على تقديرات الهيئات لتمكينات تكوينات الأشياء فالتقديرات هي مواقع نجوم المشيّة، وبهذه المواقع تتمكن تلك النجوم من التكوينات وهذه هي سُبُل العلّةِ الفاعليّة وسبل العلة القابليّة على طبق كل رتبة من سبل العلة الفاعلية ففي التقدير تُقَدر وفي الهيئة تُهيأ وفي التمكين تُمكّن وفي التكوين تُكوّن ولمّا كان التقدير إنما يكون في تعدد جهات الأجزاء والهيئة تكون عند تغاير الصفات

والتمكين يكون في ربط المختلفات والتكوين يكون في إحداث المسبوق المماثل والمركب ولو بجهتين كالوجود والماهية مثلا كان جميع الخلائق ممّن سواهم داخلين في هذه القيود فيشملهم الوجود المقيد وهم عليهم السلام في أصل حقيقتهم قد سبقوا تعدّد جهات الأجزاء إذ لا تركيب في تلك الحقيقة إلاّ بالاعتبار فهي قبل التقدير ولا صفات لها متغايرة لعدم التركيب فهي قبل التغاير وقبل الاختلاف وقبل المسبوقية المتماثلة فلا يصدق عليهم التكوين المعروف ويصدق عليهم أنهم كانوا بكينونته قبل التكوين وإن كانوا حادثين أقامهم بمشيّته وفتقهم ورتقهم بيده وهذا قول الصادق عليه السلام في استشهاده على هذا المعنى بقول أمير المؤمنين عليه السلام (الحمد لله مدهّر الدهور وقاضي الأمور ومالكِ نواصي حكم المقادير الذي كنّا بكينونيّته قبل الخلق والتمكين وقبل مواقع صفات تمكين التكوين كائنين غير مكونين موجودين أزليّين منه بدأنا وإليه نعود لأن الدهر فينا قسمت حدوده ولنا أخِذت عهوده وإلينا برزت شهوده) الخطبة.

فقوله عليه السلام غير مكوّنين يعني به غير مكونين بالتكوين المقيّد ذي الحدود والأجزاء والكثرة بل مكونين بالتكوين المطلق وهو خلق النفس الواحدة في باطن قوله تعالى (ما خَلقُكُمْ وَ لا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ واحِدَةٍ).

وقوله عليه السلام أزليّين يعني به الأزل الإضافي فإنه يصدق على كل سابق كالقدم كما تقدم، وإذا قيل أزل الآزال اختصّ بالواجب الحق جل جلاله ثم أبان حدوثهم وفقرهم إليه تعالى بقوله منه بدأنا أي بفعله اخترع وجودنا لا من شيء وإليه نعود أي نستند إليه في كل حالٍ من أحوالنا ، والحاصل منهم الإسلام لأنه التسليم وأول تسليم خلقه الله هو تسليمهم له ورضاهم بكل ما يرد عليهم منه تعالى

خلقه عنهم بل بهم إذ هو قابليّتهم الطاهرة الزاهرة وهي الزيت الذي يكاد يضيء ويسلم إلى الله تعالى في كل شيء (وَ لوْ لمْ تَمْسَسْهُ نارٌ) أي يكاد يسلّم قبل أن يخلق وهذا مرادنا من قولنا تكوّنوا بتمكينه مسلمين بتسليمهم له ، أو أنّه صفتهم أو فعلهم أو أثرهم أو أنه في كلّ أحكامه في الدنيا والآخرة عبارة عن التسليم لهم أو الثناء عليهم أو الثناء على الله تعالى بهم أو بفعلهم أو بكل ما لهم أو عنهم وهو قوله وإليهم وهم أهله أي القوام به أو المستحقون له أو لأنه لهم شُرِع ، أو لأنه أثرهم أو صفتهم أو طاعتهم أو الطّاعة لهم أو طريقهم وما أشبه ذلك ومعدنه لأنه فرعهم وهم أصله أو بيّنات جدهم ﷺ وهو زبره أو كما مر من صفة غيره.

وعلى السادس والسابع يكون المعنى أنّ المال والملك معهم لأنهم يد الله في قوله تعالى (قُل مَنْ بِيَدِهِ مَلكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ) أو أنهما خُلِقا لهُم وإن كان غيرهم قد شاركهم في شيء فإن كان الغير من أعدائهم فهو غاصب معتدٍ يدخل في قوله تعالى(وَسَيَعْلَمُ الذِينَ ظَلمُوا أَيَّ مُنْقَلبٍ يَنْقَلِبُونَ) أي ظلموا آل محمد ﷺ حقهم وروي (لوْ أَنَّ غَيْرَ وَلِيِّ عَلِيٍّ عليه السلام أَتَى الفُرَاتَ وَ قَدْ أَشْرَفَ مَاؤُهُ عَلى جَنْبَيْهِ وَ هُوَ يَزُخُّ زَخِيخاً فَتَنَاوَل بِكَفِّهِ وَ قَال بِسْمِ الله فَلمَّا فَرَغَ قَال الحَمْدُ لله كَانَ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لحْمَ خِنْزِيرٍ) هـ ، وإن كان من مواليهم فلهم أن يتناولوا منهما ما شاءوا بشرط موالاة المالكين لهما ومتابعتهم في أحوالهم فحينئذٍ يلحقون بهم عليهم السلام في التملّك التّبعي وإن كانوا في الحقيقة إنّما خُلِقوا وخُلِقَا لهم صلّى الله عليهم، وقد صرّح سبحانه في كتابه بالاشتراط وكنّى عن الشرط بالتقوى والإيمان والعمل ثم بالتقوى والإيمان ثم بالتقوى والإحسان قال تعالى (ليْسَ عَلى الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُناحٌ فِيما طَعِمُوا إِذا مَا اتَّقَوْا وَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَ الله يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) وقد أشرنا فيما تقدم إلى بيان التقوى والإيمان والإحسان، أو أنهم عليه السلام في مقام الأبواب هم المانون فيهما بإذن الله (وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ)، أو أنهم الذادة القادة فيهما بتسبيب الأسباب والموانع (ذٰلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ) وفيهم على معنى معهم ومنهم لأنّهم هم حقائق النعم وأصول الكرم، أو على معنى القادة الذادة وإليهم بمعنى العلة الغائية، لأنه سبحانه خلق الخلق لهم وخلق المال والملك وما يتعلّق بهما لهم ولتتمّ حاجات الخلق فإذا تم نظامهم انتفعوا بهم فيما يريدون من إقامة دين الله تعالى وإعلاء كلمته وقد لوّح سبحانه لمن اغترف من بحر تعريفهم إلى انتفاعهم بسائر الخلق وبما خلق لهم من كلّ شيء في قوله تعالى (وَالله جَعَل لكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَ جَعَل لكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعام بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَها يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَ يَوْمَ إِقامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوافِها وَ أَوْبارِها وَأَشْعارِهَا أَثاثاً وَمَتاعاً إِلى حِينٍ) فإنّ من سواهم أنعامهم وجلودهم ظواهِرُهم من الأقوال والأحوال من أفعاله ذواتهم وعقولهم وأرواحهم ونفوسهم وأشباحهم وأجسامهم(أجسادهم)،وبيوتهم مقتضيات ما ذكرنا من تلك الجبال والشجر ومما يعرِشون وهي بيوتُ أفكارهم لتجمعَ إليها ما تلتقطه من متعلقات تلك المقتضيات وترتبه أنظارهم ويترجمونه علوما وأحكاماً وهذه البيوت هي بواطن هذه الأنعام من نفوسهم وأشباحهم وأجسامهم، وهذه الجلود التي هي ظواهِرُهُم من الأعمال والأحوال والأقوال أفعالهم وهي صفاتهم وهي الأصواف والأوبار والأشعار ولهم عليه السلام في ذلك متاع يتوصلون به إلى متعلقات أحكام شرعية تترتب عليها قوابلُ لإيجاداتٍ بها تتمّ أشعة أنوارهم ونهاياتُها على ما به يستقيم النظام عنهم لهم فيمجدّون كرمَه

ويعظمون شأنه ويدمنوُن ذكره ويؤكّدون ميثاقه كما يجب أن يكون ذلك، وهذا هو المتاع إلى حين أي إلى أنهم يملؤون السماوات والأرض حتىّ يظهر ألاّ إله إلاّ هو وهم أصله ومعدنه لأنّ المال والملك إنّما يتكوّنان من مادة وصورة فالمادة وُجودهُما من أشعّة أنوارهم والصورة ماهيّتهما من أشعة صفاتهم كما مر.

وعلى الثامن وهو الواجب إذا أريد به المعبود بالحقّ فكما مر و إنْ أُرِيدَ به الأمر اللازم فكونه معهم إنّما هو لأنهم هم الذين يعرفون مواقعه أو يحكمون به أو هم الملزمون به بإذن الله تعالى، لأنه تعالى هو المالك أو لأنّهم هم المملّكون و إن أريد به مطلق الثبوت فكذلك لأن كلّ شيء من الخلق سواهم ليس ثابتا ولا ثبوت معه ما لم يكن عنهم أو بهم قال تعالى(كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ) وفي الدعاء (وأن كل معبود مما دون عرشك إلى قرار أرضك السابعة السفلى باطل مضمحل ما عدا وجهك الكريم ...إلخ)، ولا يجوز استعمال معناه الضدي هنا يعني بمعنى السقوط إلا على تأويل الإسقاط كما أشار إليه سبحانه وتعالى (وَما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُها وَ لا حَبَّةٍ فِي ظُلُماتِ الْأَرْضِ وَ لا رَطْبٍ وَ لا يابِسٍ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ).

فالساقط معهم أي بمعنى أنهم عليهم السلام يسقطونه بمُوجِب إسقاطه أو برفع ما قام به والتخلية من الأخير والإذن في السقوط من الأخير أيضاً، وفي تسبيح شهر رمضان (وَيَسْقُطُ الوَرَقُ بِعِلمِهِ) برفع الورق وفتحها فالنسختان مبنيتانِ على هذين المعنيين وفيهم إذا أريد به المعبود بالحق سبحانه يعرف مما تقدم وإن أُريد به الأمر اللازم كان المعنى أنْه عندهم أو لأجلهم أو بمعنى أنه منحصر فيهم إذ كل حكم وجودي أو شرعي لم يكن لهم لم يكن وإن كان فهو باطل مع أنه بهم أيضا لأنه لا يكون شيء إلاّ بالله فإن كان حقاً فمن الله وبالله وإن كان باطِلاً فبالله

لا منه ولا يكون شيء بالله إلا بهم وعنهم لأنّه سبحانه جعلهم أعضاداً لخلقه فلا يتقوم شيء من سائر الخلق بدونهم كما مر مكررا، وفي الزيارة (بِكُمْ يَمْحُو مَا يَشَاءُ وَ بِكُمْ يُثْبِتُ)، أو استقراره أو في شأنهم أو لهم ملكه أو منهم منشأه ومثله مطلق الواجب بمعنى الثابت وبمعنى الساقط على التأويل المذكور ومنهم وإليهم ، إذا أريد به المعبود بالحق قدّر السبيل أي سبيل الله منهم وإليهم بمعنى أنّ ما أظهر لخلقه وأعطاهم من كل شيء فهو منهم كما مر وإليهم كذلك لأنه سبحانه خلق خلقه وما أعطاهم من كلّ شيء لهم عليهم السلام فهم الصّراط الأعظم لله سبحانه ثم من دونهم سائر ما خلق منهم إليهم أي خلقهم من فاضل أنوارهم وإليهم يعودون كما بَدَأهم فالخلق سبيل الله من السبيل الأعظم إليه أنّ إلينا إيابهم، وإذا أريد به الأمر اللاّزم فالمعنى أنه بالله يعني ما منهم بالله أوْ مِنَ اللهِ عنهم أو بهم ويجوز مِنَ الله ثم منهم أو من الله ومنهم إما بمعنى أن ما مِنَ الله فهوُ هُمْ وهم أصل كلّ خير وكل خير منهم وما منهم فهو ما سواهم، وإمّا بمعنى أنّ ما منهم هو ما مِنَ الله أو بالله ، وإما بمعنى ما من الله سبحانه فهو ما مِنهم لأنهم خزائن جميع إمداداته وإن كانت الإمدادات تدريجيّة الظهور وقبل الظهور ليست شيئاً إلاّ أن أسباب إيجاداتها وعلل أكوانها صفات ذواتهم وصفات أفعالهم، ولم تتعلّق المشية بشيء إلاّ بهم وعنهم فصح أنهم خزائن جميع إمداداته فإذا ظهر لك هذا ظهر لك أن ما لزم وجوده لتمام مقتضياته وانتفاء موانعه من الكونين الوجودي والشرعي إنّما لزم بهم أو عنهم أو بإلزامهم بإذن الله ، وإنّ ما أريد به الثابت فهو فرع ثبوتهم وما أريد به السّاقط فعلى نحو التوجيه المتقدّم وهم أصلهُ ومَعْدِنُه على معنى ما تقدم في أمثاله ونظائره.

وعلى العاشر وهو الموجود الثابت إن أريد به المعبود سبحانه كان كما مر

في كل الصُّور وكان وصفه بالثابت لبيان ما هو الواقع ، أو إن الموجود بالوصف يختصّ به تعالى وإن أريد به غير الله تعالى كان أحقّ ما يطلق على الحق المخلوق لا سيّما مع الوصف المذكور لأنه بالنسبة إلى جميع الخلق أحق بالموجود الثابت لعدم تغيره فإنه بالنسبة إلى جميع الخلق ساكن وجميع الخلق تدور عليه لا تقف أبداً وهو قد يراد به المشية وهو الحق الّذي خلق به السماوات والأرض وقد يراد به المقام الأول وهو الشائي وهو قول الحجة عليه السلام في دعاء شهر رجب المرجب (لا فرق بينك و بينها إلا أنهم عبادك و خلقك) وقد يراد به محلّه وهو الحقيقة المحمدية وهي الزيت باعتبار كما قال تعالى(يَكادُ زَيْتُها يُضيءُ وَ لوْ لمْ تَمْسَسْهُ نارٌ) أو الماء باعتبارٍ آخر، كما قال تعالى (وَ جَعَلنا مِنَ الماءِ كُل شَيْءٍ حَيٍّ) أو قابليّة المشيّة نفسها بنفسها على اعتبار آخر ففي الاعتبار الأخير هو المشية وهو الحق المخلوق وهو الحق الذي خلق به السماوات والأرض ، وعلى هذه الوجوه فلا منافاة في كونه معهم لأن الشيء يكون مع محلّه ومع معلوله ومع مفعوله ومع نفسه وقد يطلق الحق المخلوق على الماء الثاني، والمصباح الذي استنار به الكون وهو العقل الأوّل والروح الّذي هو من أمرنا وكونه معهم ظاهر وفيهم ومنهم وإليهم وهم أصله ومعدنه كذلك أيضاً لأن العقل هو القلم ، وورد عنهم عليهم السلام أنه أوّل غصنٍ أخِذ أو نبت من شجرة الخُلدِ وهي شجرتهم فهو معهم وفيهم ومنهم وإليهم وهم أصله ومعدنه وقد يطلق ويراد بالموجود الثابت بما يغاير الموجود بعد فنائه والثابت قبل أن يوجد على رأي من يرى أنّ الثابت أعم من الموجود مثل من يقول أنّ الأعيان ثابتة في العين غير موجودة كما يقوله أهل التصوف مثل قول الملاّ محسن في الكلمات المكنونة (فإن الكون كان كامنا فيه معدوم العين ولكنه مستعدّ لذلك

الكون بالأمر ولمّا أمر تعلّقت إرادة الموجد بذلك واتّصل في رأي العين أمْرُهُ به ظهر الكون الكامن فيه بالقوة إلى الفعل) انتهى.

فهي عنده في عين ذاته بالقوة موجودة لكنها معدومة يعني غير متميّزة كقطرة الماء في البحر ولا يصح أن يريد بها أنها معدومة ليست شيئا بل يرى أنّها ثابتة ثبوتاً مخالفاً للعدم وإنّما لم يقل موجودةً لأنه يريد بالوجود والإيجاد هذه التشخّصات والحدود لأنه في موضع أخر منها قال (إن هذه الأعيان الثابتة ليسَتْ أموراً خارجة عن الحق بل هي نسب وشؤون ذاته فلا يمكن أن تتغيّر عن حقائقها فإنها حقائق ذاتيّات وذاتيات الحقّ سبحانه لا تقبل الجعل والتغيير والتبديل والمزيد والنقصان) انتهى كلامه.

ولو أراد أنها ليست شيئاً لما جعلها ذاتيات الحق اللاتي لا تتغيّر لأن ذاتيات الحق ليسَتْ معدومات ولا عجب ممّا يعتقده فإنه مذهب إمامه مميت الدين بن عربي ومثل من يقول إنّ الأعيان ثابتة في العلم غير موجودة ويجعلها صوراً علميّة معلقة بالقديم تعالى ، ومثل من يقول إنها ثابتة في الإمكان لم تلبس حلة الوجود فهي كالأواني الموضوعة في المكان المظلم، فإن الناظر إليها لا يرى شيئا وإن كانت في نفس الأمر متحققةً فإذا أشعلت سراجاً وأشرق عليها ظهرت وأهل هذه الأقوال الثلاثة كلهم أخطأوا الحق وقالوا بما ليس موجوداً في نفس الأمر ولا ثابتا (إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ) ومن قال بأن الممكن لا يمكن أن يكون ممكناً لغيره وإنما هو ممكن لذاته يلزمه القول بأحد القولين الأولين البتّة، وأمّا أهل القول الثالث فإن أرادوا أنّها ثابتة بنفسها في الإمكان فهم كالأوّلين وإن أرادوا أنّها لم تكن شيئاً أصلاً لا موجودة ولا ممكنة بل كان الله سبحانه واحداً

متفردا في وجوده ليس معه غيره ثم إنّه جعلها ممكنة ، فإذا أراد إيجاد ما شاء أوجده كما شاء فهو حق ولكنهم لا يقولون به لأنهم يخبطون في القول والمعنى ويقولون المعقولات خمسة ، واجب لذاته وهو الله تعالى وواجب لغيره وهو المعلول عند وجود علته التامّة وممتنع لذاته وهو شريك الباري وممتنع لغيره وهو المعلول عند عدم علته وممكن لذاته ولم يقولوا وممكن لغيره لئلا يلزمهم أنّه قبل فعل ذلك الغير إما واجب أو ممتنع ولم يهتدوا إلى الحق سبيلاً فإنّ الحق أنّ المعقول لا يكون إلاّ مخلوقاً وأنه ليس إلاّ الله وحده لا شريك له ثم أحدث فعله وأحدث به مفعوله لأنه سبحانه أمكنه في مشيته ولم يكن قبل ذلك ممكناً إذ ليس قبله إلاّ الوجود الحق فإذا أراد أحْدَث ما أراد كيف أراد (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)فإذا أريد بالحق الموجود الثابت مطلقاً وهو ما يغاير الموجود بعد فنائه والثابت قبل أنْ يوجد فيتناول الإبداع والمبدع الأول وهو الماء الأوّل والعقل الذي هو المصباح وقد مرّت الإشارة إليها والروح والنفس والطبيعة وجوهر الهباء ، وهذه معهم وفيهم ومنهم وإليهم أما أنّها معهم فلأنها متقوّمة بهم فلا تفارقهم وأمّا أنها فيهم فلأنها أرواحهم القائمون بأركان الوجود الموكّلون بحمل العرش وما دونه، وأما أنّها منهم فلأنّها أغصان من شجرة هي حقيقتهم، وأما أنّها إليهم فلأنَّ ثمرتها مما هي قائمة به وموكّلة عليه من خدمة الله في إقامة تسبيحه وتقديسه و إظهار توحيده وعبادته في خلقه وما الأمر عليه من عذر أو نذرٍ إنما هي عنهم كما أشار إليه الحسن العسكري عليه السلام في شأن العقل الذي هو أولها قال (وروح القدس في جنان الصاقورة ذاق من حدائقنا الباكورة).

يعنْي أنّا عمرنا أرضنا أرض الإمكان وغرسنا في تلك الجنان باسقات الأغصان

وسقيناهُ بماء الوُجودِ الذي هُوَ حياتنا فأول مَنْ قَبِل النموّ من تلك الأَغصان روح القدس، وذلك القبول هو أكل أول ثمرة الوجود فهم أصلها ومعدنها كذلك وإنّما حصرنا الموجود الثابت في هذه بناء على معتقد القوم ومصطلحهم من أنّ المجردات الدّهريّة قارةُ الذّات باتّةُ الثّباتِ ، والتحقيق أن المخلوق ليس له ثبات إلاّ بالإضافة إلى ما دون وإلاّ فحاجة المجرّد إلى علّته ومبدئه أشدّ من حاجة من دونه وكلّما قرب من المبدأ كان أشد حاجةً وفقراً وأسرع حركةً حول مركز علته حتى يكاد يفنى عن نفسه، فلذا كان أشدّ تحققاً ممّن هو دونه وكلّما كان كذلك كان أشدّ تقلّباً في ثباته وتغيّرا في بقائه وكلّما بعد كان أضعف حاجة وفقرا عند نفسه فلذا كان أضعف تحقّقاً ممّن هو فوقه وإليه الإشارة بقوله تعالى (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَهِيَ كَالحِجارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً)الآية ، هذا حكمه في نفسه وعند مثله وإلاّ ففي الحقيقة جميع الخلق في الحاجة والفقر والتغيّر سواء وإنّما تختلف الأشياء باختلاف أوقاتها وآجالها في الطول والقِصَر فإذا نظر الناظر إلى المجرّد وجده في بادي الرأي ساكناً ثابتاً لطول أجله الذي يضمحل عند انقضائه وإذا نظر إلى المادي وجده متغيرا متبدّلاً لقصر مدّته فيرى أن المجرد ثابتٌ والمادي متغيّر وليس ذلِكَ إلاّ لاختلاف مدّة البقاء.

وعلى الحادي عشر وهو الصّدق أعني ما يطابق الواقع من القول مطلقاً سواء كان لفظيّا أو معنويّاً فيدخل فيه جميع الأعمال والأفعال والحركات الحسيّة والنفسيّة والعقليّة والسّرمديّة وهو معهم.

أما السرمديّة فمنها السابق ذاتاً ومنها المساوق ومنها اللاحق وصدق المعيّة على اللاّحق إنما هو باعتبار لزومه لهم إن كان متعلقاً بما تحت حقيقتهم أو باعتبار

مساوقته لبعض تكميلات تلك الحقيقة فيكون لاحقاً باعتبار ما سبق منها عليه أو من تكميلاتها عليه، وأمّا العقلية والنفسيّة والحسيّة وسائر الأقوال المعنويّة واللفظيّة فتصحّ المعيّة لكلّ نوع في رتبته من مراتبهم وما دونها مع المشاركة لصاحبة المرتبة فالعقليّة معهم في رتبة العقول وفي رتبة الأرواح مع مشاركة الروحيّة وفي رتبة النفوس مع مشاركة الروحية والنفسية وفي رتبة الطبائع مع مشاركة الروحية والنفسية والطبيعيّة، وهكذا إلى رتبة الأقوال الظاهريّة بل إلى رتبة الأقوال الحيوانية والنباتية والجمادية فكل شيء منها طابق الواقع فهو معهم في تلك الرتبة لأنّ لهم ظهوراً مع كل شيء فيترجمون ما يصل إليه من المدد الإلهي بلسانه لأنهم تراجمة وحي الله سبحانه وتعالى لكلّ مذروءٍ ومبروءٍ وفيهم يعني أن كل ما طابق الواقع من جميع مراتب الصدق فهو لهم أو لأجلهم أو عنهم ومنهم وإليهم أي أن الصدق بكل نوع من أنواعه منهم لأنه فرعهم وفعلهم وصفة فعلهم وأثره وإليهم مرده أو نفعه يعود أو ينتهي حيث يعود كل شيء إلى أصله، وهم أصله ومعدنه أي أنهم أصل الصدق لأنّ الصدق في الاصطلاح هو القول الذي يطابق الواقع فالواقع هو الموجود في الكتاب الوجودي الإلهي المعبّر عنه باللوح المحفوظ وذلك هو نفسهم القدسيّة أو نور نفسهم أو نفسهم ونورها على اختلاف التعبيرات والقول إذا طابق في الإخبار به ذلك المعنى الموجود فهو الصدق، إن أريد به محض المطابقة وكان فاعله صادقاً وإن لم يرد به ذلك كان القول في نفسه صدقاً بل كان حقاً ولم يكن صدقا إلا على تأويل الحقّ لأنهما في اللغة شيء واحد وإنما يفرق بينهما في الاصطلاح بأنه إن طابق الواقع القول كان حقاً وإن طابق القول الواقع كان صدقاً فإذا لم يرد به الفاعل مطابقة الواقع كان

حقاً لمطابقة الواقع له وكان فاعله كاذباً، والمراد بهذا القول قول كل لسان بكل لغة كما أشرنا إليه فإذا كان صدقاً كان بارزاً عن رضا الله ومحبّته ورضا الله ومحبّته فيهم لا يخرج شيء منهما عنهم لأنهم هم الناطقون بالصدق على ذلك اللسانِ بل بهم وبفضلهم ترجم ذلك اللسان لكلامهم بنطقه عن نفسه لنفسه ولغيره فإذا عرفتَ هذا ظهر لك أنّهم أصل الصدق ومعدنه.

وعلى الثاني عشر وهو الموت يكون معنى كون الموت معهم هنا هو عدم وجدانهم أنفسهم حين وجدُوا ربّهم ولا يجوز أن يراد به الهلاك المعروف ولا الهلاك في الدين ولا العدم لأنهم وجه الله الباقي بعد فناء كلّ شيء كما قال تعالى (كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ) وقال تعالى (كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ وَ يَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلالِ وَ الإِكْرام)وقريء ذو الجلال والإكرام ولا يختلف المعنى باختلاف القراءة عندنا، لأنّ الوجه المضاف يراد منه المضاف إليه إذ الإضافة بيانيّة على قراءة الجرّ ويجوز أن يكونوا هم المضاف والمضاف إليه هو الفعل أو الوصف الأعلى والمقام الأوّلي وَهُوَ الربّ المذكور في كلام الصادق عليه السلام كما في الكافي عن الصادق عليه السلام أنه سُئِل (كَمْ عُرِجَ بِرَسُولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم فَقَال مَرَّتَيْنِ فَأَوْقَفَهُ جَبْرَئِيلُ مَوْقِفاً فَقَال لهُ مَكَانَكَ يَا مُحَمَّدُ فَلقَدْ وَقَفْتَ مَوْقِفاً مَا وَقَفَهُ مَلكٌ قَطُّ وَ لا نَبِيٌّ إِنَّ رَبَّكَ يُصَلِّي فَقَال يَا جَبْرَئِيلُ وَ كَيْفَ يُصَلِّي قَال يَقُولُ سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ أَنَا رَبُّ المَلائِكَةِ وَ الرُّوحِ سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي فَقَال اللهمَّ عَفْوَكَ عَفْوَكَ)الحديث.

يعني الاسم الأكبر المُربي له صلى الله عليه وآله وسلم وهو عند علماء العرفان الاسم البديع وهو المربّي للعقل الكلي والذي يظهر لي أنه المقام الأعلى والوصف الأوّلي وهو في باب الآيات من المعبود بالحق جل وعلا كالقائم من زيد وهو الشائي أو المشيّة والمشاء

ولمحمد وآله ﷺ مع ذلك حالات هو هم وهم هو إلا أنّه هو هو وهم هم، لأنهم محلّه كالقيام والقائم فإنهما معاً صفة زيد صفة فعل ففي حالة اعتبار القيام في القائم وتقوّم القائم بالقيام في الظهور والقيام بالقائم في التحقّق هو هو وفي حالة اعتبار المغايرة أحدهما غير الآخر فكان الموصوف بذي الجلال والإكرام هو الوجه الذي هو المقام الأعلى ، ففي الرفع يجوز أن يكون المراد بربك الاسم المربّي فتكون الإضافة بيانيّة ويجوز هذا المعنى على الجرّ تبعاً للفظ ، وأن يكون المراد بربك المعبود بالحقّ جل وعلا ، ويجوز الجر ويراد بذي الجلال والإكرام هو الوجه يعني أنه سبحانه وصف نفسه لخلقه بذلك الوجه ذي الجلال والإكرام ليعرفوه به إذ لا يعرف إلاّ به ولا سبيل لأحدٍ من خلقه أن يعرفه إلاّ به وهو قول علي عليه السلام (نحن الأعراف الذين لا يعرف الله إلا بسبيل معرفتنا)هـ.

ولو قلتَ : إن قوله ذي الجلال والإكرام بالجرّ صفة للمعبود بالحقّ لقلنا هذا حقّ لا شك فيه إلاّ أنّه إن أردت بهذه الصفة صفته القديمة فليس لها عبارة لأنها ذاته تعالى وإن أردت بها صفته الأولى المحدثة فليست غير ذلك الوجه فافهم، والمرادُ بالمقام الأعلى الذي هو الوجه المذكور المثل الأعلى الذي (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)والفناء والموت والهلاك أحدثها الله بهذا الوجه فلا تجري عليه وإنّما معنى كونه معهم وفيهم عدم وجدانهم أَنْفُسَهُمْ حيث وجدوا ربّهم كما تقدّم.

وأمّا أن الموت منهم فإن أريد به خروج الروح أو الفناء يعني تفرق الأجزاء أو عدم وجدان النفس عند وجدان الرب تعالى لمن دونهم أو لهم فلهذا اختارهم الله على جميع العالمين فظاهر لأنه سبحانه يفعل ذلك بهم لأن أركان الوجود الأربعة الخلق والرزق والموت والحياة من أشعة أنوارهم أو لوازمها على اعتبار أن الموت

والفناء من المجتّثات ، وأما بالنظر إلى الحقيقة فكلّ الأربعة من أشعّة أنوارهم أو عنهم لأن الله سبحانه اتّخذهم أعضاداً لخلقه ، وإن أريد به هلاك الدين فمنهم أيضاً لأنهم كما كانوا يوردون المؤمنين طريق النجاة بأعمالهم ومحبتهم كذلك هم يذودون الكفّار والمنافقين عن طريق النجاة ويوردونهم طريق النار بأعمالهم وبغضهم ، وأما معنى كونه إليهم فإنه يثني عليهم بالثناء الجميل إذ به تقع الأشياء مواقعها وتنعطف الفروع على أصولها (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ) وفي الزيارة الجامعة الصغيرة (يُسَبِّحُ الله بِأَسْمَائِهِ جَمِيعُ خَلقِهِ)، وأما معنى أنهم أصله ومعدنه فيعرف مما سبق حيث تجعل المعاني في مواقعها.

وعلى الثالث عشر وهو الحزم ، والحزم لغة ضبط الأمر والأخذ فيه بالثقة ومعنى كون الحزم معهم إنّ هذا المراد منه وهو ضبط الأمر والأخذ فيه بالثقة أنّ الله سبحانه خلقهم كذلك في حقائقهم وإمداداته إيّاهم في وجوداتهم وقوابلهم في مراتب التكوين والتشريع مما أعطاهم وأنزلهم منه هذه المنازل التي لا يحتمل الإمكان أعلى منها كل ذلك بحقيقة ما هم أهله حين خلقهم، وكذلك ما ترجموا لمن دونهم من فاضل ما أمدّهم وأعطاهم وفيهم مما أقامهم به من ذلك واستحفظهم عليه لهم ولمن دونهم كما أنزله سبحانه عليهم في كتابه الأوّل والآخر ومنهم الحزم في إرشادهم وتبليغهم وأدائهم لكل ما يريد اللهُ لعباده أو من عباده (بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتابِ الله وَكانُوا عَلَيْهِ شُهَداءَ) حيث أمرهم فقال (وَزِنُوا بِالقِسْطاسِ المُسْتَقِيمِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ)وهو نصيبهم من الكتاب الذي قضى الله أن ينالهم على أيديهم وإليهم كما تقدّم في نظائره وهم أصله ومعدنه كما أشير إليه في بيان معهم وفيهم لأنه لغيرهم فرعٌ مِنْ فُروعهم

فهم أصله ومعدنه وحيث يكون لهم فهو صفتهم.

وأمّا على الرابع عشر فلا يراد هُنَا إلاّ على تأويل أنه فرد من أفراد الوجود وكلّ الوجود بهم.

قال عليه السلام وميراث النبوة عندكم

قال الشارح رحمه الله من علوم جميع الأنبياء وكتبهم وأخلاقهم الكاملة حتّى أنه كان عندهم ألواح موسى وعصَاهُ وحَجَرُهُ وخاتم سليمان وقميص يوسف وذو الفقار سيف رسوله الله صلى الله عليه وآله وسلم ودرعُه وعمامته ورايته وعنَزَتهُ وغيرها، وكان عندهم من الكتب الجامعة التي كانت من إملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخط علي عليه السلام بيده والجفر الذي فيه علوم الأنبياء والمرسلين والمشهور أنه الكتاب المعروف المرموز الذي بيننا وقيل غيره وهو عند صاحب الأمر عليه السلام ومصحف فاطمة عليها السلام الذي فيه علوم ما سَيأتي وكان بإملاء جبرائيل عليه السلام وخطّ أمير المؤمنين عليه السلام وكان ذلك بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لدفع حزنها عليها السلام ، والمشهور أنه الجفر الأبيض الذي عندنا وهو كالجفر الأحمر في التركيب إلاّ أن الجفر الأحمر من جميع حروف التهجي والأبيض من الحروف النورانيّة التي في أوائل الصور ويجمعها (صراط علي حق نمكسه) وقيل غيره وهو أيضاً عند الصاحب عليه السلام ويظهر من بعض الأخبار أن الجفر الأبيض غير مصحف فاطمة عليها السلام وأنه أيضاً كان عندهم وكان عندهم كتاب فيه أسماء شيعتهم وكتاب فيه أسماء مخالفيهم، وبالجملة كل نبيّ ورث علما أو غيره كما في الأخبار المتواترة فقد انتهى إليهم صلوات عليهم انتهى كلامه.

أقول ميراث الأنبياء على قسمين قسم يعدّونه ميراثاً وقسم لا يعدونه ميراثا والثاني هو ما تركوا ممّا يعدّ من حطام الدنيا من الدراهم والدنانير والخيل والأنعام والحرث وما أشبه ذلك، ولهذا ورد (إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَاراً وَ لا دِرْهَماً وَ لكِنْ وَرَّثُوا العِلمَ فَمَنْ أَخَذَ مِنْهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ)، وورد (إِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ)والمراد من نفي ما سوى العلم عدم اعتدادهم به مع أنه قال الله تعالى مخبراً عن سؤال زكريا عليه السلام ومن ربه وارثاً يرثه وعن سليمان عليه السلام إنه ورث من أبيه داود عليه السلام الصَّافنات الجياد ولكنّهم لا يعدونه ميراثاً لعدم التفاتهم إلى الدنيا وما فيها، والقسم الأول وهو ما يعدّونه ميراثاً قسمان : أحدهما العلم وثانيهما ما تركه الأنبياء من آثار النبوة كنعل شيث عليه السلام وقميص يوسف عليه السلام وهذان يرثونهما لأنّهما علامة الإمامة والولاية المطلقة وكل من كان عنده سلاح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان عنده العلم وميراث جميع الأنبياء عليهم السلام وفي البصائر عن أبي جعفر عليه السلام قال (إن السلاح فينا بمنزلة التابوت في بني إسرائيل يدور الملك حيث دار السلاح كما يدور حيث دار التابوت).

أقول المراد بالملك المذكور الإمامة كما قال تعالى (وَآتَيْناهُمْ مُلكاً عَظِيماً) وهو الإمامة وفيه عنه عليه السلام قال (السلاح فينا بمنزلة التابوت إذا وضع التابوت على باب رجل من بني إسرائيل علم بنو إسرائيل قد أوتي الملك كذلك السلاح حيث ما دارت دارت الإمامة).

وفي إرشاد المفيد والاحتجاج (عن سعيد السمان قال كنت عند أبي عبد الله عليه السلام إذ دخل عليه رجلان من الزيدية فقالا له أمنكم إمام مفترض طاعته قال فقال لا قال فقالا له قد أخبرنا عنك الثقات أنك تقول به وسموا قوما وقالوا

هم أصحاب ورع و تشمير و هم ممن لا يكذب فغضب أبو عبد الله عليه السلام وقال ما أمرتهم بهذا فلما رأيا الغضب في وجهه خرجا فقال لي أتعرف هذين قلت نعم هما من أهل سوقنا و هما من الزيدية وهما يزعمان أن سيف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند عبد الله بن الحسن فقال كذبا لعنهما الله والله ما رآه عبد الله بن الحسن بعينيه ولا بواحدة من عينيه ولا رآه أبوه اللهم إلا أن يكون رآه عند علي بن الحسين عليه السلام فإن كانا صادقين فما علامة في مقبضه وما أثر في مضربه فإن عندي لسيف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإن عندي لدرع رسول الله وإن عندي لراية رسول الله ولأمته ومغفره فإن كانا صادقين فما علامة في درع رسول الله و إن عندي لراية رسول الله المغلبة و إن عندي ألواح موسى وعصاه و إن عندي لخاتم سليمان بن داود وإن عندي الطست التي كان موسى يقرب فيه القربان وإن عندي الاسم الذي كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا وضعه بين المسلمين والمشركين لم تصل من المشركين إلى المسلمين نشابة وإن عندي لمثل التابوت الذي جاءت به الملائكة ومثل السلاح فينا كمثل التابوت في بني إسرائيل كانت بنو إسرائيل في أي بيت وجد التابوت على أبوابهم أوتوا النبوة ومن صار إليه السلاح منا أوتي الإمامة ولقد لبس أبي درع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فخطت عليه الأرض خطيطا ولبستها أنا فكانت وكانت وقائمنا من إذا لبسها ملأها إن شاء الله).

وفي البصائر (عَنْ ضُرَيْسٍ الْكُنَاسِيِّ قَال كُنْتُ عِنْدَ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام وَعِنْدَهُ أَبُو بَصِيرٍ فَقَال أَبُو عَبْدِ الله عليه السلام إِنَّ دَاوُدَ وَرِثَ عِلمَ الأَنْبِيَاءِ وَإِنَّ سُليْمَانَ وَرِثَ دَاوُدَ وَإِنَّ مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله وسلم وَرِثَ سُليْمَانَ وَإِنَّا وَرِثْنَا مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله وسلم وَإِنَّ عِنْدَنَا صُحُفَ إِبْرَاهِيمَ وَأَلوَاحَ مُوسَى فَقَال أَبُو بَصِيرٍ إِنَّ هَذَا لهُوَ العِلمُ فَقَال يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ليْسَ هَذَا هُوَ

العِلمَ إِنَّمَا هَذَا الأَثَرْ إِنَمَا العِلمَ مَايَحْدُثُ بِالليْلِ وَالنَّهَارِ يَوْماً بِيَوْم وسَاعَةً بِسَاعَةٍ).

وفي العلل عن الصادق عليه السلام في ذكر قميص يوسف عليه السلام قال المفضّل بن عمر (قلت جعلت فداك فإلى من صار هذا القميص قال إلى أهله و كل نبي ورث علما أو غيره فقد انتهى إلى محمد و آله).

أقول: والأحاديث في ذلك كثيرة جدّاً في الخصوص والعموم ويكفي في ذلك الإشارة مع أن هذا معلوم من أحاديثهم عند الشيعة وهي كثيرة مثل ما رواه في الكافي (عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ كَثِيرٍ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم إِنَّ أَوَّلَ وَصِيٍّ كَانَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ هِبَةُ اللهِ بْنُ آدَمَ وَمَا مِنْ نَبِيٍّ مَضَى إِلا وَلَهُ وَصِيٌّ وكَانَ جَمِيعُ الأَنْبِيَاءِ مِائَةَ أَلفِ نَبِيٍّ وَعِشْرِينَ أَلفَ نَبِيٍّ مِنْهُمْ خَمْسَةٌ أُولُو العَزْمِ نُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّدٌ عليه السلام وإِنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ كَانَ هِبَةَ اللهِ لِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم وَوَرِثَ عِلمَ الأَوْصِيَاءِ وَعِلمَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ أَمَا إِنَّ مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله وسلم وَرِثَ عِلمَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ)الحديث.

ومن ذلك ما تقدم في حديث أبان بن عثمان عن أبي عبد الله عليه السلام حين حضرت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الوفاة وَدَعَا عمه العبّاس بن عبد المطلب وأمير المؤمنين عليه السلام لديه وعرض عليهما الوصية واعتذر العباس وقبل عليّ عليه السلام فسلم إليه خاتمه والمغفر والدرع والراية والقميص وذا الفقار والسحاب والبرد والأبرقة والقضيب والنعلين والقميصين والقلانس الثلاث والبغلتين الشهباء والدُّلدل والناقتين العضباء والقصوى والفرسين الجناح وحيزوم وحماره عفير وغير ذلك وكلّ ذلك معهم عليهم السلام مع ما ترك جميع الأنبياء عليهم السلام مما يعدّونه ميراثاً من علم وأثرٍ وقد تقدّم والأبرقة ثوب طويل من الجنة يضيء بنور يكاد يخطف الأبصار يشد بها وسطه مكان المنطقة .

وتفسير الشارح الجفر الأحمر أنه من جميع حروف التهجي بخلاف الأبيض فإنه من النورانية المذكورة في أوائل السور لا ينطبق على أكثر رواياتهم، ففي الكافي (عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ أَبِي الْعَلاءِ قَال سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ الله عليه السلام يَقُولُ إِنَّ عِنْدِي الْجَفْرَ الأَبْيَضَ قَال قُلْتُ فَأَيُّ شَيْءٍ فِيهِ قَال زَبُورُ دَاوُدَ وَ تَوْرَاةُ مُوسَى وَ إِنْجِيلُ عِيسَى وَصُحُفُ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام وَ الْحَلالُ وَ الْحَرَامُ وَمُصْحَفُ فَاطِمَةَ مَا أَزْعُمُ أَنَّ فِيهِ قُرْآناً وَفِيهِ مَا يَحْتَاجُ النَّاسُ إِلَيْنَا وَ لا نَحْتَاجُ إِلَى أَحَدٍ حَتَّى فِيهِ الْجَلْدَةُ وَ نِصْفُ الْجَلْدَةِ وَ رُبُعُ الْجَلْدَةِ وَ أَرْشُ الْخَدْشِ وَ عِنْدِي الْجَفْرَ الأَحْمَرَ قَال قُلْتُ وَ أَيُّ شَيْءٍ فِي الْجَفْرِ الأَحْمَرِ قَال السِّلاحُ وَ ذَلِكَ إِنَّمَا يُفْتَحُ لِلدَّمِ يَفْتَحُهُ صَاحِبُ السَّيْفِ لِلْقَتْلِ)الحديث.

وما دل عليه هذا الحديث مخالف لما ذكره لأنه قال عليه السلام إن الجفر الأبيض فيه كتب الأنبياء عليهم السلام وهو مال إلى أنه ما أخذ من الحروف النورانية خاصة وذكر عليه السلام أن الجفر الأحمر فيه السلاح يعني حكم القصاص وإقامة الحدود وأحكام الجهاد وأنه بعدما ختمه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يفتحه إلا صاحب السيف وهو القائم عليه السلام والسيف ذو الفقار وهو كناية عن الجهاد في سبيل الله أو سيف الحدود والقصاص أو كناية عن القدرة والتسلط أو عن أنه لا تأخذه في الله لومة لائمٍ وهو جعله المأخوذ من جميع حروف التهجي.

قال عليه السلام وإياب الخلق إليكم وحسابهم عليكم

قال الشارح رحمه الله أي رجوعهم في الدنيا لأجل المسائل والزيارات وفي الآخرة لأجل الحساب كما روي عنهم عليهم السلام أنّهم الميزان أي الحقيقي أو الواقعي أو

في الآخرة بقرينة وحسابهم عليكم كما قال تعالى (إِنَّ إِلَيْنا) أي إلى أوليائنا بقرينة الجمع (إِيابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ).

وروي في الأخبار الكثيرة أنّ حِسابَ الخلائق يوم القيامة إليهم ولا استبعاد في ذلك كما أن الله تعالى قرر الشهود عليهم من الملائكة والأنبياء والأوصياء والجوارح مع أنه قال تعالى (وَكَفى بِاللهِ شَهِيداً)وهو القادر الديان يوم القيامة ويمكن أن يكون مجازاً باعتبار حضورهم مع الأنبياء عند محاسبة الله إيّاهم انتهى.

أقول : قد تقرّر في أدلّة الكتاب والسّنة في بواطن التفسير وفي دليل الحكمة إنّ الله سبحانه لا يجري أفعاله في المفعولات إلاّ على ما هي عليه ممّا ينبغي لها ويمكن فيها حين كونها وذلك لا يجري على جهة قسرها بل تكون في تكوينه لها مختارة ويلزم من ذلك أن أفعالها تصدر عنها على جهة الاختيار وما تراهُ في بعضها من الاضطرارِ أو الجبل بسكون الباء فهو ما يظهر لك في بادي الرأي، ولو نظرة بالعين الحديدة ظهر لك أنّه ليس في شيء من الموجودات قسر أصلاً بل كلّها على الاختيار في صنع الله تعالى لها وفي صنعِها لأفعالها وما يَصْدُرُ عنها وذلِكَ شيء تكون به وتكون فيه وَلَيْستْ شيئاً قبْل بدئِهَا وأول ذكرها وهو سبحانه ذكرها بالاختيار، وإذا أردت معرفة كونها مختارة في كل حالٍ فعليك بما كتبناه في الفوائد فاطلبه لتعرف حقيقة ما ذكرنا ثم إنه جلّ جلاله نزّلها من منازل ذكرها الأوّل في مراتب التكوين على حسب قبولها من عطائه لم تعدِم في جميع أحوالها أوامِرَهُ بما فيه نجاتها ونواهيه عما فيه هلاكها وهي كما كانت مختارة في نفسها لأنها صنع المختار بالصنع الاختياري كذلك أفعالها مختارة في نفسها وفي تعلّقاتها لأنها صنع المختارين بالصنع الاختياري، ولمّا كان الشيء المختار إذا لم يمنعه مانع من

مقتضى اختياره لا يميل إلا إلى ما يلائمه وكان لا يلائم الشيء إلاّ ما كان أحدهما من الآخر أو لازما له أو متقوّماً به أو مستمدّاً منه ومستعينا به وكان كل ما سواهم عليهم السلام من سائر الخلق إمّا لازما لهم متقوماً بهم مستمدّا من فضلِ خَيْرِهم مستغنِياً بهم أو متقوّماً باللازم لهم لازما له كسائر أعدائهم فإنّهم ما وجدوا إلاّ بفاضِل وُجُودِ شيعتهم من جهة شمائِلِهِمْ وجب في الحكمة رجوع الخلق إليهم كل واحد من الخلق يرجع بحكم التمكين والاختيار إلى مبدئه منهم عليهم السلام .

ولمّا ثبت بالدليل كما أشرنا إليه فيما تقدم وقد يأتي أنّ المخلوق من حين ذكره الأوّل الذي هو مبدء شيئيّته إلى أن يعود إليه محتاج في بقائه إلى المدَدِ وفي جميع تلك المراتب في كل ذرّة وحالٍ هو مكلّف محصور بالأوامر والنَّواهي في غيبه وشهادته، وَبَيّنّا سابقاً أنَّ كلّ ذرّة في الوجود التكويني والتشريعي إنّما يوجدُها الله سبحانه عنهم ولهم وقد أنهى علمها إليهم في كلّ شيء من الوجودين وقد جعلهم سبحانه مانينَ لكلّ ما شاء أي مقدّرين كما تقدّم عند ذكر بعض دعاء شهر رجب في بيان (ومناة وأذواد) وجب في الحكمة الإلهيّة أن يكون حسابهم عليهم وهذا بحمد الله لمن وفّقه الله لفهم ما كشفنا له من السرّ واضح ليس عليه غبار بل ضروري لأولي الأبصار الذين يفرقون بتوفيق الله بين الليل والنهار، وذلك لبيانهم لهذا المعنى في أحاديثهم في بواطنها وفي ظواهرها الأخبار عنه كثير.

فمنه ما في الكافي عن الباقر عليه السلام (إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ جَمَعَ الله عَزَّ وَجل الأَوَّلِينَ وَ الآخِرِينَ لِفَصْلِ الخِطَابِ دُعِيَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم وَ دُعِيَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام فَيُكْسَى رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم حُلَةً خَضْرَاءَ تُضِيءُ مَا بَيْنَ المَشْرِقِ وَ المَغْرِب وَ يُكْسَى عَلِيٌّ عليه السلام مِثْلَهَا وَ يُكْسَى رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم حُلةً وَرْدِيَّةً يُضِيءُ لَهَا مَا بَيْنَ المَشْرِقِ وَ المَغْرِبِ وَيُكْسَى

عَليٌّ عليه السلام مِثْلهَا ثُمَّ يَصْعَدَانِ عِنْدهَا ثُمَّ يُدْعَى بِنَا فَيُدْفَعُ إِلَيْنَا حِسَابُ النَّاسِ فَنَحْنُ وَ اللهِ نُدْخِلُ أَهْلَ الجَنَّةِ الجَنَّةَ وَ أَهْلَ النَّارِ النَّارَ).

وعن الكاظم عليه السلام (إلينا إياب هَذَا الخَلقِ وَ عَلَيْنَا حِسَابُهُمْ فَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ ذَنْبٍ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ اللهِ عَزَّ وَ جل حَتَمْنَا عَلى اللهِ فِي تَرْكِهِ لنَا فَأَجَابَنَا إِلى ذَلِكَ وَ مَا كَانَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ النَّاسِ اسْتَوْهَبْنَاهُ مِنْهُمْ وَ أَجَابُوا إِلى ذَلِكَ وَ عَوَّضَهُمُ اللهُ عَزَّ وَ جل).

وفي الأمالي (عن أبي عبد الله عليه السلام قال إذا كان يوم القيامة وكلنا الله بحساب شيعتنا ، فما كان لله سألنا الله أن يهبه لنا فهو لهم، و ما كان لنا فهو لهم).

أقول: والأحاديث في هذا المعنى متكثّرة وأنّهم عليهم السلام إليهم يرجع حكم الآخرة كما يرجع حكم الدنيا وقد دل عليه العقل السليم والنقل في الكتاب العزيز ورد في تأويل قوله تعالى (وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ)ما معناه إن الضمير في إليه، للولي والضمير في فاعبده ، لله سبحانه ومعنى ذكر عبادته تعالى بعد ذكر رجوع الأمر كله إلى الولي عليه السلام إن المراد فاعبد الله بهذا الاعتقاد وهذه المعرفة لأن ذلك أفضل عبادة لله تعالى وأشرفها وأحبّها إليه، فإنه جل وعلا يقبلها من العبد الآتي على ما هو عليه.

وروى الفقيه أبو الحسن محمد بن أحمد بن علي بن الحسين بن شاذان في كتابه الذي جمع فيه مائة منقبة وفضيلة لأهل البيت عليهم السلام كلها من طرق العامّة بإسناده إلى الحارث و سعد بن قيس عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال (قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنا واردكم على الحوض و أنت يا علي الساقي و الحسن الرائد و الحسين الآمر و علي بن الحسين الفارط و محمد بن علي الناشر و جعفر بن محمد السائق و موسى بن جعفر محصي المحبين و المبغضين و قامع المنافقين و علي بن موسى مزين المؤمنين و محمد بن علي منزل أهل الجنة درجاتهم و علي بن محمد خطيب شيعته و مزوجهم

الحور العين و الحسن بن علي سراج أهل الجنة يستضيئون به والهادى المهدي شفيعهم يوم القيامة حيث لا يأذن الله إلا لمن يشاء و يرضى).

وبإسناده قال حدثنا محمد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب قال (قال رسول الله ﷺ لعلى بن أبي طالب عليه السلام يا علي أنا نذير أمتي و أنت هاديها و الحسن قائدها و الحسين ساقيها و علي بن الحسين جامعها و محمد بن علي عارفها و جعفر بن محمد كاتبها و موسى بن جعفر محصيها و علي بن موسى معبرها و منجيها و طارد مبغضيها و مدني مؤمنيها و محمد بن علي قائمها و ساقيها و علي بن محمد ساترها و عالمها و الحسن بن علي مناديها و معطيها و القائم الخلف ساقيها و مناشدها إِنَّ فِي ذلِكَ لآياتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ).

أقول : ما دل عليه هذان الخبران وغيرهما مما يوهم اختصاص كلّ واحد منهم عليهم السلام بشيء من أنواع الحساب والمجازاة والأعمال ليس لعدم صلوحه لغيره وعدم احاطته لأن كل واحد منهم يقوم بكل شيء لأنه الهيكل الأعلى والقلب الواسع في قوله تعالى (ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني).

ولكن لما ظهروا في الهياكل المتعددة مع أنهم شيء واحد لا كثرة فيه إلا من جهة تغاير المكان والوقت والجهة والرتبة بنسبة بعضهم إلى بعض وإلاّ ففي الحقيقة كما أن كمهم وكيفهم واحد، كذلك هذه الأربعة بل لو قلت مع كمال التساوي والتعادل أن كمهم وكيفهم أيضاً مختلفان بالنسبة صدقتَ.

فقد روي (عن أبي عبد الله عليه السلام قال قلنا الأئمة بعضهم أعلم من بعض قال نعم و علمهم بالحلال و الحرام و تفسير القرآن واحد) رواها الحسن بن سليمان الحلي في مختصر بصائر سعد بن عبد الله.

فلما ظهروا في الهياكل المتعددة لاختلاف المشخصات في الجملة اقتضت تلك الخصوصيّات ترجيح صفةٍ من صفاته تقتضي الحكمة أغلبيّة ظهوره بها وقد يظهر بغيرها لأن سائر الصفات كلّها تقتضيها تلك الخصوصيات أيضاً، إلاّ أنّ الترجيح لأرجحية بعض المشخصات على بَعْضٍ في الجملة وإلا فكلّها عنده سواء لأن حكمه عليه السلام مع باقيهم عليهم السلام ليس كحكم واحد من الناس مع الباقي لأنّ المشخصات المقتضية فيهم للتعدد ضعيفة جدّاً لشدة الاتحاد بينهم، لأنهم نور واحد وعقلهم واحد ونفسهم واحدة ولهذا لا يقَعُ بينهم اختلاف أصلاً لا في علم ولا اعتقاد ولا حكم ولا قول ولا عمل ولا حال من الأحوال، وإنما يظهرون الاختلاف لحكمةٍ يقصدونها وذلك لشدة وحدتهم كالذات الواحدة هي واحدة وفعلها واحد وإنّما يتعدد الفعل ويختلف باختلاف المتعلقات والآثار بخلاف سائر الناس وكون بعضهم أعلم من بعض لا ينافي اتحاد ذواتهم لأنهم في مقام التساوي شيء واحد والزيادة شيء آخر كالتسعة فإنها عين التسعة التي في العشرة وزيادة الواحد لا توجب تغاير التِسعتَين.

فإذا عرفتَ ما ذكرناه ظهر لك أن المراد من قوله عليه السلام وإياب الخلق إليكم وحسابهم عليكم الإياب إليهم يعني إلى كل واحد وكذلك الحساب لا أن المراد أن الخلق يؤوبون إلى بعض أو بعض الخلق إلى بعض وبعض إلى بعضٍ آخر ولا أن حساب الخلق على بعض منهم أو بعض الخلق على بعض وبعض على بعض آخر وإن آب البعض أو الكل إلى بعض منهم أو حاسب البعض أو الكل بعض منهم لما قلنا في ترجيح بعض الصفات باعتبار المتعلق لأن الواحد منهم عين الكل والبعض نفس البعض الآخر وكل واحد منهم عليهم السلام علّة تامّة لجميع الخلق

إذ لا كثرة فيهم أصلاً لأنهم نور واحد فلو قال كل واحدٍ منهم إياب الخلق إلي وحسابهم علي لكان قوله صدقاً بل حقّاً، ثم إذا قلنا لك إن إياب الخلق إليهم نريد به أن كل فردٍ من جميع من سواهم من جماد ونبات وحيوان متوجّه في سيره إليهم لأنهم باب الله سبحانه وذلك كالأشعة من السراج فإن كل جزءٍ متوجه إلى الشعلة المضيئة التي هي وجه النار الغائبة التي لا تدرك وليس لها تحقّق ولا وجودٌ إلاّ بذلك التوجّه لأن الشعلة التي هي وجه النار الغائبة تمد الأشعة بما به بقاؤها فكذلك سائر الخلق فإنهم عليهم السلام يمدونهم بما به بقاؤهم لأنهم عليهم السلام وجه الله الغائب عن إدراك الأبصار، وكذلك إذا قلنا إن عليهم حسابهم نريد أن كلّ فرد من الخلق من جماد ونبات وحيوان حسابه عليهم لأنه تنقلاتُه في الإياب إليهم حتّى أنّك لتحاسب نفسك عن شي ما أو يحاسُبك مثلك كذلك ولو كشف لك رأيت الذي يحاسُبك الوليّ بإذن الله الخاصّة وهو تأويل قوله تعالى (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسانَ وَ نَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيانِ عَنِ اليَمِينِ وَ عَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ ما يَلفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) وبالجملة فهنا أسرار لا تسعها الدفاتر ولا تكاد تميّزها الخواطر.

قال عليه السلام وفصل الخطاب عندكم وآيات الله لديكم وعزائمه فيكم

قال الشارح رحمه الله وفصل الخطاب عندكم أي الخطاب الذي يفصل به بين الحق والباطل كما كان لأمير المؤمنين صلوات الله عليه في الوقائع والأحكام فإنه كان يحكم في كل واقعة بخلاف حكمه في الأخرى. وروي عنهم أنّ لله تبارك وتعالى في كل واقعة حكماً خاصا بها وسيجيء بعضها ويمكن التعميم بحيث يشمل جميع

المسائل فإنّه كان لهم في كله مسألة دليلا قطعيا يفرق بين الحق والباطل كما يظهر من الأخبار وآيات الله لديكم وهي إما المعجزات التي أعطيت جميع الأنبياء عليهم السلام وغيرها التي كانت بأيديهم ويظهرونها بحسب المصالح أو الآيات القرآنية كما أنزلت مع تفاسّيرها ومحل نزولها وناسخها ومنسوخها وغير ذلك أو الأعم لو لم ندخل الآيات في المعجزات، وإلاّ فكل آية بما فيها من الحقائق الكثيرة تدل على أنها من الله تعالى وعلى صدق من أرسل إليه ومن يبينها وكتب العامّة والخاصّة مشحونة بذكر معجزاتهم مع أن ما وصل إلينا بالنظر إلى ما لم يصل إلينا باعتبار حرق كتبنا كالقطرة بالنظر إلى البحر وكذا ما أظهروه بالنظر إلى ما لم يظهِرُوهُ.

(وعزائمه فيكم) أي الجد والصّبر والصدع بالحقّ أو كنتم تأخذون بالعزائم دون الرّخص أو الواجبات اللازمة غير المرخّص في تركها من الاعتقاد بإمامتهم وعصمتهم ووجوب متابعتهم وموالاتهم بالآيات والأخبار المواترة أو الأقسام التي أقسم الله تعالى بها كالشمس والقمر والضحى بكم أو لكم أو السور العزائم أو آياتها نزلت فيكم أو قبول الواجبات اللاّزمة بمتابعتكم أو الوفا بالمواثيق والعهود الإلهية في متابعتكم انتهى.

أقول : فصل الخطاب الفصل بين اثنين والخطاب توجيه الكلام نحو الغير للإفهام وقد ينقل إلى الكلام الموجّه نحو الغير وقيل فصل الخطاب هو فصل الخصام بتمييز الحق عن الباطل، وقيل الكلام المفصول الّذي لا يشْتَبِهُ على السَامع.

وروي في عيون الأخبار عن الرضا عليه السلام أنّه (معرفة اللغات).

وفي الجوامع عن علي عليه السلام هو قول (البيِّنَةُ عَلى الْمُدَّعِي وَ اليَمِينُ عَلى الْمُدَّعَى

عَليْهِ) وفي الكشاف وقيل للكلام البين فصل بمعنى المفصول كضرب الأمير لأنّهم قالوا كلام ملتبس وفي كلامه لبس والملتبس المختلط فقيل في نقيضه فصل أي مفصول بعضه من بعضٍ فمعنى فصل الخطاب البيّن من الكلام الملخّص الّذي يتبيَّنَهُ من يخاطب به لا يلتبس عليه ومن فصل الخطاب وملخّصه أن لا يخطىء صاحبه مظان الفصل والوصل فلا يقف في كلمة الشهادة على المستثنى منه ولا يتلو قوله (فَوَيْلٌ لِلمُصَلِّينَ) إلاّ موصولاً بما بعده ولا (وَ الله يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ) حتّى يصله بقوله (لا تَعْلَمُونَ) ونحو ذلك، وكذلك مظانّ العطف وتركه والإضمار والإظهار والحذف والتكرار وإن شئت كان الفصل بمعنى الفاصل كالصوم والزور وأردت بفصلِ الخطاب الفاصل من الخطاب الذي يفصل بين الصحيح والفاسد والحق والباطل والصواب والخطاء وهو كلامه في القضايا والحكومات وتدابير الملك والمشورات وعن علي بن أبي طالب عليه السلام هو قوله (البَيِّنَةُ عَلى الْمُدَّعِي وَ اليَمِينُ عَلى الْمُدَّعَى عَليْهِ) وهو من الفصل بين الحقّ والباطل ويدخل فيه قول بعضهم، أمّا بعد لأنه يفتتح إذا تكلم في الأمر الذي له شأن بذكر الله وتحميده فإذا أراد أنْ يخرج إلى الغرض المسوق إليه فصل بينه وبين ذكر الله بقوله أما بعد ويجوز أن يراد بالخطاب القصدُ الذي ليس فيه اختصار مخلّ ولا اشباع مملّ ومنه ما جاء في صفة كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فصْلٌ لا نزْرٌ ولا هذْر انتهى.

أقول: جميع ما نقل في معنى فصل الخطاب صحيح عندي لا ريب فيه لكن له معانٍ ظاهرة ومعان باطنة فالظاهرة كما ذكر من الفصل بين شيئين من الكلام عند الانتقال من الكلام الأوّل إلى الثاني سواء كان بأمّا بعدُ وبعدُ أمْ لا والباطنة على انحاءٍ متعدّدةٍ منها ما روي أنه قال أمير المؤمنين عليه السلام (البَيِّنَةُ عَلى الْمُدَّعِي

وَ اليَمِينُ عَلى المُدَّعَى عَلَيْهِ) فإنّ معناه يفصل بين الحقّ والباطل لأن المعنى على ظاهره أنّ خطاب المدعي للمدّعى عليه بطلب ما يدّعيه وإنكار المدعى عليه لذلك متلازمان على الثبوت والنفي فيفصل هذا الحكم بين هذين المتلازمين وهو خطابُ كُلّ منهما للآخر ، وعلى أنّه معرفة اللغات أنه معرفة المراد منها، إمّا بترجمة اللغة بلغةٍ يفهمُها من يوجه الخطاب إليه من لغته أو غيرها ممّا يفهمها أو معرفة حال ذلك الخطاب وهو ترجمة ذلك الخطاب بخطاب يكون صدقاً بمطابقته للواقع أوْ حقّاً بمطابقة الواقع له سواء كان الواقع واقعياً وجودّياً أو شرعيّاً مثلاً أنّهُ على قول أمير المؤمنين عليه السلام أنَ خطاب المدعي طلب الشيء والمنكر ينفيه وحال الخطاب فيهما الصادق المطابق للواقع الوجودي أو الشّرعي هو ما يقتضي إيراد البيّنة من المدّعي لإثبات طلبه وإيقاع اليمين من المنكر عند عدم بينة المدّعى لنفي دعواه ، والبيّنة المقبولة من المدعي أو اليمين من المنكِرِ ترجمتا تلك الحال والحاكم هو العارف بهذه اللغات فإنْ توفّرت دواعي النور كان الواقعي الوجودي وإلا كان الشرعي ، وعلى أنه فصل الخصام فالمراد به ما هو أعم من الدعاوى فيدخل فيه ما اختُلف فيه أنه حقّ أو باطل كما في قوله تعالى(هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ) والمميّز للحقّ من الباطل بالحجة أو بانقطاع الباطل أو سلطانه أو بظهورّ الحق أو بقتْل القائلين بالباطل جميعاً وأمْثال ذلك هو فصل الخطاب المميّز بين الحق والباطل وكلّ ما كان بهم أو منهم أو عنهم ممّا أشير إلى ذكره في مقام الأبواب بل وما فوقه وما تحته ممّا لهم من أمرٍ ونهي وصنع وتقديرٍ في كُلّ شيء ، فهو من فصل الخطاب الذي عندهم لأنّه قولهم عن الله وبالله أو هو قول الله الحقّ (إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَما هُوَ بِالهَزْلِ) أي أنّه لقول هُوَ فصل الخطاب

فإن كان بلفظٍ من اللفظ المعروف فهو الظاهر المشّار إليه وإن كان بلفظ من اللفظ الذي لم يكن مركّبا من الحروف الهجائية وإنما هو من الحروف الكونيّة على أي نحو كان فهو الباطن.

وقول الشارح رحمه الله فإنه يعني أمير المؤمنين عليه السلام كان يحكم في كل واقعة بخلاف حكمه في الأخرى مدخول لأنه إن أراد بقوله بخلاف مطلق المغايرة أو بعكس الحكم لم يصح معناه، لأنه إن أراد بالأخرى هي الواقعة الأولى من غير اختلاف لم يصحّ مثل ذلك لأن هذا خلاف الصواب كيف وقد روي عنه عليه السلام أنه قال ما معناه لو سألتني عن مسألة وسألتني عنها بعد سنة لم أحكم فيها إلاّ بما حكمتُ فيها أولاَ، وإن اختلفت الواقعتان ولو باختلاف موضوعها أو محمولها أو وقتها أو غير ذلك مما يوجب تغيير متعلق الحكم ولو بشيء ما وجب تغيير الحكم وليس في مثل هذا عظيم أمر يصلح دليلاً لكونه كلامه يفصل به الخطاب لتمييز الخطأ والصّواب وإن كانت جميع أحكامه كذلك لكن لا يقال إنّ كلامه يفصل بين الحق والباطل لأنّ له في كل واقعة حكماً غير حكم الأخرى نعم يقال إن له في كل واقعةٍ حكماً يفصل به بين الحق والباطل لا أن له حكماً فيها مخالفا لحكمه في الأخرى.

وقول الشارح رحمه الله في بيان قوله عليه السلام (وآياتُ الله لديْكم) وكذا في قوله عليه السلام (وعزائمه فيكم) صحيح متين ، وإن كان على ما سلكنا في هذا الشرح يكون ما ذكره ظاهريّاً وهذا يفهم ممّا ذكرناه مراراً ونحن نشير إلى شيء يكون أصلاً لكلامه، وإن كنّا ذكرناه سابقا.

فنقول قوله عليه السلام (وآياتُ الله) يعني بها المعجزات الّتي أجراها على أيْدي أنبيائه عليهم السلام مُصدقَةً لدعواهمْ والّتي لم يظهرها لأحدٍ من الأنبياء وأجراها لهم

وجعلهم يتصرّفون في الوجود كيف شاءوا بل ورد عنهم عليهم السلام (إذا شئنا شاء الله) وذلك من أثر ما أتاهم الله من الاسم الأكبر الذي لا تسعه الأرضُ ولا السماءُ لأنّهُ هو الاسم الذي استوى به (الرَّحْمنُ عَلى العَرْشِ) فصار العرش غيبا فيه، فأعطى ذلك الاسمُ بالله كلّ ذي حقّ حقّه وساق بإذْنه إلى كلّ مخلوُق رزقهُ وهو مقامه الأعلى الذي لا فرق بينه وبينه إلاّ أنه عبدهُ وخلقه وهو علة اقتضاء ذواتهم عند ميلها إلى شيء من الأشياء انفعاله بها شاءت، كيف شاءت وإن كان خارقاً للعادة لأن الجاري على العادة إنّما تسهّل صدوره على النفوس لأنسِها بوقوعه بتوفّر أسبابه والخارق للعادة إنّما استصعبت النفوس صدوره لعدم إمكان أسْبَابه عادةَ فإذا كانت الذاتُ كاملةً بقابليّتها أو بمُتَمّم لاقتضائها سببية ذلك بحيث تكونَ بها فيها تامّةً للعلية الموجبة لصدوره كان وقوع ذلك الشيء من المعتاد ودلّ وقوعه على كمال مُقتضى ذلك كمالاً خارجاً عن أبناء ذلك النوع وعلى أن ذلك لو كان من نفس ذلك المقتضي لما كان من أبناء ذلك النوع لعدم تجويز وقوع مثل ذلك مِنْ شخص من أبناء ذلك النوع فلما وقع من ذلك الشخص أمر خارِق لا يمكنُ وقوعه من مثله من أبناء جنسِه دلّ على أن ذلك ليس من فعله بنفسِه، وإنّما هو من فعل الله سبحانه تصديقاً لذلك الشخص فيما يدعيْه لأنه سبحانه إذا أراد من عباده شيئاً من التكاليف لا بُد من تعريفهم ولا يمكن على مقتضى الحكمة في الخلق إلاّ بواسطة من هو من جنسهم ولولا ذلك الأمر الخارق للعادة لما حصل فرق بين المحق والمبطل ولا يجوز اجراؤه على يد المبطل لأن ذلك تفويت للغرض المطلوب، وذلك الكمال المقتضي لما ذكر لو جاز أن يوضع في محل لا يكون صالحاً له لكانت أفعاله جارية على خلاف الحكمة ويلزم منه بطلان التكاليف والنظام

بل يجب أن يكون المحل مجانساً للحال كما قال تعالى (اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ) فآيات الله التي هي المعجزات أظهرها بِهِمْ لأنبيائه عليهم السلام لتصديقهم في إظهار أمر ولايتهم أو لهم لإعلاء كلمتهم وتأسيس مدائحهم الّتي تُتلى بالسِنَةِ أعمال الخلائق وحركات أجسامهم ونفوسهم وعقولهم بنشر الثناء عليهم فتكون لديهم لأنّها صفاتهم وآثار أفعالهم بل مظاهرهم وصور أفعالهم و أمثالهم وهي آياتهم وصورهم قال علي عليه السلام في بيان معرفته بالنورانية بعد كلام طويل (صار محمد صلى الله عليه وآله وسلم صاحب الجمع و صرت أنا صاحب النشر و صار محمد صلى الله عليه وآله وسلم صاحب الجنة و صرت أنا صاحب النار أقول لها خذي هذا و ذري هذا و صار محمد صلى الله عليه وآله وسلم صاحب الرجعة و صرت أنا صاحب العهدة وأنا صاحب اللوح المحفوظ ألهمني الله عز و جل علم ما فيه نعم يا سلمان ويا جندب و صار محمد يس وَ القُرْآنِ الحَكِيمِ و صار محمد ن وَ القَلمِ و صار محمد طه ما أَنْزَلنا عَليْكَ القُرْآنَ لِتَشْقى و صار محمد صاحب الدلالات وصرت أنا صاحب المعجزات و الآيات و صار محمد خاتم النبيين و صرت أنا خاتم الوصيين و أنا الصراط المستقيم و أنا النبأ العظيم الذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ و لا أحد اختلف إلا في ولايتي) إلى أن قال (يا سلمان و يا جندب قالا لبيك يا أمير المؤمنين قال عليه السلام أنا الذي حملت نوحا في السفينة بأمر ربي و أنا الذي أخرجت يونس من بطن الحوت بإذن ربي و أنا الذي جاوزت بموسى بن عمران البحر بأمر ربي وأنا الذي أخرجتُ إبراهيم من النار بإذْن ربي) إلى أن قال (وأنا عذاب يوم الظلة و أنا المنادي من مكان قريب قد سمعه الثقلان الجن و الإنس و فهمه قوم إني لأسمع كل قوم الجبارين و المنافقين بلغاتهم و أنا الخضر عالم موسى و أنا معلم سليمان بن داود و أنا ذو القرنين) إلى

أن قال(وأنا تكلّمت على لسان عيسى ابن مريم في المهد وأنا آدم وأنا نوح وأنا إبراهيم وأنا موسى وأنا عيسى وأنا محمّد انتقلتُ في الصور كيف أشاء من رآني فقد رآهم ومن رآهم فقد رآني ولو ظهرتُ للناس في صورٍ واحدةٍ لهلك في الناس وقالوا هو لا يزول ولا يتغيّر وإنما أنا عبد من عبيد الله لا تسمونا أربابا وقولوا في فضلنا ما شئتم فإنكم لن تبلغوا من فضلنا كنه ما جعله الله لنا و لا معشار العشر لأنا آيات الله و دلائله و حجج الله و خلفاؤه و أمناؤه و أئمته و وجه الله و عين الله ولسان الله بنا يعذب الله عباده و بنا يثيب و من بين خلقه طهرنا و اختارنا و اصطفانا و لو قال قائل لم و كيف و فيم لكفر و أشرك لأنه لا يسأل عما يفعل و هم يسألون يا سلمان و يا جندب قالا لبيك يا أمير المؤمنين صلوات الله عليك قال عليه السلام من آمن بما قلت و صدق بما بينت و فسرت و شرحت و أوضحت و نورت و برهنت فهو مؤمن ممتحن امتحن الله قلبه للإيمان و شرح صدره للإسلام و هو عارف مستبصر قد انتهى و بلغ و كمل و من شك و عند و جحد و وقف و تحير و ارتاب فهو مقصر و ناصب يا سلمان و يا جندب قالا لبيك يا أمير المؤمنين صلوات الله عليك قال عليه السلام أنا أحيي و أميت بإذن ربي و أنا أنبئكم بما تأكلون و ما تدخرون في بيوتكم بإذن ربي و أنا عالم بضمائر قلوبكم و الأئمة من أولادي عليهم السلام يعلمون و يفعلون هذا إذا أحبوا و أرادوا لأنا كلنا واحد أولنا محمد و آخرنا محمد و أوسطنا محمد و كلنا محمد فلا تفرقوا بيننا ونحن إذا شئنا شاء الله و إذا كرهنا كره الله الويل كل الويل لمن أنكر فضلنا و خصوصيتنا و ما أعطانا الله ربنا لأن من أنكر شيئا مما أعطانا الله فقد أنكر قدرة الله عز و جل) الحديث.

وقول الشارح (أو الآيات القرآنية) لا يريد (بأو) الترديد بل المراد به معنى

العَطْف وكونها عندهم إنّ تفاسيرها المتعددة من ظاهرٍ وظاهرِ ظاهرٍ إلى سبعةٍ ومن باطنٍ وباطنِ باطنٍ إلى سبعةٍ ومن تأويل وباطنٍ ، كذلك وما يراد منها من أمر ونهي ودعاء وترغيب وترهيب وقصص وأمثال وأخبار وحدّ ومطلع وعبارة وإشارة وتلويح وتصريح وإيماء ومجمل ومبين وعام وخاصّ وناسخ ومنسوخ وماضٍ حال ومستقبل، وشيء لشيء وشيء من شيء وشيء إلى شيء وشيء في شيء وشيء بشيء وشيء بدل شيء وحقيقة ومجاز وحقيقة بعد حقيقة ومجاز بعد مجاز ومجاز بعد حقيقة وحقيقة بعد مجاز ومحكم وظاهر ومتشابه ومرجوح ومتساوي وإبهام وإيهام واختبار وتعمية وفتنةٍ ومخادعةٍ ، وغير ذلك مما اشتملت عليه آيات القرآن عندهم لأن القرآن وجه الفعل في إيجاد الأشياء بخلق وجعل وتقديرٍ ، وفي رواية العياشي بإسناده عن حمران بن أعين عن أبي جعفر عليه السلام قال (ظهر القرآن الذين نزل فيهم و بطنه الذين عملوا بمثل أعمالهم) .

أقول : لهذا الحديث الشريف ظاهر وباطن فالظاهر في قوله ظهر القرآن هو أن معناه أن الظاهر حكم النزول كما نزلت (إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنْصابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ فَاجْتَنِبُوهُ لعَلَكُمْ تُفْلِحُونَ) في تحريم هذه الأشياء والباطن فيها أنه سبحانه نهى عن اتّباع رجل أعرابي وثانٍ مثله وثالثٍ ورابع وموالاتهم وحرّمها على كلّ مسلم وعلل ذلك بقوله (إِنَّما يُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَداوَةَ وَ البَغْضاءَ) لمحمد وأهل بيته عليه وعليهم السلام (في الخَمْرِ وَ المَيْسرِ وَ يَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ الله) محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما قال تعالى (ذِكْرًا ⋆ رَّسُولاً) وعن الصلاَةَ ولاية علي عليه السلام (وَإِنَّها لكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلى الخاشِعِينَ) والظاهر في قوله وبطنه الذين عملوا بمثل أعمالهم هو أنه إذا ذكر سبحانه قوم شعيب مثلاً

وأنهم عذّبوا بـ (عَذابُ يَوْمِ الظُّلةِ) لأنهم يبخسوا المكيال يريد بهم من بَخِسَ المكيال من هذه الأمّة وأنهم يعذبون بـ (عَذابُ يَوْمِ الظُّلةِ) بمعنى أنه لا يموت شخص من هذه الأمة كان يبخس في الكيل وهو غير تائب توبة نصوحاً إلا بـ (عَذابُ يَوْمِ الظُّلةِ) وإن لم يشاهده أهل الدنيا لحكم قوله تعالى (إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكادُ أُخْفِيها لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى) هذا ظاهر ما أراد من هذا البطن.

وأمّا باطنه وهو ما يدلّ عليه فهو من معناه ومن دلالاته ما ذكرنا من بعض معاني ألفاظه الأحد والعشرون التفسير الدائرة على أمور ذكرنا منها ستّة وأربعين يعني أنّهم يعملون بمثل قوابلهم أي بنفس قوابلهم لأثر القرآن حيث كانت عنه مقبولاتهم لأنّه وجه الفعل ومقبولاتهم أثره لأنّ الفعل وإن كانت شيئيّة المفعول من شيئيّة إلا أنه لاضمحلاله في ظهور الفاعل به وظهور المفعول به كأنه أمر اعتباري بالنسبة إلى توهّم الأوهام وإلى ما يظهر في لفظ معنى التكوين إذا قال له (كُن فَيَكُونُ) فإن فاعل أمر الفاعل هو المكون لأن ضميرا (كن) يعود إليه وإن كان (كن) أمراً لله تعالى فهو ذو التحقّق والظهور في التكون عند خفاء التكوين لشدّة البساطة والمغايرة لآثاره، فلا تدركه لأنه إنما يظهرُ بها بل لا يكاد يعرف له تحقّق إلاّ بها وإن كان في الواقع لا تحقّقَ لها إلاّ به بل إنّما هي عبارة عن ظهوره فهي تأكيدٌ له كمثل (ضرْباً) فإنّه تأكيدا لـ (ضَرَبَ) فحيثُ كانت علّة مدركيّته صح أن تكون باطنه كأنهُ بدُونها اعتبارِيّ أو أنّ تبيانه لكونها عاملة بمثل أعمالها أو بأعمالها باطن لتبيانه ما ذكر أو لأن كون باطن إرادةِ الأوّلين بالذكر هو إرادةُ مَنْ عَمِل عملهم من هذه الأمّةِ أو أنّ إيجاد هذه الأمّة باطنُ إيجاد الأوّلينَ ممن هو على سننهم أوْ أن ذكرهم باطنُ ذكر الأولين كذلك أو أن المقصود هؤلاء بالذاتِ

وأولئك إنّما قصدوا بالعرض، إمّا لأن هؤلاء المقصودون بالخطاب والإنذار والتبشير وذكر أولئك على جهة التمثيل كما ذكرنا بالعرض أو من جهة أنّ هؤلاء في الخير والشر أصل أولئك وممّا يشير إلى بعض ما ذكرنا ما روى عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام قَال (نَزَل الْقُرْآنُ بِإِيَّاكِ أَعْنِي وَاسْمَعِي يَا جَارَةُ).

وعنه عليه السلام قال (مَا عَاتَبَ الله عَزَّ وَجَل بِه فَهُوَ يَعْنِي بِهِ مَا قَدْ مَضَى فِي الْقُرْآنِ مِثْلُ قَوْلِهِ وَلوْ لا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِليْهِمْ شَيْئاً قَلِيلا عَنَى بِذَلِكَ غَيْرَهُ).

أقول : ورد في هذه الآية أخبار كثيرة بعضها يدلّ على أن المراد به النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبعضها المراد به غيره والكل له وجه وتفصيل ذلك يطول ولكن أشير إلى قليل منه يعرف المراد بالتعريف منه أنه صلى الله عليه وآله وسلم عني بذلك لرفع التهمة عنه بأنه مفترٍ إذ لو كان مفترياً لما تهدّد نفسه وعاتبها وليدل على أنه عبد مأمور أو على فرض المسألة لو لم نجعلك معصوماً لوقع ذلك منك أو لبيان وجه معذوريته فيما يفعل من أوامر الله أو في خصوص أمر الولاية أو فرض ذلك فتنة لمن يتهمه لينطق بما أضمر أو لبيان حكم العبودية عند الربوبيّة، ولهذا نقل في مجمع البيان قيل لما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم (اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً) وما أشبه ذلك ، ومنه أنه لم يعن بذلك وإنما هو من باب إيّاك أعني واسمعي يا جارة كما روي وفي هذا إشكال وهو أن ظاهر هذه الرواية كما تقدم أنه إنّما عاتبَ غيره ممن هو من المذمومين وعلى هذا كيف يصح أنه ثبّته الله لأن ذلك الغير ممن خذله الله حتى تولّى غير ولي الله ويمكن أن يراد بهذا الغير سائر المؤمنين من الممدوحين بل الأنبياء عليهم السلام كما دلّت عليه النصوص وهذا الركون القليل الصادق بمجرد الميل والالتفات لا ينافي العصمة كما دلّت عليه النصوص في ابتلاء الأنبياء

بترددهم أو توقّفهم في الولاية، وبيان هذا التوقف قد أشرنا إليه فيما تقدّم بما لا ينافي العصمة بوجه ما لأنّه في الحقيقة التفاتٌ مجرّد أو تنبّهٌ في التفهّم أو باقتضاء البشريّة أو مطلق القصور كما ورد أنّ العقل ما أكمله الله إلا فيمن يحبّ وهو محمد وأهل بيته ﷺ ومنه أن المعني بذلك هو النبي ﷺ بسبب ما ضُمّ إليه من محبّيهم وشيعتهم كما قيل إنّما نسى آدم عليه السلام حين عهد الله لما في صلبه من الذرّية الّذين شأنهم النسيان أو يقع منهم النسيان وكذلك لمّا رأى ذريّته في الذرّ ورأى ابنه داود عليه السلام قصير العمر عمره أربعون سنة واستقلّه ووهبه من عمره ستين سنة وكُتِبَ عليه كتاب بذلك وشهد عليه فيه جبرائيل وميكائيل، فلما حضرته الوفاة قال قد بقي من عمري ستّون سنة قالوا أنت وهبتها داود فأنكر ذلك وشهد عليه جبرائيل وميكائيل فقبض روحه ملك الموت فإنكارُهُ لما في صلبه من ذرّ المنكرين فلمّا تحمل ﷺ تقصيرات شيعة أهل بيته وفيهم من كاد يركن إلى الذين ظلموا آل محمد حقهم لما فيه من اللطخ لولا أن ثبّته الله فخوطب ﷺ بحالهم لتحمّله عنهم أو عُنوُا بخطابه لانضمامهم إليه كذلك.

وعن الفضيل بن يسار قال (سألت أبا جعفر عن هذه الرواية ما في القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن وما فيه حرف إلاَّ وله حدٌّ ولكل حدٍّ مطلع ما يعني يقوله ظهر وبطن قال ظهره تنزيله وبطنه تأوله منه ما مضى ومنه ما لم يجيء يجري كما تجري الشمس والقمر كما جاء منه وقع قال الله تعالى (وما يعلم تأويله إلاَّ الله والراسخون في العلم).

أقول : البطن الذي هو تأويله منه ما مضى أي وقع تأويله والمراد ما ظهر في هذا العالم من المفعولات والأحكام وما وجد في الاعتقادات كما في تفسير قوله

تعالى (كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ)فإن من باطنه أنّ كلّ شيء ضال باطلٌ دينه إلا وجهه وهو محمد وآله الطاهرون ﷺ وشيعتهم فمعنى الهلاك هلاكُ الدين، أو أنّ المراد منه كلّ شيء ميت أوْ فانٍ إلاّ وجهه تعالى محمد وآله ﷺ فإنّهم باقون إن ماتوا لم يموتوا وإن قُتِلوا لم يُقتلُوا.

ولقد روي في قوله تعالى (لِمَنِ المُلكُ اليَوْمَ لله الواحِدِ القَهَّارِ)ما معناه أنّه إذا نفخ اسرافيل في الصور نفخة الصعق مات كلّ ذي روح وبطلت كل حركة وبقيت الأفلاك ساكنة عاطلة أربعمائة سنة فينادي الجبّار جل جلاله يا أرض أين ساكنوكِ أين المتكبرون أين الجبّارون أين من أكل رزقي وعبد غيري أين الجبّارون أين الذين ادَّعوا معي إلها آخر لمن الملك اليوم فلا يجيبُه أحد فيردّ على نفسه فيقول لله الواحد القهّار وروي (ثم تنطق أرواح أنبيائه و رسله و حججه فيقولون لله الواحِدِ القَهَّارِ) .

وروي عنهم عليهم السلام ما معناه نحن السّائلون ونحن المجيبون وهذا ونحوه مما وجد في الاعتقادات من البطن.

وأمّا مالم يكن بعدُ من الحوادِث والأحكام فمنه ما ينزل محتومه على إمام العصر عليه السلام في ليالي القدر وفي الوقت بعد الوقت وفي الساعة بعد الساعة.

وأمّا ما كان من الاعتقادات فأكثره لم يظهر في أهل الدنيا إلى أن يقوم القائم عليه السلام عجّل الله فرجه لأنّ الناس لا يطيقونه فإذا قام عليه السلام (وَ أَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها)استنارت قلوبهم واحتملوه.

ومنه ما رواه محمد بن مسلم عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث جابلقا وجابرصا إلى أن قال عليه السلام (يتلون كتاب الله كما علمناهم و إن فيما نعلمهم ما لو تلي على الناس لكفروا به و لأنكروه)هـ.

أقول : والحدّ الحكم والمطّلع بتشديد الطّاء وفتح اللام محلّ الاطّلاع من موضع عال يعني مصعدا يصعد إليه من علمهُ. وعنه عليه السلام (إن للقرآن ظهرا و بطنا و لبطنه بطن إلى سبعة أبطن).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام (ما من آية إلا ولها أربعة معانٍ ظاهر وباطن وحدّ ومطلع فالظاهر التلاوة والباطن الفهم والحدّ هو أحكام الحلال والحرام والمطلع هو مراد الله من العبد بها).

ومن طريق العامّة عن الصادق عليه السلام أنه قال (كتاب الله عز وجل على أربعة أشياء على العبارة و الإشارة و اللطائف و الحقائق فالعبارة للعوام و الإشارة للخواص و اللطائف للأولياء و الحقائق للأنبياء عليهم السلام).

والحاصل أنّ كل شيء فبيانه بكل إرادة في القرآن قال الله تعالى (ما كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى وَ لكِنْ تَصْدِيقَ الذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ تَفْصِيل كُلِّ شَيْءٍ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ).

فقول الشارح (فكلّ آية بما فيها من الحقائق الكثيرة...إلخ) يراد منه ما أشرنا إليه وكلّ ذلك عندهم أو المراد بالآيات ما أودعه الله سبحانه في سائر خلقه من الأمثال التي ضربها للخلق ممّا فيه اعتبارهم وتعليمهم وتعريفهم وجميع ما يراد منهم مما نصبها آية مبيّنة مبصرةً في الآفاق وفي أنفس الخلق كما قال تعالى (وَتِلكَ الأمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَ ما يَعْقِلُها إلاَّ العالِمُونَ)(وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْها وَ هُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ)(وَضَرَبْنا لكُمُ الأَمْثال)(سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ)وكل ذلك لديهم إما بمعنى أنهم العالمون الذين يعقلونها ، أو أنّها ضُرِبَتْ لهم ، أو أنها صدرَتْ عنهم أو أنها

آياتهم، أو أنها آيات محامدهم والثناء عليهم أو أنها من صفاتهم وآياتهم أو أنهم المُعرفون بها أو الدالوُن عليها أو المورِدون حياض الانتفاع بها و الذائدون عَنها أو أنّها هُم وكونها لديهم لأن الشيء عند نفسه ما دام هو إياه ويتقوم بنفسه ويمسكه الله به فهو لدى نفسه ما شهدها وإذا فقدها لم يكن لدى نفسه ولو في الوجدان.

وقول الشارح رحمه الله في (وعزائمه فيكم) صحيح مليح ولكن في بعضه إجمال يحتاج إلى تفصيل وفي بعضه تسامح واقتصار والكلام في كل كلمة يطول به المسلك زيادة عما سلكناه فنقتصر في ما ذكر على ما ذكر بقي حرف أغفله كما هي عادته أو مبلغهُ وهو أنه من معاني العزائم هُنَا أحْتامه في الأكوان بماضي مشيئته ونافذ حكمه فيما كان وما يكون مما انطوت عليه خزائن عرشه من الخلق والرزق والموت والحياة بمقتضى أعمالهم الشرعيّة والكونيّه وإلزامه في الأحكام التشريعيّة وهي ما توعّد على تركها بالعقاب لا أنها ما قابل الرخص كما يظهر من عبارة الشارح على بعض وجوهه إذ من الرخص ما يكون عزيمة كالقصر للمسافر بل كلّ رخصة نصّ الله عليها فقد عزم بها إلاّ ما أخرجها بدليل من نصّ في كتاب أو سُنّةٍ أو دليل عقلي قطعي أو إجماع، ولذا روي عن رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم (إِنَّ الله يُحِبُّ أَنْ يُؤْخَذَ بِرُخَصِهِ كَمَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْخَذَ بِعَزَائِمِهِ أو قال بفرائضه فخذوا برُخص الله ولا تشدّدُوا على أَنفسهم أن بني اسرائيل لمّا شدّدوا على أنفسهم شدد الله عليهم).

أقول : والتشديد منهم ترك الرخص ومنه تعالى إيجاب الأخذ بها أو دليل لإيجاب الأخذ بها فالعزيمة الإلزام بالحكم سواء كان للاقتضاء أو الوضع أو بالرخص وسواء كان مطابقا للواقعي الوجودي المتحد أو الواقعي التشريعي المتعدد، وأمّا ما كان مطابقاً للاعتقاد مطلقا أو الراجح أو الظَّنّ أو الشك أو

الوهم أو المرجوح أو الريب أو الوسوسة أوالنجوى أو السفسطة فعلى الظاهر أن العزيمة لا تنزل لاقتضاء شيء منها لأنها على الظاهر لا حقائق لما تَعَلقَت به في الواقع وإن دارت بين ثابت وغيره أما الاعتقاد فإن كان عن علم كان علما وإلا فهو دعوى علم وإن طابق الواقع عن غير علم أو لم يطابق وهو معنى الإطلاق في عبارتنا فلا متعلق لها ظاهراً.

وأما الراجح والظن فإن كان ممن له الاستيضاح فهما علم لا أنهما ظاهر أو ظن قائمان مقام العلم على ما حقّقناه في (الفوائد) التي كتبناها في أصول الفقه وإلاّ فلم يتحقّق متعلقهما تحققا متعيّنا يصلح لإنزال العزيمة والفرق بينهما مع اشتراكهما في الرجحان، أن الراجح هو ما تظهر إمارات تحققه في نفسه بنفسه وانتفاء الطرف المقابل له والظن تظهر إمارات تحققه وانتفاء الطرف المقابل له في نفس الظان أو من خارج غير جهة المظنون.

وأما الشك فهو تردد النظر في الطرفين وانتقاله من واحد إلى الآخر قبل استقراره وإن قوى ميله إلى أحدهما دون الآخر ما لم يكن ذلك الميل سبباً لزهده في ذلك لأن مجرد الميل لا يخرجه عن التساوي في الجملة وما هذا شأنه لم يستقر له متعلّق يستقر فيه فلا تقتضي الحكمة إنزال العزيمة في مثل ذلك ولو فسرناه بقول من جعل الشك عدم تحقّق شيء أو نفيه لكان عدم التحقق أولى.

وأما الوهم وهو الطرف المرجوح من الظنّ والمرجوح وهو الطرف المرجوح من الراجح فأولى بعدم التحقق المقتضي لعدم تعلّق العزيمة.

وأما الريب وهو احتمال الطرف المقابل للطرف المتحقّق باستقرار النظر القلبي واطمئنانه عليه ولا تحقق في متعلقه إذا كان الطرف المتحقق عن علمٍ أو

لاحقاً بالعلم كظن المستوضح بأدلّة الحق وترجيحه، ولو كان الطرف المتحقق عن اعتقاد بغير علم أو عن علم وأنس نظره بذلك الريب فهو أوّل مبادیء الشك ولا يزيد في كل أحواله عن الشك وفي الحديث النبوي عنه ﷺ (لاَ تَرْتَابُوا فَتَشُكُّوا وَلاَ تَشُكُّوا فَتَكْفُرُوا).

وأما الوسوسة فهو أن يلتفت النظر إلى الطرف المقابل للحقّ أو إلى ما نُهي عن الالتفات إليه غير مريدٍ للالتفات ولا مُحِبّاً له وإنما ذلك لأنه عود نفسَهُ بالالتفات إلى مثل ذلك من خدع الشيطان بواسطة الغفلة عن ذكر الله تعالى فتبعثُ النفس نظرها إلى ذلك بما تعودته مما علمها الشيطان، وعلامة هذا أنه إذا وقع ذلك منه تضجر وتأوّهَ وتألم لأنه لا يحب وقوعه منه ولهذا قال ﷺ لمن وقع منه ذلك التأوه لأجل ما وقع منه ذلك محض الإيمان ومتعلق هذا أيضا كذلك لا يعزم على المكلّف به لعدم تحقّقه بل قد يعزم عليه باعتقاد عدم تحققه وعدم ضرره ولهذا قال رَسُولُ الله ﷺ (رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي تِسْعَةٌ الخَطَأُ وَالنِّسْيَانُ وَ مَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ وَمَا لاَ يُطِيقُونَ وَمَا لاَ يَعْلمُونَ وَ مَا اضْطُرُّوا إِلَيْهِ وَ الحَسَدُ وَ الطِّيَرَةُ وَ التَّفَكُّرُ فِي الوَسْوَسَةِ فِي الخَلقِ مَا لمْ يَنْطِقْ بِشَفَةٍ).

أقول : قوله ﷺ والتفكر في الوسوسة يريد به ما كان في الله تعالى إذا تفكر فيما لا يجوز عليه تعالى كما تفكر الرجل الذي أتاه ﷺ فقال (يَا رَسُول الله هَلكْتُ فَقَال لهُ عليه السلام أَتَاكَ الخَبِيثُ فَقَال لكَ مَنْ خَلقَكَ فَقُلتَ الله تعالى فَقَال لكَ الله مَنْ خَلقَهُ فَقَال إِي وَ الذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ لكَانَ كَذَا فَقَال رَسُولُ الله ﷺ ذَاكَ وَ الله مَحْضُ الإِيمَانِ قَال ابْنُ أَبِي عُمَيْر فَحَدَّثْتُ بِذَلِكَ عَبْدَ الرَّحْمَن بْنَ الحَجَّاج فَقَال حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام أَنَّ رَسُول الله ﷺ إِنَّمَا عَنَى بِقَوْلِهِ هَذَا وَ الله مَحْضُ الإِيمَانِ خَوْفَهُ أَنْ يَكُونَ قَدْ هَلكَ حَيْثُ عَرَضَ لهُ ذَلِكَ فِي قَلبِهِ) انتهى.

وقوله وفي الخلق إذا ظَنّ خلاف مقتضى الشرع في أحدٍ إذا لم يتكلّم به وكان ذلك أيضا وسوسةً بغير تعمّد وقصدٍ .

وأمّا النجوى فهو أن يذكره الشيطان شيئاً ينافي الحق أو المحبّة في اليقظة أو في النوم وربّما استجرّه إلى ما يناسبه فيذكّره القائل به وربّما قادهُ إلى أنه لو كان القائل كيف كان يكون فيدخل همّاً من ذلك عليه وربّما يكون ذلك الهمّ شاغلاً عن حظه من ذكر الله وربما يكون منشأ للوسوسة، فمثال ما ينافي الحقّ كأن يذكّره ولاية الغير ويستجرّه إلى أن تلك ولاية تدعو إلى النار لمناسبتها لدخول النار ثم يذكّره فلانا الذي تولى ذلك الإمام الضال المضلّ ويقوده إلى أن يفرض نفسه لو كان هو المتولّي فيدخل عليه من ذلك همّا يشغله عن ذكر الله ومما ينافي المحبة مثلا أنه إذا كان يقرأ في قوله (وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ التِي فِي الصُّدُورِ)بسبّب له سببا حتى يمسّ صدره عند قراءة هذه الآية فيذكره أنّ ذلك المس قد يكون سببا لأن يدخل قلبه في إطلاق هذه الآية فيدخل عليه من ذلك حزنا يشغله عن ذكر الله وفي النوم كما يصور له ما ينافي الحق أو محبّته بحيث يحزنه كذلك قال الله تعالى (إِنَّمَا النَّجْوى مِنَ الشَّيْطانِ لِيَحْزُنَ الذِينَ آمَنُوا وَليْسَ بِضارِّهِمْ شَيْئاً إِلاَّ بِإِذْنِ الله وَعَلى الله فَليَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)، يعني بأن يذكر الله كما تقدم سابقاً ويعتقد أَن ذلك لا يضرّه إلا أن يشاء الله فيستريح من ذلك الهم والحزن، فيذهب عنه طائف الشيطان وهذه النجوى بجميع أنواعها لا تحقق لمتعلقها فلا عزيمة فيها والفرق بين النجوى والوسوسة أن النجوى يقدر المكلّف على الخروج عنها ما لم تعتد نفسه بها فتكون من الوسوسة لأنّ الوسوسة بسبب اعتياد النفسي بها لا يكاد يتمكّن من تركها لظهور الشيطان في النفس التي تعودَتْ بذلك حتّى ملك قيادها فهو يأمرها وينهاها فهي تطيعه كارهة لهُ ولطاعته.

وأمَّا السفسطة فهو اعتقاد أنّ كلّ ما يمكن موجود أو يجوز أن يوجد في عالم الأجسام على جهة التمايز ولا تزاحم بين شيء منها بحيث يكون ألف جبلٍ مثلاً كلّ واحدٍ منها طوله خمسة فراسخ وعَرْضُهُ فرسخ قد حلّت كلّها في بيت حيوانٍ أصغر من النملة، فلمّا كانت تلك الجبال الجسمانية في هذه المحل الصغير الجسماني بقي منه مكان يسع أجرام السماوات والأرض ويدخل ذلك الحيوان في بيته ولا يحسّ بشيء من تلك وهي أجسام محسوسة في مكان محسوس وَلاَ شَك أنَّ هذه لا تحققَ لشيءٍ مِنْهَا فلا يَعْزِمُ فيها فهذا الكلام ومثله في هذه الأشياء المذكورة على الظّاهِرِ.

وأما على جهة الباطِنِ فَكُل شيءٍ من هذه الأمُور فلها تحقّقاتٌ لكلّ بنسبته فكما أنّ المعلوم متحقّق كذلك المعتقد (بفتح القافِ) والرّاجح والمظنون والمشكوك والموهوم والمرجوح والمستراب فيه أو به والموسوس فيه والمناجى فيه أو به والمسفسط فيه فإنّ لكل تحقّقاً في محلّه، وكذلك فعل فاعله وكذلك حكم فاعلها معها وحكم فعله لها وحكم ما يترتّب فيها من التكوينات بحسب ملائكتها أو شياطينها وحكم ثوابها أو عقابها أو عدم المؤاخذة بها والتأثر بها وعدمه كمّا وكيفاً في الوجود وشرعه ، وفي الشرع ووجوده فتجري عزائمه سبحانه فيما توفّرت قوابله وأسبابه، منها بما أحب منها وكرِهَ في تمكينها وتكوينها وكلّ ذلك عندهم كما دلت عليه رواية محمد بن سنان وغيرها كما تقدم عن أبي جعفر عليه السلام في قوله (ثم خلق محمدا و عليا و فاطمة عليهم السلام فمكثوا ألف دهر ثم خلق الأشياء و أشهدهم خلقها و أجرى عليها طاعتهم و جعل فيهم ما شاء و فوض أمر الأشياء إليهم في الحكم و التصرف و الإرشاد و الأمر و النهي في الخلق لأنهم الولاة فلهم الأمر و الولاية و الهداية فهم أبوابه و نوابه و حجابه) الحديث.

قال عليه السلام ونوره وبرهانه عندكم وأمره إليكم

قال الشارح رحمه الله ونوره من العلوم والحقائق والهدايات وبرهانه من الدلائل والمعجزات عندكم وأمره من الإمامة وإظهار العلوم إليكم كما روي في الأخبار أن الواجب عليكم أن تسألوا ولم يجب علينا أن نجيبكم كما قال الله تعالى (هذا عَطاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسابٍ)والظاهر أنه في غير الواجبات أو التقية التي خصّهم الله وشيعتهم بها أو يكون من خصائِصهم ولذلك يسمون بأولي الأمر أو يكون المراد بالأمر الفعْل بأن يكونوا نائبين عن الله تبارك وتعالى في الشريعة بحسب ما تقتضيه عقولهم المقدسّة كما يظهر من الأخبار الكثيرة الواردة في التفويض إلى النبي والأئمّة صلوات الله عليهم أو يعم الفعل بالدعوات أو بالتفويض كما يكون للملائكة، ويظهر من الأخبار الكثيرة لكن منع الأصحاب من روايتها والعمل بها لئلا يؤدي إلى القول بألوُهيّتهم كما وقع من بعض الناقصين من الغلاة كما ورد النهي عن النجوم لذلك كما سيجيء انتهى.

أقول : النور قيل هو كيفية ظاهرة بنفسها مظهرة لغيرها وتلك إمّا من ذات الشيء كالشمس أو من غيره كالجدار المستنير بنور الشمس.

والظلمة قال محقّقوا المتكلمين والمشّاؤون من الفلاسفة أنها عدم الضوء عما من شأنه أن يكون مضيئاً فهي تقابل النور تقابل العدم للملكة، وقال قوم إنها كيفيّة الوجودية فهي تقابل النور تقابل التضاد ، وقال ابن أبي جمهور في المجلي وأما أهل الباطن والإشارات فقالوا إن كان في الوجود ما لا يحتاج إلى تعريف وشرح فهو الظاهر الجلي في نفسه المظهر لغيره ولا شيء في الوجود أظهر من

النور فلا شيء أغنى منه عن التعريف، فالنور هو الظهور وذلك إما لذوات قائمة بنفسها كالعقول والنفوس أو هيئات نورانيّة قائمة بالغير روحانياً ، ولمّا كان الوجود بالنسبة إلى العدم كنسبة الظهور إلى الخفاء والنور إلى الظلمة كانت الموجودات من حيث خروجها من العدم إلى الوجود كالخروج من الخفاء إلى الظهور والظلمة إلى النور فيكون الوجود كله نوراً والعدم كله ظلمة والنور والضوء عندهم واحد وينقسم إلى ما هو نور وضوء في نفسه وإلى ما ليس بنورٍ في حقيقة نفسه والأول ينقسم إلى ما هو ليس بهيئةٍ لغيره بل قائما بنفسِه وتسمى بالأنوار المجردة والنور المحض والأنوار الإلهية كالعقول والنفوس وإلى ما يقوم بغيره، ويكون هيئة عارضة له وتسُمّى الأنوار العرضيّة ، وهي ما لا تقوم بذاتها بل تفتقر إلى محل تقوم به سواء كان محلها الأنوار المجردة أو الأجسام وتسمى بالهيئة والنور العارض .

والثاني وهو ما ليس بنور في حقيقة نفسه ينقسم إلى مستغن عن المحل وهو الغاسق أعني الجوهر الجسماني المظلم في ذاته من حيث جسميته فإنه مظلم لا نور فيه و إلى ما هو محتاج إلى المحل فهو هيئة لغيره وهو الهيئة الظلمانية وهي المقولات التسع العرضية فليست الظلمة إلا عدم الضوء والنور على حسب ما هو رأي الإشراقيين من الحكماء وليست الظلمة من الإعدام التي يشترط فيها إمكان الاتصاف بالضوء كما هو رأي المشائيين ومحققي المتكلمين فإنهم قالوا إنها عدم الضوء عن محل يمكن اتصافه بالنور ولهذا لم يكن الهواء عندهم مظلما لامتناع قبوله النور لشفيفه وعند الإشراقيين هو مظلم لأنه ليس بمضيء وتمسك الأولون بالعرف ويكذب ادعاء العرف أن من كان سليم النظر (البصر) وفتح

عينيه في الليلة الظلماء ولم ير شيئا سمى ما عنده ظلمة جدارا كان أو هواء أو غيرهما انتهى .

أقول : ما ذكره الفريقان في حقيقة النور والظلمة مدخول يرد عليهم المنع في كثير مما قالوه نعم يمكن تصحيح ذلك أو بعضه بالبناء على الظاهر ، وأما إذا بني الأمر على ما هو الواقع كما يحكم دليل الحكمة فيتبين الخلل العظيم كقول الأولين الظلمة عدم الضوء بزعمهم أنها ليست شيئا لأنها عدم ، وكيف ذلك والله سبحانه خلقها ، وأما الآخرون القائلون بأنها كيفية وجودية فأصابوا في كونها وجودية وهي كيفية على بعض الوجوه لا في كل حال ، وقول أهل الباطن ولا شيء بالوجود أظهر من النور فيه ، إن الوجود أظهر منه وإذا لم تلحظ الظهور الظاهري الذي عند العوام وإنما تنظر بعين الحقيقة رأيت جميع أفراد الوجود متساوية في الظهور فإن النور كما يظهر بنفسه فالظلمة تظهر بنفسها وكما يظهر النور غيره كذلك تحجبه الظلمة فالفعلان في نفسهما سواء والمظهر والمحجوب كان الوجود فيهما على السواء والإظهار والحجب من غيرهما وليس الإظهار أظهر من الحجب فافهم هذه الدقيقة التي أشرنا إليها على أن الظهور إن أرادوا به كالمنسوب إلى النور عندهم لزمهم أن يكون هذا النور أظهر من خالقه تعالى وتقدس أن يكون شيء أظهر منه حيث قالوا لا شيء في الوجود أظهر من النور.

فإن قالوا هو سبحانه نور بهذا المعنى.

قيل لهم هو ليس ظاهرا لغيره بنفسه لأنا لا نريد بقولنا ظاهر بنفسه عند نفسه ولا عند من فوقه لأن كل شيء بهذا المعنى ظاهر بنفسه يعني عند نفسه وعند من فوقه وإنما نريد بالظاهر بنفسه عند من يساويه أو من هو دونه فإن قيّدوا الوجود

أيضا بالممكن قيل العقول ممكنة وليست ظاهرة بنفسها فإن قالوا المراد تحققه في نفسه قلنا الغاسق المحجوب متحقق في نفسه فإن قيل المراد ظهوره بأثره قلنا يصدق على من تكلم في ظلمة تحجبه عن الرؤية وليس النور والضوء واحد بل الضوء أقوى ولهذا قال تعالى (جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَ الْقَمَرَ نُوراً) والمروي عنهم عليهم السلام أن النور شعاع الضياء والضياء هو المنير وهو البهاء والنور سناء وقولهم إما لذوات قائمة بنفسها كالعقول والنفوس وهو أيضا جار على الظاهر وأما على الحقيقة فليس شيء قائم بنفسه إلا الله سبحانه وما سواه فقائم به قيام صدور وقولهم أو هيئات نورانية... إلخ ، فيه أن كل حادث على الحقيقة ذات لما دونه هيئة لما فوقه فهي ذوات إضافية وهيئات إضافية لاشتراكها في افتقارها إلى ما فوقها وافتقار ما تحتها إليها فكل محدث عرض بالنسبة إلى ما فوقه جوهر بالنسبة إلى ما دونه ، نعم هذا صحيح على الظاهر وقولهم فالوجود كله نور والعدم كله ظلمة إنما يتمشى على الظاهر أيضا وإلا ففي الحقيقة إن أرادوا بالعدم اللاشيء فليس ظلمة بل لا عبارة عنه حقيقة والظلمة شيء مخلوق والعدم محدث فهو من الوجود فالظلمة وجود لا عدم فالأولى لهم أنْ يعرفوا الظلمة بغير العدم وبغير الخفاء إن أرادوا التعريف على الحقيقة، فإنّها لا تعرّف بالعدم وإنما هي تعرف بالنقص وذلك أنّ الأشياء على ثلاثة أقسام قسم تزيد لطيفته من الفيض وخصوصيّته من عناية ربّه تعالى على نفس وجوده وهو الكامل كالسراج فإنه بتماميته لا يحتاج في ظهوره إلى ما يعنيه وبكماله يتمم نقص الغاسق عن الظهور بنفسه كالحجر مثلاً.

وقسم خصوصيته من العناية بقدر وجوده وهو التام كالجمرة مثلاَ فإنها

بتماميّتها لا تحتاج في ظهورها بنفسها إلى ما يعينها، ولكنها لا تتمم غيرها لعدم فاضل خصوصيّتها عن نفس وجودها.

وقسم خصوصيته من العناية أنقص من وجوده كالحجر وهذا القسم يحتاج في ظهوره بنفسه إلى ما يعينه والمظلم من هذا القسم والمنير من القسم الأول والنور والظلمة من القسم الثاني لأنّ هذا القسم وجهه الأعلى إلى المنير فهو منه وهو النور ووجهه الأسفل إلى المظلم فهو منه وهو الظّلمة فكمال النور من المنير ونقص الظلمة من المظلم وكمال المنير لكونه واجداً ونقص المظلم لكونه فاقداً والنور هو ظهور المنير به، يعني أن ظهور المنير هو النور لا أنّ الظهور مغاير للنور لأنه ليس شيئاً إلاّ ظهور المنير للغير لكن المنير لم يظهر بذاته وقيام تلك الصفة بموصوفها قيام صدور لا قيام عروض كما يدل كلامهُم في قولهم وإلى ما يقوم بغيره ويكون هيئة عارضةً له فنور الشمس مثلاً كلمتُها المتّصلة المتابعة فهو الفقير المطلق اللائذ بجناب المنير والسائل الواقف ببابه ووجهه هو المرئيّ من المنير والظلمة نفسه وماهيته من حيث هو هو وخلقه المقابل لوجهه.

فإن قلت قولكم لا تعرف بالعدم وإنّما تعرّف بالنقص متناقض لأن النقص هو عدم شيء ويدل عليه قولكم ونقص المظلم لكونه فاقداً فيصير المعنى تعرّف بالعدم لا تُعرّفُ بالعدم .

قلتُ إن أردتم بالعدم المعنى الوجودي قلتُ به، وإنّما منعته لأنكم تريدون به معنى عدم لا شيء فغيّرت العبارة لإثبات الشيئية ولما كان هذا الشيء المشار إليه لا عبارة له إلاّ عدم أو نقص أو فقدان مثلاً ونفينا العدم الذي هو أظهر في لا شيء بقي أن المراد بالنقص شيء وجودي لأنا لا نريد بالظلمة إلا إنيّة النور وهي

موجودة، وإن كان وجودها مترتبا على وجود النور فهي شيء ولو لم تكن شيئاً لم يكن النور شيئاً فجعلناها نقصاً لأن تحقّقها إنّما هو بالنور وتمامها وشرط وجودها وتمام قابليتها للوُجودِ هو النور فهي نقص النور وهي تمامُها وأثَرُ كَمالِ المنير.

ولما كان النور أثر المنير وصفته وفعله ومن فعله ومنسوباً إليه أطلق على فعل الله تعالى وفضله ونعمه وجميع ما منه تعالى ، والظلمة وإن كانت وجوديّة فهي أيضاً عن فعله وبفعله إلا أنها ليست من فعله ولا منسوبةً إليه لأنّها ماهية أثر فعله وإنيتهُ فلا تطلق على فعل الله تعالى وفضله ونعمه وجميع ما منه، وإنما تنسب إلى ما مِنه بُدئت وهو نفسُهَا قال تعالى (وَعَلى الله قَصْدُ السَّبيلِ وَ مِنْها جائِرٌ) فيقال نور الله ويراد منه فعله وهدايته وفضله ونعمه وعبده المطيع له الداعي إليه ولا يقال ظلمة الله وإن كانت تنسب إلى فعله أيضاً، لكن لمّا كان تأثير فعله على مقتضى القوابل وكانت قوابل النور والخيرات موافقةً لأمره ورضاه لأنها أشباح أمره ورضاه وهياكله نسبت إلى فعله فيقال من فعله وقوابل الظلمة والشرور لمّا كانت مخالفة لأمره ورضاه لأنها أشباح عكوس أوامره ومضاداته وهياكلها وخلاف محبّته لم يَجُز نسبتها إلى فعله فلا يقال من فعله وإنّما يقال بفعله لا منه ولا إليه إلاّ أنّها لا تكون إلاّ عن نفسه (ثُمَّ جَعَلنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً).

وإذا عرفت هذا لم تعترض على ما قدّمناه من أن الظلمة موجودة كالنور وأن الوجود خير كلّه أو أنّها تنسب إلى الفعل كما ينسب النور إليه ولما كان النور موافقاً لأمر الله تعالى ومحبّته ورضاه وإرادته أطلق على كل خير فقيل في قوله تعالى(الله نُورُ السَّماواتِ وَ الأَرْضِ) يعني مدبّر أمرهما بحكمة بالغةٍ أو منوّرهُما بمعنى أن كلّ شيء استضاء به ، والمروي عن الرضا عليه السلام (هاد لأهل السماوات و

الأرض)وروى البرقي (هدى من في السماوات و هدى من في الأرض)وفي قوله تعالى (وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ)قيل من لم يجعل الله له نوراً بتوفيقه ولطفه فهو في ظلمة الباطل لا نور له وعن الصادق عليه السلام (إِمَاماً مِنْ وُلدِ فَاطِمَةَ عليها السلام فَما لَهُ مِنْ نُورٍ)وفي التوحيد في آية النور عن مولينا الصادق عليه السلام (هو مثل ضربه الله لنا)وعنه عليه السلام (اللهُ نُورُ السَّماواتِ وَ الأَرْضِ) قال كذلك الله عز و جل قال قلت مَثَلُ نُورِهِ قال محمد صلى الله عليه وآله وسلم قلت (كَمِشْكاةٍ) قال صدر محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال قلت فِيها مِصْباحٌ قال فيه نور العلم يعني النبوة قلت المِصْباحُ فِي زُجاجَةٍ قال علم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صدر إلى قلب علي عليه السلام قلت كَأَنَّها قال لأي شيء تقرأ كأنها فقلت فكيف جعلت فداك قال كأنه كوكب دري قلت يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَ لا غَرْبِيَّةٍ قال ذلك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام لا يهودي و لا نصراني قلت يَكادُ زَيْتُها يُضِيءُ وَ لولَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ قال يكاد العلم يخرج من فم العالم من آل محمد من قبل أن ينطق به قلت نُورٌ عَلى نُورٍ قال الإمام في إثر الإمام عليه السلام).

وفي الكافي عن الباقر عليه السلام (يَقُولُ أَنَا هَادِي السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضِ مَثَلُ العِلم الذي أَعْطَيْتُهُ وَ هُوَ نُورِيَ الذِي يُهْتَدَى بِهِ مَثَلُ المِشْكَاةِ فِيهَا المِصْبَاحُ فَالمِشْكَاةُ قَلبُ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم وَ المِصْبَاحُ النُّورُ الذي فِيهِ العِلمُ وَ قَوْلُهُ المِصْباحُ فِي زُجاجَةٍ يَقُولُ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَقْبِضَكَ فَاجْعَلِ الذِي عِنْدَكَ عِنْدَ الوَصِيِّ كَمَا يُجْعَلُ المِصْبَاحُ فِي الزُّجَاجَةِ كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ فَأَعْلَمَهُمْ فَضْل الوَصِيِّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ فَأَصْلُ الشَّجَرَةِ المُبارَكَةِ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام وَهُوَ قَوْلُ اللهُ عَزَّ وَ جَل رَحْمَتُ اللهِ وَ بَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ البَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ وَهُوَ قَوْلُ اللهُ عَزَّ وَ جَل إِنَّ اللهَ اصْطَفى آدَمَ وَ نُوحاً وَ آل إِبْرَاهِيمَ وَ آل عِمْرانَ عَلى العالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ وَ اللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ لا شَرْقِيَّةٍ وَ

لا غَرْبِيَّةٍ يَقُولُ لسْتُمْ بِيَهُودٍ فَتُصَلُّوا قِبَلَ المَغْرِبِ وَ لا نَصارَى فَتُصَلُّوا قِبَلَ المَشْرِقِ وَ أَنْتُمْ عَلى مِلةِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام وَ قَدْ قَالَ اللهُ عَزَّ وَ جَل ما كانَ إِبْراهِيمُ يَهُودِيًّا وَ لا نَصْرانِيًّا وَ لكِنْ كانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَ قَوْلُهُ عَزَّ وَ جَل يَكادُ زَيْتُها يُضِيءُ وَ لوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ نُورٌ عَلى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ يَقُولُ مَثَلُ أَوْلادِكُمُ الذِينَ يُولدُونَ مِنْكُمْ كَمَثَلِ الزَّيْتِ الذِي يُعْصَرُ مِنَ الزَّيْتُونِ يَكادُ زَيْتُها يُضِيءُ وَ لوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ نُورٌ عَلى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ يَقُولُ يَكادُونَ أَنْ يَتَكَلمُوا بِالنُّبُوَّةِ وَ لوْ لَمْ يُنْزَل عَليْهِمْ مَلكٌ).

وروى القميّ عن الصادق عليه السلام عن أبيه عليه السلام في هذه الآية (اللهُ نُورُ السَّماواتِ وَ الأَرْضِ) قال (بدأ بنور نفسه تعالى (مَثَلُ نُورِهِ) مثل هداه في قلب المؤمن (كَمِشْكاةٍ فِيها مِصْباحٌ المِصْباحُ) والمشكاة جوف المؤمن والقنديل قلبه والمصباح النور الذي جعله الله في قلبه (يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ) قال الشجرة المؤمن (زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ) قال على سواء الجبل لا غربية أي لا شرق لها ولا شرقية أي لا غرب لها إذا طلعت الشمس طلعت عليها وإذا غربت الشمس غربت عليها (يَكادُ زَيْتُها يُضِيء) يكاد النور الذي جعله الله في قلبه يضيء وإن لم يتكلم (نُورٌ عَلى نُورٍ) فريضة على فريضة وسنة على سنة (يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ) يهدي الله لفرائضه وسننه من يشاء (وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثالَ لِلنَّاسِ) فهذا مثل ضربه الله للمؤمن، قال فالمؤمن يتقلب في خمسة من النور، مدخله نور ومخرجه نور وعلمه نور وكلامه نور ومصيره يوم القيامة إلى الجنة نور، قلت لجعفر بن محمد عليه السلام جعلت فداك يا سيدي إنهم يقولون مثل نور الرب قال سبحان الله ليس لله مثل قال الله فَلا تَضْرِبُوا للهِ الأَمْثال).

(فِي بُيُوتٍ) (أي كمشكاة في بعض بيوت أو توقد في بيوت)يعني ذلك النور المضروب له المثل المذكور في الآية (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ)وتعظّم كما قال تعالى(لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ)فإنه سبحانه أخبر أن تلك البيوت (رِجالٌ لا تُلهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقامِ الصَّلاةِ وَإِيتاءِ الزَّكاةِ)أي قائمون بفرائض الله التي هي ولايتهم وفروعها وسُننه التي هي الموالاة في الله والمعاداة في الله، والمراد بها هنا غير ما هو من الفرائض كموالاة وليهم ومعاداة ولي عدوهم وكونها سُنَناً لكونها تابعة لموالاتهم ومعاداة عدوهم فلا تلهيهم ولاية الأول والثاني ولا شيء من فروعهما عن النبي ﷺ ومتابعته في كل ما جاء به عن الله وهذا ذكر الله ولا عن الوصيّ عليه السلام ولا عن شيء من فروعه وهذا هو إقام الصلاة ولا عن أحد من شيعتهم فيما عرفوا من الحق وقاموا بموجبه بشكر ما آتوا وهو إيتاء الزكاة ولا عن ظواهر هذه البواطن، لأن الظواهر فروع هذه البواطن كما ذكرنا وهذا على قراءة من لم يقف على اسمه ويقف على الآصال كما هو قراءة أهل البيت وقرأ به بعض القرّاء السبعة فإذا كان هذا النور الممثل به في هذه الآية في بيوت وهم الأئمة عليهم السلام كما سمعت كان معنى الظرفيّة على نحو ما ذكرنا في قوله عليه السلام (أن الحق معهم وفيهم) بجميع الاعتبارات فراجع.

والبرهان هو الحجة على نحو ما تقدّم ذكره ويجوز الاتّحاد كما هو في الأصل في الاتحاد والتعدد بالاعتبار ويحتمل بينهما العموم والخصوص المطلق أو من وجهٍ فإذا عرفتَ ما ذكرناه في جميع حروفه ظهر لك أن نور الله وبرهانه على كل معنى تقدمت الإشارة إليه عندهم فإذا عرفتَ هذا فاعلم أنَ بَيْنَ النور والبرهان المشار إليهما وبينهم عليهم السلام النِسَبَ المشار إليها أي الاتّحاد باعتبار والتعدد باعتبار

آخر، ويحتمل باعتبار أن يكون بينهما العموم المطلق أو من وجه والعند المذكور أن أريد منه معنى الظرفية لزمه حكم المتقدم في أن الحق فيهم وإن أريد به معنى القرب المعنوي الذي بمعنى لدي اعتبر في المذكور حكم لدي أي الموافق له من النور والبرهان وإن أريد به الظاهري اعتبر فيه منهما ما يوافق مقامه فالاتحاد في الأول ذاتي والتعدّد والعموم بمعنييه اعتباري وفي الثاني الاتحاد والعموم بمعنييه اعتباري والتعدد ذاتي وفي الثالث الاتّحاد والعموم والتعدد كالثاني في الجملة لأن هذه الاعتبارات المذكورة فيها تسامُحٌ وإجمال لئلا يؤدي إلى الملال.

وقوله عليه السلام (وَأَمْرُه إليكم) يراد منه عند الإطلاق الشأن، والشأن يستعمل في أشياء مُتعددةٍ أَعْظَمُهَا قدراً وسعةً وقرْباً وشمولاً الولاية وليس وراء عبّادانِ قَرْيَة لاشتمالها على جميع جهات مشية الله وما ترتبطُ به ممّا دخل في الإمكان مما قضى وأمضى أو قضى ولم يمض واختُرم أو قدر ولم يقضَ أَوْ أُريدَ ولم يقدَّر أو كُونَ ولم يُرَدْ أَوْ أَمْكَنهُ سُبْحَانه ولم يُكونْهُ وَهُوَ مجموع شؤون المعبود جلّ وعَلاَ فيما سِوَاهُ قال تعالى (هُنالِكَ الوَلايَةُ لله الحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَواباً وَخَيْرٌ عُقْباً) وهذه الولاية المذكورة في هذه الآية الشريفة على تفسير الظاهر صعبة الإدراك لا يعرف المراد إلاّ المؤمن الممتحن الذي هو أقلّ من الغراب الأعصم وأعزُّ من الكبريت الأحمر وذلك لأن الأفهام إنّما تتوجهُ إلى حقّ بَحْتٍ وعلى هذا لا يحسن هنالك لاقتضائها المغايرة بين الولي والولاية والمغايرة مُنْتَفِيَةٌ في رتبة الذّاتِ البحتِ، وَعَلى التّفسير الباطن يهون الخطب على الأفهام لأجل تقدير المضاف أي لوليّ الله الحقّ فإن جعل الحق صفة للولي أريد منه الحق المخلوق على الوجوه المتقدمة في شرح قوله عليه السلام (وَالحَقُّ مَعَكُمْ وَ فِيكُمْ ... إلخ).

وإن جعل صفةً لله كان ظاهراً على الحقيقة إلاّ أن فيه إشعارا أنّ ولاية الولي من الحق الذي هو أعلم حيثُ يجعل ولايته فإنّه تعالى لا يجعلُها عند من يقع منه باطل قطّ لا قليل ولا كثير وإنّما هو الحقُّ من الله الحق وهو قوله تعالى (وَهُوَ الحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ)أي أنّ الولاية هي ظهور الولي الحق سبحانه وتعالى لخلقه بما لهم وعليهم في كل شيء وهو قوله تعالى(الرَّحْمنُ عَلى العَرْشِ اسْتَوى)ومحلها الذي يسعها قلبُ محمّدٍ ﷺ كما قال تعالى (ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلبُ عبدي المؤمن) وقلب الولي من قلب النبي ﷺ كَالضَّوْءِ مِنَ الضَّوْءِ وإلى هذا أشار ﷺ بقوله (أُعطيتُ لواء الحمد وعليّ حامله) وقلبه هو العرش الذي تجلّى عليه واستَوى برحمانيته.

وأما على تفسير باطن الباطن فهو سهل جداً بعدما يعرف ذلك لأن الولاية معنى إضافي فلا يعقل إلاّ في الخلق وذلك كله في قوله تعالى (وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَ تَوَكَّل عَلَيْهِ)أي فاعبد الله بإقامة ولاية الولي عليه السلام وهي القيام بجميع ما يريد الله سبحانه من المكلّف وتوكل على ولاية الولي عليه السلام بمعنى الاعتماد على وعدِ الله لمن قام بولاية الوليّ عليه السلام بالنجاح والفلاح لأنّها كما قال ﷺ (حب علي حسنة لا تضر معها سيئة و بغض علي سيئة لا تنفع معها حسنة) وقال تعالى (أقسم بعزّتي وجلالي أني أُدخِل الجنّة من أحبَّ علِيّاً وإن عصاني وأنّي أُدخِل النار من أبغض عليا وإن أطاعني).

ومعنى الحديث الأول أنّ من مات على حبّه دخل الجنّة لأنه مات شهيدا كما قال سيدنا الباقر عليه السلام في تفسير قوله تعالى(وَ لَئِنْ قُتِلتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَ رَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ وَ لَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلتُمْ لإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ) والشهادة

تكفّر كلّ ما سبقها من السّيئات) ومعنى الثاني أنّ من أحبّ علياً فقد أتى الله تعالى بأكبر طاعاته عنده فإذا عصاه كان عاصياً فيما لا يعدل تلك الطاعة فهو (فَمَنْ ثَقُلتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ) ومن أبغض عليا فقد أتى الله تعالى بأكبر معاصيه عنده فإذا أطاعه فيما سواها لم تعدل تلك المعصية وهو حينئذٍ ممن قال الله تعالى (وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ)فإذا عرفت هذا ظهر لك معنى رجوع الأمر كلّه إلى الله سبحانه فمن أحبَّ علياً لله تعالى نجى ومن أحبّه لغير الله ولو لعلي نفسه من غير ما يرجُعها لله هلك كما في محبّة الغلاة وإن جعلت ضمير (إليه) يعود إلى الوليّ صح ذلك بشرط التقييد فإن الله سبحانه حيث خلق الأشياء فوّض أمر خلقه إلى وليه على خلقه، وحيث فوّض ذلك إلى وليه لم يرفع يده سبحانه عن شيء من ذلك بل هي ووليّه عليها في قبضته يتصرف فيها كيف شاء ويتصرّف فيها الوليّ كيف شاء الله سبحانه (لا يَسْبِقُونَهُ بِالقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ)الآيات ، فالله هو الوليُّ ثُمَّ منْ دُونه بإذنه وليّه عليه السلام فالوليّ وولايته قائمان بمددِ الله كقيام الصورة في المِرآة بالشّاخص وهذا هو سر قوله عليه السلام (وأمره إليكم) أي أمرهُ الذي لا يشاركه فيه غيره في كل حال إليكم أي تعملون فيه بأمره ولو جاز استقلالهم به ولو كان قيامهم به بإذن الله جاز استغناؤه عن الأمر الحق سبحانه وهو باطل لأن الخلق لا يستغني عن الحق، ولأنّه لو كان كذلك لم يكن أمرا له بل هو أمرهم وتسقط حينئذٍ فائدة إليكم هذا كله وأمثاله إذا أريد بالأمر الولاية ولو أريد به شيء ممّا يتفرع عنها كالأمر الذي هو ضدّ النهي دخل في المعنى الأوّل الكلّي بالطريق الأولى ، وكذلك كل معنى حق يطلق عليه لفظ الأمر فإنه من فروع الولاية وهو راجع إليهم بإذن الله رجوع

الصفة إلى الموصوف والفعل إلى الفاعل بل إنهم العضد في إيجاده والله سبحانه إنما أقامه بهم وهذا حكم جار في كل شيء من الحقّ وأما الأمر الباطل فكلّ شيء منه ليس منهم ولا إليهم وإن كان إنما يوجد بخلاف ما هم عليه وإليه الإشارة بقوله تعالى (باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ) وهو الأمر الحق (وَ ظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ العَذابُ) وهو الأمر الباطل.

وقول الشارح رحمه الله أو يكون المراد بالأمر الفعل بأن يكونوا نائبين عن الله تبارك وتعالى في الشريعة بحسب ما تقتضيه عقولهم المقدسة ...إلخ) قول ليس بمستقيم على ظاهره لأن من تدبر كلامهم وَوُفقَ لفهمه عرف بعقله وبالكتاب والسنة أنّ المراد بالأمر الفعل وأنه ليس المراد منه الفعل الخاصّ بالشريعة بل بها وبسائر الأفاعيل وأنّهم ليسوا نائبين عنه لأن النيابة تقتضي عزله عن ملكه تعالى عن ذلك علوا كبيراً، وإنّما المراد بذلك أنه سبحانه يفعل بهم ما شاء لا أنّهم نوّابه في الفعل بل هو الفاعل وحده لا شريك له في فعله وإنما هم محالّ فعله وأعضاد خلقه (لا يَسْبِقُونَهُ بِالقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ) على حدّ ما ذكر في حكم الإماتة فإنه قال تعالى (الذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ المَلائِكَةُ)وقال تعالى(قُل يَتَوَفَّاكُمْ مَلكُ المَوْتِ الذِي وُكِّل بِكُمْ)فظهر أن الملائكة يفعلون بإذن ملك الموت وله القيوميّة عليهم في جميع أفعالهم وقال تعالى (الله يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها)فحين أخبر تعالى بأنّ ملك الموت موكّل دلّ ذلك على أنَ مَنْ دونَهُ من الملائكة أعوانه وأتباعه وأنه سبْحانَهُ هو الفاعل لا يشركه في فعله أحدا كما يشعر به قول الله جل جلاله (الله يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ) إذ لم يقل يتوفَّى الله الأنفس لأنه لّما كان ملك الموت موكّلاً من الله على تَوَفي الأنفس والله هو الذي يتوفى الأنفس، دلّ على نفي النيابة وتفرّده بتوفّي

الأنفس إذ لو ثبت نائب عنه في ذلك لم يكن يفعل شيئا لأن الفاعل هو النائب وإلاّ لم يكن نائباً فتفسير الفعل عنه بأن يكونوا نائبين ليس بصحيح إلا أن يريد المجاز وهو لا يقتضي الألوهية وقولهُ بحسب عقولهم فيه أن الظاهر من مراده أنهم فوّض إليهم الأمر فوضعوا الأحكام على حسب ما تدركه عقولهم وهذا ليس بصحيح لا لأن عقولهم لا تبلغ مدارك الأحكام ومقتضيات موضوعاتها لأن مدارك الأحكام وتلك المقتضيات إنّما هي شؤون عقولهم وصفات أفعالهم وأحكامها بل لأن ذلك يستلزم عزل الحقّ عن الخلق المقتضي للألوهيّة وإنما جعِل إليهم ما فعلوه بإذن الله تعالى لوجوه.

الأول أنّهم محالّ مشية الله فما صدر عنهم فهو عن الله وبمشيّة الله قال تعالى (وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لكِنَّ الله رَمى).

الثاني إنّهم بعد أن غمسهم في أنوار فيوضاته القدسية استولت الأنوار على ذواتهم فمحقَت إنياتهم فلم يصدر عنهم شيء إلا ما صدر عن الله لأنّهم في كلّ حالٍ من أحوالهم لم يكن لهم اعتبار من أنفسهم إلا بقدر ما بقي من صافي إنياتهم مما يمسك وجوداتهم عن التلاشي فهم الذين (لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَيْل وَ النَّهارَ لا يَفْتُرُونَ) كما تقدم فليس يصدر عنهم شيء إلا بما شاء أوبمشيّة ما شاء يعني في الحقيقة بما شاء وفي الصورة بمشية ما شاء.

الثالث أن الله سبحانه خلقهم على هيئة إرادته وهيكل وحدته وصورة كينونته ولهذا قال علي عليه السلام (أنا الذي لا يقع عليه اسم ولا صفة) وقال عليه السلام (ظاهري إمامةٌ وباطني غيبٌ لا يدرك) والهيئة والهيكل والصوّرة المراد منها واحد وهو المعبّر عنه في لسان الشارع عليه السلام بالطّينة الّتي تجري الأفعال وتقع الأعمال على وفق مقتضاها

فإذا كانت ماهيّتهم هيئة الإرادة وَوُجُودهم نور المشيّة جَرتْ أفعالهم وأقوالهم على ما يوافق مراد الله وهو سبحانه يقول (الله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ).

الرابع أن حقائقهُمْ هي تراجمة مشيّة الله فأفعالهم معنى مشية الله أما في الوجود التشريعي فظاهر وأما في الوُجُودِ التكويني فلما تقرر من أنّ العلّة الفاعلية يتوقف ظهور تأثيرها على العلة المادّية والصوريّة والغائيّة وقد تقدم أنّهم عليهم السلام هم العلل الثلاث لجميع الخلق بل الرابعة باعتبار توقّف الظهور عليهم أو أنهم بهم التمكين الذي هو علة القابليات وهو وجه العلة الفاعلية فلهذا قال علي عليه السلام في خطبته عليه السلام يوم الغدير والجمعة في ذكر خلقهم عليهم السلام قال (فجعلهم ألسنة إرادته)، ففعلهم فعل الله أظهره عنهم وكلامهم كلام الله تكلم بهم وهكذا.

الخامس أنه سبحانه فرّغهم له عز وجل فأخلا أفئدتهم وجميع مشاعرهم مما سواه ثُمّ ملأ ما فرغ له من أفعاله وأوامره ونواهيه فجعلهم خزائن علمه وغيبه وحكمه واقتداره وحفظهم له وسددهم وعصمهم عما ليس له فأمرهم ففعلوا بأمره وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ وهو قوله لنبيّه صلى الله عليه وآله وسلم (لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ الله وَ لا تَكُنْ لِلخائِنِينَ خَصِيماً) فقوله بِما أَراكَ الله يريد به بما أعطاه الله من الفهم في كتابه وهو وإن كان رأيه صلى الله عليه وآله وسلم إلاّ أنه الرأي الذي أوحى به إليه فإنّه مجمل كلّي محفوف بالعصمة والتسديد من الله تعالى ، ولهذا قال تعالى بِما (أَراكَ الله) ولم يقل بما ترى وإن كان المقصود منه هذا لكن لما كان رأيه صلى الله عليه وآله وسلم ليس منه ولا مستنداً إلى خصوص نفسه بل هو من الله مستندا إلى نفسه بإذن الله قال بِما أَراكَ الله وفي الكافي عن الصادق عليه السلام في هذه الآية (وَالله مَا فَوَّضَ الله إِلى أَحَدٍ مِنْ خَلقِهِ إلا إِلى رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم وَإِلى الأَئِمَّةِ عليهم السلام قَال عَزَّ وَجَل(إِنَّا أَنْزَلنا إِلَيْكَ الكِتابَ بِالحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ الله) وَهِيَ جارِيَةٌ فِي الأَوْصِياءِ عليهم السلام).

وفي الاحتجاج عنه عليه السلام أنه قال لأبي حنيفة (وتزعم أنك صاحب رأي وكان الرأي من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صوابا ومن دونه خطأ لأن الله تعالى قال لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللهُ ولم يقل ذلك لغيره).

أقول إنّما كان رأيه صلى الله عليه وآله وسلم ورأي أوصيائه عليهم السلام صوابا لما قلنا من أنهم إذا فعلوا إنّما فعل الله تعالى عنهم أو بهم ولا فعل لهم من نحو ذاتهم إلاّ على نحو ما قررنا فافهم.

وأما من ردّ الأخبار الواردة بهذا التفويض مع كثرتها وعدم قبول أكثرها للتأويل إلاّ على نحو ما قررنا حذراً من أن يلزم القول بألوهيّتهم عليهم السلام فدعواه صحيحة على ما فهم من التفويض المستلزم لعزل الحق تعالى عن ملكه وفهمه للأخبار ليس بصحيح فالذي عليه أن يقف وينفي عنهم الربوبيّة ولا يردّ الأخبار مع كثرتها وشهرتها وصراحتها بل يقول هم أعلم بما قالوا لئلاّ يكون من أهل هذه الآية (بَل كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلمِهِ).

مع أنّ كلامنا هذا إذا فهِمته فتح لك الأبواب المقفلة وكشف لك عن الأسرارِ المعضلة فافهمه راشداً.

قال عليه السلام من والاكم فقد والى الله ومن عاداكم فقد عادى الله
ومن أحبكم فقد أحبَّ الله ومن أبغضكم فقد أبغض الله
ومن اعتصم بكم فقد اعتصم بالله.

قال الشارح مَنْ والاكم فقد والى الله لأن الله تعالى أمر بموالاتكم ومحبّتكم وقرنكم بنفسه في آيات كثيرة أوْ أنهم لمّا اتّصفوا بصفات الله وتخلّقوا بأخلاق الله صارُوا كأنهم هو كما قال الله تعالى (إِنَّ الذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللهَ)(وَ ما ظَلمُونا)أي أولياءنا (وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ).

ولقوله ﷺ (من رآني فقد رأى الحق).

ولقوله ﷺ متواترا (حرب علي حرب الله).

ولقوله ﷺ (فاطمة بضعة مني من آذاها فقد آذاني و من آذاني فقد آذى الله). إلى غير ذلك من الآيات والأخبار وكذلك البواقي من العداوة والمحبة والاعتصام انتهى.

أقول قوله(لأن الله تعالى أمر بموالاتكم ومحبّتكم وقرنكم بنفسه) أما في أمر فلأن من والاهم فقد امتثل أمر الله ومن امتثل أمر الله فقد والاه لأنه إذا لم يمتثل أمره فقد عاداه وأما في قرن فلأنه تعالى ساوى بينهم وبينه في تكليف خلقه بالطّاعة له ولهم كما أشار إليه الحجة في دعاء شهر رجب (لا فرق بينك وبينها إلاّ أنهم عبادك وخلقك)ومن المراد من ذلك من والاهم فقد والى الله ومن عاداهم فقد عادى الله ومن أطاعهم فقد أطاع الله ومن عصاهم فقد عصى الله فلا فرق بينهم وبينه في هذا ونحوه لا في الذات ولا في الصفات ولا في الأفعال ولا في العبادة ولهذا قال (إلاّ أنهم عبادك وخلقك).

وفي الكافي والتوحيد عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى (فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَقَال إِنَّ الله عَزَّ وَ جَل لا يَأْسَفُ كَأَسَفِنَا وَ لكِنَّهُ خلقَ أَوْلِيَاءَ لِنَفْسِهِ يَأْسَفُونَ وَ يَرْضَوْنَ وَ هُمْ مَخْلُوقُونَ مَرْبُوبُونَ فَجَعَل رِضَاهُمْ رِضَا نَفْسِهِ وَ سَخَطَهُمْ سَخَط نَفْسِهِ لِأَنَّهُ جَعَلهُمُ الدُّعَاةَ إِلَيْهِ وَ الأَدِلاَّءَ عَليْهِ فَلِذَلِكَ صَارُوا كَذَلِكَ وَ لَيْسَ أَنَّ ذَلِكَ يَصِلُ إِلَى الله كَمَا يَصِلُ إِلَى خَلقِهِ لكِنْ هَذَا مَعْنَى مَا قَال مِنْ ذَلِكَ وَ قَدْ قَال مَنْ أَهَانَ لِي وَلِيّاً فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ وَ دَعَانِي إِلَيْهَا وَ قَال مَنْ يُطِعِ الرَّسُول فَقَدْ أَطَاعَ الله وَ قَال إِنَّ الذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ الله يَدُ الله فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَكُلُّ هَذَا وَ شِبْهُهُ

عَلى مَا ذَكَرْتُ لكَ وَ هَكَذَا الرِّضَا وَ الغَضَبُ وَ غَيْرُهُمَا مِنَ الأَشْيَاءِ مِمَّا يُشَاكِلُ ذَلِكَ وَ لوْ كَانَ يَصِلُ إلى اللهِ الأَسَفُ وَ الضَّجَرُ وَ هُوَ الذِي خَلقَهُمَا وَ أَنْشَأَهُمَا لجَازَ لِقَائِلِ هَذَا أَنْ يَقُول إنَّ الخَالِقَ يَبِيدُ يَوْماً مَا لِأَنَّهُ إذَا دَخَلهُ الغَضَبُ وَ الضَّجَرُ دَخَلهُ التَّغْيِيرُ وَ إذَا دَخَلهُ التَّغْيِيرُ لمْ يُؤْمَنْ عَليْهِ الإِبَادَةُ ثُمَّ لمْ يُعْرَفِ المُكَوِّنُ مِنَ المُكَوَّنِ وَ لا القَادِرُ مِنَ المَقْدُورِ عَليْهِ وَ لا الخَالِقُ مِنَ المَخْلُوقِ تَعَالى اللهُ عَنْ هَذَا القَوْلِ عُلُوّاً كَبِيراً بَل هُوَ الخَالِقُ لِلأَشْيَاءِ لا لِحَاجَةٍ فَإِذَا كَانَ لا لِحَاجَةٍ اسْتَحَال الحَدُّ وَ الكَيْفُ فِيهِ فَافْهَمْ إنْ شَاءَ اللهُ تَعَالى).

أقول : قوله أو أنهم اتصَفُوا بصفات الله وتخلّقوا بأخلاق الله صاروا كأنّهم هو الخ، فيه شيئان.

أحدهما أن المراد منه هو معنى قرنكم بنفسه فجعله مُغائراً له لا معنى له.

الثاني قوله (صاروا كأنهم هو) لا يصحّ لأن تشبيههم به باطل ممنوع من استعماله واعتقاده حرام باطل وذلك لأنّه إن أراد منه أنهم عليهم السلام كأنهم ذاتُه البَحْت وقع التشبيهُ الممنوع منه، وإنْ أراد منه كأنهم معاني أفعاله ومثله بضم الميم والثاء المثلثة مثل قائم وقاعد من زيد أو معانيه المغايرة لذاته البحت كالعلم والحكم والقدرة والأمر وما أشبه ذلك فهم ذلك المراد وللمغايرة كما هو ظاهر مراده فالأولى أن يقول ولأنهم لمّا اتصفوا ...إلخ، ليكون من قوله وقرنكم بنفسه لا قسيماً ولا يقول كأنهم هو بل يقول فهم هو وهم غيره كما قال الصادق عليه السلام (لنا مع الله حالات نحن فيها هو وهو نحن ونحن نحن وهو هو) وقول الحجة عليه السلام في دُعاء شهر رجب (لافرق بينك وبينها إلا أنهم عبادك وخلقك)، فإن أراد بقوله كأنهم هو هذا المعنى صح المعنى لكنه غير مستعمل عند أهل الشّرع لما يظهر من فساد

ظاهره المتضمن للتشبيه ، وأمّا توهم حصول المغايرة من قوله (قرنكم) وقوله (لمّا اتصفوا بصفات الله...إلخ) ، فمردود لأنه سبحانه إنما قرنهم لجهةِ الجامعية التي هي علة الاقتران وهو اتصافهم بصفات الله فإنهم لما اتّصفوا بصفات الله كما اتّصفت الحديدة المحمية في النار، فإنّها لما قاربت النار ظهرت صفتها فيها حتى كانت تفعل فعلها ولا فعل للحديدة وإنما الفِعل للنار فإن تأثيرها بصفتها ظهر على الحديدة والحديدة حافظة للصفة ومحلّ لها فأثرت بواسطة الحديدة الحافظة ظهر فعل الله فيهم بواسطة الصفة ففعل الله بفعله بواسطتهم لأنّهم محالّ المشيّة ولا فِعْل لهم،وإنما الفِعْل لله تعالى بفعله وهم حافظون للفعلِ المؤثر كما حَفِظت الحديدة لحرارة النار التي هي فعلها والصفة ظهرت فيهم كما ظهرت صفة النّار في الحديدة ولهذا نسَب فعلهم إليه على الحقيقة قال تعالى(وَ ما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لكِنَّ الله رَمى). فهذا علّة قرنهِ إيّاهم بنفسه وهذا بدعوة رسول الله ﷺ يوم الغدير وغيره في هذا العالم وفي كلّ عالم مِنْ مراتبِ الوجُود فإنه ﷺ قال يوم الغدير (ألست أولى بكم من أنفسكم قالوا بلى قال فمن كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه و عاد من عاداه و انصر من نصره و اخذل من خذله). وقد تواتر هذا الحديث معنىً عند جميع المسلمين أما عندنا معاشر الشيعة فهو أشهر من أن يذكر وأظهر من أن يسطر إذ لا يختلف فيه اثنان بل لا يجهله أحد وأما عند غيرنا من العامة فقد نقله علماؤهم نقلاً متواتراً واعترفوا بتواتره وصحّته وممن ذكر ذلك منهم محمد بن يحيى بن مهران في شرحه للقصيدة الموسومة بالقصص الحقّ في مدح خير الخلق ﷺ لشرف الدين يحيى بن شمس الدين قال في شرح قوله:

لا سيّما عـــنـــد قرب الحادثِ الجَلِل

المُـريـع للديـن والإسلام بـاديــه

من مثل مـا كـان في حـج الوداع وفي

يوم الغدير الذي أمـسى ينبيــــه

أبـان في نصـه مَــن كان خـالِقــنُــا

لـه يـوالي ومـن هـذا يُــعــــاديـهِ

وهو الحديث اليقينُ الكونِ قد قطعت

بكونه فـرقــةٌ كانـت تُـوَهّـــيــــهِ

قال وأما حديث يوم الغدير فهو من الأحاديث المتواترة عن النبي ﷺ وقد روي من طرق كثيرة عن خلق كثير من الصحابة رضي الله عنهم بعضها روايات أهل البيت عليهم السلام وبعضها رواياتُ غيرهم من علماء الحديث وفي بعض الروايات زياداتٌ وما ينكره إلا مكابر مباهِتٌ فمن روايات أهل البيت وشيعتهم ما رووه بالإسناد عن البراء بن عازب (لما أقبلنا مع رسول الله ﷺ في حجة الوداع كنا بغدير خم فنادى إن الصلاة جامعة و كسح للنبي ﷺ تحت شجرتين فأخذ بيد علي عليه السلام فقال أ لست أولى بالمؤمنين من أنفسهم قالوا بلى يا رسول الله فقال أ و لست أولى من كل مؤمن بنفسه قالوا بلى قال هذا مولى من أنا مولاه اللهم وال من والاه و عاد من عاداه فقال فلقيه عمر بن الخطاب فقال له هنيئا لك يا ابن أبي طالب أصبحت مولى كل مؤمن ومؤمنة).

ورووا بالإسناد إلى زيد بن أرقمّ قال نزل رسولُ الله ﷺ بين مكة والمدينة عن سمرات خمس دوحاتٍ عظام فقام تحتهنّ وأناخ ﷺ عشيّة فصلّى ثم قام خطيباً

فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ما شاء الله أن يقول ثم قال أيها الناس إني تارك فيكم أمرين لن تضلوا ما اتّبعتموهما القرآن وأهل بيتي عترتي ثم قال تعلمون أنّي أولى بالمؤمنين من أنفسهم قالوا نعم فقال رسول الله ﷺ من كنتُ مولاه فإنّ علياً مولاه فقال رجل من القوم ما يألوا أن يرفع ابن عمه).

وروى بعضهم من طريق الحاكم أبي سعد المحسّن بن كرامة (فقام رسول الله ﷺ خطيباً بغدير خم وأخذ بيد عليّ عليه السلام فرفعها حتى رأى بعضهم بياض إبطيه ثم قال ألستُ أولى بكم من أنفسكم قالوا اللهمّ نعم فقال من كنتُ مولاه فهذا عليّ مولاه اللهم والِ من والاهُ وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذُل من خذله فقام عمر فقال بخ بخ يا ابن أبي طالب عليه السلام أصبحتَ مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة) قال الحاكم أبو سعد وحديث الموالاة وغدير خم، قد رواه جماعة من الصحابة وتواتر النقل به حتى دخل في حد التواتر فرواه زيد بن أرقم وأبو سعيد الخدري وأبو أيوب الأنصاري وجابر بن عبد الله الأنصاري ثم ذكر رواية بعضهم وهي تضمّن ما تقدم مع زيادات.

وروي بالإسناد إلى عبد خير قال (حضرنا علياً ينشد الناس في الرحبة فقال أنشدُ مَنْ سمع النبي ﷺ يقول من كنت مولاه فعليّ مولاه اللهم والي من والاه وعاد من عاداه فقام اثنا عشر رجلا كلّهم من أهل بدر فيهم زيد بن أرقم فشهدوا أنّهم سمعوا رسول الله ﷺ يقول ذلك لعليّ بن أبي طّالب عليه السلام).

وأما روايات غير أهل البيت وشيعتهم فقد روي عن الرسالة النافعة للإمام المنصور بالله عن مسند الإمام أحمد بن حنبل هذا الحديث المذكور من طرق كثيرة بنحو ما سبق وحكاه أيضاً عن جامع رزين وعن مناقب ابن المغازلي الشافعي

وذكر أنّه رفع الحديث المذكور إلى مائة من أصحاب رسول الله ﷺ قال (وقد ذكر محمد بن جرير الطبري صاحب التاريخ خبر يوم الغدير وطرقه من خمسة وأربعين طريقا وأفرد له كتابا سمّاه كتاب الولاية، وذكر أبو العباس أحمد بن عقدة خبر يوم الغدير وأفرد له كتابا وطرقه من مائة طريق وخمس طرق ولا شك في بلوغه حدّ التواتر وحصول العلم به ولم نعلم خلافاً ممّن يعتدّ به من الأمّة وهم بين محتجّ به ومتأولٍ له إلاّ من ارتكب طريقة البهت ومكابرة العيار) تَمّ كلامه.

وفي المستدرك بالإسناد إلى زيد بن أرقم قال (لمّا رجع رسول الله ﷺ من حجّة الوداع ونزل غدير خم أمر بدَوْحاتٍ فَقمن قال كاأني دعيتُ فأجبتُ أني تركت فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله وعترتي فانظروا كيف تخلفوني فيهما فإنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض ثم قال إنّ الله وعزّ جل مولاي وّأنا وليّ كل مؤمنٍ ومؤمنة ثم أخذ بيد علي عليه السلام فقال من كنت وليه فهذا وليّه اللهمّ والِ... إلخ) وذكر الحديث بطوله هذا حديثٌ صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بطوله.

وفيه عن زيد بن أرقم (نزل رسول الله ﷺ بين مكة والمدينة، عند سمرات خمس دوحات عظام ، فكنس الناس ما تحت السمرات ، ثم راح رسول الله ﷺ عشية فصلى ، ثم قام خطيبا ، فحمد الله وأثنى عليه ، وذكر ووعظ ، فقال ما شاء الله أن يقول ، ثم قال أيها الناس إني تارك فيكم أمرين ، لن تضلوا ان اتبعتموهما ، وهما كتاب الله وأهل بيتي عترتي . ثم قال أتعلمون أنى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ثلاث مرات . قالوا نعم . فقال رسول الله ﷺ من كنت مولاه فعلي مولاه)انتهى . ولفظ انتهى من قول محمد بن يحيى بن مهران.

وإنما نقلت كلامه كله عند ذكر دعوة النبي ﷺ مع أن ثبوتها لا يحتاج إلى استشهاد فإنه أظهر من الاستشهاد عليه لأن كلامه هذا حجة على من أنكر النص على علي عليه السلام يوم الغدير وأحببت أن أنقله في كل رسالة وكتاب من كتبنا حتى لا يعز تحصيله على طالبه والحاصل أن الله سبحانه خلق ألف ألف عالم وألف ألف آدم كل عالم منها أقام فيه رسول الله ﷺ عليا عليه السلام في هذا المشهد ودعى بهذه الدعوة التي هي علة قرن الله تعالى إياهم بنفسه أو من جملة علل ذلك وهي قد تكون علة سابقة باعتبار أو مساوقة باعتبار آخر أو لاحقة كما أن من العلل ما هو كذلك.

بقي شيء هو أن مافي حديث الكافي والتوحيد المتقدم من أن المراد من قوله تعالى (فَلَمَّا آسَفُونا)(وَما ظَلَمُونا)وأمثال ذلك هو هم عليهم السلام لأن الأسف والظلم وغير ذلك لا يجري عليه يدل على أنه يجري عليهم وفيه إشكال وهو أنهم إذا جرى عليهم كيف يحسن في هذه الحال أن يقرنهم بنفسه التي لا يجري عليها ذلك.

والجواب أنهم عليهم السلام لهم عليهم السلام جهتان جهة بشرية وجهة إلهية فمن حيث الجهة البشرية تجري عليهم هذه الأمور والحوادث وتستفزهم الأمور، من حيث الجهة الإلهية قرنهم بنفسه لأنهم في هذه الحال لا تجري عليهم هذه الأمور والحوادث، وكيف تجري عليهم وهم الذين أجروها على من شاءوا كما شاءوا ولما جاز نسبة مالحق الجهة البشرية بالحقيقة إلى الجهة الإلهية بالمجاز جاز نسبة مالحق الجهة الإلهية بالمجاز إليه سبحانه بمجاز المجاز لأنه سبحانه وتعالى كما أن الجهة الإلهية له كذلك الجهة البشرية له لأنها للذي له فهي له فيجوز نسبة مالحق التابع إلى متبوع المتبوع كما ينسب إلى المتبوع لأن التابع تابع بما لحقه والمتبوع تابع كذلك ومعنى مجاز المجاز أن المتبوع تابع لمتبوعه.

قال عليه السلام أنتم السبيل الأعظم والصراط الأقوم
وشهداءُ دارِ الفناءِ وشفعاءُ دارالبقاءِ

قال الشارح : فإنّ طريق متابعتهم في العقائد والأعمال أقوم الطرق وأمْتنها بل هو الطريق أو طرقهم في مراتب القرب إلى الله تعالى وإن كان لغيرهم من أهل الحق طرقٌ أُخر وشهداءُ دار الفناء كما تقدَّم وشفعاء دار البقاء للأخبار المتواترة بشفاعتهم لأصحاب الكبائر كما هي لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انتهى.

أقول : قوله عليه السلام (أنتم السبيل الأعظم) يريد أنهم عليهم السلام سبيل الله إلى خلقه أي طريقه إلى جميع خلقه في كل إيجاد أو تكليفٍ فلا يُوجد شيئاً ولا يمدّ شيئا بمالهُ أوْ بما به لمنْ دونَهُ إلا بواسطتهم فهم سبيل الإيجاد والفيض من فعل الله سبحانه، فلا يستمد شيء من الحق في صدور أو بقاءٍ إلا بهم ومنهم ولهم كما لا يستمدّ شيء من أشعّة السراج من فعل النار في صدورٍ أو بقاءٍ إلا بالشعلة المرئية ومنها ولها، كذلك هم عليهم السلام فإنّ آية الله تعالى هي النار الغائبة أعني الحرارة واليبوسة الجوهرين وحرارة النار الغائبة هي فعلها وهي آية مشية الله تعالى والشّعلة المرئيّة التي هي الدخان المستحيل من الدهن بحرارة النار المنفعل بالإضاءة عن حرارة النار هي آية الحقيقة المحمّديّة فالشعلةُ هي سبيل النار إلى إيجاد جميع الأشعّة وإضاءتها بها ومنها ولها، كذلك لا يستمدّ شيء من جميع الخلق من الذوات والصفات الجواهر والأعراض والأجسام وغيرها من فعل الله إلا بواسطة الحقيقة المحمديّة التي هي الماء الذي جعل الله منه كل شيء حيّ ومنها ولها وهي حقيقتهم عليهم السلام وهي السبيل الأعظم ووصف هذا السبيل الأعظم بخصوص العِظَم دون الكِبَر لاختصاص الكبر بالظاهر وعموم العِظَم للظاهر والباطن وعلى جهة التفضيل

لأنه في مقام من العِظَم يقصر عنه إدراك كلّ مخلوقٍ سواهم كما قال تعالى (وَ إِنَّكَ لعَلى خُلُقٍ عَظِيم).

استعظمه الله سبحانه في الكون بل في الإمكان وصورة التفصيل لبيان أن سُبُل الله إلى خلقه متعدّدة متفاوتة بعدد أنفاس الخلائق وكل واحدٍ منها عظيم بالنسبة إلى ما يتوقّف عليه، وفيها الكلي والجزئي والإضافي وليس فيها ما يسَعُ جميع شؤون الألوهيّة إلا حقيقتهم ﷺ وقد لوّح سبحانه بذلك في تأويل قوله تعالى(يا أَهْل الكِتابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلى الله إِلاَّ الحَقَّ إِنَّمَا المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ الله وَ كَلِمَتُهُ) الآية، فلا تنسبوه إلى الألوهية ولا إلى جامعيّة شؤونها وإنما جامع شؤونها الحق المخلوق وصرّح سبحانه به في الحديث القدسي قال تعالى(ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن)

فهم السبيل الأعظم في كلّ خير نازل من خزائنه تعالى وفي كل خيرٍ صاعد من أعمال الخلائق وذلك لأن السبيل هو الطريق.

واعلم أني نسيتُ شرح هذه الكلمة حين شرحت هذه الزيارة فذكّرني بها بعض المشايخ ذكره الله برحمته في الدنيا والآخرة فرحم الله من وقف على هذه الكلمات وألحقها بأصل الشرح في محلّها لأني جعلت هذه الكلمات وألحقتها من الشرح بعد ما تعددت نسخته.

وفسر الشارح كلام الإمام في قوله (أنتم الصراط الأقوم) بأن طريق متابعتهم أقوم الطرق وهو تعريف بالمجاز المستلزم للحذف والتقدير وهو خلاف الأصل بل الحق أنهم في كنه حقيقتهم صراط الله المستقيم بمعنى أنه لا يصل من الله سبحانه شيء إلى أحد من خلقه إلا بواسطتهم من عطاء ومنع وتعرّفٍ وتعريف

وإرشاد وتكليف، ولا يصل إلى الله سبحانه من أحد من خلقه شيء من عمل أو دعاء أو غير ذلك مِنْ حال أو مقال إلاّ بهم فهم عليهم السلام طريق الله إلى سائر خلقه وطريق الكلم الطيب والصفات الحميدة والأعمال الصالحة من الخلق إلى الله، وقد تقدم من هذا كثير فلا فائدة في الأطناب فيه.

ومعنى الأقوم أن الخطّ المستقيم الذي هو أقصر الخطوط الواصلة بين نقطتين قد تختلف باختلاف تحقق القصر عند المعبر وفي نفس الأمر وفي حالٍ دون حال فيصحّ التفضيل بينها في هذه الاعتبارات وبأن ما به استقامة سائر الخلق أقوم وبأن الاستقامة على ما يوافق جميع متعلقاته في المادة والصورة وفي جميع الأحوال لمراد الله ومحبّته أقوم منها على ما يخالف مراد الله ومحبّته في جميع الأحوال أو في بعضها وإلى هذا المعنى أشار عليه السلام في خلق آدم (فاغترف تبارك وتعالى غرفة من الماء العذب الفرات فرف بيمينه وكلتا يديه يمنى فصلصلها فجمدت ثم قال لها منك أخلق النبيين والمرسلين وعبادي الصالحين والأئمة المهديين الدعاة إلى الجنة وأتباعهم إلى يوم القيامة ولا أبالي ولا أسأل عما أفعل وهم يسألون ثم يعني بذلك خلقه إنه اغترف غرفة من الماء المالح الأجاج فصلصلها فجمدت ثم قال لها منك أخلق الجبارين والفراعنة والعتاة و إخوان الشياطين والدعاة إلى النار إلى يوم القيامة وأشياعهم ولا أبالي ولا أسأل عما أفعل و هم يسألون)الحديث ، فجعل غرفة اليمين إلى الجنّة وغرفة الشمال إلى النّار مع أنّه قال (وَ كِلتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ).

وقوله عليه السلام (وشهداء دار الفناء) تقدم في بيان قوله(وإياب الخلق إليك وحسابهم عليكم) ما يدلّ على حقيقة هذا والأحاديث عنهم عليهم السلام كما مضى وما لم نذكره في ذلك أكثر من أن تُحصَى وأشهر من أن تخفى، ومن ذلك ما رواه في الكافي

قال قال أبو عبد الله عليه السلام في قوله تعالى(فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً قَال نَزَلتْ في أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله خَاصَّةً فِي كُلِّ قَرْنٍ مِنْهُمْ إِمَامٌ مِنَّا شَاهِدٌ عَليْهِمْ ومُحَمَّدٌ صلى الله عليه وآله شَاهِدٌ عَليْنَا) يعني أنهم عليهم السلام يشهدون على الأنبياء أنّ الله تعالى أرسلهم ويشهدون للأنبياء عليهم السلام أنهم أبلغوا رسالات ربهم ويشهدون لما أجابهم وأطاعهم بإجابته وإطاعته وعلى من أعرض وعصى بإعراضه وعصيانه ويشهدون على محمّد صلى الله عليه وآله أن الله أرسله ويشهدون له أنه بلّغ ما أمر بتبليغه وعلى أمّته ولهم كذلك ورسول الله صلى الله عليه وآله يشهد عليهم بما حمّلهم الله من أمر الخلافة ولهم بما أدّوا ما حُمّلوا وبلّغوا ولمن أجاب بها أجاب وعلى من أعرض بإعْراضه، ومنه ما تقدم في رواية عبد الله بن بكر الأرجاني الطويلة عن الصادق عليه السلام وفيها (و ما من ليلة تأتي علينا إلا و أخبار كل أرض عندنا و ما يحدث فيها و أخبار الجن و أخبار أهل الهواء من الملائكة و ما من ملك يموت في الأرض و يقوم غيره مقامه إلا أتينا بخبره و كيف سيرته في الذين قبله و ما من أرض من ستة أرضين إلى السابعة إلا نحن نؤتى بخبرهم).

أقول ظاهر كلامه هذا وما أشبهه أن ما شهدوا به من أحوال الخلائق ممن سبقهم أو كان في زمانهم أو من بعدهم أنّه من إخبار الملائكة والجنّ إيّاهم والمعروف من الآية الشريفة (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى الله عَمَلكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ)

والأحاديث الأخر أن جميع أهل الأرض لا يخفى عليهم شيء من أحوالهم ويرونهم بنور الله، وذلك لأن الله سبحانه أعطى الإمام عليه السلام عموداً من نور يرى فيه أعمال الخلائق كرؤية الشخص في المرآة وإن الدنيا بأسرها وجميع ما فيها بل والعالم العلوي وما فيه عند الإمام كالدرهم في يد أحدكم يقلّبه كيف شاء

فهم يعاينون جميع ما في العالم وهو تأويل قوله تعالى (وَكُل شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ في إمامٍ مُبينٍ)وقوله تعالى(وعِنْدَهُ مَفاتِحُ الغَيْبِ لا يَعْلَمُها إلاَّ هُوَ وَ يَعْلَمُ ما في البَرِّ وَالبَحْرِ وَما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إلاَّ يَعْلَمُها وَلا حَبَّةٍ في ظُلُماتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يابِسٍ إلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ) وقول الصادق عليه السلام في رواية عبد الله بن بكر الأرجاني المتقدم ذكرها قال عبد الله (قلت جعلت فداك فهل يرى الإمام ما بين المشرق والمغرب قال يا ابن بكر فكيف يكون حجة على ما بين قطريها و هو لا يراهم ولا يحكم فيهم وكيف تكون حجة على قوم غيب لا يقدر عليهم و لا يقدرون عليهم و كيف يكون مؤديا عن الله و شاهدا على الخلق و هو لا يراهم و كيف يكون حجة عليهم و هو محجوب عنهم و قد حيل بينهم و بينه أن يقوم بأمر ربه فيهم و الله يقول وَ ما أَرْسَلناكَ إلا كَافَّةً لِلنَّاسِ يعني به من على الأرض و الحجة من بعد النبي يقوم مقامه و هو الدليل على ما تشاجرت عليه الأمة و الأخذ بحقوق الناس و القائم بأمر الله و المنصف لبعضهم من بعض فإذا لم يكن معهم من ينفذ قوله و هو يقول سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ فأي آية في الآفاق غيرنا أراها الله أهل الآفاق و قال ما نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إلا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِها فأي آية أكبر منا) الحديث. وقد تقدّم وهذا صريح في المعاينة بغير أخبار الملائكة وتوجيه أخبار الملائكة لهم والجمع بين الأخبار من وجهين.

الأوّل : إنّ الشخص إذا نظر شيئاً وأدركه فإن حقيقة ذلك أن الله سبحانه لمّا خلق المشاعر المدركة وجعلها مقتضية لذلك قيض لذلك الاقتضاء ملائكةً من جنس ذلك المشعر ينقلون صُور المدركات وأشباحها ومعانيها إليها فالملائكة العقليون ينقلون معاني المدركات إلى العقول باقتضائها لذلك والنّفسانيّون

ينقلون صورها إلى النفوس والمثالِيُّونَ يَنقلون أشباحها إلى الحسّ المشترك والخيال و إلى ما بينهما، فلا يظهر شيء من المدركات في شيءٍ من المشاعر إلا في وقته الذي قدّره الله تعالى لهُ فإذا جاء وقته وتمّت مقتضياته أنزلتْهُ الملائكة الموكلون به بإذن الله تعالى من خزائنه إلى محله الذي يظهر فيه كما قال تعالى (وإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ).

الثاني إنّ الملائكة الذين يأتونهم بما يرونه ويطلّعُونَ عليه لهم بمنزلة الخواطر للإنسان فإنّ الخاطر الوارد من الإنسان وهو الذي يأتي الإنسان بما يتوجه إليه قلبه ومع ذلك فهو من قبله كالالتفاتة من الإنسان فإنه لا يرى مَن خلفه مثلا إلاّ إذا التفت إليه قلبه فالتفاتَتُهْ هي الّتي أرتهُ من خلفه، وإن كان في الحقيقة إنّما رآه الإنسان لكن الالتفاتة تتوقف عليها المقابلة التي هي سبب الرؤية، كذلك الخاطر ولذا تقول خطر على قلبي أو خيالي كذا وإنما الخاطر من قلبه فافهم العبارة المكررة المردّدة للتفهيم فإذا عرفت هذا ظهر لك أنهم يشاهدون كل شيءٍ معاينةً وإنَ البُعْدَ والحجب لا تحجب أبصارهم وإنّ أبصارهم تدرك ما لا تدركه عقول مَنْ سِوَاهم.

وقوله عليه السلام (شهداء دار الفناء) يراد منه أنهم الشهداء في دار التكليف لأنهم محالّ أمرِ الله في قوله (أَفَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ) والقائم الولي بإذن الله تعالى وقوله عليه السلام (وَ عِنْدَنا كِتابٌ حَفِيظٌ)والكتاب الحفيظ نفس الولي وقوله(إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْها حافِظٌ)والحافظ الولي عليه السلام فما دام التكليف فهم يشهدون لمن وَفى بما وفَى وعلى من نكث بما نكث والمراد من دار التكليف هذه الدنيا وقيام القائم عجل الله فرجه والرجعة وما سبق هذا من التكليف الأول في الذر الأوّل

والذّرّ الثاني وذلك قوله تعالى(شَهِدْنا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ القِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ)وإن اختلفت أحوالها فإنها يجمعُهَا الفناء والتكليف.

وأما في الآخرة فليس فيها فناء وليس فيها ظاهراً تكليفٌ ليحتاج إلى الشهداء نعم فيها الجزاء فيحتاج إلى الشفاعة لبعضِ مَنْ يَسْتحَقها مِمّن ارتضى دينَهُ فلهذا فرق بين العبارتين.

وقولي ليس فيها تكليف ظاهراً أشيرُ فيه إلى أنَّ فيها تكليفاً ولكنه للمؤمنين بكل ما يشتهون، وللكافرين بكل ما يكرهون والتكليف في الدنيا بما فيه مَشقَّة مِمَّا تُحِبهُ النفوس وتكرهه، ولكن العقول تحبّ جميع تكاليف الدُنيا فمن قام بحكم الدنيا صفت له الآخرة فيكون تكليفه بكل ما يشتهيه ومن خالف الأمر في الدنيا واتبع شهوة نفسه كان حكم التكليف عليه بكل ما يكره قال تعالى (أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِي حَياتِكُمُ الدُّنْيا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِها فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ)والأصل في ذلك كله أنّ الإنسان لّما خُلق مركّباً ممّا من الله وممّا من نفسه جرى عليه حكم الحكمة بالتكليف الشاقّ على ما من نفسه ليخلص عن هذه الإنيّة، ويكون بقبوله الأمر عاملا بعقله فيطيب له العمل ويلتذ بالمشاق كما هو محبة العقل قال أمير المؤمنين عليه السلام (وَاسْتَلانُوا مَا اسْتَوْعَرَهُ الْمُتْرَفُونَ وَأَنِسُوا بِمَا اسْتَوْحَشَ مِنْهُ الجَاهِلُونَ)فجاء يوم القيامة بحسنه من ربّه بإحسانه من نفسه راضياً مرضياً، فلمّا كان هكذا إلاّ أنّه لا يخرج بهذا عن الإمكان والحاجة المقتضيين لدوام المدد المقتضي للتكليف لأنه تمكين من الله وقبول منه جرى عليه حكم الحكمة بالتكليف بكل ما تشتهيه لأنه إنما هو حسن وإحسان وليس عند الله في دار ثوابه إلاّ ما يلائم هذا ويوافقه والآخر العاصي يكون بمخالفته الأمر جاهلاً عاملا بجهله وشهوة نفسه

فيصَعّب عليه العمل ويتألم بالمشاق كما هو محبّه النفس فجاء يوم القيامة بإساءته من نفسه منسيّاً من رحمة الله تعالى لأنّ جهته من ربه أضعفها ومحقها حتّى لا يبقى منها إلاّ ما يحفظ بقاءه لأنّها حادثة لا بقاء لها إلاّ بالمدد ولا مدد لها إلا بالأعمال الصالحة، ولمّا لم يمدّها اضمحلّت أمّا ما بقى منها فقد استخبثَ لغلبة الظلمة لأنه لها فساورها واغتذى بغذائها (وَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ) المستولين عليه (وَالإِنْسِ) هي قد تشوّهت من صورته بمساورتها واغتذائها بغذائها فقال الله تعالى(أَلْقِيا فِي جَهَنَّمَ كُل كَفَّارٍ عَنِيدٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ الَّذِي جَعَلَ مَعَ الله إِلهاً آخَرَ فَأَلْقِياهُ فِي الْعَذابِ الشَّدِيدِ)وقال تعالى(احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ أَزْواجَهُمْ وَ ما كانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله فَاهْدُوهُمْ إِلى صِراطِ الْجَحِيمِ)وقال تعالى(وَ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ) فكان في الجنّة تكليف للمؤمنين بكل ما يشتهون ويُحبّون وفي النّار تكليف للمنافقين والكافرين بكلّ ما يكرهون، يعني أنه ليس لأهل الجنّة شهوة ومحبّة غير ما يجري لهم وليس لأهل النار كراهة ومنافرة غير ما يجري عليهم ومحمد ﷺ وأهل بيته الطيبون يقدرون ذلك كله ويوصلون استحقاق كل إلى مستحقه وهو قوله تعالى(وَ إِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ).

وهم شهداء ذلك كلهم فهم شهداء دار الفناء ودار البقاء ولكن عبر عليه السلام في كلامه بما يظهر لأنهم لا يخاطبون الناس إلاّ بما يعرفون.

قوله عليه السلام (وشفعاء دار البقاء) وذلك أنّ محمداً ﷺ وسلم قد أعطاه الله تعالى الشفاعة بإذنه لمن رضي الله دينه فيشفع في أهل بيته عليهم السلام للإذن لهم في الشفاعة لشيعتهم الّذين يشهدون بالحق أي بأنّ الحق لهم وفيهم ومعهم وبهم وهم يعلمون

ذلك بالعلم والهدى والكتاب المنير لأنّهم مستحقّون لأن يشفع لهم كما قال تعالى(وَلا يَمْلِكُ الذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفاعَةَ إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ).

وهذه الآية لعلي عليه السلام وأهل بيته عليه وعليهم السلام ومن دونهم لشيعتهم بشفاعتهم فيشفعون لهم ليشفعوا فيمن شاءوا من أهاليهم وأقاربهم وجيرانهم وإخوانهم ممّن ارتضى الله دينه في قوله تعالى (وَ لا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضى).

دينه وذلك من قوله تعالى (وَ الذِينَ آمَنُوا وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ ما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ)فعلى الأصالة والحقيقة، قال الصادق عليه السلام في هذه الآية (الذين آمنوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين عليه السلام والذرية والأئمة الأوصياء ألحقنا بهم و لم تنقص ذريتهم من الحجة التي جاء بها محمد صلى الله عليه وآله وسلم في علي و حجتهم واحدة و طاعتهم واحدة)وعلى التبع عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن الله يرفع ذرّيّة المؤمن في درجته، وإن كانوا دُوَنهُ لِتقرّبهم عينه ثم تلا هذه الآية وعن الصادق عليه السلام في هذه الآية (قَصَرَتِ الأَبْنَاءُ عَنْ عَمَلِ الآبَاءِ فَأَلْحَقُوا الأَبْنَاءَ بِالآبَاءِ لِتَقَرَّ بِذَلِكَ أَعْيُنُهُمْ).

وعنه عليه السلام قال (أطفال المؤمنين يهدون إلى آبائهم يوم القيامة).

وأمّا أنهم لا يشفعون إلاّ لمن ارتضى دينه فإن الشفاعة ليْسَتْ في الحقيقةِ إمداد من لا يحسن له الإمداد ولا في ترك حَقّ يقبحُ تركه وإنما هي لمن يحسن إعطاؤه أو في ترك حق لا يقبح ولا لمن يحسن الشفاعة في حقِّه وتستحقّها لما في إمكان قابليته مع المعين لها من الشفيع أو في تمكينها فالأول من العدل، وإن كان ما من المعين من الفضل والثاني من الفضل وكذا في ترك حق لا يقبح تركه لوقوع مقتضى ذلك الحق في طرفٍ من تلك الحقيقة مرجوح فتحسن المطالبة به ويحسن

تركه فإذا توجّهت الشفاعة المقبولة يعني بإذن الله لمن ارتضى دينه الذي به ذلك الترجّح حسن في الحكمة ترك ذلك الحق وقبح في الحكمة المطالبة به فالشفاعة في تركه من الفضل لأنّ راجحيّته لما كان مرجوحاً من الفضل ومن العدل باعتبار استحقاق القابل كما في الدعاء وجعل ما أمتن به على عباده كفاء لتأدية حقّه ويحمل عليه قوله تعالى(وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسانِ إِلاَّ ما سَعى)وإذا لم يرتض دينه بأن كان منكرا لولايتهم قبحت الشفاعة له في الحكمة لأنّها حينئذٍ إما إمْداد ومعونة بما يقبح في الحكمة أو ترك حق يقبح فيها تركه ثم هي جائزة لأهل الكبائر من المحبّين، وفي الخصال (عن الصادق عليه السلام وأصحاب الحدود فُسَّاق لا مؤمنون ولا كافرون ولا يُخلّدون في النار ولايخرجون منها يوماً والشفاعة جائزة لهم وللمستضعفين إذا ارتضى الله دينهم) .

وفي التوحيد عن الكاظم عليه السلام عن أبيه عن آبائه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال (إنما شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي فأما المحسنون منهم فما عليهم من سبيل قال ابن أبي عمير فقلت له يا ابن رسول الله فكيف تكون الشفاعة لأهل الكبائر و الله تعالى ذكره يقول وَ لا يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنِ ارْتَضى وَ هُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ) و من يرتكب الكبائر لا يكون مرتضى فقال يا أبا أحمد ما من مؤمن يرتكب ذنبا إلا ساءه ذلك و ندم عليه و قد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم كفى بالندم توبة و قال صلى الله عليه وآله وسلم و من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن فمن لم يندم على ذنب يرتكبه فليس بمؤمن و لم تجب له الشفاعة و كان ظالما و الله تعالى ذكره يقول ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَ لا شَفِيعٍ يُطاعُ فقلت له يا ابن رسول الله و كيف لا يكون مؤمنا من لم يندم على ذنب يرتكبه فقال يا أبا أحمد ما من أحد يرتكب كبيرة من المعاصي و هو يعلم

أنه سيعاقب عليها إلا ندم على ما ارتكب و متى ندم كان تائبا مستحقا للشفاعة و متى لم يندم عليها كان مصرا والمصر لا يغفر له لأنه غير مؤمن بعقوبة ما ارتكب و لو كان مؤمنا بالعقوبة لندم و قد قال النبي ﷺ لا كبيرة مع الاستغفار و لا صغيرة مع الإصرار و أما قول الله عز و جل وَ لا يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنِ ارْتَضى فإنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى الله دينه و الدين الإقرار بالجزاء على الحسنات و السيئات فمن ارتضى الله دينه ندم على ما ارتكبه من الذنوب لمعرفته بعاقبته في القيامة).

وقوله عليه السلام (وشفعاء دار البقاء) يشعر بالحصر لمكان الثناء عليهم وهو كذلك ومن سواهم من ملك الشفاعة فعنهم شفع وعن الصادق عليه السلام في قوله تعالى(فَما لنا مِنْ شافِعِينَ وَ لا صَدِيقٍ حَمِيم قال الشافعون الأئمة و الصديق من المؤمنين).

وعن الباقر والصادق عليهما السلام (والله لنشفعن في المذنبين من شيعتنا حتى يقولوا أعداؤنا إذا رأوا ذلك فَما لنا مِنْ شافِعِينَ وَ لا صَدِيقٍ حَمِيم).

وعن الباقر عليه السلام (وَإِنَّ الشَّفَاعَةَ لَمَقْبُولَةٌ وَ مَا تُقُبِّلُ فِي نَاصِبٍ وَ إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيَشْفَعُ لِجَارِهِ وَ مَا لَهُ حَسَنَةٌ فَيَقُولُ يَا رَبِّ جَارِي كَانَ يَكُفُّ عَنِّي الْأَذَى فَيُشَفَّعُ فِيهِ فَيَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى أَنَا رَبُّكَ وَ أَنَا أَحَقُّ مَنْ كَافَى عَنْكَ فَيُدْخِلُهُ الْجَنَّةَ وَ مَا لَهُ مِنْ حَسَنَةٍ وَ إِنَّ أَدْنَى الْمُؤْمِنِينَ شَفَاعَةً لَيَشْفَعُ لِثَلَاثِينَ إِنْسَاناً فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقُولُ أَهْلُ النَّارِ فَما لنا مِنْ شافِعِينَ وَ لا صَدِيقٍ حَمِيم).

وعن النبي ﷺ (إن الرجل يقول في الجنة ما فعل صديقي فلان و صديقه في الجحيم فيقول الله تعالى أخرجوا له صديقه إلى الجنة فيقول من بقي في النار فَما لنا مِنْ شافِعِينَ وَ لا صَدِيقٍ حَمِيم).

فإذا عرفتَ ما أشرنا إليه ظهر لك أنّ الشفاعة كلّها من الله تعالى لهم بواسطة

محمد ﷺ ، وهم يشفعون لمن يشاءون من شيعتهم ليشفعوا فيمن شاءوا فكلّ شافعٍ من دونهم فشفاعته بشفاعتهم فهم شفعاء دار البقاء لا غيرهم.

قال عليه السلام والرحمة الموصولة والآية المخزونة

قال الشارح والرحمة الموصولة من الله إلى الخلق كما كان لرسول الله ﷺ في قوله(وَ ما أَرْسَلناكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلعالَمِينَ)فهم رحمة لهم في الدنيا والآخرة وبهم تصل رحمة الله تعَالى على العباد وتشعر به الصلاة عليه وآله صلوات الله عليهم والآية المخزونة لخلّص عباده وهم العارفون ببعض رتبهِم انتهى.

أقول الرحمة الموصولة يعني بالله أي بفعله وفعله الخير وهو النور الذي تنوّرت منه الأنوار كما تقدّم وهو نور محمد ﷺ وأنوار أهل بيته عليهم السلام من نوره كالضوء من الضوء وهو اسمه المكنون الأكبر الأعز الأجل الأكرم الذي يحبه ويهواه ويرضى به عمن دعاه واستجاب له دعاءه وحق عليه ألاّ يرد سائله به فوصل ذلك النور الذي هو الرحمة به تعالى فجعل طاعتهم طاعته ومعصيتهم معصيته ورضاهم رضاه وسخطهم سخطه وهكذا في جميع ما ينسب إليه تعالى ومن قطعهم قطعه الله تعالى فمن وصلهم وصله الله تعالى.

وقال أبو محمد الحسن العسكري عليه السلام وعلى آبائه وابنه الحجة السلام في تفسيره لقوله عز وجل الرحمن (إن الرحمن مشتق من الرحمة و قال قال أمير المؤمنين عليه السلام سمعت رسول الله ﷺ يقول قال الله تعالى أنا الرحمن و هي من الرحم شققت لها اسما من اسمي من وصلها وصلته ومن قطعها بتته ثم قال أمير المؤمنين عليه السلام إن الرحم التي اشتقها الله تعالى من اسمه بقوله أنا الرحمن هي الرحم رحم محمد

ﷺ و إن من إعظام الله إعظام محمد و إن من إعظام محمد إعظام رحم محمد و إن كل مؤمن و مؤمنة من شيعتنا هو من رحم محمد و إن إعظامهم من إعظام محمد فالويل لمن استخف بشيء من رحم محمد ﷺو طوبى لمن عظم حرمته و أكرم رحمه ووصلها)هـ.

أقول قد مضى بعض البيان في معنى الرحمة وذكر في الحديث أنّ الرحم قد اشتقها من اسمه يعني الرحمن والاشتقاق يحتمل اللفظي والمعنوي.

أمّا اللفظي فلاتحاد مادتيهما ظاهراً وأما في الحقيقة فراء رحم صفة راء رحمن وحاء رحم صفة حاء رحمن وميم رحيم صفة ميم رحمن كما نقول في أخذ حروف ضرباً المصدر من حروف ضرب الفعل على ما نختاره من أنّ الاسم مشتق من الفعل، ولو عكسنا فالاشتقاق على ما قلنا في الحقيقة في اللفظ وفي المعنى كاشتقاق نور الشمس من جرم الشمس كاشتقاق القمر من الشمس أو كالاشتقاق في الأوّل في اللفظي الثاني وفي المعنوي أو بالعكس وأمّا المعنوي فلأن الرحمن استوى برحمانيّته على العرش والرحم حملة العرش والعرش قلب العبد المؤمن هـ.

فالرحم مظهر رحمانيّة الرحمن ومتعلّقها فالرحم صفة الرحمن أو حملةّ الصفة أو مظهر الصفة فعلى الأول هي الصفة ، وعلى الثاني هي المؤدية لآثارها إلى القوابل، وعلى الثالث إن فتحت الميم والهاء هي محلّ ظهورها فالرحمانية قائمة بالرحم قيام ظهور والرحم قائمة بالرحمانيّة قيام تحقّقِ وإن ضممت الميم وكسرت الهاء هي مثل الرحمن الأعلى الذي لا فرق بينه وبينها إلا أنها عباده وخلقه ومعانيه أركانها فهي مظهرة الرحمانية وآثارها على ألواح القابليات وأعيان الموجودات فاشتقاقها

من اسمه على الأول أنها صفة الرحمن يعني صفة فعله أي اسمه الأكبر، وعلى الثاني أنها أولياء أفاعيل ذلك الاسم ومحَالّهُ وعلى الثالث أنها عضد اسمه في إظهاره أوفى ظهوُره.

فأما اشتقاق الصِفّةِ من الموصوف كما في الأول فظاهر ، وأمّا اشتقاق أولياء أفاعيل الشيء منه فلأن أولياءهُ إن كانوا مشتقين منه أي صدروا عنه ولاهم ما دونهم من أفعاله صح أن ذلك الشيء فاعل لتلك الأفاعيل حقيقة بواسطة أوليائه ولو لم يكونوا مشتقّين منه لما جاز أن يكون فاعلاً لِما فعل أولياؤُهُ وإن كان فعلهم بإذنه ومن المعلوم أنّ الرحمن فاعل لأفاعيله حقيقةً ولا فاعل سواه ولا شيء إلا ما كان عنه فأولياؤه إنّما هم شيءٌ به، والمفعول إنّما يكونُ مفَعْوُلاً للفاعل حقيقة إذا كانت حقيقته تأكيداً لفعله وغايةً مِنْ غاياتِه فإن ضرباً حقيقة مفعول لزيدٍ لأنه تأكيدٌ لفعله وغاية مِنْ غاياته في قولك ضربَ زيدٌ ضَرْباً بخلاف عمرواً في قولك ضرَبَ زيد عمراً فإنّه ليس مفعولاً له و إنما وقع ضربه عليه فليس تأكيدا لضربه ولا غايةً من غاياته.

وأما اشتقاق المحلّ من الحالّ فلأنّ المَحلّ من مشخصات الحال الخاصّة والمشخصات الخاصة لا توجد قبل ما شخّصته والا لما كانت خاصة لأن الخصوص فرع المختص فصحّ اشتقاق المحلّ.

وأما اشتقاق عضد الشيء منه فلأنّ المراد به ما يتوقّف عليه الشيء في ظهوره أو فعله في إظهاره ، أمّا توقفه في ظهوره على العضد فكما في المحل الذي يتوقّف ظهور الحال عليه مثل المتساوقين كالكسر والانكسار، فإن الكسر الحالّ يتوقّف ظهوره على المحل الذي هو الانكسار ويقال إنه قائم بالانكسار قيام ظهور

والانكسار قائم بالكسر قيام تحقق فهو مشتق من الكسر وعضد للكسر لتوقّف الكسر عليه في ظهوره ، والمراد أنّ الرحمن الذي هو الاسم إنّما تظهر التسمية به للمعبود جل وعلا الذي أحدث الرحمة إذا تحقّقت الصفة التي هي منه كالقائم لا يسمى به زيداً الذي صدر من فعله القيام إلاّ إذا تحقق القيام إذ بدونه لا يسمى قائماً ، كذلك بدون الرحم التي هي الرحمة أو محل الرحمة أو مظهر الرحمة لا يطلق اسم الرحمن الذي هو اسم الصفة في التعريف والتعرّف على المعبود الحقّ تعالى من حيث هو مصدر الرحمة لأنّ الرحمن اسم له تعالى من حيث هو مصدر الرحمة والمعبود والمعروف تعالى يعبد ويعرف ليس من هذه الحيثية، وإن كان طلب الرحمة منه من تلك الجهة وطلب الرزق من جهته والمغفرة من جهتها فالجهة وجه الطالب والمعني تعالى بالجهة وغيرها غير ذلك كله، كمال توحيده نفي الصفات عنه كنهه تفريق بينه وبين خلقه وغيوره تحديد لما سواه.

وأما توقف إظهاره على العضد فلأن ما يريد إظهاره الذي هو متعلق الإظهار يتوقف على العلة المادية والصُورية والغائية والعلل الثلاث لكلّ محدث من كل ما سواهم عليهم السلام منهم فالمادّة من فاضل نورهم والصورة مثال هياكلهم والغاية في كل شيء لهم وحاجتهم قال تعالى في الحديث القدسي (خلقتك لأجلي وخلقتُ الأشياء لأجلِك) فلو لم يكن العضد في الظهور والإظهار مشتقاً منه صادراً عنه لكان فعل الفاعل متوقّفاً على ما ليس منه ولا به ويكون ناقصاً محتاجاً إلى الغير تعالى الله أن يكون مفتقراً إلى غيره وتعالى فعله أن يكون متوقفاً على ما ليس منه ولا به فمحصّل كلام أمير المؤمنين عليه السلام (أنَّ الرحم التي اشتقّها من اسم الرحمن ...الخ)، أن الرحم هي الصّفة العامّة وهي صفة الرحمن التي قال تعالى فيها (وَ

رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُل شَيْءٍ)وهي خاصّة بعلي وفاطمة والحسن والحسين والتّسعة الأطهار من ذريّة الحسين صلّى الله عليهم أجمعين ومن سائر الخلق ممن سبقت له العناية باتباعهم فله من تلك الرحمة ومن تلك الرّحم الماسّة بنسبةِ قبوله من ذلك المقام أعني مقام المتابعة والمشايعة وهو رتبة الشعاع من ذلك كمّا وكيفا وهو السر في قوله عليه السلام (وإن كلّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ من شيعتنا هو من رحم محمد صلى الله عليه وآله وسلم) .

واعلم أن الأحاديث الدالة على أن المراد بالرحمة هم عليهم السلام بكل معنى وأنّ ما ظهر من الرحمة وآثارها فمنهم ومن آثارهم لا تكاد تحصى فلا حاجة إلى ذِكْر شيء منها لشهرتها وعدم الخلاف بين المؤمنين في دلالتها على ذلك المعنى.

وقوله عليه السلام (الموصولة) أي موصول بعضها ببعض بالله تعالى فالشيعة موصولون بأئمتهم عليهم السلام والأئمة عليهم السلام موصولون بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ومحمّد صلى الله عليه وآله وسلم موصول بالله وهو قول أمير المؤمنين عليه السلام حين قال (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظُر بنور الله) فسأله ابن عباس كيف ينظر بنور الله، قال عليه السلام إنا خُلِقنا من نور الله وخلق شيعتنا من شعاع نورِنا) وقول الصادق عليه السلام حين سأله المفضل (ما كنتم قبل أن يخلق الله السماوات و الأرضين قال عليه السلام كنا أنوارا حول العرش نسبح الله و نقدسه حتى خلق الله سبحانه الملائكة فقال لهم سبحوا فقالوا يا ربنا لا علم لنا فقال لنا سبحوا فسبحنا فسبحت الملائكة بتسبيحنا ألا إنا خلقنا من نور الله و خلق شيعتنا من دون ذلك النور فإذا كان يوم القيامة التحقت السفلى بالعليا ثم قرن عليه السلام بين إصبعيه السبابة و الوسطى و قال كهاتين ثم قال يا مفضل أ تدري لم سميت الشيعة شيعة يا مفضل شيعتنا منا و نحن من شيعتنا أ ما ترى هذه الشمس أين تبدو قلت من مشرق و قال إلى أين تعود قلت إلى مغرب قال عليه السلام هكذا شيعتنا منا بدءوا و إلينا يعودون).

وقال الصّادق عليه السلام لسليمان (يا سليمان إن الله تبارك و تعالى خلق المؤمن من نوره و صبغهم في رحمته و أخذ ميثاقهم لنا بالولاية لعلي أمير المؤمنين فالمؤمن أخو المؤمن لأبيه و أمه أبوه النور و أمه الرحمة إن المؤمن ينظر بنور الله قال الصادق عليه السلام إنما ينظر بذلك النور الذي خلق منه).

أقول الأحاديث في هذه المعاني كثيرة وهو أنّ المؤمن خلق من نورهم وإنما سُمي شيعيّاَ لأنه خلق من شعاع نورهم وأنّهم متّصلون بهم كما اتصل الشعاع بالشمس وقد تقدّم وأنّهم عليهم السلام هم الرحمة وهي الرحم أي أنّهم الرحم المشتق من اسم الرحمن وهي الرحمة، وإن شيعتهم تبع لهم في ذلك الاشتقاق فكلّ مؤمن ومؤمنة من رحم محمد صلى الله عليه وآله وسلم وسلم بهذا المعنى فهم من الرحمة الخاصّة المكتوبة التي هي صفة الرحيم (وكان بالمؤمنين رحيماً)والرحيم صفة الرحمن ومشتق منه على الأصح فهم عليهم السلام وشيعتهم الرحمة الموصولةَ باللهِ أي بمشيّته ومحبتهِ وإرادته يعني أن شيعتهم منهم وهم من محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهوَ صلى الله عليه وآله وسلم محلّ (فأحببتُ أن أُعرف).

ومعنى آخر مَنْ وصلهم وصله الله برحمته ورضوانه ومحبّته ومن قطعهم قطعَهُ الله من رحمته ووصله بغضبه وقطعَهُ من رضوانه ووصله بسَخَطه وقطعَهُ من محبّتهِ ووصله بمقته.

ومعنى آخر أن وَصْلهم طاعتهم والتولّي بهم والتبرّي من أعدائهم والتسليم لهم والرّد إليهم والاعتراف بحقهم وإن ذلك من حقهم وأن تدعو الله بهم وأن تعبده بحبهم وبطاعتهم مخلصا لله وحْدَهُ في عبادته بطاعتهم وبما ذكرنا كله فكل ما يكون لله فهو عنهم ومنهم وهو موصول بالرّحمة والرّضا والمحبّة وكل ما ليس لله فهو قطعهم وقطعهم موصول بالغضب والسخط والمقت.

فإن قلت هذا الكلام يدل على أنّ كل ما كان عن الرحمة فهو موصول كالرحمة لاحق بها وهو ظاهر قوله تعالى (وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُل شَيْءٍ)ومن المعلوم الذي لا شبهة فيه أن ما لم تتناوله الرحمة ليس بموجود فلا يكون مقطوعاً لأنه ليس شيئا يقطع وما تناولته الرحمة فهو موصول فمن قطعهم موجود فيلزم أن يكون موصولاً.

قلتُ إن الرحمة الواسعة منها الفضل ومنها العدل والكل داخل في الوجود وهو وما تناوله فالموصول من الفصل والمقطوع من العدل والمراد من الوصل ما كان من الفضل الذي هو صفة الرحيم وهي الرحمة المكتوبة الخاصّة بالمؤمنين لاتّصاله بالثواب الذي هو المدد الثابت الأصل النوراني لاتّصاله بالظهور السرمدي الذي لا غاية له ولا نهاية في البقاء الإمكاني الراجح، ولا في الحسن والجمال واللّذة والملاءمة والمطابقة في آثاره من حيث ربّه تعالى والمراد من القطع ما كان من العدل الذي هو قسيم صفة الرحيم من صفة الرحمن لما يترتّب عليه من القصاص والمجازاة الذي هو الخذلان والترك وهو المجتثّ الأصل الظلماني لتوجّهه إلى نفس النوراني الذي هو ضدّه من حيث نفسه فكان ما من الرحمة الخاصة موصولاً لاتّصاله بما لله وما من الله تعالى، وكان القطع مَفْصولاً لاقتصاره على نفسه فقوله عليه السلام (والرحمة الموصولة) يحتمل وجهين.

أحدهما أنّ ما كان عقاباً وعذاباً وما لا يلائم النفس لا يسمى رحمةً لأن المفهوم منها المحبوب والملائم فيجوز أن تكون الصفة لبيان ما هو الواقع بحسب العرف.

وثانيهما إن الصفة ليست لبيان ما هو الواقع وإنما هي للتخصيص لأن المنافر

والمنافي أيضاً من الرحمة الواسعة لأنه مقتضى العدل إلاّ أنه رحمة مقطوعة عن الخير والمحبّة بسبب سوء الأعمال وإليه الإشارة بها في رواية (إيّاك أثيبُ وإيّاك أعاقِب) في شأن العقل إذا لم يقبل فلمّا كان للرحمة الواسعة جهتان جهة موصولة بالله تعالى لما تشتمل على آثارها من الأمور المحبوبات التي لا غاية لها وجهة مفصولة عن الخير لما تشتمل عليه آثارها من الأمور المكروهات الّتي لا غايَةَ لها وصَفَهُمْ عليه السلام بأنّهُمُ الرحمة المَوْصُولة يَعنْي إيّاهُمْ وشِيعَتَهُمْ خاصةً.

وقوله عليه السلام (والآية المخزونة)بمعنى العبرة والعلامة والعجيبة والشّخص والإمارة ومن القرآن كلام متّصل إلى انقطاعه ويختلف المراد منها باختلاف الإطلاقات بسبب اختلاف المقامات مثل قوله تعالى(لَقَدْ كانَ فِي يُوسُفَ وَ إِخْوَتِهِ آياتٌ لِلسَّائِلِينَ)أي دلائِلُ قدرة الله تعالى وحكمته وعلامات لنبوتك يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

وقوله تعالى(ثُمَّ بَدا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما رَأَوُا الْآياتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ)يعني الدلالات على براءته من شهادة الصبي وقد القميص منْ دبرٍ واستباقها الباب حتى سُمع مجاذبتها إياهُ على الباب.

وقوله تعالى(لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)أي من عجائب قدرتنا كذهابه إلى بيت المقدس في برهة من الليل مسيرة شهرٍ ومشاهدته بيت المقدس وتمثيل الأنبياء ووقوفه على مقاماتهم.

وقوله تعالى(فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ مَقامُ إِبْراهِيمَ)أي علامات واضحات كأثر قدَمَيْ إبراهيم عليه السلام والحجر الأسود ومنزل إسماعيل.

وقوله تعالى(سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ) أي العبر والعلامات كالكسوف

والخسوف والزلازل وما يعرض في السّماء (وَفِي أَنْفُسِهِمْ)كالجوع والشبع، والعطش والرّيّ،والمرض والصحة، والغنى والفقر.

وقوله تعالى(وَ جَعَلنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ آيَةً)أي عجيبة وإنما لم يقل آيتين لأن قصتهما واحدة وقيل لأن الآية فيهما واحدة وهي الولادة من غير فحل.

وقال في سفينة نوح عليه السلام (وَ لقَدْ تَرَكْناها آيَةً فَهَل مِنْ مُدَّكِرٍ)نُقِل أنّه أبقى الله سفينة نوح حتّى أدركها أوائل هذه الأمة أي شيئاً من أجزائها إلى زمان بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وآله وسلم (بلّغوا عني ولو آيةً)والمراد بالآية هنا الكلام المفيد وإن كان قليلا.

وقوله تعالى(في تِسْعِ آياتٍ)أي المعجزات وهي العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمس على أمواهم والسنين أي الجدب وقيل التّسع غير اليد والعصي وهي السبع المذكورة وفلق البحر ونقص من الأموال والأنفس والثمرات والآيات المشتركة بين آل فرعون وبني إسرائيل الآيات المذكورات، وفلق البحر والحجر ورفع الطور وغيرها مختصة .

والحاصل أن هذه المعاني في الحقيقة متقاربة يرجع بعضها إلى بعض وعلى أي فرض كان فليس لله آية أظهرها لعباده إلا هم أو منهم أو لهم أو عنهم، كما دلّت عليه أخبارهم منها ما في الكافي عن أسباط بن سالم قال سألت أبا عبدالله عليه السلام وأنا عنده عن قول الله تعالى(وَ عَلاماتٍ وَ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ فَقَال رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم النَّجْمُ وَ العَلامَاتُ هُمُ الأَئِمَّةُ عليهم السلام).

وفيه عن داود الرقي قال سألتُ أبا عبد الله عليه السلام قوله تبارك وتعالى (وَ ما تُغْنِي الآياتُ وَ النُّذُرُ عَنْ قَوْم لا يُؤْمِنُونَ قال الآيات الأئمة و النذر الأنبياء عليهم السلام).

وفيه عن يونس بن يعقوب رفعه عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله (كَذَّبُوا بِآياتِنا كُلِّها يَعْنِي الأَوْصِيَاءَ كُلهُمْ).

وقول علي عليه السلام (أنا عصى موسى أنا ناقة صالح) وإذا أردت أن تقف على حقيقة ما أشرت لّك فانظر إلى خطب عليّ عليه السلام كالخطبة المشتملة على معرفته بالنورانية وغيرها ولا سيما خطبة البيان فإنها قد اشتملت على كثير من ذلك وهي وإن كانت نسخها مختلفة إلاّ أنها مشهورة لا تكاد تخفى حتى أنه نقل عن العلامة الفاخر محمد باقر المجلسي أنه قال إنّ أهل الخلاف نقلوا خطبة البيان.

وبالجملة هذه الدعوى التي ندعيها عليهم مسلّمة عند العارفين المؤمنين فجميع العجائب والمعاجز والدلائل والعلامات والعبر والآيات، فالمراد بها هم وآياتهم كما قال السجاد عليه السلام في قوله تعالى (وَما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ و هي و الله آياتنا و هذه أحدها و هي و الله ولايتنا)(وهذه أحدها وهي والله ولايتنا) وأعلى كل آية وأعظمها هم عليهم السلام وهو ما رواه أبو حمزة عن أبي جعفر عليه السلام (قَال قُلتُ لهُ جُعِلتُ فِدَاكَ إِنَّ الشِّيعَةَ يَسْأَلُونَكَ عَنْ تَفْسِيرِ هَذِهِ الآيَةِ عَمَّ يَتَساءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ العَظِيم قَال ذَلِكَ إِلَيَّ إِنْ شِئْتُ أَخبَرْتُهُمْ وَ إِنْ شِئْتُ لَمْ أُخْبرْهُمْ ثُمَّ قَال لكِنِّي أُخْبرُكَ بتَفْسِيرِهَا قُلتُ عَمَّ يَتَساءَلُونَ قَال فَقَال هِيَ فِي أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ صَلوَاتُ الله عَليْهِ كَانَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ صَلوَاتُ الله عَليْهِ يَقُولُ مَا لله عَزَّ وَ جَل آيَةٌ هِيَ أَكْبَرُ مِنِّي وَ لا لله مِنْ نَبَإٍ أَعْظَمُ مِنِّي)هـ.

ويجري لآخر الأئمة ما يجري لأوَّلِهِمْ فهم الآية الكُبرى كما قال تعالى (لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الكُبْرى) إذا جعلنا الكبرى مفعول رأى لا صفة لآيات وذلك حين خاطبه اللهُ سبحانه ليلة المعراج بلسان علي عليه السلام فإنّه صلى الله عليه وآله وسلم رأى حينئذ أنه ليس

لله آية أكبر من علي عليه السلام لأنّه صلى الله عليه وآله وسلم رأى عليّاً عليه السلام لِساناً عليا في المقام الأعلى ينطق بما أوحى سبحانه على عبده الذي يؤمن بالله وكلماته صلى الله عليه وآله وسلم ، وذلك وراء ما سمع أيّوب عند الانبعاث عند المنطق فشكّ وبكى.

وقوله عليه السلام المخزونة يعني التي لا يعلمها إلا الله وهم لأنهم عليهم السلام ذلك الاسم المخزون المكنون الذي استقر في ظل الله فلا يخرج منه إلى غيره وذلك الظل هو الولي كما قال عليه السلام (السلطان ظلّ الله تعالى في أرضه) والمراد بعدم خروجه منه إلى غيره أنه لا يعرفه غيره وأنه لا يكون إلاّ له تعالى (لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَ لا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ الليْل وَ النَّهارَ لا يَفْتُرُونَ) وأنه (لا يَأْتِيهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلفِهِ)أي لا يكون لغير الله فيما مضى منه ومن جميع أحواله ولا فيما يأتي منه ولا من أحواله ويجوز أن يكون المراد به الكناية عن عزّتها فإن الشيء العزيز عند الشخص يخزنه ويصونه عن غيره ولقد قال شاعر في هذا المعنى فى محبوبه يبالغ في ستره عن غيره قال

أخافُ عليك من غيري ومني
ومنك ومن مكانك والزمانِ
ولو أنّي جعلتك في عيوني
إلى يوم القيامة ما كفاني

ويجوز أن يكون أنهم الآية التي يجب أن تكون مخزونة عنده سبحانه لأنّها لو ظهرت انمحق من نورها كلّ من انتهى إليه شيء من نورها فيجب خزنها وسَتْرُهَا لأجل ذلك أو لأنّها لا يسَعُهَا مكان من دون ما هي مخزونة فيه لإحاطتها بكل ممكن فلا يسَعُهَا ممكن أو لأنّ رتبة وجودها لا يمكن أن يوجد قبلها شيء ولا فيها ولا

معها ليكشِفهَا ولا يدانيها شيء ليعرفها فاقتضى حالها في الحكمة أن تكون مخزونة أو لأن صلاح نظام العالم لا يتوقّف على إظهارها فاقتضت الحكمة سترها.

وقول الشارح رحمه الله (المخزونة لخلّص عباده وهم العارفون ببعض رتبهم) ظاهره أنّها مدَّخرةٌ لهم فإن أراد أن إثابتهم وتقريبهم ورفعهم لدرجات الخلّص مدخرة أمكن صحته على بعدٍ لمخالفته للظاهر واشتماله على المجاز والحذف وإلاّ فلا معنى له وإنما المراد ما سمعتَ مما ذكرنا وما أشبهه.

قال عليه السلام والأمانة المحفوظة والباب المبتلى به الناس

قال الشارح رحمه الله (والأمانة المحفوظة) الواجب حفظها على العالمين ببَذْل أنفسهم دون نفوسهم وأموالهم دون أموالهم وأعراضهم أو إمامتهم تجوزا لقوله تعالى (إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ)الخ، وقوله تعالى (إِنَّ الله يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلى أَهْلِهَا)وروي في الأخبار الصحيحة أنّ المراد بها الإمامة، وإن المخاطب بها في الأخيرة الأئمة عليهم السلام بأن يؤدوها إلى الإمام عليه السلام الذي بعده من الله تعالى .

(والباب المبتلى به الناس) كباب حطة أي ابتلي به بنو إسرائيل بدخولها سجّداً وقولهم حطّة فدخله جماعة فقالوا حطة حُط ذنوبنا ونجوا وبعضهم قالوا حنطة وهلكوا كذلك من دخل في باب متابعتهم نجى ومن لم يدخل هلك كما ورد في الأخبار الكثيرة وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (أَنَا مَدِينَةُ العِلمِ وَعَلِيٌّ بَابُهَا)وقال الله تعالى (وَأْتُوا البُيُوتَ مِنْ أَبْوابِها)انتهى كلامه.

أقول : الأمانة هم عليهم السلام أنزلهم الله سبحانه من غيب قدسه إلى عباده نورا يستضيئون به روى القمي في قوله تعالى(فَآمِنُوا بِالله وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الذِي أَنزَلنَا) قال (النور أمير المؤمنين عليه السلام) .

وفي الكافي عن الكاظم (الإِمَامَةُ هِيَ النُّورُ وَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَل)فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الذِي أَنْزَلنا) (قَال النُّورُ هُوَ الإِمَامُ).

وعن الباقر عليه السلام في هذه الآية قال (وَالله الأَئِمَّةُ عليهم السلام لنُورُ الإمَام فِي قُلُوبِ المُؤْمِنِينَ أَنْوَرُ مِنَ الشَّمْسِ المُضِيئَةِ بِالنَّهَارِ وَهُمْ الذِينَ يُنَوِّرُونَ قُلُوبَ المُؤْمِنِينَ وَيَحْجُبُ الله نُورَهُمْ عَمَّنْ يَشَاءُ فَتُظْلِمُ قُلُوبُهُمْ وَيَغْشَاهُمْ بِهَا)هـ.

فحيث أنزلهم إلى الخلق ألزم خلقه الوفاء بما عاهدوه من الوفاء بحفظ ما أنزل إليهم حين قال لهم (أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى)وقد ترجم هذا العهد لهم رسوله الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم الغدير للنّاس بلسانهم ليبيّن لهم فقال(ألست أولى بكم من أنفسكم قالوا بلى قال فمن كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله).

وفي مختصر بصائر سعد الأشعري عن موسى بن جعفر عليه السلام قال قال الصادق عليه السلام (من صلى على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فمعناه أني أنا على الميثاق والوفاء الذي قبلت حين قوله (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى)، فأنزل عليه شاهد الترجمة قرآنا ناطقاً بلسانٍ عربيّ مبين يفهم مرادهُ مَن سبقت له العناية بفهمه قال تعالى وقوله الحقّ (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ الله وَرَسُولُهُ وَالذِينَ آمَنُواْ الذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ)، فلمّا كلّفهم سبحانه وترجم ذلك التكليف محمد صلى الله عليه وآله وسلم لهم بقوله (ألستُ أولى بكم من أنفسكم) وشهد الله لترجمته بقوله (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ الله) الآية وأكمل لهم الدين بالمراد من تبيين نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أنزل في عباده آية الجزاء فقال تعالى (فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ الله فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عظيماً)والوفاء بما عاهدهم عليه من حفظ الأمانة المنزلة إليهم وهو النور وهو الأئمة عليهم السلام وهو

ولايتهم وهو الدين الخالصُ لله وحفظهم الواجب من الله على خلقه أن يحفظوا أنفسهم عليه السلام وما لهم وعرضَهم ودينَهم ومعرفتهم وحبّهم والولاية بهم والبراءة من أعدائهم والردّ إليهم والتّسليم لهم في كل حالٍ ، والتزام حدودِهم والقيام بأوامرهم واجتناب نواهيهم على حسبِ ما حددوا ببذلِ أنفسهم دونهُمْ وماهم وأهليهم بألسنتهم وأيديهم وقلوبهم وجميع جوارحهم لا يعصونهم في شيء يمتثلون أوامرهم ويجتنبون نواهيهم ويؤثرونهم على أنفسهم في كل شيء فمعنى المحفوظة التي أمر الله بحفظها على هذا الوجه ونحوه، ومعنى المحفوظة أيضاً أنّه سبحانه حفظها وسترها على نحو ما ذكرنا في المخزونة ومعنى المحفوظة أيضا أنّه سبحانه جعلها في حفظِه ورِعايته فلا يقدر أحد من الخلق أن يخفض قدرهم أو يغيّرهم عن مراتبهم التي رتبهَمُ اللهُ فيها وهو معنى قوله تعالى (يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ الله بِأَفْوَاهِهِمْ وَالله مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ).

وفي الكافي عن الكاظم عليه السلام (قَال يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا وَلاَيَةَ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عليه السلام بِأَفْوَاهِهِمْ قُلتُ والله مُتِمُّ نُورِهِ قَال وَالله مُتِمُّ الإِمَامَةِ لِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَل الذِينَ فَآمِنُوا بِالله وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الذِي أَنْزَلنا فَالنُّورُ هُوَ الإِمَامُ عليه السلام (وَالله مُتِمُّ نُورِهِ) بالقائم من آل محمد عليهم السلام إذا خرج يظهره الله على الدين كله حتى لا يعبد غير الله)هـ .

ومعنى المحفوظة أيضاً أنه سبحانه حفظها بالعصمة والتأييد والتسديد والإمداد بالنور الحقِّ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ومعنى قولنا إنّهم الأمانة لأن الله سبحانه أنزلهم من غيب قدسِه إلى عبادِهِ نوراً يستضيئون به أنَّهم إنّما صنعهم لأجله وصنع من سواهم لهُم فلمّا كان من سواهم لا ينتفعون به إلاّ مع بقائه وصلاحه وبقاؤه وصلاحه لا يمكن إلاّ بالاستمداد

من النور والاستمداد من النور لا يكون إلاّ منهم عليهم السلام وبواسطتهم ولا يمكن وصول من سواهم إلى مقامهم أنزلهم تراجمةً عنه نوراً يستضيء به مَنْ سواهم فكانوا عليهم السلام أمانتهُ عند عباده لأنهم له وحده كما قال تعالى في الحديث القدسي(خلقتُ الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي وقربي) هـ.

ولك أن تفسر الأمانة بولايتهم ولك ما ذكر فيهم يذكر في ولايتهم بلا فرق إلا أنّ الكلام يكون فيه مجاز على الظاهر لأنهم غير الولاية ولك أن تجعلهم أصل الولاية فتكون هي صفة لهم وهو معنى التفويض الصحيح الذي ذكروه في أخبارهم كما أشرنا إليه سابقا لأن التفويض الباطل المستلزم رفع سلطان الحق تعالى عن ملكه، بل معنى التفويض الحق هُو مَا فوّض سبحانه الرمي إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبيّن حقيقة هذا التفويض الحق بقوله الحق (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلـكِنَّ الله رَمَى)فحاصل هذا التفويض ومعناه جعلهم أولياء على جميع خلقه يتصرّفون فيهم بأمر الله كما شاء الله أنْ يفعلوا فهم إذا شاءوا شاء الله ولا يشاءون إلاّ أن يشاء الله وهو قوله تعالى (هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيرِ حِساب)فالسر الجامع لأنهم يفعلون ما شاءوا ولا يشاءون إلا أن يشاء الله هو قوله(هَذَا عَطَاؤُنَا) أي بمشيتنا وقوله (فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ) أي بمشيّتك فهذا ولايتهم التي هم أصلها ولك أن تجعل الولاية أصلاً لهم وذلك لأنّ الولاية هي ولاية الله الأزليّة قال تعالى (هُنَالِكَ الوَلايَةُ لله الحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا)وهُم عليهم السلام مظاهرُ تلك الولاية وذواتُهُمْ صِفَتُها ومثلها ودليلها فما هم إلاّ آيتها قال عليّ عليه السلام (أنا صاحب الأزلِيّة الأوّليّة) فعلى اعتبار أنّها الأصل قال تعالى (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلـكِنَّ الله رَمَى)وعلى اعتبار أنّها الفرع قال تعالى (إِذْ رَمَيْتَ) فعلى الفرعيّة هي المجاز وعلى الأصلية

هم المجاز وهو قول الباقر عليه السلام (في قوله تعالى ولئن قتلتم في سبيل الله أو متّم) فقال (يا جابر أتدري ما سبيل الله قلتُ لا والله إلا إذا سمعتُ منك فقال القتل في سبيل علي عليه السلام وذرّيّتهِ فمن قتل في ولايته قتل في سبيل الله)الحديث.

وهذا الحديث جار على فرعية الولاية فعلى فرعيتها هي الأمانة المحفوظة بما قلنا وفيهم اعتباران حينئذٍ ، فباعتبار أنّهم المقامات العُليا هم المودعِون والمستحفظون بالبناء للفاعل وباعتبار أنّهم المعاني أو الأبواب هم أيضا الأمانة المُسْتَحْفَظَةُ بالبناء للمفعول وعلى أصليتها هم الأمانة المستحفَظَةُ بالبناء للمفعول لما وهي المستحفظة بالبناء للفاعل .

والأمانة المحفوظة هي الأمانة المعروضة في قوله تعالى (إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا) وقال الرضا عليه السلام (الأمانة هي الولاية من ادعاها بغير حق كفر).

وفي البصائر عن الباقر عليه السلام (هي الولاية أبين أن يحملنها كفراً وحملها الإنسان والإنسان أبو فلان).

وفي المعاني عن الصادق عليه السلام (الأمانة الولاية والإنسان أبو الشرور المنافق).

فهذه الروايات تدلّ على أن الأمانة هي الولاية ويجوز أن يكون المعروض هم الأئمة عليهم السلام فعن الصادق عليه السلام ما معناه أن الله عرض أرواح الأئمة على السموات والأرض والجبال فغشِيَها نورهم وقال في فضلهم ما قال ثم قال(فولايتهم أمانة عند خلقي فأيّكم يحملها بأثقالها ويدعيها لنفسه فأبت من ادعاء منزلتها وتمني محلّها من عظمة ربهم فلما أسكن الله آدم وزوجته الجنّة وقال لهما ما قال حملهُما الشيطان على تمنّي منزلتهم فنظرا إليهم بعين الحسد فخُذِلا حتى أكلا من شجرة

الحنطة إلى أن قال فلم تزل أنبياء الله بعد ذلك يحفظون هذه الأمانة ويخبرون بها أوصياءهم والمخلصين من أُمتهم فيأبون حملها ويشفقون من ادّعائِها وحملها الإنسان الذي قد عرف بأصل كل ظلم منه إلى يوم القيامة وذلك قول الله تعالى (إنا عرضنا الأمانة) الآية.

فدل على أن المعروض الأئمة والأمانة ولايتهم والآية تدلت على أنّ المعروض هو الأمانة والمراد واحد لأنّ عرضهم لقبول ولايتهم والتكليف بها فعرضهم لعرضِها وعَرضُها بعرضهِمْ.

قوله عليه السلام (والباب المبتلى به الناس) المراد بالباب باب حطة قيل هو باب القرية التي أمروا بدخولها وهي أريحا قرية من قرى الشام وقيل باب القبة التي كانوا يصلون إليها وقيل باب حطّة من بيت المقدس وهو الباب الثامن وذلك بعد التيه. وفي تفسير العسكري عليه السلام (وكان خلافهم أنّهم لما بلغوا الباب رأوا باباً مرتفِعاً قالوا ما بالُنا نحتاج أن نركع عند الدخول هاهنا ظننّا أنه باب متطامِن لا بد من الركوع فيه، وهذا باب مرتفع وإلى متى يسخر بنا هؤلاء يعنون موسى ثم يوشع بن نون ويسجدُوننا في الأباطيل وجعلوا اسَتْاههم نحو الباب وقالوا بدل قولهم حطّة ما معناه حنطة حمراء فذلك تبديلهم).

أقول: (قالوا حِطا سُمْقَاثَا أي حنطة حمراء بلغة القبط وقيل طُوطِىءَ لهم الباب أي خُفِضَ ليخفضوا رؤوسهم فلم يخفضوها، ودخلوا مُتزَحّفين على أوراكهم وعلة ذلك أن الله سبحانه مثّل على الباب مثال محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعلي عليه السلام وأمرهم أن يسجدوا تعظيما لذلك ويجدّدوا على أنفسهم بيعتهما وذكر موالاتهما ويذكروا العهد والميثاق المأخوذين عليهم لهما لأن الله تعالى أمر نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم أن يأخذ العهد

والميثاق لمحمد ﷺ وعلي عليه السلام على بني إسرائيل في أصل إسلامهم، وبين لهم أن النصر على الجبّارين والفتح إنما يحصل من الله تعالى بالتوجّه إليه تعالى بهما والإخلاص لهما والقيام بولايتهما فلمّا فتح بهما عليهم ودخلوا القرية مثلّ صورتهما على باب القرية وأمرهم بالسجود لله تعظيما لهُمَا وشكراً لنعمته عليهم بهما ثم إن رسول الله ﷺ لوّحَ بالسر لأهله بقوله (لترِكُبنَ سنن من كان قبلكم حذْوَ النعل بالنعل والقذة بالقذة حتى لو سلكوا جُحْرَ ضب لسلكتمُوه) ، وأظهر هذا المعنى للخاصّة والعامّة ليكون حجّة على الجاحدين.

وفي عيون الأخبار عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال قال رسول الله ﷺ (لكل أمّة صديق وفاروق وصدّيق هذه الأمة وفاروقها علي بن أبي طالبِ إن علياًّ سفينة نجاتها وباب حطّتها).

وفي الخصال قال علي عليه السلام (وأما العشرون فإنّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول مثلك في أمّتي مثل باب حطّة، في بني إسرائيل فمن دخل ولايتك فقد دخل الباب كما أمر الله عز وجل).

وفيه يقول أمير المؤمنين عليه السلام في حديث طويل (ونحن باب حطّة).

وفي كتاب التوحيد عنه عليه السلام قال (أنا باب حطّة).

وفي روضة الكافي قال عليه السلام (ألا وَإِنِّي فِيكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ كَهَارُونَ فِي آلِ فِرْعَوْنَ وَكَبَابِ حِطَّةٍ فِي بَنِي إِسْرَائِيل).

وعن الباقر عليه السلام عنه عليه السلام أنه قال(نحن باب حطّتكم).

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة والمراد بالباب المبتلى به الناس كما ذكرنا باب حطّة وهم باب حطّة هذه الأمة كما قال عليه السلام (نحن باب حطّتكم) بل باب حطة

كلّ الخلق من الحيوانات والنباتات والجمادات لأنهم هم ذمام الله المنيع الذي لا يطاول ولا يحاول الّذي ذل لهُ كلّ شيء، وقد أخذ الله سبحانه الميثاق على جميع خلقه الصامت منهم والناطق بقبول ولايتهم فمن قبلها صلح ومن لم يقبلها فسد وباب حطّة الذي في بني إسرائيل مثلهم لبني إسرائيل ولهذا مثّل سبحانه عليه مثال محمد وعليّ صلى الله عليهما وآلهما هذا ما يظهر للناس والذي يشاهده الخواص أنّ مثال محمد وعلي وآلهما صلّى الله عليهما وآلهما ألقاه الله سبحانه في هويّةِ كلّ مخلوق من الصامت والناطق وإليه الإشارة بقول جعفر بن محمد عليهما السلام :

فيا عجباً كيف يعصي الإله
أم كيف يجحده الجاحـــدُ
وفي كـلّ شيء لـه آيــــة
تدلّ عـــلى أنــه واحــد

وذلك من قوله تعالى (سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُ)فقال الصادق عليه السلام (نحن الآيات التي أراكم الله إيّاها) لأنه عليه السلام قال لعبدالله بن بكر الإرجائي وهو يقول (سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ) فأي أيةِ في الآفاق غيرنا أراها الله أهل الآفاق) وقال (ما نريهم من آية إلاّ هي أكبر من أختها) فأيّ آية أكبر منّا)فنفى كلّ آية في الآفاق غيرهم، مع نصّ القرآن على إثباتها فليس المراد بالآيات غيرهم فإذا كان في الحجر آية تدل على أنه تعالى واحد ثبت أنّ تلك الآية مثالهم لأنّهم عليهم السلام هم هياكل التوحيد وآثار النور من الوجود تلوح على هيئة تلك الهياكل أي تظهر على تلك الهيئة وتلك الهيئة هي مثالهم الذي ألقاهُ الله سبحانه في هويّات الأشياء ثم لمّا كان التكليف

على حسب مقتضى ذوات المكلفين وأفعالهم لأنه سبحانه إنّما كلّفهم بطاعته لما هم عليه في ذواتهم وفي انبعاث أفعالهم عنهم وذلك تأويل قوله تعالى (وَلَوِ اتَّبَعَ الحَقُّ أَهْواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَل أَتَيْناهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ) أي أنّا ما أتيناهم من الإيجاد والتكليف إلاّ بما هم عليه من مقتضى ذواتهم وأفعالهم وجب أن تكون تلك المقتضيات التي هي كينونات ذواتهم وأفعالهم مرتبطةً بوجوهها من صفاتهم عليهم السلام التي هي مبادئ هيئات أولئك المكلفين، وتلك المبادئ هي أبواب حطّتهم أي المكلِّفين (بكسر اللام) وأمثال هذه الأبواب معارِفُ وآدابٌ وأوامرُ ونواهي وإرشادات ودلائل وهي أبواب حطتهم أي حطة المكلفين (بفتح اللام) وأشباحُ الأبواب الأولى ممثّلةٌ على أبواب حطّة المكلفين (بفتح اللام) التي هي المعارف والآداب والأوامرُ والنواهي والإرشاداتُ، والدلائلُ فأمر الله عز وجل عباده أجمعين بالدخول في هذا الباب سُجّداً خاضعين لله تعالى وتعظيماً لتلك الأمثال التي هي معلقة على أبواب حطتهم التي هي تكاليفهم وشكراً لتلك النعمة العظمى التي هي الهداية والتبصرة والتمكين والتوفيق والدلالة على تلك الأبواب الموصلة إلى بيوته التي أذن الله أن ترفع شأناً وقدراً عن النظائر والأشباه ويذكر فيها اسمه بأن ينزّل مقامها عن مقام الإله الذي لا يعبد سواه واعتقاداً لولايتهم عليهم السلام وأن يقولوا حطّةٌ لذنوبنا ومحو لسيّئاتِنا فمن قام بحكم هذه الولاية فله خير منها كما قال تعالى (مَنْ جاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها) وهم المحسنون الذين لهم الزيادة من الله على قدر إحسانهم ومن ظلمهم حقّهم وبدل قولاً أي إمام جور وضلالةٍ غير الذي قيل له أي أمر به من اتّباع إمام الهُدَى والحقّ فقد هلك فجرت

سنة الله في هذه الأمة كما جرت في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً، وإنّما ابتُلي النّاس بدخول هذا الباب مع أنّه باب السّعادة في الدنيا والآخرة لا يشكُّ فيه أحد منهم لأن التكليف جرى عليهم بالاختيار ليهلك من هلك عن بيّنةٍ ويحيى مَنْ حَي عن بَيْنةٍ وهو مخالفٌ لهوى النفس وشهوتها وخُلِّي بينهم وبين الشيطان فزين لهم ما بين أيدهم وما خلفهم، لأنه فتح عليهم باب هوى أنفسهم فطابقت دعوته هوى أنفسهم فتسلّط عليهم فصدّهم عن السبيل وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة أي ولاية أمير المؤمنين عليه السلام ممن هو منها في شكٍ وقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم لعلي عليه السلام (مثلك في أمّتي مثل باب حطة في بني إسرائيل) مع أن مقتضى ما قررنا أن يقال مثل باب حطة في بني إسرائيل مثلك في أمّتي يريد به أنهم لما كانوا عالمين بقصة باب حطة وكانوا مُصوّبين رأى من دخل في ذلك ساجداً لله تعالى ممتثلاً لما أمر به من قول حطّة مقرّين بنجاته منكرين على من لم يسجد مخطّئين لرأيه معتقدين لهلاكه، وذلك لأنّهم لم يُبْتَلوا به وإنّما ابتُلِي به غيرهم كانت الحكمة في أن يدعوهم إلى ما جهلوا أمرهُ بأن يشبّهَهُ بما أقروا به واعتقدوه بعدما بيّن الله لهم من الأمثال والأدلّة فيما رأوا بأعينهم وسمعوا بآذانهم وفهموا بقلوبهم من جريان أفعال من تأخّر من الأمم على سننِ من مضى وطباعهم وأخلاقهم حتى عرفوا في أنفسهم أنّ الطبيعة تقتضي وجود مثل باب حطّة في هذه الأمة أو إذا وجد في هذه الأمّة نظيره لم يكن مستغربا بل هو جارٍ على ما ينبغي لتشابه الطباع بين سائر الأمم فخاطبهم بالتنظير بما عرفوه لتلزمهم الحجة.

فإن قلت من أين قلتَ إنّهم فهموا ذلك مع أنّهم أعراب وجهّال لا يعرفون مثل هذا الذي لا يعرفه إلاّ آحاد العلماء.

قلتُ إنّما قلتُ ذلك وحكمتُ به لمّا ثبت عند كلّ أحد أنّ من لم يقبل ما دعاهم إليه رسول الله ﷺ فقد ضَلّ عن طريق الحقّ وقد قال الله تعالى (وَما كانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَداهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ ما يَتَّقُونَ)فلو لم يبين لهم ذلك لما حكم عليهم بالضّلالة حين ردّوا تنظير رسول الله ﷺ لهم لأنهم لا يعلمون وليس على العباد أنْ يعلموا حتّى يعلّمهم الله.

قال عليه السلام من أتاكم نجى ومن لم يأتكم هلك

المراد بإتيانهم معرفتهم والرد إليهم ومعرفة فرض طاعَتِهم ووجوب النصيحة لهم واللزوم لجماعتهم وموالاتهم والاقتداء بهم والكون معهم والتسليم لهم في كل حال وذلك لما ذكرنا سابقا أنّهم باب وجود الخلائق وباب التكليف لهم بالشرائع والطرائق والحقائق وهم في ذلك كلّه وجه الإله الخالق سبحانه من توجّهَ إلى الله بهم فقد توجّه إلى الله تعالى ومَنْ توجهَ إلى الله تعالى بدونهم فقد خرّ من السماء سماء الحق والهداية وهوى في سُبُل الباطل والضلالة فتخطفه الطير أي الشياطين أو تهوي به الرّيح أي هوى النفس الأمارة بالسُّوء في مكان من الضلالة سحيق بعيد لا غاية له من الخذلان كما قال تعالى(قُل مَنْ كانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا)وإنّما قال تعالى (الرَّحْمنُ) ولم يقل (الله) مع أنّ الفاعل في الحقيقة واحد لأنه سبحانه يفعل ذلك بهم بوليّه عليه السلام لأنه يذودهم بإنكارهم له ولأهل بيته عليه وعليهم السلام عن الكوثر ويوردهم الحميم وهو قوله تعالى(وَإِذا وَقَعَ القَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ) يعني المنكرين للأئمة عليهم السلام (كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ)يعني يشكون في إمامة الأئمة عليهم السلام (من بعد ما

تبين لهم الهدى) وممّا ورد عنهم في وجوب معرفتهم على جميع الخلق. في الكافي عن زرارة قال (قُلتُ لأَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام أَخْبِرْنِي عَنْ مَعْرِفَةِ الإِمَامِ مِنْكُمْ وَاجِبَةٌ عَلَى جَمِيعِ الخَلقِ فَقَالَ إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَل بَعَثَ مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله وسلم إِلى النَّاسِ أَجْمَعِينَ رَسُولا وَحُجَّةً للهِ عَلى جَمِيعِ خَلقِهِ فِي أَرْضِهِ فَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ وَاتَّبَعَهُ وَصَدَّقَهُ فَإِنَّ مَعْرِفَةَ الإِمَامِ مِنَّا وَاجِبَةٌ عَلَيْهِ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَمْ يُصَدِّقْهُ وَيَعْرِفْ حَقَّهُمَا فَكَيْفَ تَجِبُ عَلَيْهِ مَعْرِفَةُ الإِمَامِ وَهُوَ لا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَيَعْرِفُ حَقَّهُمَا قَال قُلتُ فَمَا تَقُولُ فِيمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَيُصَدِّقُ رَسُولَهُ فِي جَمِيعِ مَا أَنْزَل اللهُ يَجِبُ عَلى أُولئِكَ حَقُّ مَعْرِفَتِكُمْ قَال نَعَمْ أَ لَيْسَ هَؤُلاءِ يَعْرِفُونَ فُلاناً وَفُلاناً قُلتُ بَلى قَال أَ تَرَى أَنَّ اللهَ هُوَ الذِي أَوْقَعَ فِي قُلُوبِهِمْ مَعْرِفَةَ هَؤُلاءِ وَاللهِ مَا أَوْقَعَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِهِمْ إِلا الشَّيْطَانُ لا وَاللهِ مَا أَلهَمَ المُؤْمِنِينَ حَقَّنَا إِلا اللهُ عَزَّ وَجَل).

أقول قد دلّ هذا الحديث وأمثاله على وجوب معرفتهم وقوله عليه السلام (فكيف تجب عليه معرفة الإمام.. الخ) لا يلزم منه أنّ معرفة الإمام لا تجب إلا على المسلمين خاصّة كما توهّمه بعضهم مثل الملاّ محسن في الوافي حيث استدل به على أن الكفار ليسوا مكلّفين بشرائع الإسلام قال (كما هو الحق خلافا لما اشتهر بين متأخري أصحابنا) انتهى.

والحق وجوب ذلك على الكفار وقد ادعى كثير منهم الإجماع على أنهم مكلفون بشرائع الإسلام وهذا الحديث ليس المراد منه هذا الظاهر، بل المراد بيان التلازم لأنه من لم يؤمن بالله ورسوله كيف يؤمن بهم أي لا يثبت له إيمان بهم ولا يقبل منه ومن لم يؤمن بهم وأنكرهم كيف يؤمن بالله ورسوله أي لا يثبت له إيمان بهما ولا يقبل منه ويؤيده ما رواه جابر قَال (سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام يَقُولُ

إِنَّمَا يَعْرِفُ اللهَ عَزَّ وَجَل وَ يَعْبُدُهُ مَنْ عَرَفَ اللهَ وَعَرَفَ إِمَامَهُ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ وَمَنْ لا يَعْرِفِ اللهَ عَزَّ وَجَل وَلا يَعْرِفِ الإِمَامَ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ فَإِنَّمَا يَعْرِفُ وَيَعْبُدُ غَيْرَ اللهِ هَكَذَا وَاللهِ ضَلالا) فقولي بيان التلازم أن المراد أنه لا يعرف الله من لا يعرفهم ولا يعرفهم من لا يعرف الله وهذا واضح وشرط الإيمان المعرفة، فإذا توقف الإيمان بهم على الإيمان بالله والإيمان بالله على الإيمان بهم لزم أنه لا يجب الإيمان بهم حتى يؤمن بالله ولا يجب الإيمان بالله حتى يؤمن بهم وإلاّ لما كان الإيمان بهم شرطاً في الإيمان بالله وأحاديثهم كما سمعت وتسمع إن شاء الله ناصّةٌ على الشرطيّة بلا خلافٍ بينهم عليهم السلام في ذلك مع ما روي عنهم عليهم السلام ما معناه وعن علي عليه السلام وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مثل (ما اختلفوا في الله ولا فيّ وإنما اختلفوا فيك يا عليّ) وإنّ جميع الأمم الماضية الذين أهلكوا بالعذاب إنّما أهلكوا لإنكارهم ولاية الأئمة عليهم السلام فلو قيل بأنه لا يجب الإيمان بهم إلاّ على من آمن بالله لما جاز إهلاك الكفار بإنكارهم الولاية مع أنهم لم يؤمنوا بالله وهذا معنى أحاديثهم وليس هذا محلّ هذه المسألة لننقل الأحاديث وكلام العلماء ونبين كيفيّة الاستدلال وإنما نبّهتُ على هذا استطراداً في الجملة حين ذكرتُ الحديث في الاستدلال على وجوب معرفتهم والرد إليهم وفرض طاعتهم وكان مشتملاً على ما يوهم هذه الشبهة.

وفيه أيضاً عن مقرن قَال سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِاللهِ عليه السلام يَقُولُ (جَاءَ ابْنُ الْكَوَّاءِ إِلى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام فَقَال يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ (وَعَلى الأَعْرافِ رِجالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيماهُمْ) فَقَال نَحْنُ عَلى الأَعْرَافِ نَعْرِفُ أَنْصَارَنَا بِسِيمَاهُمْ وَنَحْنُ الأَعْرَافُ الذِي لا يُعْرَفُ اللهُ عَزَّ وَجَل إِلا بِسَبِيلِ مَعْرِفَتِنَا وَنَحْنُ الأَعْرَافُ يُعَرِّفُنَا اللهُ عَزَّ وَجَل يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلى الصِّرَاطِ فَلا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلا مَنْ عَرَفَنَا وَعَرَفْنَاهُ وَلا يَدْخُلُ

النَّارَ إلا مَنْ أَنْكَرَنَا وَأَنْكَرْنَاهُ إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَوْ شَاءَ لَعَرَّفَ العِبَادَ نَفْسَهُ وَلكِنْ جَعَلَنَا أَبْوَابَهُ وَصِرَاطَهُ وَسَبِيلَهُ وَالوَجْهَ الذِي يُؤْتَى مِنْهُ فَمَنْ عَدَلَ عَنْ وَلايَتِنَا أَوْ فَضَّلَ عَلَيْنَا غَيْرَنَا فَإِنَّهُمْ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ فَلا سَوَاءٌ مَنِ اعْتَصَمَ النَّاسُ بِهِ وَلا سَوَاءٌ حَيْثُ ذَهَبَ النَّاسُ إِلَى عُيُونٍ كَدِرَةٍ يَفْرَغُ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ وَذَهَبَ مَنْ ذَهَبَ إِلَيْنَا إِلَى عُيُونٍ صَافِيَةٍ تَجْرِي بِأَمْرِ رَبِّهَا لا نَفَادَ لَهَا وَلا انْقِطَاعَ).

وفيه عَنْ عَبْدِ الحَمِيدِ بْنِ أَبِي العَلاءِ قَالَ (دَخَلتُ المَسْجِدَ الحَرَامَ فَرَأَيْتُ مَوْلًى لأَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام فَمِلتُ إِلَيْهِ لأَسْأَلَهُ عَنْ أَبِي عَبْدِاللهِ عليه السلام فَإِذَا أَنَا بِأَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام سَاجِداً فَانْتَظَرْتُهُ طَوِيلا فَطَالَ سُجُودُهُ عَلَيَّ فَقُمْتُ وَصَلَيْتُ رَكَعَاتٍ وَانْصَرَفْتُ وَهُوَ بَعْدُ سَاجِدٌ فَسَأَلْتُ مَوْلاهُ مَتَى سَجَدَ فَقَالَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا فَلَمَّا سَمِعَ كَلامِي رَفَعَ رَأْسَهُ ثُمَّ قَالَ أَبَا مُحَمَّدٍ ادْنُ مِنِّي فَدَنَوْتُ مِنْهُ فَسَلمْتُ عَلَيْهِ فَسَمِعَ صَوْتاً خَلفَهُ فَقَالَ مَا هَذِهِ الأَصْوَاتُ المُرْتَفِعَةُ فَقُلتُ هَؤُلاءِ قَوْمٌ مِنَ المُرْجِئَةِ وَالقَدَرِيَّةِ وَالمُعْتَزِلَةِ فَقَالَ إِنَّ القَوْمَ يُرِيدُونِّي فَقُمْ بِنَا فَقُمْتُ مَعَهُ فَلَمَّا أَنْ رَأَوْهُ نَهَضُوا نَحْوَهُ فَقَالَ لَهُمْ كُفُّوا أَنْفُسَكُمْ عَنِّي وَلا تُؤْذُونِي وَتَعْرِضُونِي لِلسُّلطَانِ فَإِنِّي لَسْتُ بِمُفْتٍ لَكُمْ ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي وَتَرَكَهُمْ وَمَضَى فَلَمَّا خَرَجَ مِنَ المَسْجِدِ قَالَ لِي يَا أَبَا مُحَمَّدٍ وَاللهِ لَوْ أَنَّ إِبْلِيسَ سَجَدَ للهِ عَزَّ ذِكْرُهُ بَعْدَ المَعْصِيَةِ وَالتَّكَبُّرِ عُمُرَ الدُّنْيَا مَا نَفَعَهُ ذَلِكَ وَلا قَبِلَهُ اللهُ عَزَّ ذِكْرُهُ مَا لَمْ يَسْجُدْ لآدَمَ كَمَا أَمَرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَل أَنْ يَسْجُدَ لَهُ وَكَذَلِكَ هَذِهِ الأُمَّةُ العَاصِيَةُ المَفْتُونَةُ بَعْدَ نَبِيِّهَا صلى الله عليه وآله وسلم وَبَعْدَ تَرْكِهِمُ الإِمَامَ الذِي نَصَبَهُ نَبِيُّهُمْ صلى الله عليه وآله وسلم لَهُمْ فَلَنْ يَقْبَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُمْ عَمَلا وَلَنْ يَرْفَعَ لَهُمْ حَسَنَةً حَتَّى يَأْتُوا اللهَ عَزَّ وَجَل مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ وَيَتَوَلَوُا الإِمَامَ الذِي أُمِرُوا بِوَلايَتِهِ وَيَدْخُلُوا مِنَ البَابِ الذِي فَتَحَهُ اللهُ عَزَّ وَجَل وَرَسُولُهُ لَهُمْ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ إِنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ

ﷺخَمْسَ فَرَائِضَ الصَّلاةَ وَالزَّكَاةَ وَالصِّيَامَ وَ الحَجَّ وَوَلايَتَنَا فَرَخَّصَ لَهُمْ فِي أَشْيَاءَ مِنَ الفَرَائِضِ الأَرْبَعَةِ وَلَمْ يُرَخِّصْ لأَحَدٍ مِنَ المُسْلِمِينَ فِي تَرْكِ وَلايَتِنَا لا وَاللهِ مَا فِيهَا رُخْصَةٌ).

وفيه عَنِ ابْنِ أَبِي يَعْفُورٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام أَنَّ رَسُول اللهِ ﷺ خَطَبَ النَّاسَ فِي مَسْجِدِ الخَيْفِ فَقَال (نَضَّرَ اللهُ عَبْداً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا وَحَفِظَهَا وَبَلَغَهَا مَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرُ فَقِيهٍ وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ ثَلاثٌ لا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِخْلاصُ العَمَلِ للهِ وَالنَّصِيحَةُ لأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ وَاللُّزُومُ لِجَمَاعَتِهِمْ فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ مُحِيطَةٌ مِنْ وَرَائِهِمْ المُسْلِمُونَ إِخْوَةٌ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ)هذا برواية البزنطي ، وبرواية حماد بن عثمان عن أبان عن ابن أبي يعفور مثله وزاد فيه (وهم يد على من سواهم)الحديث.

وقوله ﷺ (لا يغلّ) من الغلول أو الإغلال يعني لا يخون أو من الغِل بمعنى الحقد والشحناء أي لا يدخله حِقْدٌ يُزيله عن الحق.

وبالجملة إن الأحاديث في وجوب معرفتهم والردّ إليهم وفرض طاعتهم ووجوب النّصيحة لهم واللزوم لجماعتهم وموالاتهم والاقتداء بهم والكون معهم والتّسليم في كل حالٍ وإنّ من كان معهم نجى وكان من المفلحين وإنّ مَنْ لم يأتهم أو ردَّ عليهم أو اعترض عليهم أو عدل بهم سواهم أو تقدّمهم أو تأخّر عنهم أو قدّم عليهم غيرهم أو شكّ فيهم أو في شيء من فضائلهم أو مال بقلبه إلى من فعل شيئاً من ذلك وكان ذلك منه بعد أن تبين له الهدى فهو هالك وهو من الخاسرين.

قال عليه السلام إلى الله تدعون وعليه تدلّون وبه تؤمنون وله تسلّمون وبأمره تعملون وإلي سبيله ترشدون وبقوله تحكمون.

قال الشارح رحمه الله (إلى الله تدعون) بالحكمة العمليّة وعليه تدلّون بالحكمة العلمية من المعارف والحقائق وله تَسلِمُون بالتخفيف والتشديد وإلى سبيله ترشدون الخلقَ بأتمّ الإرشاد والحمل لبيان أحوال حياتهم أو مع أخبارهم المنقولة المُتَواترة عنهم انتهى.

أقول إنّهم عليهم السلام يدعون إلى الله بما دعا به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دعا إلى الله بما أمره به ربّه سبحانه وتعالى قال عز وجل (ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجادِلْهُمْ بِالتِي هِيَ أَحْسَنُ)فالحكمة هي الهدى وهو العلم الذوقي فمنه ما يتعلق بالعمل وهو الحكمة العملية ومنه ما هو معقول وهو الحكمة العلميّة فهم يدعون إلى الله تعالى بالحكمة على المعنييْن العلمي والعملي.

أمّا العلمي فمدركه بالفؤاد وهو يستند إلى الكتاب والسنة وهو طريق التوسم كما قال عليه السلام (اتَّقُوا فِرَاسَةَ المُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ الله)وذلك هو الذي خلق منه كما قال الصادق عليه السلام (إنّ الله خلق المؤمنين من نوره وصبغهم في رحمته وأخذ ميثاقهم لنا بالولاية ولعليّ أمير المؤمنين عليه السلام فالمؤمن أخو المؤمن لأبيه وأُمه أبوه النور وأمه الرحمة وإن المؤمن ينظر بنور الله)قال الصادق عليه السلام (إنما ينظر بذلك النور الذي خلق منه).

أقول قد تقدّم هذا الحديث وبهذا العلم يحصل الهدى إلى المعارف الحقّة.

وأمّا العملي فهو إيقاع الأفعال والأقوال والأعمال على حسب ما يريد الله تعالى بحدوده المشفوعة بالإخلاص لوجه الله الكريم بالتولّي لهم والتّبرّي مِنْ أعدائهم

والتسليم لهم والرد إليهم والاقتداءِ بهم والانتظار لفرجهم ، وبهذا يحصل الهدى إلى ثمرات تلك المعارف وبهذا العملي يزكو العلمي وينمو وبالعلمي يمحض العملي لله سبحانه فالعلمي هو دليل الحكمة ظاهرا والعملي هو دليل الحكمة باطِناً وإن شئت بالعكس وأحدهما يكون منشأ للآخر أو مُصْلِحا أو يزيد فيه وإلى هذا المعنى أشار الصادق عليه السلام بقوله (بالحكمة يُسْتَخْرَجُ غورُ العقل وبالعقل يُسْتَخْرَج غورُ الحكمة).

والموعظة الحسنةّ هو الكتابُ المنير وهو نور اليقين ومدركه العقل وهو يستند إلى الكتاب والسُّنة ومنه قوله تعالى (قُل أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ الله ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقاقٍ بَعِيدٍ) وقوله تعالى (أَ فَمَنْ يَهْدِي إِلَى الحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلاَّ أَنْ يُهْدى فَما لكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ).

وفائدة دليله تحصل بالتوفيق وحجّته ملزمة للمكلّفين وهو أجلى الأدلّة عند المنصفين الطالبين للحق المبين وهو الدليل المنبه للغافلين على آيات رب العالمين فهو حاكم من الله لا يردّ حكمه إلاّ القوم الضالون .

والمجادلة بالّتي هي أحسن هو العلم وهو ما يتركّب من المقدّمات سواء كانت قطعية كما في البرهان الذي قد يطلق عليه الحكمة في اللغة والظاهر أم مقبولة أم ظنيّة مع الترتيب الصحيح كما في الخطابة لينجذب العامي بالتدريج إلى البرهان القاطع كما استجرّ سبحانه المنكرين للبعث حين (قالُوا أَ إذا كُنَّا عِظاماً وَرُفاتاً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلقاً جَدِيداً)قال الله تعالى لنبيّه صلى الله عليه وآله وسلم لهم (قُل كُونُوا حِجارَةً أَوْ حَدِيداً أَوْ خَلقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ) فقرر لهم دعواهم على أعظم ممّا فرضوه فاطمأنّوا بهذا الفرض لأنّ الحديد والحجارة وما أشبه ذلك أبعد في الإعادة من

العظام والرّفات أي الحطام فلم يحيلوا الإعادة وإنّما طلبوا معرفة المعيد سبحانه فقرّر لهم إنّه المبتدئ أولا ، فجوزوا ذلك لأنه في أذهانهم أصعب من الإعادة وهم معترفون بالمبتدئ سبحانه ولكنهم ما رأوا الإعادة فقالوا(هذا الوعد) لم نره فمتى يكون فنقلهم من استبعاد ما جوّزوه إلى تجويز استقرا به بقوله (قُل عَسى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً)حين فرض لهم إمكان قربه وهو (يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ)فروعَهم بحالة الطاعة بعد الإنكار الموجبة للاستئصال وحلول النكال لأنها ليست عن اختيارٍ ورضى بل لقوّة الدعوة وعظم الخطب، ثم أردفه بما يدلّهم على تحقّق الوقوع في صورة شدة القرب وإن كان في نفس الأمر بعيدا لأنه آت فإنّهم يظنون أنهم ما لبثوا إلاّ يوماً أو بعض يوم فانظر بعين البصِيرة كيف نقلهم مع عظيم إنكارهم من حال إلى أخرى إلى ملزوم إقراره وهذا شأن المعجز الذي هو تنزيل من حكيم حميدٍ وفائدة هذا نافعة جدّاً لأن من الناس من لا يحتمل البرهان ابتداء أم مسلمة أم مشهورة مع الترتيب الصحيح كما في مقام الجدَل ومنه قوله تعالى (وَجادِلْهُمْ بِالتِي هِيَ أَحْسَنُ)وإن لم تكن المجادلة مختصّة بهذا الصنف لأنّه معنى اصطلاحي بل هو لغةً واصطلاحاً خاصاً يشمل الأقسام كلّها لأنها قسيمة لدليل الحكمّة ودليل الموعظة الحسنة في الاصطلاح الخاص.

وفائدة هذا الصنف قطع أهل العناد في الدّين والخلاف فيه وإبطال شبههم أو الاحتراس عن سوء إضلالهم وفيه حفظ الدّين عن تغيير المنتحلين وتأويل المبطلين كما فعل الرضا عليه السلام بالنّصراني حيث قال له (وما ننقم على عيساكم إلا ضعفه وقلّة صيامه وصلاته قال الجاثليق أفسدتَ واللهِ عليك وضعّفتَ أمرك وما كنتُ ظننتُ إلاّ أنّك أعلم أهل الإسلام قال الرضا عليه السلام وكيف ذلك قال

الجاثليق من قولك إنّ عيسى كان قليل الصيام وقليل الصلاة وما أفطر عيسى يوما قط ولا نام ليلاً قطّ وما زال صائم الدهر وقائم الليل قال الرضا عليه السلام (فلمن كان يصوم ويصلّي قال فخرس الجاثليق وانقطع) أم مخيّلةً كما في مقام الشعر وفائدته انبساط النفس بالمَدْح أو انقباضها بالذم، وذلك في أنحاء شتى ومنه ما قال علي عليه السلام في ذم الجماع (عورات تجتمع وحياء يرتفع)وقال فيه أيضاً (مبَال في مَبالِ)وربّما يترتب على الصنف منافع كثيرة وَرُبّما يُحْدِث أخلاقاً حميدة كالكرم والشجاعة والديانة وقد يؤثر الحزن والبكاء وأضدادهما والنوم والسهر وغير ذلك خصوصاً إذا حسن الترتيب متوافق الكلم وموزونه وكان بألحانٍ موافقة للحال فإن يؤثر تأثيرا بليغاً جدّاً وهذا هو العِلم ومُدْركه النّفْس ومستنده الكتاب والسنة.

وقد يراد من المجادَلة بالتي هي أحسن الهدى وبالعلم الحكمة وقد يراد من المجادلة الكتاب المنير يعني قد يطلق أحدها ويراد به واحد من تلك الثلاثة التي هي العلم والهدى والكتاب المنير والفارق بينها الاعتبار.

والحاصل أنهم عليهم السلام إلى الله يدعون بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، وهذه الثلاثة الطرق مجملة هي الهدى والكتاب المنير والعلم التي أشار سبحانه إليها في حق أعدائهم الذين يجادلون بالباطل ويصدّون عن سبيل الله قال تعالى (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي الله بِغَيْرِ عِلمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ).

فإن قلت إذا أريد من هذه الثلاثةِ الثلاثة الأول لم يجر على طبق ما ذكر سبحانه لأنه ذكر أنّ بعض المنافقين يجادل في الله بغير واحدٍ من هذه الثلاثة فجعل هذه الثلاثة آلةً للمجادلة وأنت جعلت آلة المجادلة العلم خاصة.

قلتُ أراد سبحانه وهو العالم أنّ من لم يستعمل واحداً من هذه الثلاثة في الاستدلال على دعواهُ فهو المجادل بالباطل وأمّا إذا استعمل واحدا منها فإن كان دليل الحكمة فهو حكيم عليم، وإن كان دليل الموعظة الحسنة فهو نذير وإن كان دليل المجادلة بالتي هي أحسن فهو عالم وليس واحدٌ منهم يجادل بغير علم ولا هدىً ولا كتاب منير بل الأول يجادل بالهدى كما مر والثاني بالكتاب المنير والثالث بالعِلم والمجادِل بواحدٍ منها في الحقيقة داعٍ إلى الله.

وإنّما قال إلىً الله تَدْعُون ولم يقل تدعون إلى الله لِيدلّ على الحصر بمعنى أنهم لا يدعون إلى غيره في حال من الأحوال وهذه خاصّة لهم إذ كلّ من سواهم فله حال من أحواله يَدْعو إلى غيره وإن ندرت.

فإن قلت: فالأنبياء غيرهم وهم معصومون فكيف تكون لهم حالة غير الدعاء إلى الله تعالى.

قلتُ: إن غير محمد وأهل بيته الطاهرين صلى الله عليهم أجمعين من جميع الخلق قد تجري عليهم الغفلة والسهو وهو في هذه الحال من جهة الكون داع إلى الله إذ لا يقوم أحد من الخلق ولا بقاء له إلاّ بهذه الدعوة وهذه الحال لا تغفل عن الله تعالى طرفة عين وهي في الحقيقة حال من أحوال محمد ﷺ وأهل بيته عليهم السلام وهي لهم، وأما من جهة الشرع فهو في حال غفلته داع إلى نفسه أو إلى طبيعته وجبلّته فلا تنحصر أحوال غيرهم في الله تعالى أبداً يعني في رضاه ومحبّته لا فيما يصير إليه إذ كلّ شيء صائر إليه ألا إلى الله تصير الأمور فعنّهم عليهم السلام كانت دعوة الوجودي الكوني وما يلزمه من الأحكام الشرعية الخمسة لجميع من سواهم، وكانت دعوة الشرع لهم أيضا وما يترتّب عليه من الوجودات الدهرية وما فوقَها من السرمدية وما دونها من الزمانيّة.

والشارح جعل دعاءهم إلى الله بالحكمة العمليّة والدلالة عليه تعالى بالحكمة العلميّة وهو كذلك في الظاهر لا غير وأمّا في الحقيقة فكلّ من الحكمتين صالح لكلّ من المقامَيْن ويكون الدّعاء إلى الله تعالى بالحكمة العلمية وتكون الدلالة على اللهِ بالحكمة العمليّة كما في العكس إلا أنه باطن وذلك ظاهر.

فقوله عليه السلام (وعليه تدلّون) يجوز فيه أنّهم يدلّون عليه بالحكمة العلمية الشاملة لدليل الحكمة ودليل الموعظة الحسنة ودليل المجادلة بالتي هي أحسن بطرقه المتقدّمة وأنهم عليهم السلام يدلّون عليه بالحكمة العملية الشاملة عند العارفين بالله للأكوان الوجوديّة وشرعياتها وللأكوان الشرعيّة وَوُجوداتها وتفصيل هذه تقدّم مكرّراً وكذلك وعليه تدلون إنّما قدم الظرف ليدلّ على الحصر لأنّهم لا يدلّون على غيره بل إنّما يدلّون عليه أو على ما يدل عليه.

وقوله عليه السلام (وبه تؤمنون) يعني أنّهم يؤمنون بوجوده وأحديته وسائر صفاته في أفعاله وبأفعاله في مفعولاته وإن كل ما سواه فمنه وبه ولهُ وإليه وبما تعرّف لهم به من وصفِهِ وتعرّض لهم به من رحمته ولطفه وبما وصف به نفسه وبوعده ووعيده وبكتبه ورسله وملائكته وإن الدين كما وصف وإنّ الإسلام كما شرع وإن القول كما قال وإنّ القرآن كما أنزل وأنه هو الحق المبين وإن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم عبده ورسوله وأنهم حجج الله على خلقه، ومعانيه في بلاده وظاهره في عباده وأبوابه في أفعاله وبيُوته في ملكوته وخزائن عِلمه وحفظة سرّه وتراجمة وحيه وأركان توحيده وأصل الإيمان به وأساس التسليم له وودائعه عند خلقه وما أشبه ذلك من أنحاء الإيمان وكل ذلك في الحقيقة هو الإيمان بالله فكلّ موضع ذكر المؤمنون فهم المعنيّون بذلك أو الإيمان فلهم وكل من سواهم تابع في الأصَل والفرع.

وفي تفسير العيّاشي عن سلام عَنْ أَبي جَعْفَرٍ عليه السلام في قَوْلِهِ تَعَالى (قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَما أُنْزِل إِلَيْنا) قَال إِنَّما عَنى بِذَلِكَ عَلِيّاً عليه السلام وَفَاطِمَةَ وَالحَسَنَ وَالحُسَيْنَ وَجَرَتْ بَعْدَهُمْ فِي الأَئِمَّةِ عليهم السلام ثُمَّ يَرْجِعُ القَوْلُ مِنَ اللهِ فِي النَّاسِ فَقَال فَإِنْ آمَنُوا يَعْنِي النَّاسَ بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ يَعْنِي عَلِيّاً وَفَاطِمَةَ وَالحَسَنَ وَالحُسَيْنَ وَالأَئِمَّةَ عليهم السلام فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَوْا (فَإِنَّما هُمْ فِي شِقاقٍ).

وفيه عن المفضل بن صالح عن بعض أصحابه في قوله (قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَما أُنْزِل إِلَيْنا وَما أُنْزِل إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيل وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْباطِ) أما قوله (قُولُوا) فهم آل محمد عليهم السلام لقوله (فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا)هـ.

ولما كان حقيقة الإيمان العليا التصديق بكلّ حقٍ والقيام به والنفي لكلّ باطل والتجنُّب له كان أكمل الإيمان بالله الإيمان بكلّ حق والقيام به والنفي لكلّ باطل والتجنّب له لأنه إيمان لا تكون معه حالة منافية فكان الله أولى بالحق الخالص لأنّه سبحانه استخلصه لنفسه فقال (أَلا للهِ الدِّينُ الخالِصُ)ولا يقوم كما ينبغي لوجهه الكريم مَنْ يشوبه التغيير أو يلحقه التظنين لأن من يأخذه سهو الغفلة يتغيّر حين أخذته الغفلة عن الإذعان إلى عدمه وهذا قد نفاه عليه السلام بقوله (وبه تؤمنون) فافهم.

وقوله عليه السلام (وله تسلمون) بالتشديد والتخفيف بمعنى الانقياد والإذعان وتفويض الأمور كلها إليه سبحانه والإسلام الذي هو الإقرار بالشهادتين من المخفّف وعلى ما بيّن صلى الله عليه وآله وسلم من صفة مقتضاه من قوله صلى الله عليه وآله وسلم(المسلم من سلم النّاس من يده ولسانه)أنه من السلامة إلاّ أن يكون من باب ظاهر الظاهر وعلى ما نسبه أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عليه السلام من قوله(لأَنْسُبَنَّ الإِسْلامَ نِسْبَةً لا يَنْسُبُهُ أَحَدٌ قَبْلِي وَلا يَنْسُبُهُ

أَحَدٌ بَعْدِي إِلا بِمِثْلِ ذَلِكَ إِنَّ الإِسْلامَ هُوَ التَّسْلِيمُ وَالتَّسْلِيمَ هُوَ اليَقِينُ وَاليَقِينَ هُوَ التَّصْدِيقُ وَالتَّصْدِيقَ هُوَ الإِقْرَارُ وَالإِقْرَارَ هُوَ العَمَلُ وَالعَمَل هُوَ الأَدَاءُ)الحديث ، هو الدين الخالص في قوله تعالى (أَلا لله الدِّينُ الخَالِصُ)وهو العبادة العامّة لاشتمالها على كل ما يريد الله الخاصّةُ لخلوصها عن شائبة الشرك بما سوى الله وهو قوله تعالى (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ الله الإِسْلامُ)وهذا الإسلام في الحقيقة هو معنى الإيمان المراد في قوله عليه السلام (وبه تؤمنوُن) بالمعنى الذي ذكرنا وأشرنا إليه.

وعلى المشدد يراد به منهم خلعُ إِنّيّاتِهِمْ عن التحقّق وحق ذواتهم عن التذوُّتِ عند ذكره تعالى في ظهوره ومناجاته ودعائهم وإجابتهم وأمره ونهيه وبعثه في جميع أكوانهم به في كونهم أُذنهُ وعينه ولسانَهُ ويَدهُ وقلبه وحكمه وعلمه وأمره ومعانيه كلها وأبوابه وبيُوتَهُ ومساجده وغير ذلك كما هم حَيْثُ أقامَهُمْ لهُ واصطنعَهَم لنفسه لم يبق منهم إلاّ فعلُهُ وصفته واسمُهُ وآيتهُ ولذا قال تعالى (وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ) وقال تعالى (فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلكِنَّ الله قَتَلهُمْ وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ الله رَمى). وهذانِ المعنيان من المخفّف والمشدّد على ما أشرنا إليه يجتمعان بالاتّحادِ ويفترقان بالتَّرادُفِ. وقوله عليه السلام (بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ) يرادُ منه نفي جميع أعمالهم الجَنَانيّة والأركانيّة واللّسانية بما لهم ولغيرهم لمن سواه سبحانَهُ وهو قوله تعالى (لا يَسْبِقُونَهُ بِالقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ).

والقول يُرَادُ مِنْهُ كلّ ما يقومُ بأمْرِ الله ممّا يصدر عن فعله فإنَّ كُل شيء كلمةٌ له سبحانه فالمشيّة كَلِمتُهُ التي انزجز لها العُمقُ الأكبر والعقل كلمته واللوح كلمته وعيسى كلمة منه أي من كلمته وهم عليهم السلام الكلمات التامات التي لا يتجاوزهن بَرٌّ ولا فاجرٌ.

وبالجملة إنّ الألفاظ قسمان ظاهرة وهي المشتملة على الحروف التي هي الأصوات المخصوصة وباطنة وهي الذوات والصفات والأعمال والحركات المشتملة على الحرُوف الكونيّة الكلية والجزئيّة مما جاءتْ لمعنىً بنفسها أو مع انضمام غيرها إليها من جميع ذرات الوجود في كل شيءٍ بحَسَبِه من الجواهر والأعراض وآجالُها مقدرة بنسبة بقاء الكلمات الّتي تركّبت منها فتفنى بفنائها فإذا فِنيَتْ فنيت عن وقتها الذي قامَتْ فيه ولم تفنَ مِن الذي قبله وقد يبقْى شيء منها في وقته ويكون فناؤُه باعتبار تجاوُز مَنْ فَنِيَ عنه كأمثال الأشخاص وأحوالهم وأعمالهم وأزمنتهم، فإنّ أمْسِ إنما فني عنا اليوم مثلاً لأنّا سرنا عنه إلى اليوم وأمسِ باق في مكانه بما فيه من الأمثال والأحوال والأعمال ألا ترى أنّك إذا التفتَ إليه خيالُكَ رأيته بما فيه من الأمثال والأحوال والأعمال ولو كانت معدومة لم تجدْها، لأن المعدوم لا يُوجد وذلك لأن خيالك ونفسك مِرآة تنطبع فيها صورة المقابل لها ولو كانت تلك فانيةً لما انطبع في خيالك صُورَها كما أنّ المِرآة لا ينطبع فيها صورة بدون مقابل لها مع القطع بأنّ ما في الخيال والمرآة ليس ذاتاً وإنّما هو صفة والصفة لا تتحقّق بغير موصوف على أنّك لا تقدر أن تذكر أنّ زيداً رأيتَهُ يصلّي في المسجد في العام الماضي حتّى يلتفِتَ خيالك إلى ذلك المكان في ذلك الوقت المخصوص، فكل مرة ذكرته إنّما تذكره بعد الالتفات إلى الزمان والمكان المخصوصيْن والمثال المعين فإن شككت فيما بيّنتُ لك فاذكره بغير ذلك الالتفات فإنك لا تقدر أبداً لأن ذكراك إنما هي انتقاش تلك الصوَر في مرآتك فالأشياء باقية في رتبتها التي رتّبها الله تعالى فيها لأنها حين دخلت في ملكه بإيجاده لها كانت عنده في كتابه الحفيظ فكيف تخرج عن ملكه وهو قوله تعالى

(قال فَما بالُ القُرُونِ الأُولى قال عِلمُها عِنْدَ رَبِّي فِي كِتابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسى). وقوله تعالى (قَدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنا كِتابٌ حَفِيظٌ)وقد تقدم من هذا كثير.

والحاصل الذوات كلماتُه بفعله والكلمات اللفظيّة خلقه وعباده (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ)فالحروف اللفظية في جميع اللغات عالم برأسه وأبوهم آدم عليه السلام وهو في اللفظ الألف الليّنة طوله ثلاثة وثلاثون ذراعاً بذراع الشارع عليه السلام وفي أولاده مثل ما في أولاد أبينا آدم عليه السلام من التناكح والتناسل والتحابب والتباغض والتواخي والتشابه والنموّ والأنس والوحشة وغير ذلك لأنها عالم تامّ مماثل لعالمنا إلا أنه مثالنا وظاهرنا كما قال الرضا عليه السلام (الاسم صفة لموصوف)وكما أشار أمير المؤمنين عليه السلام (الروح في الجسد كالمعنى في اللفظ) ولقد تلطّف في الإشارة نفسي فداؤه.

فإذا عرفت ما أشرنا إليه فاعلم أنّ قوله (لا يَسْبِقُونَهُ بِالقَوْلِ) يراد ما يشتمل اللفظي والمعنوي على نحو ما ذكرنا وقوله (وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ) أي للقولين ثم اعلم أن قوله تعالى (لا يَسْبِقُونَهُ بِالقَوْلِ) على حدّ قوله تعالى (فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ)الآية وقوله (وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ)على حدّ (وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللهَ رَمى)قال تعالى (أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ)وقال تعالى (هذا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي ما ذا خَلَقَ الذِينَ مِنْ دُونِهِ)فأبان في هاتين الآيتين وفيما أشبههما من آيات كتابه المجيد تفردهُ بالصّنع وحده لا شريك له ألا له الخلق والأمر فلم يكن لأحدٍ سواه شيء من الخلق إلاّ بإذنه يعني هو المتفرّد بالخلق الحق (إلا بإذنه) و(الذِينَ مِنْ دُونِهِ) أي من دون إذنه إنما يخلقون إفكاً باطلاً ثم لوّح

لأهل الإشارة بأن من كان يعمل بإذنه يعمل الحق قال في حق عيسى عليه السلام (وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي)ولكن عيسى عليه السلام وإن كان خلق بإذن الله تعالى ما هو حقّ لكنّه من الطين الذي لم يخلقه نفخ فيه من الروح التي لم يخلقها فالمادة خلقها الله والصورة التي أحدثها عيسى بحركات يديه وضميره خلقها الله بيدي عيسى وضميره ويدا عيسى وضميره خلقها الله وحركاتهما خلقهما الله وعيسى خلقه الله وكلّما قلنا فيه وفي ضميره ويديه وحركاته فهي قائمة بأمر الله سبحانه قيام صدورٍ فالله يخلق ما شاء كيف شاء (قُلِ الله خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الواحِدُ القَهَّارُ)فإذا سمعت منّا أنّا نقول بأنّهم عليهم السلام بأمره يعملون كل شيء فمرادنا به أنّ ذلك على حدّ ما ذكرنا هنا في حقِّ عيسى عليه السلام فإذا عرفت فقل ما شئت إن قدَرْتَ وهو قولهم الحق (اجعلوا لنا ربّاَ نؤُبُ إليه وقول فينا ما شِئتم ولن تبلغوا فقالت السائل نقول ما شئنا فقال وما عسى أن تقولوا والله ما خرج إليكم من علمنا إلاّ ألِف غيرُ معْطوفَةٍ)هـ، هذا معنى قول الصادق عليه السلام.

وقوله عليه السلام (وإلى سبيله تُرشِدون) السبيل الطَريق يذكّر ويؤنّث والمراد بسبيل الله معرفته وطاعته ودينه ووليّه وولايته وقد تقدّم من هذا كثير ولعلّ هذه الفقرة بيان لما قبلها فإنّ معنى (إلى سبيله ترشدون) إلى الله تدعون أي إلى معرفته وطاعته وامتثال أوامره واجتناب نواهيه وهو معنى (وعليه تدلّون وبه تؤمنون وله تسلّمون وبأمره تعملون) وكلّ ما أريد منها فيما أشرنا إليه يراد هنا وفيه زيادة تراد هُنا ولا تراد فيما قبلها إلاّ بتكلّف لا فائدة فيه وهي أنهم عليهم السلام سبيله فإذا أريد بسبيله غيرهم فظاهر، وإن أريد به هم فيجب أن تعتبر مغايرة الداعي والمدعو إليه بأن يكونوا يدعون العباد إلى أنفسهم من حيث هم سبيل الله لئلاّ

ترجع الدعوة إلى أنفسهم خاصّة لأنّه كفر وكذلك ينبغي هذا الاعتبار في (وبأمره تعملون) لأنهم أمر الله فإذا أريد بالأمر في هذه الفقرة هم فلا بُد من ملاحظة أنّهم يعملون بأنفسهم من حيث أنهم أمر الله وكذا (بقوله تحكمون) فإنهم قوله تعالى (فإذا أردناهم بالقول) في مثل هذه الفقرة ، فلا بدّ من ملاحظة أنّهم قولهُ لا أنهم قول مطلق لاستلزامه المحذور.

وقول عليه السلام (وبقوله تحكمون) يراد منه ما أشرنا إليه من المراد بالقول من اللفظي والمعنوي ويراد من الحكم الحكم الشرعي وحكم إيجاده والحكم الإيجادي وحكم شرعه ويراد من القول اللفظي ما نزل إليهم وما نزل عنهم وما نزل بهم ومن القول المعنوي ما نزل بهم وما نزل منهم ، وأما ما ينزل إليهم فمنهم في الحقيقة وذلك لأنّ الممكن لا بقاء له ولا تقوّم بدون المدد فهو أبداً يتلاشى ويضمحل بالتدريج وأبداً يصاغ ويعاد بالتدريج والمدد الوارد عليه ليس لغيره وإنما هو له لأنه ممّا يمكن له بخصوصه ومما مضى منه بمعنى أنّ ما مضى منه يعود إليه لأنّ ما اضمحلّ من وجوده يلحق بالعدم الإمكاني في وجهه من الإمكان الرّاجح فإذا نزل عليه ذلك المدد من وجهه من الإمكان الراجح وُجِدَ بوجوده ، وبيانه أنّ وجه زيد من الإمكان الراجح أي المشيّة وما تقوّمت به وتحققت وظهرت به هو كنهه الذي لا يفنى ووجهه الذي لا يهلك ولا غاية له في الإمكان ولا نهاية وزيد ظاهره وباطنه من غيبه وشهادته مثال ذلك الوجه وصورته كالصورة في المرآة بالنسبة إلى الوجه المقابل للمِرْآةِ وجعل المدد يجري من الوجه ويتصل بالصورة وبه تقوّمُها وبقاؤها ولو وقف لحظة فُقِد زيد كما أن الصورة في المرآة لو فقدت مقابلة الوجه لحظة فقدت لأنّ بقاءها بذلك، وقد

وكل الله بذلك ملائكة تمكين التكوين كلما اعوجّت قوابل جزء من ذاتِ زيد عن مقابلة وجه ذلك الجزء حتى فنِيَ ولحق بالإمكان الأصلي من ذلك الوجه أقامت الملائكة ما اعوجّ من تلك القوابل حتى قابلت وجهه فظهر في زيد مثل ما فقد منه وكلّما تجدّدت له قوابل لم تكن عنده وجهتها الملائكة إلى وجه زيد من الإمكان الراجح فيعطيها ما سألته بلسان استعدادها فتحمله الملائكة إلى تلك القوابل المتجددة بعد إقامتها للمقابلة، ويكون أوّل ظهور ذلك المدد إلى الكون وتحقّقه مقابلة القوابل للوجه فلا يرد عليه شيء من المدد إلا ما كان له مما يمكن له وما مضى منه هو مما يمكن له فهو عائد إليه فالعائد من المدد هو ما ذهب عنه في أصل المادة وهو غيره في ظاهر الصورة.

وأما في باطنها فهو هو وهذا معنى قولنا وأمّا ما ينزل إليهم فهو منهم في الحقيقة لأنه جل وعز يقول(سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ)(وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسانِ إِلاَّ ما سَعى)هذا باطنه ، وأمّا ظاهره فلو كان ما ذهب من زيد لا يعود وإن ما يأتيه جديد لكان زيد أبداً جديداً لم يكن له عمل يثاب عليه ولا يعاقب به، لأن المباشر للعمل ذهب وأتى جديد لم يعمل شيئاً وهذا في كل لحظة كما ترى في النهر الجاري ما ذهب منه لم يعد وما أتى فجديد وليس كذلك بل ما ذهب منه يعود بعد العدم إلى الوجود (كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ)فإن كان ما عاد حين ذهب طائعا عاد مُسفراً مستبشِراً وإن كان حين ذهب عاصيا واتبع بالتوبة النصوح عاد منه كالأول ومنه خاليا من الصِّفةِ وإن لم يتبع بالتّوبة النصوح عاد عليه غبرة ترهقه قتَرة (قُل مَنْ كانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا).

ثم لمّا كان ما يمكن للشيء غير متناهٍ في الإمكان أبداً وجب أن يكون المدد

غير متناهٍ لأن خزائنه سبحانه لا تتناهى ولا يظهر فيها النقص بكثرة الإنفاق بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء ولا رَيْبَ أنّها من الممكن ولو كانت من القديم لما جاز الانتقال على القديم والتغيّر فما ينزل إليهم عليهم السلام فهو منهم لأنه ممّا يمكن لهم، والشيء حقيقةً إنّما هو شيء بما يمكن له.

فإن قلتَ: إنّ الشيء شيء بالفعل قبل أن ينزل إليه ما ينزل إليه.

قلتُ: إنّما كان شيئاً بما نزل إليه ولا يمكن قيامه لحظةً بدون ما ينزل إليه ليتحقّق له شَيْئيةٌ بدون المدد وحيث قلنا إن ما ينزل إليه هو ما ذهب عنه أوْ ما لهُ وجب أن يكون على هيئة نهرٍ يجري مستديراً يرجع عوده على بَدْئِهِ إلاّ أنّه كرةٌ تدور لا إلى جهةٍ يظهر عليها ما خفي منها فإذا عرفت ذلك فيعتبر عند إرادة القول المعنوي إذا عنيتهم به أنهم عليهم السلام قوله يحكمون به من حيث أنهم قوله لئلا يرجع الحكم إلى أنفسهم فافهم.

قال عليه السلام سعِدَ مَن والاكم وهلك من عاداكم وخاب مَن جحدكم وضلّ من فارقكم وفازَ من تمسّكَ بكم وأمِنَ من لجأ إليكم وسَلِمَ مَنْ صدَّقكم وهُدِي من اعْتَصَمَ بكم.

قال الشارح رحمه الله (وخاب مَن جحدكم) ولم يؤمن بإمامتكم فإنه من الخاسرين الهالكين (وضلّ من فارقكم) وترك متابعتكم في الأعمال أو من كان من المستضعفين فإنّهم الضالون ، وروي أنّ لله فيهم المشيّة (وفاز ونجا من تمسك بكم) علماً وعملاً (وأمِن) من العذاب (من لجأ إليكم) بالاعتقاد والمتابعةِ والإستشفاع (وسلم) من الهلاك (من صدّقكم) في الإمامة وغيرها (وهُدِي) على صيغة المجهول (من اعتصم بكم) كما قال الله تعالى (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله)وهو الأئمة عليهم السلام كماْ في الأخبار المتكثرّة انتهى.

أقول: السعادة ضدّ الشقاوة والمراد من ضدّ السعادة هنا هلاك الدين الذي هو الشقاوة الحقيقيّة في الدّارين فيراد بقوله (سعِد من والاكم) حي حياة طيّبة في الدارَيْنِ لأنه في مقابلة (هلك من عاداكم) فسعادته في الدُّنْيا توفيقهُ لأَفْعَالِ الخير وقبول أعماله، وإن كانت ناقصةً لأن ولايتهم تتمّ ما نقص من أعمال محبيّهم وإثابته على القليل بالكثير ودفع البلايا عنه إلاّ البلايا الجميلة فإنها قد ترد عَلى محبيّهم هديةً من الله سبحانه إمّا لرفع درجته فإنّ عند الله مقاماتٍ لأوليائه شريفة لا تُنال إلاّ بالمحن والبلايا في هذه الدنيا، وإمّا لتكون كفّارةً لذنوبه وإمّا لتدفع بلايا أعظم منها، كما رُوي عن أمير المؤمنين عليه السلام (حين أتاه سلمان الفارسي وهو مُغط رأسه فقال لهُ ما معناهُ ما لك يا أبا عبد الله مُغط رأسك فقال إنّ في زكاماً فقال ما معناه إنّ في كل شخص ستّة عروق عرق الجنون وعرق الجذام وعرق العمى وعرق الطاعون وعرق البرص وعرق البواسير فإذا تحرّك عرق الجنون أرسل الله عليه الزكام فيبطله، وإذا تحرّك عرق الجذام أنبت الله الشعر في الأنف فيبطله فلا تأخذه بالمنقاش وخذه بالمقراض لطيفاً وإذا تحرّك عرق العمى أرسل الله عليه الرمد فيبطله وإذا تحرك عرق الطاعون أرسل الله عليه السعال فيخرجه بلغماً وإذا تحرّك عرق البرص أرسل الله عليه الدّمامل فيخرجه قيحاً وإذا تحرك عرق البواسير أرسل الله عليه شقوق الأعقاب فيبطله) فهذه وأمثالها بلايا من الله ليصلح بها عبده ويدفع بها عنه ما هو أعظم منها مع ما فيها لوليه من الأجر العظيم.

وأمّا البلايا الجميلة فقد ورد فيها كثير من الأحاديث وأحب أن أذكر شيئاً منها هنا لأنّها من أعظم ما ينبغي للمؤمن أن يعرفه ليشكر الله على نعمة البلاء وليعرف أنّها أعظم النعم فمنها ما روي عن الكاظم عليه السلام (من عاش في الدنيا

عيشاً هنيئاً فليتهم في دينه، فإن البلاء أسرع إلى المؤمن من اللمح بالبصر).

وعن الصادق عليه السلام (المؤمن كثير البلوى قليل الشكوى).

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (من حسن إيمانه وكثر عمله اشتد بلاؤه ومن سخف إيمانه وضعف عمله قلّ بلاؤه).

وقال الباقر عليه السلام (إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَل ليَتَعَاهَدُ المُؤمِنَ بِالبَلاءِ كَمَا يَتَعَاهَدُ الرَّجُلُ أَهْلَهُ بِالهَدِيَّةِ مِنَ الغَيْبَةِ وَيَحْمِيهِ الدُّنْيَا كَمَا يَحْمِي الطَّبِيبُ المَرِيضَ).

وعن الصادق عليه السلام (ما من مؤمنٍ وهو يذكر في كلّ أربعين يوما ببلاء يصيبه إما في ماله أو في ولده أو في نفسه فيؤجر وهو لا يدري من أين هو).

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (ما مِنْ شيء يصيب المؤمن من تعب ولا نصب ولا همّ ولا أذىً إلا كفّر الله عز وجل به خطاياه).

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم (طينة المؤمن من كل شيء إلاّ الكذب والخيانة).

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم (إن ولي عليّ عليه السلام لنْ تزوُل له قدَمٌ حتى تثبت لهُ أخرى).

وعن سعدان بن مسلم عن الصّادق عليه السلام (المؤمن مبتلى طُوبى للمؤمن إذا صبر على البلاء وسلم لله تعالى القضاء قلتُ جُعِلتُ فداك من المؤمن الممتحن قال الذي امتحن بوليّه وعدوه إذا مَرَّ بإخوانه اغتابوه وإذا مرّ بأعدائه لعنوه فصبر على تلك المحنة كان مؤمناً ممتحناً).

ومن كتاب التمحيص عن يُونُسَ بْنِ يَعْقُوبَ قَال (سَمِعْتُ أبا عبدالله جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ عليه السلام يَقُولُ مَلعُونٌ مَلعُونٌ كُلُّ بَدَنٍ لاَ يُصَابُ فِي كُلِّ أَرْبَعِينَ يَوْماً قُلتُ مَلعُونٌ قَال مَلعُونٌ فَلَمَّا رَأَى عِظَمَ ذَلِكَ عَلَيَّ قَال يَا يُونُسُ إِنَّ مِنَ البَلِيَّةِ الخَدْشَةَ وَاللطْمَةَ وَالعَثْرَةَ وَالنَّكْبَةَ وَالقَفْزَةَ وَانْقِطَاعَ الشَّسْعِ وَأَشْبَاهَ ذَلِكَ يَا يُونُسُ إِنَّ

الْمُؤْمِنَ أَكْرَمُ عَلى الله تَعَالى مِنْ أَنْ يَمُرَّ عَلَيْهِ أَرْبَعُونَ لا يُمَحِّصُ فِيهَا ذُنُوبَهُ وَلوْ بِغَمٍّ يُصِيبُهُ لا يَدْرِي مَا وَجْهُهُ وَالله إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَضَعُ الدِّرْهَمَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَيَزِنُهَا فَيَجِدُهَا نَاقِصَةً فَيَغْتَمُّ بِذَلِكَ فَيَجِدُهَا سَوَاءً فَيَكُونُ ذَلِكَ حَطّاً لِبَعْضِ ذُنُوبِهِ).

وفي كتاب مسكّن الفؤاد عند فقد الأحبة والأولاد لشيخنا الشهيد الثاني رُوِيَ أنّ أسماء بنت عُميس رضي الله عنها لمّا جاءها خبرُ ولدها محمد بن أبي بكرٍ أنه قُتِل وأحرق بالنار في جيفة حمار قامَتْ إلى مسجدها فجلسَتْ فيه وكظمت غيْظها حتى شخبت يداها دما).

وفيه أيضاً عن أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام قَال (دُعِيَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله وسلم إِلى طَعَام فَلَمَّا دَخَل مَنْزِل الرَّجُلِ نَظَرَ إِلى دَجَاجَةٍ فَوْقَ حَائِطٍ قَدْ بَاضَتْ فَتَقَعُ البَيْضَةُ عَلَى وَتِدٍ فِي حَائِطٍ فَثَبَتَتْ عَلَيْهِ وَلَمْ تَسْقُطْ وَلَمْ تَنْكَسِرْ فَتَعَجَّبَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله وسلم مِنْهَا فَقَال لهُ الرَّجُلُ أَعَجِبْتَ مِنْ هَذِه البَيْضَةِ فَوَ الذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ مَا رُزِئْتُ شَيْئاً قَطُّ قَال فَنَهَضَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم وَلَمْ يَأْكُل مِنْ طَعَامِهِ شَيْئاً وَقَال مَنْ لَمْ يُرْزَأْ فَمَا لله فِيهِ مِنْ حَاجَةٍ)هـ.

أقول: وهذا قليل من كثير فتأمل في هذه الأحاديث فإنها تدلّ على أن البلايا من أعظم نعم الله على عبده المؤمن فيجب شكرها وإنّ الرخاء من الله لعبده فإن كان بعد بلاء وشدةٍ فهو محمود لأنه ترويح له وتفريح وتذكير له ليرجو في الشّدةِ الرخاءَ ثم لا يديم له الرخاء لئلاّ يركن إلى دار الفناء وهكذا حاله مع محب علي عليه السلام وأهل بيته عليهم السلام وهو معنى قوله تعالى (مَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ كَتَرَدُّدِي فِي قَبْضِ رُوح عَبْدِيَ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ)فهذا من سعادة محبي عليّ عليه السلام وهو من البلاء الحسن في قوله تعالى (وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً)ومنها توفيقه لإصابة الصواب في الأقوال والأفعال والأعمال والاعتقادات والعلوم، ومنها دفع الشُّبهَ والشكوك عنه بنور يقذفه الله في قلبه لمحبّته لهُ أوْ يُقدّر لهُ مَنْ يُعلمِهُ أوْ

يُلقِي ما يشاء إليه من الإمدادات في المنام وغيره ، ومنها ظهوره على أعداء الدين بتلقينه الحجّة كما قال تعالى (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلنا وَالذِينَ آمَنُوا فِي الحَياةِ الدُّنْيا)وهو وعد من الله سبحانه بنصر الحجّة ولن يخلف الله وعده ومنها أن يجعل الله له بولايتهم قلباً ذاكراً تخطب عليه الملائكة وتنقر فيه بالإلهامات والأفكار الصائبة حتى يعرف آياتِ الله في الآفاق وفي نفسه ويعقِلُها ويعرف موصوله ومفصوله ويعرف حيث وكيف ولم ويخلص لله الوحدانية في أفكاره وأطواره وأعماله وأقواله كما قال تعالى (يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَما يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الأَلْبابِ)وهم شيعتهم عليهم السلام خاصةً وليس لغيرهم من سائر الناس لبّ بل (وَلَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها) الحكمة (وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها) الآية (ولهم آذان لا يسمعون بها) الموعظة فالحكمة نورهم والآية صفتهم والموعظة فعلهم صلّى الله عيهم أجمعين (أولئك) يعني الناس غير شيعتهم (كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون)يعني عن ذكر الله محمد وأهل بيته صلى الله عليه وآله وسلم بدليل قوله بعد هذا (وَللهِ الأَسْماءُ الحُسْنى فَادْعُوهُ بِها)أي فاعبدوه بها واعرفوه بها وأطيعوه بها واسألوه بها ، وفي قوله (وَللهِ الأَسْماءُ الحُسْنى) نُكْتة وهي أنّ أعدائهم هم الأسماء السوأى وليست لله ولا يُدْعَى بها وإنما يدعى بها الشّيطان ، ومنها أن يجعل الله تعالى له لساناً ذاكرا أي مشتغلاً بذكر الله مثل اللهم صل على محمد وآل محمد ومثل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا اللهُ والله أكبر، ومثل الكلام في العلوم النّافعة لله أو فيما للعلوم النافعة والمواعظ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإصلاح بين الناس والكلام في أمر معيشته على الوجه المشروع ، وبالجملة جميع ما يعنيه من الكلام الراجح في ظاهر الشرع وباطنه.

ومنها أن يجعل الله لهُ بدنا على البلاء صابراً على نحو ما أشير إليه في الأخبار

المتقدّمة من الرضَا وعدم الشكوى لِيُبَدلهُ الله لحما غير لحمه ودماً غير دمِه وبشرا غير بشره يعني لا يعصي الله فيها ومنها أن يقدر الله له زوجة صالحة تسره إذا نظر إليها وتطيعه إذا أمرها وتحفظه إذا غَابَ عَنْهَا في نفسِها وماله، كما في الخبر.

ومنها أن يبصره الله بعيوب نفسِه حتى يشتغل بها عن عيوب غيره ويكون بما اطّلع به على نفسه أبداً ماقِتاً لها يرى نفسَهُ مقصراً في طاعة ربه فهو مستحٍ منه خائف وجل غير آمنٍ من العقوبة وهو لعلمه بكرم ربّه راج للمثوبة ، ومنها أن يظهر الله أعماله الصالحة للنّاسِ ليكون محبوباً عند القلوب بمعنى أنّ كل من رآه استحسن معاملته مع ربّه من صديق وعدوّ ، وفي عيون الأخبار قال حدثنا أبو الصلت عبدالسلام بن صالح الهروي قال سمعت علي بن موسى الرضا عليه السلام يقول (أوحى الله إلى نبي من أنبيائه إذا أصبحت فأوّل شيء يستقبلك فكُلهُ والثاني فاكتُمه والثالث فاقبله والرابع فلا تؤيسهُ والخامس فاهرب منه قال فلمّا أصبح مضى فاستقبله جبل أسود عظيم فوقف وقال أمرني ربّي عز وجل أن آكل هذا وبقي متحيراً ثم رجع إلى نفسه فقال إن ربّي جل جلاله لا يأمرني إلاّ بما أُطِيق فمشى إليه ليأكله فكلما دنا منه صغر حتى انتهى إليه فوجده لقمةً فأكله فوجدها أطيب شيء أكله، ثمّ مضى فوجد طشتاً من ذهبٍ فقال أمرني ربّي أن أكتم هذا فحفر له وجعله فيه وألقى عليه التراب ثم مضى فالتفت فإذا الطشتُ قد ظهر قال فعلتُ ما أمرني عز وجل فمضى فإذا هو بطَيْرٍ وخلفه بازي فطاف الطير حوله فقال أمرني ربّي أن أقبل هذا ففتح كُمه فدخل الطير فيه فقال له البازي أخذتَ صيدي وأنا خلفه منذ أيام فقال أمرني ربّي أن لا أُؤيس هذا فقطع من فخذه قطعةً فألقاها إليه ثم مضى، فلمّا مضى فإذا هو بلحم ميتةٍ مُنتِنٍ مُدَوّدٍ فقال

أمرني ربّي عز وجل أن أهرب من هذا فهرب منه ورجع ورأى في المنام كأنه قد قيل له إنّك قد فعلتَ ما أُمِرتَ به فهل تدري ما ذلك قال لا قيل له أما الجبل فهو الغضب إن العبد إذا غضِبَ ودخل النار لم ير نفسه وجهل قدرَهُ من عظم الغضب فإذا حفظ نفسه وعرف قدره وسكن غضبه كانت عاقبته كاللقمة الطيّبة التي أكلها، وأما الطشت فهو العمل الصالح إذا كتمه العبد وأخفاه أبى الله إلاّ أن يظهره ليزيّنه به مع ما يّدخر له من ثواب الآخرة ، وأما الطير فهو الذي يأتيك بنصيحةٍ فاقبله واقبل نصيحته وأما البازي فهو الرجل الذي يأتيك في حاجة فلا تؤيسه، وأما اللحم المنتِن فهي الغيبة فاهرب منها)انتهى.

فمثّل سبحانه العمل الصالح إذا كتمه صاحبه لله تعالى فإنّه يظهره ليزيّنه بين عباده وذلك من سعادة الدنيا.

ومنها أن يحيَيهُ حياة طيبةَ بأن يرزقه الرضى بما قسم له، وذلك أثر صدق المحبّة لهم وفي قوله تعالى (مَنْ عَمِل صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً)قال القمي (القنوع بما رزقه الله)وسئل علي عليه السلام عنها أي الحياة الطيّبة فقال (هي القناعة)وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّها القناعة والرّضا بما قسم الله تعالى، وأمثال ذلك مما يخص الله سبحانه به عبادهُ الصَّالحين وسعادته بين الدنيا والآخرة أن لا يقبض روحَهُ إلاّ برضاه ليكون باختياره محبّاً للقاء الله لأن من كره لقاء اللهِ كَرِه الله لقاءَه فإن علم أنه محب للبقاء في الدنيا ابتلاه بالمحن في الدنيا حتى يكره البقاء فيها، فإن خيف عليه القنوط رُوّحَ بالرخاء فإذا خيف عليه الركون شُدد عليه حتّى يكره البقاء فيها وهو معنى (مَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ كَتَرَدُّدِي فِي قَبْضِ رُوح عَبْدِيَ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَكْرَهُ مَسَاءتَهُ)الحديث ، يعني أكره أن أقبض رُوحَهُ

وهو غير راض فأكون قد أسأتُهُ أو أكره مساءته بمعنى أني إذا قبضتُ روحه وهو غير راضٍ ختم له بالسُّوء فإذا قرب أجله وحضر أتاه مُحمّدٌ ﷺ وأهل بيته عليهم السلام والملائكة ومَلكُ الموت وكلّ يوصي ملك الموت به ويكون عليه أشفق من الأم الشفيقة ثم تأتيه ريح مُنْسِيَة من الجنة تنسيه أهله وما يحب في الدنيا ثم ريح مسخية حتى يسخي بنفسه وأهله، وما يحبّ للقاء الله ثم يظهر له ملك الموت بصورة رضا أئمّتِه عنه ويخاطبه بصُورةِ لحْنِهِمْ فيمدّ الأول إلى مادة رُوحِه والثاني إلى هيئتها فتنجذب إليهما انجَذاب اشتياقٍ كانجذاب الصفة إلى موصفها والحديد إلى المغناطيس فتنسلّ من أقطار بدنه كانسلال الشعرة من العجين لما تستنشق من طيب نسيم اللّقاء في دار البقاء وهو قوله تعالى (فَرَوْحٌ وَرَيْحانٌ وَجَنَّةُ نَعِيم)ثم تنقل إلى جوار أئمته في الجنّتين المدهامتين وإلى وادي السلام الذي هو دار السلام ، وسعادته في الآخرة بما يتنافس فيه من الدرجات في الجنان والنعيم (فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ)حيث لا ترد عنهم شهوة إلا بما يحب الله ورسوله والأئمة عليهم السلام فهو مكلف بما تشتهي نفسه.

وهذا الذي سمعتَ من نوع السعادة إنما هي لمن والاهم أي لمن آمن بهم بسرّهم وعلانيتهم وأحبّهم وجحد أعداءهم وما يَدَّعُونه من مقامهم وأبغضهم وهذا الإيمان بولايتهم (على الفتح) فإنّها بمعنى التصرّف المطلق كما مر مكرراً و (على الكسر) فإنها بمعنى الملك والسلطان والمعنيان جاريان في قوله تعالى (هُنالِكَ الوَلايَةُ للهِ الحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا)أي الولي الذي جعله الله مظهراً لهذه الولاية (خَيْرٌ ثَوابًا) أي لمحبّيه والمتوالين به المتبعين له وهو قوله عليه السلام (نحن العمل ومحبّتنا الثواب) وما جرى له في هذه الولاية جرى للحامل لها لا فرق بينه

وبينهم إلاّ أنهم عباده وخلقه أي بينه فيما نسب إلى أفعاله وبينهم فيما نسب إليهم بأمره فإنّه إنّما يفعل بما شاء من محالّ أفعاله ومتعلّقاتها وهم محالّ أفعاله وبهم فعل ما فعل كما في قوله تعالى (وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللهَ رَمى).

وقوله عليه السلام (وهلك من عاداكم) معناه على الضد مما سمعتَ في مَن والاهم يجريان على نمطٍ واحدٍ هذا في الخير وذلك في الشر فراجع وتفهّم.

وقوله عليه السلام (وخابَ مَنْ جَحدَكم) أي خسِرَ الدُّنْيا والآخرة ذلك هو الخسران المُبينُ أما خسران الدّنيا فلِما يَرِدُ عليه من ظلماتِ الباطِل والشكوك الموجب للرَّيْن على قلوبهِمْ والطبْع حتى لا يوفَقُوا لشيء من الحقّ لا في اعتقادٍ ولا في عملٍ ولا في طَهارة مولدٍ ولا لرِزْقٍ حلالٍ وذلك لجحودهم ولاية آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأنهم أطاعوا الشّيطان وذلك تأويل قوله تعالى (تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلنا إلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ اليَوْمَ)من قوله تعالى (وَاتَّقُوا الذِي خَلقَكُمْ وَالجِبلةَ الأَوَّلِينَ)وقوله تعالى (وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ)وقوله تعالى (سُنَّةَ اللهِ فِي الذِينَ خَلوْا مِنْ قَبْلُ وَلنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً)لأن أولئك لمّا أتتهم رسلهم بالتوحيد والنبوة والولاية جحدوا ولاية محمد وآله صلى الله عليه وآله وسلم وزيّن لهم الشيطان ولاية غيرهم فقبلوها لما بينهم من المشاكلة في الجور والضّلالة فالشيطان وليهم في الدنيا يخرجهم من النور الذي أتت به الأنبياء من الدعوة إلى قبول الولاية إلى الظلمات التي هي ولاية أعدائهم، وهو (وَلِيُّهُمُ اليَوْمَ)يصور لهم الشيطان في قبورهم عيناه من نحاسٍ ولهم عذاب أليم هذا لمن جحد الولاية ومن جحد الولاية من هذه الأمة بعد ظهور الآيات القاطعات في الآفاق وفي أنفسهم بتبيين سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم حتى حصل لهم اليقين بالحق كما قال تعالى في حقّهم (وَجَحَدُوا

بها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلماً وَعُلُوًّا)بعد البيان كما جحدها الأولون فقال الله تعالى (فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ)الذين زين لهم الشيطان وهؤلاء وليّهم الشيطان يخرجهم من نور الولاية والهداية إلى ظلمات الضلالة والغواية كما ذكرنا بخلاف من تولى بهم فإن الله وليّه يخرجه من ظلمات الجَهْل والضّلالة والغواية إلى نور العلم والولاية والهداية.

وأما خسرانهم في ما بين الدنيا والآخرة فلِما يلقَون من الشدة من حضور أولياءِ الله وأمرهم الملائكة النازعات غرقاً بالتشديد عليهم (يَوْمَ يَرَوْنَ المَلائِكَةَ لا بُشْرى يَوْمَئِذٍ لِلمُجْرِمِينَ)وذلك عند النزع وعند السؤال ومن الضرب بالمِرْزبَةِ ومن الدخان في قبورهم وفورة الحميم.

وأمّا خُسرانهم في الآخرة فنزل من حميم وتصلية جحيم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفّف عنهم مِنْ عذابها ومعنى (جحدكم) أي جَحَدَ كونهم أئمة وأولياء وأوصياء رسول الله صلى الله عليهم.

فإن قلت: كيف يكونون جاحدين وهم لا يعلمون ، ومن المعلوم أنّ الجحود لا يكون إلا بعد المعرفة وقد قال الله (قُل هَل نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمالاً الذِينَ ضَل سَعْيُهُمْ فِي الحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً).

قلتُ: قد ثبت أن الله سبحانه عدل لا يجور وصادق لا يكذب فقال في كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق ﷺ(وَما كانَ الله لِيُضِل قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَداهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ ما يَتَّقُونَ)وقال تعالى (وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً)وأمثال ذلك من القرآن ومن الأحاديث ، فيجب بمقتضى الأدلة القطعية أن تكون الآية الأولى محكمة وأن تكون الثانية متشابهة، وبيان ردها إلى المحكم فيه الجمع بين المختلفات من الآيات والروايات فإن في الروايات ما يطابق الثانية كما تقدم من

قول الصادق عليه السلام (هَيْهَاتَ فَاتَ قَوْمٌ وَمَاتُوا قَبْلَ أَنْ يَهْتَدُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ آمَنُوا وَأَشْرَكُوا مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُون)هو أن الله سبحانه خلق الخلق لإجابتهم دعوته إذ قال (ألستُ بربّكم) فخلقهم كما أجابوه وإن اختلفت إجابتهم ولا ريبَ أن هؤلاء لم يجيبوا كما دُعُوا إلا ظاهراً وقلوبهم منكرة وهم مستكبرون، فكانت صورة ظواهرهم كهيئة هيكل الحق فإذا سمعوا الحقّ استيقنوا به وكانت قلوبهم بسبب إنكارها باعثة لهم على إنكار الحَقّ فلمّا فعلوا خلاف ما اسْتيقنوا به حدثت فيهم صورة الإنكار التي هي ثمرة تغيير خلقِ الله فكانُوا بمقتضى صورة إنكارهم يميلون إلى الباطل الذي هو ولاية أئمّة الجور ويَرْضَوْنَ بها ويعملون بمقتضاها حتّى تشَوَّهُوا بصور الباطِلِ وبمقتضَى هيئة ظواهرهم التي هي الصورة الإنْسانِية الناشئة من الإجابة الظّاهرة يستيقِنُون الحق ولا يعملون بمقتضاها، لأنّ آلات العمل تملّكتها صورة الإنكار وكانت أوْلى بها من صورة الإجابة لسبقِ صورة الإنكار إلى استعمال الآلات في مقتضاها حتى أنست بها بخلافِ صورةِ الإجابةِ فبصورة الإنكار أحبّ الباطل ومال إليْه وبصورة الإجابة التي هي الفطرة استيقنَ بحقية الحقّ وبصورة الإنكار أنكر الحقّ وبصورة الإجابة أنكر الباطل فهو بين المتجاذبَيْن متردّدٌ بين الطرفَيْن فهم في ريبهم يترددون قد جعل الله بهما صدرَهُ ضيّقاً حرجاً كأنّما يصَعَّدُ في السّماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون، فلو لم يَعْرِفِ الحَقَّ لمْ تَقمْ عليه الحجة بتركه ولوْ لمْ يعرف الباطل لم يستحقّ ثواباً على تركِه وفي حال الإنكار والعمل بموجبه يحسب أنّه يحسن صنعاً وفي حال الإجابةِ واستيقان الحقّ مع ترك العمل بموجبه يقطع بضلالته فهو على جميع الأحوال مضطرب الاعتقادات والأقوال والأعمال.

قوله عليه السلام (وضلّ من فارقكم) أي ضاع وتَاهَ وَلمْ يدر أين طريقه أوْ أين مطلبه

ولم يهتدِ إلى طريق نجاته أو مقصوده وبمعنى بطل قال تعالى (وَالذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَأَضَل أَعْمالَهُمْ)وبمعنى الهَلاَك قَال تعالى (إِنَّ الُمجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ)يعني أنَّ مَنْ فارقهم ومن يَقْتَدِ بِهِمْ وَيُقرّ بإمامهمْ ويَتَولاهُمْ ويتبرّأ مِنْ أعْدائِهِمْ بَل تولى بأعدائهم واقتدى بهم ودان الله بحُبِهِمْ ونَصَبَ لأئمةِ الهدى العداوة والبَغْضاء فقد ضَلّ وتاه، ولم يدرِ أين طريق نجاته لانحصار طريق النجاة في اتباع أئمة الهدى عليهم السلام فإذا لم يتّبع سبيلهم عليهم السلام واتبع غيرهم تفرّقت بهم السبُلُ عن سبيله فإمّا إلى اليهوديّة أوْ إلى النصرانية أو إلى المجوسية أو إلى الدهرية أو إلى الثنوية أو إلى عبدة الكواكب أوْ إلى غير ذلك ، وكلها تَصُدُّ عَنْ سبيلِ الحَقّ ولم يدر أينَ مقصوده ، بل إذا جاء مقصوده لم يجده شيئاً لأنه بدون ولاية أولياء الله (كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً)وبطلت أعماله لأنّ شرط الصّحةِ مطابقتها لأمر الله تعالى وأمر الله لا يعرف إلاّ من نبيّه صلى الله عليه وآله وسلمقال تعالى (ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)وقال تعالى (مَنْ يُطِعِ الرَّسُول فَقَدْ أَطاعَ الله وَمَنْ تَوَلى فَما أَرْسَلناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً)وأمرهم أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورسوله وهم عليهم السلام أمروا باتّباعهم ومجانبة أعدائهم إرشادا ، للمؤمنين وإنّ شرط صحة الأعمال وقبولها ولايتهم وطاعتهم فيما أمروا به ونهوا عنه، ومحبّتهم وترك ولاية عدوّهم ومخالفتهم فيما أمروا به ونهوا عنه لأنّ الرشد في خلافهم وبغضهم بالجنان والأركان واللسان بحسب الإمكان.

روى القميّ عن الباقر عليه السلام في قوله تعالى (وَقَدِمْنا إلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلناهُ هَباءً مَنْثُوراً قال أما والله إنهم كانوا يصومون ويصلّون ولكن كانوا إذا عرض لهم شيء من الحرام أخذوُه وإذا ذكر لهم شيء من فضل أمير المؤمنين عليه السلام أنكروُه قال والهباء المنثور هو الذي تراه يدخل البيت في الكوّة من شُعاع الشمس).

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام أن سُئِل عن هذه الآية قَال (إِنْ كانَتْ أَعْمَالُهُمْ لأَشَدَّ بَيَاضاً مِنَ القَبَاطِيِّ فَيَقُولُ الله عَزَّ وَجَل لَهَا كُونِي هَبَاءً وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا شُرِعَ لَهُمُ الحَرَامُ أَخَذُوهُ).

أقول : القباطي بالفتح جمع القُبطيّة بالضم على غير قياس وقد يكسر ثياب بيض رقيقة تنسب إلى القِبط بالكسر وهم أهل مصر لأنهم يعملونـها وإنّما غيرّت النّسبة للاختصاص كما غيّرت في الدُهري بالضم منسوب إلى الدهر بالفتح هذا في نسبة الثياب للفرق بينه وبين الإنسان ولو نسب الإنسان قيل قبطي بالكسر على الأصل وقوله عليه السلام (وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا شُرِعَ لَهُمُ الحَرَامُ أَخَذُوهُ) فيه إشارة إلى أنهم يأخذون بحكم أئمة الضلال يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان يعني إبليس أو الثاني أن يضلهم ضلالاً بعيداً يعني يصدهم عن ولاية أولياء الله وذلك هو الضلال البعيد الذي لا ينتهي إلى خير أبداً ولا ينتهي أبداً بخلاف ما لو كانوا متوالين وأخذوا الحرام، فإن ذلك لا يوجب لهم الضلال البعيد وإنّما كانت أعمال أولئك (هَبَاءً مَنْثُوراً) لأنهم والوا أعداء اللهِ وعَادَوا أوْلياء الله ، وفي البصائر عن الصادق عليه السلام أنه سئل في هذه الآية أعمالُ من هذه فقال (أعمال مبغضينا ومبغضي شيعتنا)هـ.

فبطلان أعمال من فارقهم وجعلها هباءً منثوراً إنّما هو لمفارقتهم وعدم محبّتهم والاقتداء بهم وميلهم إلى أعدائهم لأن شرط الصحة والقبول هو محبتهم والاقتداء بهم عليهم السلام ولهذا كانت شيعتهم ومحبّوهم تقبل منهم أعمالهم لأن الشرط متحقّق بل لو وقعت منهم السيئات بُدّلتْ لهم حسنات، إمّا لأنّ سيئاتهم في الحقيقة ليست منهم بل هي من لطخ أعدائهم كما دلّ عليه حديث أبي إسحاق

الليثي الطويل حديث الطينة عن الباقر عليه السلام (من أن الله يأمر يوم القيامة أن تؤخذ حسنات أعدائنا فتردّ على شيعتنا لأنّهما من طينتهم وتؤخذ سيّئات محبيّنا فتردّ على مبغضينا قال وهو قوله تعالى (فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ).

وإمّا لإقرارهم بذنوبهم فإنه في حق محبي علي وأهل بيته عليهم السلام توبة منها كما روي عن الباقر عليه السلام (قال يؤتى بالمؤمن المذنب يوم القيامة حتى يوقف موقف الحساب فيكون الله هو الذي يتولى حسابه لا يطلّع على حسابه أحد من الناس فيعرّفه ذنوبه حتى إذا أقر بسيئاته قال الله تعالى للكتبة بدلوها حسناتٍ وأظهروها للنّاس فيقول الناسُ حينئذ ما كان لهذا العبد سيئة واحدة ثم يأمر الله به إلى الجنة) فهذا تأويل الآية وهي في المذنبين من شيعتنا خاصّة.

وإما لحبهم أهل البيت عليهم السلام فإنه يكفر الذنوب لأنه حسنة لا يضر معه سيّئة.

وإمّا لأن الله يتحمل عنهم سيئاتهم جزاء لطاعتهم له تعالى في أعظم الطاعات قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم(حبّنا أهل البيت يكفر الذنوب ويضاعف الحسنات لان الله ليتحمل عن محبينا أهل البيت عليهم السلامما عليهم من مظالم العباد إَلا ما كان منهم على إصرار وظلم للمؤمنين فيقول للسيئات كوني حسناتٍ).

وإما لخوفهم من معصية الله والمجازاة عليها فإنه ندم وتوبة ولو كان يوم القيامة كما في جهالهم الذين ما تنبهوا إلاّ يوم القيامة وهم عند الله من المحبين.

فروى القمي عنه أي عن الرضا عليه السلام قال (إذا كان يوم القيامة أوقف الله عز وجل المؤمن بين يديه وعرض عليه عمله ونظر في صحيفته فأوّل ما يرى سيئاته فيتغير لذلك لونه وترتعد فرائصه ثم تعرض عليه حسناته فتفرح لذلك نفسه فيقول الله بدّلِوا سيئاته حسنات).

وإما لأنّ سيّئاتهم لمّا تحملها أئمّتهم عنهم وكانوا عليهم السلام قد استغفروا الله منها فغفرَهَا لهم وهم لا يعلمون بذلك بل ما زالوا خائفين منها فإذا كان يوم القيامة وجدوا سيّئاتهم مكفّرة وحسنات خوفهم مُوَفَرةً فكان ما ظنوا أنّهم مأخوذون به من السيئات حسنات.

وإمّا لِما يشرقونَ به من فاضل حسناتهم على شيعتهم فإنّها تقلبُهَا حَسَنات كما لو تصرّف شخص في مال زيدٍ بغير إذنه فإنّه سَيّئة ثم إنّ زيداً بعد ذلك أباح له تصرفه وأبرأه من التصرف فإنّه حينئذ ينقلب ذلك الحرام حلالاً ، وأمثال ذلك من الشفاعات وهجران المعاصي مع غلبة الطاعات ، ومن مغفرة اللمم لمن اجتنب كبائر الإثم والفواحش ومن الاتكال على حبّهم ومن حسن الظنّ في الله ومن مدّ بصر العاصي إلى جهة ربه تطلعاً إلى مغفرته ومن الشهادة في سبيل الله ومن تحمّل القاتل ومن الانتقال من الإسلام إلى الإيمان، وأمثال ما ذكر وكلّ هذا فإنّما هو لمحبيهم الذين حقّت لهم من الله سبحانه الكلمة الحسنى إذ قال تعالى للجنّة ولا أُبالي وقال تعالى (فَمَنْ يَعْمَل مِنَ الصَّالِحاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لهُ كاتِبُونَ).

وكذلك ضلّ بمعنى هلك فإنّ من فارقهم فقد هلك هلاك الشَقاء الذي لا سعادة بعدَهُ أبد الآبدين لأنّه يفقد كل خير وكلّ راحةٍ وكلّ سرورٍ وكلّ نعمةٍ وكلّ تنعّم وكلّ فرح وكلّ فرجٍ وكل رَوح وكلّ أُنْس وكل استغناءٍ وكلّ شبَع وكلّ رِيّ وكُلّ نوم وكل إدراكٍ وكل ملائم وكل موافقٍ وكل سَعدٍ وبالجملة يفقد كلّ ما يحبّ ولا يفقد شيئاَ مما يكره (لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها كَذلِكَ نَجْزِي كُل كَفُورٍ)بأنعم الله تعالى.

وقوله عليه السلام (وفاز من تمسك بكم) فاز أي نجى وظفر بالخير وتمسك أي اعتصَم يعني أنّ من اعْتصَمَ بولائهم فقد نجى مِنَ النّارِ ومن غضب الجبار ونجى من الضلالة لأنّ اتباعهم هدىَ من الضلالةِ ونور في الظلمات وظفِر بسعادةِ الدنيا وسعادة الآخرة كما مر ، والمراد بالتمسُّكِ بهم الاعتصام بذمامهم وهو ولايتهم وهو ذمام اللهِ المنيع الذي لا يطاوَلُ ولا يُحَاوَلُ ، والذمام هو العهد حين قال لهم في التكليف الأول ألستُ بربّكم ومحمد نبيّكم وعليّ والأئمة من بنيه عليهم السلام أولياؤكم وحججي عليكم قالوا بلى فقال الله تعالى يا أوليائي اشهدوا عليهم فقالوا شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنّا كنّا عن هذا غافلين، أو تقولوا إنّما أشرك آباؤنا من قبل وكنّا ذريةً من بعدهم أفتَهْلكُنَا بما فعل المبطلون ثمّ أخذ عليهم العهد ثانياً كما مرّ بمشهد أنبيائه ورسله فقالوا بلى ، فقال يا أنبيائي ورسلي اشهدوا عليهم فقالوا شَهْدنا ...إلخ ثم أخذ عليهم العهد ثالثاً بمشهد عباده المؤمنين العارفين فقالوا بلى فقال يا عبادي اشهَدُوا عليهم فقالوا شَهدْنا ...إلخ ، ثم أخذ عليهم العهد رابعاً بمشهد الملائكة فقالوا بلى فقال يا ملائكتي اشهدوا عليهم فقالوا شهدنا ...إلخ .

وكذلك أشهد عليهم سائر خلقه فشهد عليهم كلّ شيء من حيوان ونباتٍ وجماد وهذا الذّمام الذي مَنْ تَمسك به فاز هو ولايتهم الكليّة وهي التي أخِذَتْ لها العهود والمواثيق من جميع الخلق وهي معرفة الله سبحانه ومعرفة أوليائه وأنبيائه، والإيمان بسرّهم وعلانيتهم وما دلوا عليه من التوحيد والعدل والنبوة والإمامة والمعاد والصلاة والزكاة والصوم والحج والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجميع التكاليف الشرعيّة والآداب الإلهية فهذه هي الولاية التي فاز من تمسّك بها وأمّا الولاية الخاصّة الّتي هي التّولّي بهم والتبرؤ من أعدائهم فمن تمسّك بها

فاز إلاّ أنّ بعض من تمسّك بهذه يفعل الكبائر وربّما لا تناله شفاعة فيطهّر بالنّار قبل أن يدخل الجنة، وذلك لأن الولاية الخاصة قد تغيرّها المعاصي لأن المعاصي هي من ولاية عدوهم فإذا اجتمعا في شخصٍ فإن لم تزل الولاية الخاصة كانت مقتضية للنجاة موجبةً للجنة سواء كان ذلك بعد التطهير بالنار كما في بعض المحبّين الفاعلين للكبائر أم بعد العفو بنحو شفاعة أو عناية سبقت له أو غيرهما كما مر وإن اعتاد المعاصي حتى أنِستْ بها نفسه وكانت طبيعة له ولم تتداركهُ رحمة بل خُفي ونفسه ورضي بها حتى رانت على قلبه وتَبذّخَ بها ولم ينكرها قلبه بل اطمأنّ بها أخذ في بغض أهل البيت عليهم السلام فكان عاقبة أمره خسرا بخلاف صاحب الولاية الكليّة فإنه في الدنيا ما خرج عن الولاية من المعرفة والعُلوم النافِعة والأعمال الصالحة والآداب الشرعيّة من التقوى والحلم والورع والزهد والكرم والشجاعة والفهم والنباهة وَحُسْن الخلق وغير ذلك.

وأمّا في الآخرة فإنه منذ خرجَتْ روحُه دخلها أي الجنّة إلى نفخة الصّعق ويوم الحشر هو في ظل عرش الرحمن ثم يدخل لا يرى ما يكرهه في جميع المواقف.

وأمّا ما بين النّفختَيْنِ فإنّه في الجنّة أيضاً وإن بطل تركيباته ، والجنّة هي ولايتهم كما دلّت عليه أحاديثهم فعن الصادق عليه السلام ما معناه أنه سمع رجلاً من محبّيه يقول اللهم أدخلنا الجنّة فقال عليه السلام (أنتم في الجنة ولكن اسألوا الله ألاّ يخرجكم منها إنّ الجنّة هي ولايتنا) وهو تأويل قوله تعالى (وَأَمَّا الذِينَ سُعِدُوا فَفِي الجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ ما شاءَ رَبُّكَ عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ)على أحد وجوه الاستثناء فيها.

قوله عليه السلام (وأمِن من لجأ إليكم) أي أمِنَ من المعاصي ببركة ولايتهم ، أوْ أنّ

الالتجاء إليهم مانع من المعاصي ، أو أن المراد بالالتجاء إليهم إنما هو في الاقتداء بهم ولا رَيْب أن ذلك مانع من المعاصي صغيرها وكبيرها إذ لا شيء منهما فرع لهم عليهم السلام، وإنّما هو فرع لأعدائهم ، أو المراد الأمن من الخطأ في الاعتقاد أو الأحكام لأن من اقتصر في جميع أحواله على الالتجاء إليهم فهو آمِنٌ من الجهالة والضّلالة والخطأ وذلك تأويل قوله تعالى (وَجَعَلنا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ القُرَى التِي بارَكْنا فِيها قُرىً ظاهِرَةً وَقَدَّرْنا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيها ليالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ)ففي الاحتجاج عن الباقر عليه السلام في حديث الحسن البصري وقد تقدَّم في هذه الآية قال عليه السلام (بل فينا ضرب الله الأمثال في القرآن فنحن القرى التي بارك الله فيها وذلك قول الله عز وجلّ فيمن أقرّ بفضلِنا حيثُ أمرهم أن يأتونا فقال وَجَعَلنا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ القُرَى التِي بارَكْنا فِيها أي وجعلنا بينهم وبين شيعتهم القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة ، والقرى الظاهرة الرّسل والنّقلة عنّا إلى شيعتنا وفقهاء شيعتنا وقوله تعالى وَقَدَّرْنا فِيهَا السَّيْرَ فالسير مثل للعلم سير به ليالي وأياماً مثل لما يسير من العلم في الليالي والأيام عنا إليهم في الحلال والحرام والفرائض والأحكام آمنين فيها إذا أخذوا عن معدنها الذي أمروا أن يأخذوا منه آمنين من الشك والضلال والنّقْلة من الحرام إلى الحلال).

وعن السجاد عليه السلام إلى أنْ قال (قَال آمِنِينَ مِنَ الزَّيْغ)هـ.

وذلك على نحو ما تضمنت هذه الأحاديث وأمثالها عنهم عليهم السلام أوْ أن المراد الأمن من خطوات الشيطان ووسوسته وتزيينه لقوله تعالى (إنَّ عِبادِي ليْسَ لكَ عَليْهِمْ سُلطانٌ إلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الغاوِينَ)إما أنّه لا يقدر على من التجأ إليهم عليهم السلام أن يخرجهم من الإيمان أو من الإسلام إلى الكفر وإن زين لهم بعض المعاصي

لأن قلوبهم بولاية أئمتهم مطمئِنّة لا يتسلّط عليها الشيطان كما في معاني الأخبار بإسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام في هذه الآية قال (ليس على هذه العصابة خاصّة سلطان قال قلت وكيف جعلت فداك وفيهم ما فيهم قال ليس حيث تذهب إنما قوله لَيْسَ لكَ عَلَيْهِمْ سُلطانٌ أن يحبّب إليهم الكفر ويبغّض إليهم الإيمان).

وفي روضة الكافي عنه عليه السلام أنه قال عليه السلام لأبي بصير (يَا أَبَا مُحَمَّدٍ قَال قُلتُ جُعِلتُ فِدَاكَ زِدْنِي فَقَال يَا أَبَا مُحَمَّدٍ لقَدْ ذَكَرَكُمُ الله فِي كِتَابِهِ فَقَال إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لكَ عَليْهِمْ سُلطانٌ وَالله مَا أَرَادَ بِهَذَا إِلا الأَئِمَّةَ عليهم السلام وَشِيعَتَهُمْ).

وإمّا أنه لا يتسلّط على قلوبهم لأنّ قلوبهم منيرة بحبّ أئمتهم وولائهم واتّباعهم والتسليم لهم والردّ إليهم ، أو لأنّ قلوبهم خلقت من فاضل أجسام أئمتهم عليهم السلام وقد اشترط الله تعالى على إبليس قضاء بمقتضى الحكمة لأن الأنوار تمحق الظلمات، والظلمات ليس لها سلطان على النور لعدم طاقتها به ولبُعدِ رتبتِه عنها ولأن قلوبهم حِزب الله وجنده وحزب الله وجنده هم الغالبون، ولأنّ الشيطان إنما يتسلّط في إغوائه وإضلاله بجهة ظلمته المجتثّةِ الأصل فيأتي من يغويه من الجهة المناسبة لجهته من الجهل والغفلة عن ذكر الله والشهوة والغضب والحسد والتكبّر وأمثال ذلك لأنه يزرع شبهته في المحل المناسب فتنمو حتّى تعظم تلك الجهة الخبيثةِ فتستولي على أضدادها من جنود العقل فتذهب ملائكتها إلى مراكزها من النور فتستولي أضْدادهم من الشياطين على منابر تلك الملائكة من قلب ذلك الشخص فيطبع على قلبه فمن لم تكن هذه الجهات وأمثالها فيه أو كانتْ ضعيفةً مهجورةً لم يقدر الشيطانُ أنْ يتسلّط عليه لأنّه لا يَجِدُ باباً يدخل عليه منه ولو دخل ولم يجد مناسِبا كان ما فيه من نور الوجود الذي تقوَمَتْ به ظلمته مناسباً

لنور المؤمن ويكون سبباً ووُصلةً لإشراق نورِ المؤمن على ظلمة الشيطان فيحترق بإشراق نور المؤمن ولأجل ما ذكرنا كان من لجأ إليهم ﷺ آمِناً من حيل الشيطان لأنه أخذ من النور واستمدّ من النور واعتصم بالنور واحتجب بتفويض أمره إليهم بالنور قال تعالى (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا) يعني بمحمد وآله ﷺ (وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)أي اعتصموا بذمة الله التي لا تخفر وهي ولايتهم والبراءة من أعدائهم بالجنان والأركان واللسان (إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ) أي يتولّون غير ولي الله فإن ذلك هو تولّي الشيطان وإدخالهم في ولاية آل محمدا هو عبادة الشيطان مع الله تعالى.

والحاصل أنّ من لجأ إليهم على ما أشرنا إليه فإنه آمِن من جميع ما يكره الله سبحانه لعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة.

قال عليه السلام (وسلم من صَدّقكم) أي أنّ من صدّقهم سلم من الخطأ والزيغ والشك والضلالة والنفاق ومن المعاصي كلها والفواحش ما ظهر وما بطن لأنه فعل موافق لأمر الله كما قال تعالى(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)لأنهم لا ينطقون إلاّ عن الله ولهذا أمر بالكون معهم إرشادا لبريّته إلى طريق النجاة وفي الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث طويل قَال عليه السلام (وَقَدْ جَعَلَ اللهُ لِلعِلمِ أَهْلاً وَفَرَضَ عَلَى العِبَادِ طَاعَتَهُمْ بِقَوْلِهِ اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)أي أمر الخلق بالكون معهم والتولي بهم والتبري من أعدائهم والرد إليهم والأخذ عنهم والتسليم إليهم في كل شيء ، وفي التهذيب في دعاء صلاة يوم الغدير (رَبَّنَا إِنَّكَ أَمَرْتَنَا بِطَاعَةِ وُلاةِ أَمْرِكَ وَأَمَرْتَنَا أَنْ نَكُونَ مَعَ الصَّادِقِينَ فَقُلْتَ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ وَقُلْتَ اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ

الصَّادِقِينَ فَسَمِعْنَا وَأَطَعْنَا رَبَّنَا فَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ مُصَدِّقِينَ لأَوْلِيَائِكَ وَلا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لنَا مِنْ لدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ).

وفي تفسير العياشي عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال قلتُ أصْلحَكَ الله أي شيء إذا عملته استكملتُ حقيقة الإيمان قال توالي أولياء الله محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين وعلي بن الحسين عليهم السلام ثم انتهى الأمر إلينا ثم ابني جعفر وأومَأ إلى جعفر وهو جالس فمن والى هؤلاء فقد والى أولياء الله وكان مع الصادقين كما أمره الله)الحديث.

فمن صدّق من أخبر الله بصدقهم وأمر بالكون معهم فقد سلم من جميع المضار والمكاره في الدّنيا والآخرة.

ومعنى (سلم) أنّه لا يصيبه منها شيء كما في الدعاء (وتُخْرِجَني مِنَ الدُّنْيَا آمِناً وَأَنْ تُدْخِلِنِي الجَنَّةَ سَالِماً)أي من النار بأن لا يكون من الذين أصيبوا بشيء من النار ولو بدخول الضحضاح من نار، ويحتمل أنه يكون سالماً من نار جهنّم وإن طُهِر في الضحضاح من نار لأنه ليس من حقيقة النار وإنّما هو من ظِلّها ويحتمل أن يكون سالماً منها في البرزخ أوْ سَالِماً ممّا هو منها من جميع مكاره الدنيا والآخرة كالهمّ والمرض والفقر والحر والبرد الزائدين على ما يلائم الطباع وما أشبه ذلك، ومن ظاهرها في البرزخ ومنها يوم القيامة وحديث أبي حمزة دالّ على أن المراد بالموالاة الحقيقيّة هي القيام بجميع ما أمر الله وأراد والاجتناب عن جميع ما نَهى وكرِهَ لأن به اسْتِكمال حقيقةِ الإيمان والكون مع الصادقين وهذا لا يكون إلاّ بإقامة الولاية بالقلب والفؤاد من المعرفة وحُسْن الاعتقاد وثباته وباللّسان من الأقوال الخالصة في الثناء عليهم من صلاة وقراءة ودعاء وتسبيح ومن كل ما

يعني محبهم من الأقوال في مصالح دنياه وآخرته وبالجوارح من الأعمال الصِّالحةِ كما سَنوُا وأسَّسوا وهو كذلك لأن الله سبحانه يقول (إِنَّا عَرَضْنَا الأَمانَةَ عَلى السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَالجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْها)الآية.

مع أن السموات والأرض والجبال قَد قَبلنَ منها ما يقدرن عليه وهو قوله (ثُمَّ اسْتَوى إلى السَّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ فَقال لَها وَلِلأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالتا أَتَيْنا طائِعِينَ)والحاصل أنّ من صدّقهم في جميع ما قالوا عن الله عز وجل من اعتقادٍ وقولٍ وعملٍ وآداب فقد سلم من جميع مكاره الدنيا والآخرة لأنهم لله تعالى فلا يتقوّلون عن الله ولا يَتكلّفون ما لم يرده الله سبحانه.

قال عليه السلام (وهُدِي مَنِ اعْتصَمَ بكمْ) هذه الفقرة تصلح شاهداً للّتي قَبْلها يعني أنّ الّذي صَدَّقهم ظاهراً بالإقرار وَبَاطِناً بالعَمَلِ والمتابعة فقد سلم ممّا يكره الله سبحانه في الدُّنيا والآخرة وهو معنى هُدِي من اعتصَم بكم ، لأن من اعْتَصَم بهم ظاهراً بالإقرار وباطِناً بالعَملِ والمتابعَةِ فقد هدي إلى كل ما يحبّ الله سبحانه في الدنيا والآخرة، وإنْ كان الأول في النفي والثاني في الإثبات لاستلزام كل منهما الآخر والمراد بهذه الهداية الهداية للّتي هي أقوَمُ يعني أنّ مَن اعتصم بهم على ما هو المتعارف من الاعتصام هدِي إليهم أي إلى معرفتهم وهدي إلى ولايتهم أي إلى القيام بمقتضاها في متابعتهم كما أمروا وكما عملوا وفي قوله تعالى (إِنَّ هذَا القُرْآنَ يَهْدِي لِلتِي هِيَ أَقْوَمُ)في الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام (قال يهدي للإمام).

وفيه عنه عليه السلام (قال يهدي أي يدعو).

وفي تفسير العيّاشي (قال يهدي إلى الولاية).

فعلى الأول يهدي إلى معرفة الإمام أمر وعلى الثاني يدعو إليه أي إلى معرفته

والائتمام به والاتّباع له والأخذ عنه وعلى الثالث يَهْدِي إلى الولاية العامّة الشاملة لجميع ما أحبّ للعبد مما يريد منه كما تقدم وإنّما قلنا المراد بهذه الهدايةِ الهداية للتي هي أقوم المفسرة في الآية بما سمعتَ، وقلنا يعني إنّ من اعتصَم بهم على ما هو المتعارف ...إلخ لأن من اعتصم بالقرآن هدي إلى ولايتهم وإليهم والتي هي أقوم ولايتهم وهم يعني معرفتهم عليهم السلام فمن اعتصم بهم هُدِيَ إلى ذلك بطريقٍ أولى لأن القرآن كتاب الله الصامت وهو حبل طرفهُ بيد الله وطرفه الآخر بيد خلقه إلاّ أنه نزل على طبق الخلق والخلق فيهم النص والمحكم والظاهر والمؤول والمتساوي حاله والمشتبه والنسخ والاختلاف والتضايف وما لا يكون منه كل ما يمكن له إلاّ بمُتمِّم، وما يكون منه الخير بإضافة الخير والشر بإضافة الشر ومنهم السابق بكله واللاحق بكلّه أو بالبعض فيهما والمرجوّ وفي الباطن دون الظاهر وبالعكس وما أشبه ذلك والقرآن كذلك وما كان هذا حاله لا يستقلّ بالإصلاح إلاَّ بكتاب الله الناطق المطابق له في كل شيءٍ والكتاب الناطق وإن كان ينبئ عن الصّامت إلاّ أنّه يستقِلّ بالإصلاح فلذا قلنا من اعتصم به هدي للّتي هي أقوم أي معرفته وولايته بطريق أولى لأن القرآن إنما يهدي إليهم وإلى ولايتهم.

وفي معاني الأخبار عن علي بن الحسين عليه السلام قال (الإمام لا يكون إلاّ معصوماً وليست العصمة في ظاهر الخلقة فيعرف بها وكذلك لا يكون إلاّ منصوصاً فقيل يا ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فما معنى المعصوم فقال هو المعتصم بحبلِ الله وحبلُ الله هو القرآن يهدى إلى الإمام وذلك قول الله عز وجل (إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلتِي هِيَ أَقْوَمُ)هـ.

هذا على ظاهر يهدي وعلى تأويله بمعنى يدعو كما تقدّم في حديث الكافي يكون أعمّ من الهداية فيكون القُرآن يهدي إلى الاعتصام بهم وبولايتهم أوْ يدْعُو

وعلى كل تقدير فالمعتصم بهم أولى بالهداية من المعتصم بما يدعو إليهم أو يهدي إليهم ولما قلنا من أنّ الاعتصام بالناطق أقوم من الاعتصام بالصّامت فافهم.

قال عليه السلام من اتّبعكم فالجنّة مأواهُ ومن خالفكم فالنار مثواه

أقول: هذان الحكمان لا تختلف فيهما الشيعة وكثير من العامّة قائلون بهما من جهة النصوص الواردة في هذا المعنى من الفريقين وإنما يدّعون أنهم من أتباعهم ومحبيهم وإن ما هم عليه هو مذهب محمد وأهل بيته صلى الله عليه وآله كذا قاله بعضهم وقد رووا أحاديث لا تكاد تحصى بطرقهم عن النبي صلى الله عليه وآله وعن الصحابة وعن أئمتنا عليهم السلام في هذا المعنى فمنها ما رووه أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قال (قال رسول الله صلى الله عليه وآله يا علي أنت أمير المؤمنين وإمام المتقين يا على أنت سيد الوصيين ووارث علم النبيين وخير الصديقين وأفضل السابقين يا عليّ أنت زوج سيدة نساء العالمين وخليفة خير المرسلين، يا علي أنت مولى المؤمنين يا علي أنت الحجة بعدي على الناس أجمعين استوجب الجنّة من تولاّك واستحق دخول النار من عاداك يا عليّ والذي بعثني بالحق بالنبوّة واصطفاني على جميع البريّة لو أنّ عبداً عبد الله ألف عام ما قبل الله ذلك منه إلا بولايتك وولايه الأئمة من ولدك وإنّ ولايتك لا يقبلها الله إلاّ بالبراءة من أعدائك وأعداء الأئمة من ولدك، بذلك أخبرني جبرائيل عليه السلام فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)رواه أبو الحسن محمد بن أحمد بن علي بن الحسين بن شاذان في مناقبه من طرقهم .

وفيه عن أبي سعيد الخدري قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول (إذا كان يوم القيامة أمر الله ملكين يقعدان على الصراط فلا يجوز أحد إلا ببراءة أمير المؤمنين

علي بن أبي طالب عليه السلام و من لم تكن له براءة أمير المؤمنين عليه السلام أكبه الله على منخريه في النار ذلك قوله تعالى(وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ) قلت فداك أبي و أمي يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما تعني براءة أمير المؤمنين قال مكتوب لا إله إلا الله محمد رسول الله علي أمير المؤمنين وصي رسول الله).

وفيه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم(وسئِل عن قوله تعالى (ألقيا في جهنم كلّ كفار عنيد) يا علي إذا جمع الله الناس يوم القيامة في صعيد واحد كنتُ أنا وأنت يومئذ عن يمين العرش فيقول الله تعالى يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ويا علي عليه السلام قوما وألقيا من أبغضكما وكذبكما في النار).

وفيه عن ابن عباس قال قال صلى الله عليه وآله وسلم إلى أن قال عن الله تعالى (و إني آليت بعزتي أن لا أدخل النار أحدا تولاه يعني عليا عليه السلام وسلم له و للأوصياء من بعده و لا أدخل الجنة من ترك ولايته و التسليم له و للأوصياء من بعده و حق القول مني لأملأن جهنم و أطباقها من أعدائه و لأملأن الجنة من أوليائه و شيعته).

وفي أمالي الطبرسي بإسناده عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال(مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح عليه السلام من ركبها نجى ومن تخلّف عنها زُخَّ في النار).

وروى القمي في قوله تعالى(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ تَصْلى نَارًا حَامِيَةً تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ) قال هم الّذين خالفوا دين الله وَصَلوا وصاموا ونصبوا لأمير المؤمنين عليه السلام علموا ونصبوا فلا يقبل منهم شيء من أفعالهم وتصلى وجوههم ناراً حامية).

وفي الكافي عن الصّادق عليه السلام قال (لا يُبَالي الناصب صلّى أم زنى وهذه الآيَةَ نزلت فيهم).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام (كلّ ناصب وإن تعبد واجتهد فمنسوب إلى هذه الآية).

وروى القمي(كل من خالفكم ...إلخ).

وبالجملة فالأحاديث من الطرفين في هذا المعنى أكثر من أن تحصى والسر في هذا الحكم قد أشرنا إليه فيما مضى ومنه أنّهم عليهم السلام هم الرحمة التي وسعت كلّ شيء المشتملة على الفضل الذي هو الرحمة المكتوبة لمحبّيهم وشيعتهم ودارُها الجنة وعلى العدل الذي يترتّب عليه في حق أعدائهم دخول النار وغضب الجبّار وذلك لأن الله سبحانه خلق الجنّة وما أعدّ لأهلها من حبّهم واتّباعهم والتسليم لهم وخلق النار وما أعدّ لأهلها من عداوتهم وبغضهم، ولأجل هذا كان علي عليه السلام قسيم الجنّة والنّار لأنّ الله عز وجل لمّا خلقهم وأشهدهم خلق جميع عباده وأنهى إليهم أمرهم والقيام عليهم بما كسبوا وأعلمهم علم ذلك وجعلهم المانين لكل شيء بإذنه كما أمرهم وكان قد خلقهم من نوره أي أوّل نورٍ أحدثه وارتضاه ونسبه إليه تشريفا له ولم يخلق نوراً غيره إلا منه أي من أشِعته كشيعتهم ومحبّيهم من الإنس والجن والملائكة وسائر الحيوانات الخيّرة والنباتات العذبة والجمادات الطيّبة. أوْ عنه أي من عكوس أشعته وهي أظلّتها وظلمات نفوسها كأعدائهم وأتباع أعدائهم من الإنس والجنّ والشياطين وسائر الحيوانات الشريرة والنباتات المرّة والحامضة والمسوسة والجمادات الخبيثة والسبخة كان علي عليه السلام قسيم الجنّة بين أهل الجنّة بأن يضع كل شخص في درجته ويجزيه بقدر طاعته ومحبته وقسيم النار بين أهل النار بأن يضع كل شخص من أهلها في دركه ويجزيه بقدر معصيته وبغضه وشركه (وَمَا رَبُّكَ بِظَلامٍ لِّلعَبِيدِ)وهو تأويل قوله

تعالى(هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)وقوله تعالى (وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ)وقوله تعالى (يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا)ولقد نزل كتاب الله سبحانه كله لهم وعلى أعدائهم والإمام عليه السلام هو صاحب ذلك المقام والقيام (عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ)بإذن الله تعالى ولمّا كانت الجنة مخلوقة من ولايتهم وحبّهم وأهلها خلقوا منها (كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ)والنار خلقت من بغضهم وولاية مبغضيهم وأهلها خلقوا منها (كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ)وكان قد جرت حكمة الحكيم وعدله المستقيم على أن كلّ شيء يرجع إلى أصله ويميل بطبعه إلى ما منه خلق وكلّ ميسّر لما خلق له وجب أن يكون (من اتّبعهم فالجنّة مأواه ومن خالفهم فالنّار مثواهُ)، لأنّ ذلك هو مقتضى العدل وضدّه ظلم (وَمَا رَبُّكَ بِظَلامٍ لِّلْعَبِيدِ) لأن المخلوق إنّما سأل من خالقه في رتبة إمكانه قبل تكوينه أن يخلقه على ما يتحقّق به ويوافق له فأعطاهم ما سألوه ومقتضى طلبتهم أن يكون المطيعون في الجنّة والعاصون في النار ألا ترى أن الشمس يكون منها النور ويكون عنها الظل وإذا عادت الأشياء إلى أصولها عاد النور إلى الشمس ولو عاد إلى الجدار فني لأنه لا يوافقه إلاّ الشمس ولا يتحقق إلاّ بها وعاد الظلّ إلى الجدار ولو عاد إلى الشمس فني لأنه لا يوافقه إلاّ كثافة الجدار ولا يتحقّق إلاّ بها.

فإن قلت : إنّ مَن له عقل واختيار لا يطلب بعقله واختياره ما يشقيه فلو كانوا مختارين لطلبوا ما يسعدهم.

قلتُ الأمر كما قلنا من أنّهم باختيارهم ورضاهم طلبوا منه ما يشقيهم وهم

يعلمون ودليل هذا القطعي الذي لا شك فيه عند كل من له أدنى إدراكٍ إذا طلب الحق أنّ هؤلاء الظلمة في الدنيا يطلبون ذلك وهم يعلمون أنه يشقيهم ويقتلون أنفسهم في طلب ما يشقيهم وهم يعلمون أن السعادة في ترك ذلك، ويقدرون على تركه فإذا رأيت هذا وعرفته فيهم مع كمال تمييزهم وتمام اختيارهم فقل فيهم في أصل الخلق لأن هذا آية ذلك ودليله كما قال عز من قائل (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ) بحيث لا يجحده إلاّ مكابر والظاهر دليل الباطن وصنع لا يختلف (مَّا تَرَى فِي خَلقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ)(مَّا خَلقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ)فإن قلت لو أن الله هداهم لما ضلّوا السبيل ولكنه منعهم اللطف والمعونة على طاعته لأنه وكلهم إلى أنفسهم قلتُ إنّ الله تعالى لم يُطَعْ بإكراهٍ لمنافاة الإكراه للطاعة وإنّما يطاع بالاختيار وقد طلب منهم الهداية إلى سبيله باختيارهم بأن بيّن لهم ما يحب ودعاهم إليه وما يكره ونهاهم عنه وحذّرهم بطشه على المخالفة كما قال تعالى(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ) بالبيان والتعريف والترغيب والترهيب (فاستحبّوا العَمَى عَلى الهُدَى) بعدما تبين لهم ما فيه نجاتهم وهذا هو اللطف بهم الذي لا يبلغ جبرهم وإكراههم على الطاعة، لئلا تبطل الطاعة لأن المكره على الطاعة ليس بمطيع وأمّا المعونة فهي قسمان.

معونة البيان والتعريف والهداية وهذه واجبة في الحكمة على الله لكل مكلف لأن ذلك شرط التكليف. ومعونة المدد تلك لا تحسن إلاّ لمن طلبها واستعدّ لها وطلبها والاستعداد لها لا يتحقّق إلاّ بالميل إلى الطاعة وطلب أسبابها، فإذا مال وطلب واستعدّ أتاه منها بقدر ميله واستعداده وطلبه شيئاً فشيئاً لئلاّ يقع المقبول على غير قابلٍ فلا يكون المقبول مقبولاً فيقع العبث ألا ترى إلى الشمس في

اشراقها لو لم يكن كثيف يظهر فيه الإشراق لما أمكن منها الإشراق لأن إشراقها وعدمه على السواء فلمّا أمدّهم بالمعونة الأولى التي هي هداية البيان والتعريف والترغيب والترهيب ولم يميلوا إلى القبول منه ولم يريدوه بل طلبوا خلاف ما أراد منهم تركهم وهو الخذلان وهو المد بالتخلية قال تعالى (قُل مَن كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا)وهو قوله عز وجل (وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ).

فإن قلت إنما ضلّوا لأنه سبحانه خلقهم من الظلمة ولو خلقهم من النور لاهتدوا لأنّ كلّ شيء يميل إلى أصله.

قلتُ لو خلقهم من النور لم يكونوا هم الذين من الظلمة بل يكونوا هم الذين من النور ثم لا يخلو هل يخلق من النور أي من عكسه ظلمة أم لا فإن خلق منها خلقاً رجع الكلام على ما هو الواقع ويعود السؤال، وإن لم يخلق منها خلقاً لم يحسن أن يخلق من النور خلقاً لأنّه ضدّه وظلّه ولا يكون الضدّ إلا بتمام المقابلة وكمال المكاثرة ولا يكون الظل إلاّ على صفة شاخصه فلا يكون ظل المتعدد متّحداً ولا ظلّ الطويل عريضاً وبالعكس ولا الدقيق غليظاً وبالعكس وإلاّ لم يكن ضداً أو ظِلا بل يكون شيئاً. وجوابه في الشق الثاني وهو قولنا أم لا يعني لم يخلق ظلمة أي خلق نوراً ولم يجعل له ضدّاً سواء كان معه شيء آخر ليس له ضدّ أم لا، وهذا لا يقع في الحكمة إيجاد مخلوقٍ لا ضدّ له وإليه الإشارة بقول الرضا عليه السلام (واعلم أن الواحد الذي هو قائم بغير تقدير ولا تحديد خلق خلقاً مقدراً بتحديد وتقدير وكان الذي خلق خلقين اثنين التقدير والمقدور فليس في كل واحدٍ منهما لون ولا وزن ولا ذوق فجعل أحدهما يدرك بالآخر وجعلهما مدركين بأنفسهما ولم يخلق شيئاً فردا قائماً بنفسه دون غيره للذي أراد من الدلالة على نفسه وإثبات

وجوده والله تعالى فرد واحد لا ثاني معه يقيمه ويعضده ولا يمسكه والخلق يمسك بعضه بعضاً بإذن الله ومشيته)الحديث وهو قول الله عز وجل (وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلقْنَا زَوْجَيْنِ لعَلكُمْ تَذَكَّرُونَ).

فإن قلت: إذا سلّمنا هذا في الخلق لم نسلّمه في التكليف وما يترتّب عليه لأنّ من خلق من النّور يميل إلى الطاعة وتهون عليه ومن خلق من الظلمة بالعكس فينبغي ألا يكون التكليف يجري عليهما على السواء لأنّ من خلق من الظلمة إذا عصى معذور لقلّة نوريّته فلا يميل بطبعه إلى الطاعة التي هي من النور بخلاف من خلق من النور.

قلتُ: إنّ هذا إنّما يتوجّه لو كان التكليف فيهما على حسب ما في من خلق من النور من النوريّة أما إذا كان التكليف فيهما على حسب بعض ما في من خلق من الظلمة من النوريّة فإنه يتساوى ميلهما في الإمكان والاستطاعة إلى الطاعة لأنّ من فيه عشرة أجزاء من النور وتسعون جزءاً من الظلمة، إذا كلّف على قدر جزء واحد من النور يساوي من فيه تسعون جزءاً من النور وعشرة أجزاء من الظلمة في هذا التكليف إذ لا يختلف الحال فيهما بالنسبة إلى التكليف في الاستطاعة والإمكان مضافاً إلى تساوي الإنذار والإعذار والترغيب والترهيب والإمهال والأناة، ألا ترى أنّك لو كُلفت بحمل مثقال صيرفي وكُلف جبرائيل بحمله لما كان لك أن تعتذر عن حمله بأن جبرائيل أقوى منك على حمله لأنكما في حمله متساويان نعم لو كلفكما بحمل الجبل لكان لك أن تقول إني لا أستطيعه وجبرائيل يستطيعه أو كلفكما بما لا تقدر أنت عليه إلاّ بمشقّةٍ لكان لك أن تقول هذا يشقّ علي ويخف على جبرائيل ولكن التكليف على دون الوسع والطاقة وهو

الوسع الذي ذكره سبحانه في قولها (لاَ يُكَلِّفُ الله نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا)بخلاف الوسع الّذي فيه الجهد فافهم.

ثم اعلم أنّ هنا أبحاثاً شريفة تكشف لشبهات ترد على العلماء قد تصعّب الكشف عنها على أكثر الأفهام ولكن المقام لا يقتضي ذكرها لأنه يحتاج إلى تطويل كثير وأرجو من الله سبحانه أن يوفّق لذكرها في خلال هذا الشرْح مفرّقة لأن جمعها في هذا الشرح يخرجه عما يليق به.

والحاصل أن من اتّبعهم في الجنة البتة على أي حالٍ كانت منه إذا خرج من الدنيا على الإسلام محبّاً لهم وأن من خالفهم في النار البتّة على أي حالٍ كانت منْه إذا خرج من الدنيا على مُخَالَفَتِهم لا ينفعه توحيده ولا عبادته، وذلك لأن مَن اتّبعهم خلق في الخلق الثاني من عليين وإليها يعود ومَنْ خالفهمْ خُلِقَ في الخلق الثاني من سجين وهي طينة خَبال وإليها يعود وإنّما خلق المتّبعون من علييّن لإجابتهم وقبولهم حين قال لهم (ألست بربّكم ومحمّد نبيكم وعلي وليكم والأئمة من ذرّيتّه أولياؤكم قالوا بلى) وطينة عليين هي صورة الإجابة وهي صبغهم في الرحمة كما قال جعفر بن محمد عليه السلام (وكذلك خلق المخالفون لهم من سجين لأن طينة سجين هي صورة الإنكار لذلك العهد وهي صبغهم في الغضب الذي هو تبديل خلق الله وتغييره).

قال عليه السلام ومَن جحدكم كافر ومَن حاربكم مشرك

ومن ردّ عليكم في أسفلِ دركٍ من الجحيم

قال الشارح ومن ردّ عليكم أقوالكم وإن لم تكن موافقة لعقله النّاقص انتهى.

أقول الجحود الإنكار بعد العلم كما قال تعالى (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا)والكفر على خمسة وجوه كما في حديث الصّادق عليه السلام (الكفر في كتاب الله على خمسة أوجه كفر الجحود). وهو على وجهين جحود بالربوبية وألا جنة ولا نار كما قال صنف من الزنادقة والدهريّة الذين يقولون (وما يهلكنا إلاّ الدهر).

والوجه الآخر من الجحود هو أن يجحد الجاحد وهو يعلم أنه حق واستقرّ عنده كما قال الله تعالى (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ).

والثالث كفر النعمة قال تعالى (لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ).

الرابع ترك ما أمر الله به وعليه قوله تعالى (أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ) .

الخامس كفر البراءة وعليه قوله تعالى في قول إبراهيم عليه السلام لقومه كفرنا بكم .

أقول : هذه الوجوه الخمسة فيمن جحدهم أمّا الأوّل فلأن من جحدهم فقد كفر بالله وباليوم الآخر كفر جحود لأنّ الإيمان بالله وربوبيّته وآياته وكتبه ورسله واليوم الآخر مقرون بالإيمان بهم فمن لم يؤمن بهم لم يؤمن بالله ولا بربوبيّته وآياته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والنصوص في ذلك، لا تكاد تحصى من الفريقين حتى أنّ مما رواه أعداؤهم كما في مناقب ابن شاذان في الثانية والتّسعين عن أمير المؤمنين عليه السلام إلى أن قال عن رسول الله عليه السلام عن الله عزّ وجل إلى أنْ قال تعالى(وإن لم يشهد ألا إله إلا أنا وحدي أو شهد بذلك و لم يشهد أن محمدا عبدي و رسولي أو شهد بذلك و لم يشهد أن علي بن أبي طالب خليفتي أو شهد بذلك

و لم يشهد أن الأئمة من ولده حججي فقد جحد نعمتي و صغر عظمتي و كفر بآياتي و كتبي و رسلي إن قصدني حجبته و إن سألني حرمته و إن ناداني لم أسمع نداءه و إن دعاني لم أستجب دعاءه و إن رجاني خيبته و ذلك جزاؤه مني وَ ما أَنَا بِظَلاَّمٍ لِلعَبِيدِ)الحديث.

ولقد كان كثير من أعدائهم يصرّحون في خلواتهم بإنكار البعث والرسالة والربوبيّة وذلك لأن حبّهم والاتّباع لهم والاقتداء بهم جمع جميع أنحاء الإيمان والإسلام فلم يخرج عن ولايتهم شيء منهما، كما أنّ عداوتهم وخلافهم قد جمعا جميع أنحاء الكفر وأحواله لا يخرج عنهما شيء منه بل ليس للكفر معنى في الحقيقة إلا عداوتهم ومخالفتهم، لأنّ العارف بولايتهم يُعَاين هذا رأي العين فليس لله معصية إلا معصيتهم ولا طاعة إلا طاعتهم ولا معرفة إلاّ معرفتهم وإلى ذلك يشير قوله ﷺ (ليلة أسري بي إلى السماء قال لي الجليل جل جلاله إلى أن قال تعالى وعرضتُ ولايتكم على أهل السموات وأهل الأرضين فمن قبلها كان عندي من المؤمنين ومن جحدها كان عندي من الكافرين يا محمد لو أنّ عبدا من عبيدي عبدني حتى ينقطع ويصير كالشن البالي ثم أتاني جاحداً لولايتكم ما غفرتُ له حتّى يقرّ بولايتكم)الحديث. وهو السابع عشر من مناقب ابن شاذان.

وفي المناقب الحديث الخمسون عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول ﷺ (لما أن خلق الله آدم ونفخ فيه من روحه عطس آدم فقال الحمدُ لله فأوحى الله تعالى إليه حمدتني وعزتي وجلالي لولا عبدانِ أريدُ أن أخلقهما في دار الدنيا ما خلقتك يا آدم قال إلهي فيكونان منّي قال نعم يا آدم ارفع رأسك وانظر فرفع رأسه وإذا

مكتوب على العرش لا إله إلاّ الله محمد ﷺ نبي الرحمة وعلي عليه السلام مقيم الحجة، من عرف حقّ عليّ زكا وطاب ومن أنكر حقّه لُعِنَ وخاب أقسمتُ بعزتي أن أدخل الجنة من أطاعه وإنْ عصاني وأقسمتُ بعزتي أن أدخل النار من عصاه وإن أطاعني).

ولعلّةِ ما أشرنا إليه من أنّ عداوتهم لا تجتمع مع التوحيد والإسلام والإيمان والإقرار بالبعث في قلب واحد قال الأعرابي الكبير حين عاتبَتْه زوجته على شرب الخمر في شهر رمضان نهاراً فقال :

دعينا نصطبح يا أُمَّ بكرٍ
فإن الموت نفّثَ عن هشام
ونَفث عن أبيك وكان قرماً
شديد البأس في شرب المدامِ
أيُوعدنا ابن كبشة سوف نحيي
وكيف حياة أشلاءٍ وهام
إذا ما الراس زايَل منكبَيْه
فقد شبع الأنيس من الطعامِ
ويقتلُني إذا ما كنتُ حيّاً
ويُحْييني إذا رُمتْ عظامي
ولم يكتف بجمع المالِ حتّى
أمرنا بالصّلاة وبالصيام
ألا من مبلغ الرحمن عنّي

بـأنّي تـاركٌ شهـر الصّيـــــامَ
وتـاركُ كـل ما أوحـى إليـــنا
حـديثا مــن خـُرافـاتِ الأنامِ
فقـل لله يمنــعني شــرابــي
وقـل لله يمــنعُني طعـــامي
ولكـنّ الحكيـم رأى حميـــرا
فألجمـها فتـــاهـتْ باللّجـامِ

وهذا صريح في جحوده لله تعالى وربوبيّتهِ وكتبه ورسله واليوم الآخر.

وأمّا قوله ألا من مبلغ الرحمن عني وقوله فقل لله فقد قاله على ما هو المتعارف الجاري على الألسن أو لأنّ الطّبيعة والفطرة تغلب صاحبها عند بداهته على الإقرار بالصانع ولعلّه يرى أنه الدهر أو الطبيعة أو النور والظلمة أو الكواكب كالدهريّة والثنوية والمزدكية والصائبة وغيرهم وتلفّظه بصورة قول أهل الإسلام إما بطبعه أو لتحفّظه وتستّره.

وأما قولي لعله يرى ... إلخ، فذلك من قوله تعالى (ضَرَبَ الله مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاء مُتَشَاكِسُونَ وَرَجلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَل يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الحَمْدُ لله بَل أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلمُونَ)، ففي المعاني عن أمير المؤمنين عليه السلام (ألا و إني مخصوص في القرآن بأسماء احذروا أن تغلبوا عليها فتضلوا في دينكم أنا السلم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول الله عز و جل وَ رَجُلاً سَلماً لِرَجُلٍ).

وروى العياشي عن الباقر عليه السلام (الرجل السَّلم للرَّجلُ حقاً علي عليه السلام وشيعته).

وفي الكافي عنه عليه السلام (أَمَّا الذِي فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ فَلأَنَّ الأَوَّل يَجْمَعُ المُتَفَرِّقُونَ وَلاَيَتَهُ وَ هُمْ في ذَلِكَ يَلعَنُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً وَ يَبْرَأُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ فَأَمَّا رَجُلٌ سَلمُ رَجُلٍ فَإِنَّهُ الأَوَّلُ حَقّاً وَ شِيعَتُهُ)انتهى.

فإن قوله عليه السلام يجمع المتفرقون ولايته الخ إنّ كل ذي رأي ومذهب وبدعة ممّن يدخلون في اسم الإسلام وغيره ومن كلّ ما لا يحبُّ الله تعالى فإنَّه يستند إلى ولايته كما تدل عليه أحاديث قيام القائم عليه السلام وسيرته ونبشه للقبرين وحسابهما على جميع ما حدث في الدنيا ممّا لا يرضى به الله سبحانه منذ سكن آدم عليه السلام الأرض إلى قيام القائم عليه السلام وأنه منهما واعترافهما بذلك وإقامته عليه السلام الحدّ عليهما على جميع ذلك، لأنهما هما السبب في كل ذلك والمؤسّسان له مع أنّ كلّ طائفةٍ تبرأ من الأخرى ومن عملها وإن كان طرق جميع الباطل وأعمال أهله من ولايتهما وإنما سمّي علي عليه السلام وشيعته بالسلم لرسول الله صلى الله عليه وآله فلأنهم له أي لله ولرسوله صلى الله عليه وآله لم يكن للشيطان فيهم نصيبٌ وليس له عليهم سلطان وهو تأويل قوله تعالى (وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ أَصْحَابِ اليَمِينِ★ فَسَلامٌ لكَ مِنْ أَصْحَابِ اليَمِينِ)واليمين علي عليه السلام وفي ربيع الأبرار للزمخشري أنّ الأبيات المتقدّمة قد تمثل بها عمر عليه اللعنة وهو سكران والظاهر أنّها للأوّل ويحتمل أنه تمثّل بها عمر أيضاً.

وأمّا الأعرابيّون الذين بعده فقد وقع منهم من هذا كثير ونُقِل أنَّ الثّاني قال حين أُمِرَ بالصيام

أأُوعَدُ في الجِنـان بشربِ خمـرِ
وأُنْـهَى الآن عـن مـاءٍ وتمــرِ
أَحَشْـرٌ ثم نشْرٌ ثــمّ بَعْــثٌ

حـديـث خُـرافةٍ يـا أُمَ عَـــمْرِ

ودخل أبو سفيان على الأعرابي الثالث حين بُويع في مسجد رسول الله ﷺ فقال يا ابن أخي هل علينا من عين فقال لا فقال أبو سفيان تداولوا الخلافة فِتيان بني أمية فو الذي نفس أبي سفيان بيده ما من جنةٍ ولا نارٍ وقال الأعرابيّ الرابع حين قالت زوجته أنها لا تنكح زوجاً بعده :

إذا متُّ يـا أُمَّ الحُـمَيْر فأنكـــحي
فليـس لنا بعـد الممات تلاقيـــا
فإن كنـــتِ قدأُخْبِرتِ عن مبعث لنا
أحاديث لهو تجعـــل القلـــب واهِيا

وقد جرى من تبعهم على منهاجهم ألا تسمع ما قاله يزيد لعنه الله :

لعبت هـاشم في الملك فلا
خبر جاء ولا وحيٌ نزل
ولعِبنـا نحن في دَولتِنـــا
وكذا الأيّـام والدّهر دُوَل

فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً ومّما يكفي في هذا المقام الصحيفة التي كتبها الثاني للرابع وهي التي أخرجها يزيد لعنه الله لما عاتبه عبد الله بن عمر على قتل الحسين عليه السلام واقرأه إياها وعرفها بخطّ أبيه، ولقد رأيتُ في كتاب عتيق من تأليفات بعض أصحابنا المتقدمين ما معناه أن الأعرابي أبا الشرور أصحر مع بعض أصحابه فظهر لهم الرجيم وسجد لأبي الشرور وأقسم له باللاّت والعزّى إنك معبودي وناصري ثم أنشأ يقول بأبيات قدر اثني عشر بيتاً ما حفظتُ منها إلا قوله :

أنت الذي صيّرتَني بعد الصغار مكبّرا

وتركتَ أحمد في الخلافة هاجِراً فيما يرى

ومنعتَ فاطمة الوراثة بالحديث المُفْتَرَى

إلى آخر كلامه ثم إن أبا الشرور سجد للغرور وأقسم باللات والعُزَى والهُبَل الأعلى إني ما عبدتُ معبودهم إلاّ خوفاً من أسيافهم وإنما أنت معبودي ثم أنشأ يقول

أُعْلُ هُبَل أُعْلُ هُبَل أُعْل

أبوُنا أنت من نارٍ ومن الطين أجل

أعز من أمر الورى بالخلاف لم تزل

وإن رماك بالبلا على الجحيم لم تُبَل

يا ملِكاً دولتُهُ بالأرض تجتاحُ الدّوَل

ويا عزيزاً تاهَ بالفخر على شيخ الرسل

يا باطلاً في أكثر الناس به الحقّ بطل

ويا مطاع الأمر بين الآخرين والأول

بالنقدِ أسعفتَ وشانيك على الوعد حصل

حسبُك فخراً أن يقول اللهُ إبليس فعل

حسبي رضاك وقِلاَ الربّ وأرباب الملل

فاعتبر يظهر لك أن من جحدهم عليهم السلام وجحد ولايتهم ومقامهم فهو من القسم الأول لما قلنا من تغييرهم فطرة الله تعالى فهم لا يعلمون، ومن القسم الثاني لعلمهم بما أنكروا كما قال تعالى (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا)

لآل محمد ﷺ حقهم (وعلواً) عليهم(فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ)واسئل عنهم جَبل الكمِد وعيون بَقر ومطلع الشمس وعين برهوت وعين الكبريت.

وأمّا الوجه الثالث وهو كفر النعمة فهو قوله تعالى (لَئِن شَكَرْتُمْ)(نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ)وهم الأوصياء عليهم السلام وولايتهم التي هي سبب سعادتكم في دنياكم وآخرتكم بأن تتولّوهم وتقتدوا بهم وتسلّموا لهم وتردّوا إليهم جميع أموركم وتحبّوهم وتنصروهم بقلوبكم وأيديكم وألسنتكم، وتؤثروهم على أنفسكم وأهليكم وتعبدوا الله باقتفاء آثارهم والأخذِ عنهم وتتبرءوا من أعدائهم (لأزيدنكم) من العلوم والحكم والتوفيق للأعمال الصّالحة ورفع ثقل العمل عنكم والهداية لمحبّة الله ورضاه عنكم، ومن دفع البلاء السوء عنكم وسعة الرزق الحلال الذي يحصل به الكفاف والرخاء والعيش الهني وهو قوله تعالى (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ) بعلي وأهل بيته الطاهرين وبولايتهم واتقوا ولاية أعدائهم (لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ) (وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ)أي ولئِن جحَدْتُمْ نعم الله عليكم وهم آل محمد ﷺ بأن نصبتم لهم العداوة والحرب أو قدّمتم عليهم غيرهم أو أنكرتم فضائلهم الطاهرة أو ردَدْتم عليهم أو اقتديتم بغيرهم وما أشبه ذلك عن معرفة كما قال تعالى (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا)(إِنَّ عَذَابِي)إياكم على كفركم نعمتي (لَشَدِيدٌ)ولذا قال تعالى (وَلَـكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ)، من إنكارهم لنعمة الله وكفرهم بها بعد الاستيقان قال الله تعالى (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ)وروى القمي عن الصادق عليه السلام (نزلتْ في الأفجرين من قريش بني المغيرة وبني أميّة فأما

بنو المغيرة فقطع الله دابرهم وأما بنو أمية فمتعوا إلى حين ثم قال ونحنُ واللهِ نعمة الله التي أنعم بها على عباده وبنا يفوز من فاز).

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام (ما بال أقوام غيروا سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عدلوا عن وصيّه لا يتخوّفون أن ينزل بهم العذاب ثم تلا هذه الآية قال نحن النّعمة الّتي أنعم الله بها على عباده وبنا يفوز من فاز يوم القيامة).

وعن الصادق عليه السلام (يعني بها قريشاً قاطبة الذين عادوا رسول الله وجحدوا وصيَّهُ) فكان كفر النِّعمة الكبرى كفر جحودٍ كما تقدم في الوجه الثاني وكفر النّعمة الصّغْرَى كفر شكرٍ أما الكبرى فقد سمعتَ ما أشرنا إليه، وأمّا الصغْرَى فإنْ ذكر نعمة الله عليه في نفسه من سمع وبصر وذوق ولمس وشمّ وقوّة ولذةٍ وعافيةٍ وعَقْلٍ وإدْراكٍ وأمْنٍ وصحةٍ وطعام وشَراب وغير ذلك فعرفها بقلبه من الله فقد شكرها واستحقَّ من الله سبحانه الّثواب على ذلك فيما يتعلّق بنفسه من المعرفة والهداية، وفيما يتعلّق بمعاشه بنسبة تأثر ظاهره بما في نفسه وإنْ حمد الله بلسانه استحق المزيد على ذلك في المقامين.

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام (من عرف نعمة الله بقلبه استوجب المزيد من الله عز وجل قبل أن يظهر شكرها على لسانه).

وفيه عنه عليه السلام (ما أنعم الله على عبد من نعمة فعرفها بقلبه وحمد الله ظاهراً بلسانه فَتمَ كلامُه حتى يؤمر له بالمزيد).

وفيه عنه عليه السلام (ما أنعم الله على عبد بنعمة صغرت أو كبُرَتْ فقال الحمد لله إلاّ أدّى شكرها) وإن لم يعرف أنّها نعمة فإن كان جاهلاً بكونها نعمة فليس على العباد أن يعلموا حتى يعلّمهم الله وإلاّ فإنْ كان غافلاً فهو حينئذٍ مِمَّنْ رفع

عنه ذلك حين غفلته، وإن كان تقصيراً منه وقصوراً فيِ رتبتِه وإن لم يكن غافلاً ولا جاهلاً بل عرف بفطرته كونها نعمةً من خالقه تعالى وجحدها بسوء عمله وتطبّعه من بعد ما تبين له الحق فإنه يكون بذلك جاحدا للربوبيّة ويكون ممن جحد النعمة الكبرى لأنه يدخل في قوله تعالى (يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الفاسقون) وفي قوله عليه السلام (فيأخذ في بغْضِنا أهل البيت).

وأمّا الوجه الرابع وهو ترك ما أمر الله به وهو قوله تعالى إلى أن قال (أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ) الآية ثم قال عليه السلام (فكفّرهم بترك ما أمر الله عز وجلّ ونسبهم إلى الإيمان ولم يقبله منهم ولم ينفعهم عنده) فقال (فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ القِيَامَةِ يُرَدُّونَ)الآية، فنقول إذا ترك المكلف ما أمر الله به فلا يخلو إما أن يكون ترك وهو عند نفسه أنه مقصّر فهو ماقت لنفسه في تركه ما أوجب الله عليه فهذا لا يكون كافراً بهذا الترك ولا يدخل في قوله تعالى (فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ القِيَامَةِ يُرَدُّونَ) بل يرجى له الخير لأنه مؤمن كما تقدم سابقاً، وإنْ ترك ما علم وجوبه منكِراً له أو متهاوناً بحكم الله بعد العلم فهو من أعدائهم وممن يدخل في هذه الآية لأنّه إمّا جاحِد أو يلزمه الجحود فقوله عليه السلام (فكفّرهم بترك ما أمر الله عز وجل) يراد منه الترك عن إنكارٍ أو تهاون.

وقوله عليه السلام (ونسبهم إلى الإيمان ولم يقبله منهم ولم ينفعهم عنده)، يرادُ منه أنّهم بتركهم ما أمر الله به إنكاراً أو تهاوناً خرجوا عن الإيمان حقيقة وإلاّ لقبله منهم ونفعهم عنده وإنّما نسبهم إلى الإيمان لفعلهم بعض ما أمروا به لغرض أنفسهم كما تركوا البعض الآخر لغرض أنفسهم فالنسبة للصورة الظاهرة كما سمّى الله

ثالثهم مؤمناً في قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الذِينَ آَمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ الله أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ)ولم ينفعهم عنده لأنهم ما آمنوا له تعالى فلم يقبل ما ليس له علماً لأنّ ترك ما أمر به من فروع أعدائهم عليهم السلام فإذا ترك المكلّف ما أوجب الله إنكاراً دلّ على أنه ليس ممن يتولاهم إذْ لا يجتمع ذلك مع ولايتهم أبداً.

وأما الوجه الخامس وهو كفر البراءة وهو قوله تعالى (كَفَرْنَا بِكُمْ)أي برئنا منكم جحدناكم وأنكرناكم وتبنا عن الميل إليكم فمن برىء منهم عليهم السلام فقد كفر بالله وجحد وجوده تعالى وتوحيده وربوبيّته وكتبه ورسله واليوم الآخر، لأن الإقرار بهذا كلّه من ولايتهم كما أشرنا إليه في مواضع من هذا الشرح.

فهذه الوجوه الخمسة في حق عدوّهم ترجع إلى كفر الجحود كما مر إلاّ مَنْ وقعت منه عن غير علم.

وفي الخصال عن الأصبغ بن نباتة قال قال أمير المؤمنين عليه السلام (الكفر على أربع دعائم على الفسق و العتو و الشك و الشبهة و الفسق على أربع شعب على الجفاء و العمى و الغفلة و العتو فمن جفا حقر الحق و مقت الفقهاء و أصر على الحنث العظيم و من عمي نسي الذكر و اتبع الظن و ألح عليه الشيطان و من غفل غرته الأماني و أخذته الحسرة إذا انكشف الغطاء و بدا له من الله ما لم يكن يحتسب و من عتا عن أمر الله تعالى الله عليه ثم أذله بسلطانه و صغره بجلاله كما فرط في جنبه و عتا عن أمر ربه الكريم و العتو على أربع شعب على التعمق و التنازع و الزيغ و الشقاق فمن تعمق لم ينب إلى الحق و لم يزدد إلا غرقا في الغمرات فلم تحتبس منه فتنة إلا غشيته أخرى و انخرق دينه فهو يهيم في أمر مريج و من نازع و خاصم قطع بينهم الفشل و ذاقوا وبال أمرهم و ساءت عنده الحسنة و حسنت

عنده السيئة و من ساءت عليه الحسنة اعتورت عليه طرقه و اعترض عليه أمره و ضاق عليه مخرجه و حري أن يرجع من دينه وَ يَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ و الشك على أربع شعب على الهول و الريب و التردد و الاستسلام وهو قوله عز وجل (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمارى) المتمارون فمن هاله ما بين يديه (نَكَصَ عَلى عَقِبَيْهِ) ومن تردد في الريب سبقه الأولون و أدركه الآخرون و قطعته سنابك الشياطين و من استسلم لهلكة الدنيا و الآخرة هلك فيما بينهما و من نجا فباليقين و الشبهة على أربع شعب على الإعجاب بالزينة و تسويل النفس و تأول العوج و تلبس الحق بالباطل و ذلك بأن الزينة تزيل عن البينة و أن تسويل النفس يقحم على الشهوة و أن العوج يميل ميلا عظيما و أن التلبس ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ فذلك الكفر و دعائمه و شعبه)انتهى.

أقول إنّ هذه الشعب الست عشرة شعبةً للكفر كلّها موجودة في أعدائهم وأتباع أعدائهم لا يخرج أحد عن شيء منها لأن الكون منحصر في الحق والباطل والحقّ منحصر في آل محمد ﷺ وفي شيعتهم والباطل منحصر في أعدائهم نعم من خالفهم ومال إلى أعدائهم عن جهل قد يصدر منه حقّ دنياوي أو برزخي أو أخروي، ويرجع على ما سبَق له في الكتاب ، وأما من كان منه ذلك من بعد ما تبيّن له الهدى فلا يقع منه حق أبداً لأن الحق لا يتحقّق وجوده إلا باستناده إليهم عليهم السلام فإذا مال عنهم من بعدما تَبيّنَ له الهدى ظلماً وعُلواً لم يجد في خلافهم شيئاً من الحق اللهم إلا أن نقول أنهم قد يصدر عنهم أعمال تشابه الحق في صورته، وهو تأويل قوله تعالى (يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء)والضمآنُ هو الكافر الجاحدُ لو لايتهم فهذه الصّوَر قَدْ ينالُونَ به بَعْض ثواب الدنيا، إمّا لاقتضاء الصورة أو لأنّها قابليّةُ

نصيبهمْ من الكتاب السابق فيعافى من البلاء في الدنيا إن شاء الله ويرزق إن شاء الله. وهكذا وذلك لما قلنا من الانحصار المذكور.

وفي الكافي عن أبي جعفر عليه السلام قال(إِنَّ اللهَ عَزَّ وَ جَل نَصَبَ عَلِيّاً عليه السلام عَلَماً بَيْنَهُ وَ بَيْنَ خَلقِهِ فَمَنْ عَرَفَهُ كَانَ مُؤْمِناً وَ مَنْ أَنْكَرَهُ كَانَ كَافِراً وَ مَنْ جَهِلهُ كَانَ ضَالا وَ مَنْ نَصَبَ مَعَهُ شَيْئاً كَانَ مُشْرِكاً وَ مَنْ جَاءَ بِوَلايَتِهِ دَخَل الجَنَّةَ ومن جاء بعداوته دخل النار).

وفيه عن أبي إبراهيم عليه السلام قال (إِنَّ عَلِيّاً عليه السلام بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ فَمَنْ دَخَل بَابَهُ كَانَ مُؤْمِناً وَ مَنْ خَرَجَ مِنْ بَابِهِ كَانَ كَافِراً وَ مَنْ لمْ يَدْخُل فِيهِ وَ لمْ يَخْرُجْ مِنْهُ كَانَ فِي الطَّبَقَةِ التِي لله فِيهِمُ المَشِيئَةُ).

وفي آخر عنه عليه السلام (إِنَّ عَلِيّاً عليه السلام بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الهُدَى)الحديث السابق فافهم.

وقوله عليه السلام (ومن حاربكم مشرك) أقول المراد بالمحارب لهم مَنْ شهر سيفه لقتالهم في طاعة أولياء الشيطان ويدخل فيه من أطلق لسانه في سبّهم وسب محبهم لأجل حبّه إيّاهم والرّد عليهم والمعارضة لهم فيما يحكمون به ويأمرون به وينهون عنه إذا صدر ذلك عنه من بعد ما تبيّن له الهدى، ومن أبغضهم بقلبه لرضا عدوّهم بعد المعرفة والشرك شرك طاعةٍ وشرك عبادةٍ والمراد هنا شرك العبادة وهو الذي لا يغفر وهو إنكار علي وولايته.

وفي تفسير العياشي عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال (أما قوله(إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ) يعني أنه لا يغفر لمن يكفر بولاية علي عليه السلام و أما قوله (وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ) يعني لمن والى عليا عليه السلام)

وفيه عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال(قوله(إن الله لا يغفر أن يشرك به) أنه لا يغفر لمن يكفر بولاية علي عليه السلام وأما قوله (وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء) يعني لمن والى عليّاً عليه السلام).

وفي عيون الأخبار عن الرضا عليه السلام بإسناده قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم(إن الله يحاسب كل خلق إلاّ من أشرك بالله فإنه لا يحاسب ويرمى به في النار ويغفر ما دون ذلك أي ما دون الشّرك صغيراً كان أو كبيراً) وقوله (إلاّ من أشرك فإنه لا يحاسب و يرمى به في النار الخ) ، يراد به أنّ الحساب إنما هو لتمييز أعماله بالوزن فترجح الحسنات فيدخل الجنة أو السيئات فينظر فيها، فإن كانت السيئات ليست ذاتيّات لوجوده ولا لقلبه نظر فيها فإن بلغت في تطهيرها مكث ثمانين سنة، وضع في الطبقة العليا من النار أي في حظائرها حتى يتخلّص من نجاستها وأخباثِها ثم يدخل الجنّة ويغسل في عين الحيوان هذا إذا لم تنله شفاعة من إمامِه أو من صديقه وإن لم تبلغ مكث ثمانين سنة فروُي أنه يُعفى عنه وذلك إما في عرصة المحشر بأهوال يوم القيامة أو بالعرض على النار أو بمناقشة الحساب أو بعذاب البرزخ أو عند الموت أو ببلايا الدنيا، وإن كانت ذاتيات لوجوده أو لقلبه فلا تطهر إلاّ بذهاب بنيته الذاتيّة فلا يكون هو إياه فلا يحاسب لأنَّ حسناته حينئذٍ لا تكون ذاتيّة له بل يجب أن تكون عارضة إمّا من لطخ المؤمن أو من البرزخ الذي يتقوّم به اللطخ وهذه يُجزى بها في الدنيا من دفع بلاياها وتوسعة رزقه وإظهار جاهه في الناس واستيلائه على غيره، أو دفع شدة النزع عنه عند الموت أوْ في البرزخ أو يوفى أجرها عند أول دخوله النار مفرّقاً عليه بحيث لا يحس بالتخفيف ولا يسئل يوم القيامة ولا يوضع له ميزان وهو قوله تعالى (فَيَوْمَئِذٍ

لا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ فَبِأَيِّ آلاَء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ★ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَام) لعدم الفائدة في حسابه وإنما جعل سبحانه من لم يتولّ بهم مشركاً به سبحانه لأَنّ ولايتهم ولاية الله وهم وجهه في الإمكان الذي يتوجّه إليه الأولياء وهم ظاهِرُهُ في الخلق كما تقدّم في حديث جابر بن يزيد قال علي بن الحسين عليه السلام (وأما المعاني فنحنُ معانيه وظاهره فيكم)الحديث ، لأنه جلّ وعلا جعلهم عينه النّاظرة في عباده وولاّهم أمر خلقه وأنهى إليهم علمهم فمن أشرك غيرهم في ولايتهم فقد أشركه في ولاية الله وأيضاً هم عليهم السلام أمرهم أمر الله وحكمهم حكم الله وطاعتهم طاعة الله، ومعصيتهم معصية الله فإذا أطاع عدوّهم فقد أشرك في طاعة الله وأيضاً حكمهم حكم الله في خلقه فإذا أخذ بغير حكمهم فقد وضع لخلق الله حكماً غير حكم الله.

وقد تقدم أن حكم الله مادة الوجود الشرعي فإذا حكم بغير حُكْمِ الله جعل للوجود الشرعي مادة من غير أمر الله وأيضاً حكم الله هيكل توحيده وهو وصفه نفسَهُ لخلقه وإذا عمل بحكم غيرهم وصف الله بوصف أعدائهم ووصفهم بوصف الله فعرف الله بهم وهو قوله تعالى حكاية عنهم (تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)حيث أمرنا باتّباع أوليائه وأمرتمونا بترك اتّباعهم فأطعناكم وتركنا أمر الله رب العالمين فهذه المعاني وما أشبهها شرك عبادة فمن كان منه شيء منها بعد البيان فإنّ الله تعالى لا يغفره وكل ذلك من ولايتهم حقيقةً لأن مراد الله سبحانه تعلق بخلقه على قسمين.

أحدهما ذاتيّ وهو ما تعلق بمحمد وآله الطاهرين صلى الله عليه وآله وسلم ومراده منهم أنهم له وحده لا شريك له ولذلك خلقهم وما أراد منهم فهو لهم فهم ذلك المراد مادةً

وصورةً وغايةً فهم حقيقة تلك العلل الثلاث وركنُ العلّةِ الفاعليّةِ قال تعالى لنبيّه ﷺ (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ)فهو أول السبعة والقرآن العظيم (لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ)، مما لا يخرج عنك وعن ملكك إلاّ بإذنك وعفوك إلى أجل مسمّى فيما نزل عليك من قولنا (لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ)ومن قولنا(وَلَقَدْ عَفَا عَنكُم)(وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ)حيث أخذوا بعفوك بغير إذنك ولم يعلموا أنّه بإذنِك العفو فلا تحزن على ضلالتهم وعدم اهتدائهم حين اغتصبوا ما جرى لهم به القضاء وهذا العفو هو المغفرة في قوله تعالى(قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُون أَيَّامَ اللهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِما كَانُوا يَكْسِبُون)وهو عفو الوعيد لا عفو الفضل المستعقب لإذن الندب بمعنييه ولا إذن الرخصة.

وثانيهما عرضي وهو ما تَعلّقَ بِمَنْ سِواهم فإن من سواهم من سائر الخلق خلقهم الله تعالى لهم عليهم السلام و إليه الإشارة بقول سيد الوصيّين صلوات الله عليه (نحن صنائع ربّنا والخلق بعدُ صنائِعُ لنا أي صنعهم الله لنا) وفي الحديث القدسي قال تعالى(خلقتُ الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي وقربي) الحديث ، فما أراد الله من سائر خلقه في إيجادهم وشرعه وفي تكليفهم ووجوداته من سائر الحيوانات والنباتات والجمادات من الغيب والشهادة فهو إصلاح لمن أراد منه ذلك وإيجادٌ له وتتميم وتكميل ليبلغ الكتاب فيهم أجله وكلّ ذلك لهم ولشئونهم عليهم السلام يوم ظعنهم ويوم إقامتهم جعله تعالى لهم أثاثاً ومتاعاً إلى حين من صحبة كلّ شيء منها حتى يرجعوا ليس معهم غيرهم فيمحض المراد الذاتي وحده ولا غاية له في نفسه وفي ما دونه والله من ورائهم محيط، فمراد الله من خلقه يدور على ولايتهم فلا شرك إلاّ الشرك بهم وبولايتهم ولا كفر إلاّ الكفر بهم وبولايتهِم.

وإذا أريد بالشرك شرك الطاعة فإن الشرك في طاعتهم شرك بطاعة عدوّهم وعلى ما تقدّم من أن طاعتهم عين طاعة الله تعالى وطاعة عدوّهم شرك بالله شرك عبادة يتّحد المعنيان في حقهم ، فمَنْ حاربهم على أيّ معنى بعد المعرفة شركٌ عظيم لا يغفره الله سبحانه.

قوله عليه السلام (ومن رد عليكم في أسفل درك من الجحيم) أي مَن ردّ عليكم من سائر خلق الله من الصامت والناطق حكمكم وكذّب قولكم وترك أمركم ونهيكم استكباراً وعُلوّاً بعد المعرفة بكم وبمقامكم فهو في النار فقوله عليه السلام (عليكم) يعني أن ردّه للحكم ليس لعدم فهمه أو لاستثقاله على نفسه أو لشهوته بل عليكم ظلماً وعلواً، وهذا وإن كان به يتحقّق الرّد عليهم من النباتات والجمادات ظلماً وعُلوّاً في كلّ بحسبه إلاّ أن قوله عليه السلام (في أسفل درك من الجحيم) لا يتحقّق المراد هنا إلا في حق رؤوس أئمة الضّلالة الذين هم طلع شجرة الزقّوم كما قال تعالى (طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ)أي طلعها هو رؤوس الشياطين لأن المشبّه نفس المشبّه به في القرآن، وفي أحاديثهم المتلقّاة عنهم في تفسير الباطن وذلك من حكم أسفل لأنه للتّفضيل ويؤيد أن المراد بهم رؤوس أئمة الضلال الذين هم في أسفل درك من الجحيم. ما في الاحتجاج عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حديث طويل في خطبته يوم الغدير يقول فيه (معاشر الناس سيكون من بعدي أئمة يَدْعُونَ إِلى النَّارِ وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ لا يُنْصَرُونَ معاشر الناس إن الله و أنا بريئان منهم معاشر الناس إنهم و أنصارهم و أشياعهم و أتباعهم فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ و لبئس مثوى المتكبرين)وإنّما قيل للنار دركات لأن طبقاتها متتابعة متداركة بعضها فوق بعض وقد يقال لها درجات باعتبار اختلاف مراتبها لاختلاف مراتب أهلها.

وفي تفسير علي بن إبراهيم (بلغني و الله أعلم أن الله جعلها سبع درجات أعلاها الجحيم يقوم أهلها على الصفا منها تغلي أدمغتهم فيها كغلي القدور بما فيها و الثانية لظى نَزَّاعَةً لِلشَّوى تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَ تَوَلى وَ جَمَعَ فَأَوْعى و الثالثة سَقَرُ لا تُبْقِي وَ لا تَذَرُ لَوَّاحَةٌ لِلبَشَرِ عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ و الرابعة الحُطَمَةُ و منها يثور شرر كالقصر كأنها جمالات صفر تدق كل من صار إليها مثل الكحل فلا تموت الروح كلما صاروا مثل الكحل عادوا و الخامسة الهاوية فيها ملوك يدعون يا مالك أغثنا فإذا أغاثهم جعل لهم آنية من صفر من نار فيه صديد ماء يسيل من جلودهم كأنه مهل فإذا رفعوه ليشربوا منه تساقط لحم وجوههم فيها من شدة حرها و هو قول الله تعالى (وإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرابُ وَ ساءَتْ مُرْتَفَقاً) و من هوى فيها هوى سبعين عاما في النار كلما احترق جلده بدل جلدا غيره والسادسة هي السعير فيها ثلاث مائة سرادق من نار في كل سرادق ثلاث مائة قصر من نار في كل قصر ثلاث مائة بيت من نار في كل بيت ثلاث مائة لون من عذاب النار فيها حيات من نار و عقارب من نار و جوامع من نار و سلاسل من نار وأغلال من نار و هوقول الله إِنَّا أَعْتَدْنا لِلكافِرِينَ سَلاسِلَ وَ أَغْلالًا وَ سَعِيراً و السابعة جهنم و فيها الفلق و هو جب في جهنم إذا فتح أسعر النار سعرا و هو أشد النار عذابا و أما صَعُوداً فجبل من صفر من نار وسط جهنم و أما أَثاماً فهو واد من صفر مذاب يجري حول الجبل فهو أشد النار عذابا)هـ.

فدل هذا على أن الجحيم هي العُليا من النارِ وعليه إما أن يكون المراد بمن ردّ عليهم الأتباع لا أئمتّهم وظاهر قوله في أسفل درك من الجحيم يدل على أن المراد بهم أئمتّهم لا الأتباع.

وفي حديث إسحاق بن عمار من كتاب الخصال عن أبي الحسن موسى عليه السلام يقول(إن في النار لواديا يقال له سقر لم يتنفس منذ خلقه الله لو أذن الله عز و جل له في التنفس بقدر مخيط لاحترق ما على وجه الأرض و إن أهل النار ليتعوذون من حر ذلك الوادي و نتنه و قذره و ما أعد الله فيه لأهله و إن في ذلك الوادي لجبلا يتعوذ جميع أهل ذلك الوادي من حر ذلك الجبل و نتنه و قذره و ما أعد الله فيه لأهله و إن في ذلك الجبل لشعبا يتعوذ جميع أهل ذلك الجبل من حر ذلك الشعب و نتنه و قذره و ما أعد الله فيه لأهله و إن في ذلك الشعب لقليبا يتعوذ جميع أهل ذلك الجبل من حر ذلك القليب و نتنه و قذره و ما أعد الله فيه لأهله و إن في ذلك القليب لحية يتعوذ جميع أهل ذلك القليب من خبث تلك الحية و نتنها و قذرها و ما أعد الله في أنيابها من السم لأهلها و إن في جوف تلك الحية لصناديق فيها خمسة من الأمم السالفة و اثنان من هذه الأمة قال قلت جعلت فداك و من الخمسة و من الاثنان قال فأما الخمسة فقابيل الذي قتل هابيل و نمرود الذِي حَاجَّ إِبْراهِيمَ فِي رَبِّهِ قال أَنَا أُحْيِي وَ أُمِيتُ و فرعون الذي قال أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلى و يهود الذي هود اليهود و بولس الذي نصر النصارى و من هذه الأمة أعرابيان)هـ.

وهذا يدل ظاهره أن الحيّة وما فيها من الصناديق لأئمة الضلال كلها في سقر ومن المعلوم أنّ هؤلاء المذكورين لا يكون أحد أشد عذابا منهم فلا تكون نار أسفل منها وفيه دلالة أيضاً على أنّ الجحيم ليست هي السفلى وهذا يعطي أنّ من ذكرهم الهادي عليه السلام في الزيارة هم الأتباع.

وفي الخصال عن الصادق عن أبيه عن جده عليه السلام قال (إن للنار سبعة أبواب

باب يدخل منه فرعون وهامان وقارون وباب يدخل منه المشركون والكفّار ومن لم يؤمن بالله طرفة عين وباب يدخل منه بنو أمية هو لهم خاصة لا يزاحمهم فيه أحد وهو باب لظى وهو باب سعير وهو باب الهاوية يَهْوي بهم سبعين خريفا فكلما هوى بهم سبعين خريفاً فارَ بهم فوْرة قذف بهم في أعلاها سبعين خريفاً، ثم هوى بهم كذلك سبعين خريفاً فلا يزالون هكذا خالدين مخلّدين وباب يدخل منه مبغضونا ومحاربونا وخاذلونا وأنه لأعظم الأبواب وأشدها حرّاً ثم قال والباب الذي يدخل منه بنو أميّة هُو لأبي سفيان ومعاوية وآل مروان خاصّة يدخلون من ذلك الباب فتحطمهم النار حطما لا يسمع لهم واعية ولا يحيون فيها ولا يموتون).

أقول ذكر عليه السلام هنا أربعة أبواب والظاهر أنّ الأول منها هو أعلاها وعليه فيكون الباب الذي يدخل منه مبغضوهم هو الرابع يعني الوسط من السبعة فيحتمل أن يراد بالأسفل الأوسط الذي أحاطت به الأبواب، هذا ظاهر اللفظ أن الأصل في الابتداء الابتداء بالأول والأظهر من المقام وبعض ما يستفاد من أخبارهم عليهم السلام أنه عليه السلام ابتدأ بالرابع فيكون الباب الذي يدخلون فيه بنو أميّة هو السادس وهو الأربع النيران سقر وسعير والحطمة والهاوية، ولهذا ذكرها كذلك إما لأنّ الباب لسقر ويؤدّي إلى السعير ومنه إلى الحُطمة ومنه إلى الهاوية أو لأن كل باب يسمى باسم الآخر لاشتماله على ما في الآخر من أنواع العذاب وإن كان بطورٍ ثانٍ فهو ما في الآخر في النوع فيطلق عليه وغيره في الشخص فيسمّى بغيره.

وفي رواية أن النار(أسفلها الهاوية)وعلى هذا يكون المراد بمبغضيهم أئمة الضلال.

وفي المجمع عن أمير المؤمنين عليه السلام (إن جهنم لها سبعة أطباق بعضها فوق

بعضٍ ووضع عليه السلام إحدى يديه على الأخرى فقال هكذا وإنّ الله وضع الجنان على العرض ووضع النيران بعضها فوق بعضٍ فأسفلها جهنّم وفوقها لظى وفوقها الحطمة وفوقها سقر وفوقها الجحيم وفوقها السعير وفوقها الهاوية).

وفي رواية (أعلاها جهنم وأسفلها الهاوية).

أقول لعل كون جهنم أعلاها أنّها أعلى طبقاتها فقد روي (أنّها ثلاث طبقات أسفلها الفلق وفيه الصناديق) ولا ريب أن الصناديق في أسفل طبقةٍ من النار وكون الهاوية أسْفلها أنها أسْفلُ من بعض الطبقات ، كما تشير إليه ما قدّمنا من الأخبار ولا سيّما حديث الخصال حيث جعل بابها لبني أمية خاصةً ومن المعلوم أن في النار من هو أسوءُ حالا منهم فيجب أن تكون ناره أسفل من الهاوية.

وفي المعاني عن الصادق عليه السلام أنه سئل عن الفلق قال (صدع في النار فيه سبعون ألف دارٍ في كل دارٍ سبعون ألف بيت في كل بيتٍ سبعون ألف أسود في كل أسود سبعون ألف جرة سمّ لا بدّ لأهل النار أن يمرّوا عليها).

أقول : قوله أن يمرّوا عليها يدلّ بظاهره على أن الفلق طريق لأهل النار وأنّ فيها أسْفَل منه ويحتمل أن المراد بأهل النار أصحاب التوابيت وأن المرور عليها هو المصير فيها وهو الذي يظهر لي ، ولا يقال لو كانت الفلق أسفل لما عرضت على أهل التكليف يوم القيامة من الأطفال والمجانين والجهّال والمستضعفين وما أشبههم ممن لم يمحض الكفر والإيمان محضاً ، لأنا نقول إنّما تعرض عليهم تشديداً للتكليف كما عرضت أوّل مرة في الذر ليتحقق صدق المطيع لأمر الله بدخولها.

وروى القمي (قال الفلق جب في جهنم يتعوذ أهل النار من شدة حرّه سأل الله أن يأذن له أن يتنقس فأذِنَ له أنْ يتنفسن فأحْرق جهنم)الحديث.

وهذا مؤيّد لما أشرنا إليه من أن الفلق في جهنّم وأنه يتعوّذ من حرّه النار التي منها جهنّم فهي أسفل الطبقات ومحل الصناديق لأنها هي الجب ، والصناديق اختلف ظاهر الروايات في عددها فروي واحد وهو يراد به النوع أو الجب الجامع لها أو أعظمها وروي اثنان لأعرابيّين فيراد به الأعظم والعلّة فيها، وروي أربعة أو ستة لأربعة من الأولين واثنين من الآخرين وروي سبعة كما تقدم وروى ثمانية لأربعة من الأولين وأربعة من الآخرين وروي اثنا عشر لستّة من الأولين وستة من الآخرين، والجمع بينها على نحو ما ذكرنا.

وإذا اطّلعت على ما ذكرنا فاعلم أنّ الظاهر من المراد من قوله ومن ردّ عليكم أنّهم الأعرابيان ومن اتّبعهم على بيان من أمره فيكون المراد بأسفل درك من الجحيم، أما أن المراد مطلق النار أو أن المراد بأسفل دركٍ منها ما نزل عنها سواءً فرضت الجحيم هي الأعلى أو الوسطى أو السفلى فإن مراده عليه السلام أنهم لعنهم الله وأبعدهم من رحمته الواسعة أشدّ عذاباً من جميع أهل النار من المنافقين والمشركين والكفار.

وإنما استحقّوا ذلك لأن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم قد بين لهم الحق في أفئدتهم وقلوبهم ونفوسهم وسرهم وعلانيتهم وباطنهم وظاهرهم بما لم يقدر أحد من خلق الله أن يأتي بمثله في الظهور ورفع الشبه والجهل والغفلة عنهم حتى جعل لهم تلك الخفايا ضروريّات لا يشكون فيها، ومع هذا فقابلوه بالإنكار والجحود والعداوة الشديدة وسعوا غاية جهدهم في أذاهُ وأذى أهل بيته بما لا يقدر على مثله أحد من المنافقين والمشركين والكافرين فكانت أمثالهم وصفاتهم وبدعهم قائمة بأحقادهم وباطلهم ما دام النظام قد ملأت جميع الظلمات وأسست الشبهات

والعناد والجحود لجميع البريّات ممّن كان أو يكون إلى يوم القيامة، فإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرون (يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ★ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ)فثمرات تلك الأمثال الباقية أبد الدهر يعذبون بها بقدر مبلغها من سخط الله وغضبه ويعذّب بفاضلها جميع أهل النار من الأوّلين والآخرين ويعذّبون أيضا بمثل عذاب من عُذّب بسببهم من الأولين والآخرين (وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ).

قال عليه السلام أشهد أن هذا سابق لكم فيما مَضَى وجارٍ لكم فيما بقي

قال الشارح رحمه الله أشهد أن هذا أي وجوب اتباعكم أو كل واحدٍ من المذكورات سابق لكم فيما مضى من الأئمة أوْ في الكتب المتقدمة انتهى.

أقولُ قَدْ مضَى معَنْى أَشْهَدُ وأمّا هذا فهو اسم إشارةٍ إلى القريب والقرب المستعمل فيه أعمّ من القُرْب الحقيقي فيستعمل فيه وفي القرب العرفي أو المستحضر في الذّهن عند المتكلم وإنْ توقّف فهْمُهُ عند المخاطَب على نَصْبِ قرينةٍ من المتكلّم لو اقتضى الحالُ ذلك ، فإذا فهمت معنى هذا بنحو مَا ذكرنا، فيُحْتَملُ أن يكون المشار إليه (من اتبعكم فالجنّة مأواهُ) إلى (أشْهَدُ) وهذا بناء على اعتبار القرب الحقيقي وأن يكون من قوله (سعد من والاكم) إلى قوله (أشهد) وهو الظاهر من سياق الكلام وأن يكون من قوله (من أتاكم نجى) وهذا أقرب من احتمال أن يكون من قوله(إلى الله تدعون) وأن يكون من قوله(أنتم الصراط الأقوم) وأن يكون من قوله(من والاكم فقد والى الله) وأن يكون من قوله (وأشهد أنكم الأئمة الراشدون المهديون ...إلخ) وأن يكون مِنْ أولِ الزيارة،

وإن كان بعيداً وإنّما احتملنا هذا لأن ما ذكر من الاحتمال الأول الحقيقي أو ما يقرب منه في القرب إنّما هو من فروع ما ذكر من الزيارة من الأوصاف التي استحقّوا بها ما يشهد بثبوته لهم عليهم السلام في كل وقت ومكانٍ.

ثم إنّ قوله عليه السلام (أشهد أنّ هذا سابق لكم ...إلخ) شهادة منه بحقيقة ما ذكر في نفس الأمر وتعليم لشيعتِه لا مجرّد خصوص التعليم ولا ينافي هذا قوله (وإنَّ أرواحَكُمْ ونوركم وطينتكم واحدة) لِما ثبتَ عنهم عليهم السلام أنهُم يتفاضلون في مراتبهم لأنّهم وإن كانوا متفاضلين في مراتبِهِمْ من جهة اختلاف القرب إلى المبدء وترتّب بعض مراتبهم على بعض فإن طينتهم وأرواحهم وأنوارهم شيء واحد وهو نور واحد تعدّدت هياكله باعتبار تغاير جهاتهم من حيث إحاطتهم بمبدئهم كما قال عليه السلام (فجعلكم بعرشه محدقين) وليس ذلك الترتب والتغاير في مراتبهم وجهاتهم إلا على نحو ما قال علي عليه السلام (أنا من محمد كالضوء من الضوء)فقد جمعتهم حقيقة واحدة في رتبة واحدة فلا يكون قوله (أشهد) مخصوصاً بالتعليم.

وقوله عليه السلام (سابق لكم فيما مضى) أي فيما مضى من الدهور الألف الدهر كما مر والأزمنة وهي زماننا هذا الجسماني ودهورنا فإنها لهم أزمنة وقد ذكرنا مراراً أن قلوب شيعتهم التي وقتها الدهر من فاضل أجسامهم التي وقتها زمان لهم وإن كان دهراً لغيرهم.

وإنما قلنا والأزمنة بالجمع لأنّ دهر الأنبياء زمان لهم وللأنبياء عليهم السلام زمان لهم هو دهرٌ للمؤمنين وللمؤمنين زمان هو دهر لمن دونهم من الحيوانات أو من بحكمهم وكل ما سوى دهرهم صلّى الله عليهم فهو لهم زمان فلهم دهور تفردّوا بها وشاركوا غيرهم في أوقاتهم فهم مع كل طبقةٍ في وقتهم يشاركونهم في دهرهم

إذا كانوا فيهم وفي زمانهم، وإذا لم يكونوا فيهم كان ذلك الدهر زماناً لهم فلهم مع غيرهم حالتانِ ولهم مع ربهم سبحانه حالتان ولهم مع أنفسهم حالة واحدة فلهم مع غيرهم دهور وأزمنة ولهم مع الله تعالى سرمد ودهور وأزمنة ولهم مع أنفسهم دهور وزمان ، وإن شئت قلت دهر وزمان وإن شئت قلتَ دهر وأزمنة فهذا المشار إليه سابق لهم ثابت هو أو حكمه أو مع حكمه في كل وقت من السرمد إلى هذا الوقت أي من الفعل إلى الماء والأرض الجرز في الأكوان النورانية إلى العقول في الأكوان الجوهريّه إلى الأرواح في الأكوان الهوائية إلى النفوس في الأكوان المائية إلى الطبائع في الأكوان النارية إلى المواد والأشكال في أكوان الأظلّة والذّر، أنّهم كذلك كما وصفوا به أنفسهم وإن من خالفهم وأنكرهم وردّ عليهم كما وصفوه.

و إنّما جرى لهم ذلك فيما مضى وفيما يأتي لأن ذلك فرع لحكم ذاتي يقتضي ما ذكره عليه السلام اقتضاء لا يرده حكم من أحكام الإمكان ممّن دونهم لأنّ كل من دونهم ملكوته في قبضة أمر الله الّذي هو ذلك الحكم الّذاتي الذي هو مقتضى ذواتهم وإليه الإشارة بقوله عليه السلام في دعاء الصباح والمساء (أَصْبَحْتُ اللهمَّ مُعْتَصِماً بِذِمَامِكَ المَنِيعِ الذِي لا يُطَاوَلُ وَ لا يُحَاوَلُ ...إلخ) وفي الدعاء (اللهمَّ اجْعَلنِي فِي دِرْعِكَ الحَصِينَةِ التِي تَجْعَلُ فِيهَا مَنْ تُرِيدُ).

فإن قلت ظاهر ما استدللت به اقتضاؤه لبعض ما ذكر وهو في أتباعهم ومحبّيهم لأن قوله (بِذِمَامِكَ المَنِيعِ) وقوله (دِرْعِكَ الحَصِينَةِ) إنما يدلّ على حفظ من التجأ بهم دون هلاك من خالفهم ورد عليهم والمدّعى هو الأمران كلاهما.

قلت إنّ الشيء إذا ثبت له أنّه حافظ لكلّ من التجأ به من كلّ مخوف ثَبت له في

دليل الحكمة أنه لا ملجأ سواه وإلا لعادله الملجأ الآخر فلم يكن حافظا لمن حاد عن ذلك الملجأ لأنه قد فرض أنه مساو له وإذا حفظ عنه لم يساويه ذلك الآخر بل يكون ناقصا عنه.

و إذا ثبت أنه ناقص لم يكن مجيرا من التام وتنحصر النجاة في التام فيهلك من حاد عن التام لأنه لا ملجأ دونه لقيام الكل به أو عنه.

فإن قلت عموم قولك هذا يدلّ على أنّ الله تعالى لا يجير منهم عليهم السلام.

قلت هذا كلام لا يقال لأنا قد بيّنا فيما مضى في مواضع كثيرة أنّهم عليهم السلام ليسوا أغياراً لحكم قضاء الله بل حكمهم عين حكم الله إذ لا حكم لهم إلاّ ما حكم الله بهم عليهم وعلى مَن دونهم فما ذكر عليه السلام فيما سبق من قوله (سَعِدَ مَنْ وَالاكُمْ وَ هَلكَ مَنْ عَادَاكُمْ) وأمثاله معناه حقيقة سعِد من والى الله تعالى وهلك من عادى الله تعالى ومن والى الله هو من والاهم، إذ ليس لله ولاية في خلقه غير ما جعل لهم ومن عادى الله تعالى هو من عاداهم إذ ليس لله عداوة غير ما جعل لهم وإلاّ لما صح قولهم الحقّ من والاهم فقد والى الله ومن عاداهم فقد عادى الله فافهم.

لأنه سبحانه وتعالى إنما أحب ما كان له وإنما أبغض ما كان لعدوّه الشيطان والذين له هم محمد وأهل بيته الطاهرين صلى الله عليه وآله وسلم وأتباعهم من كل شيء والذين للشيطان هم أعداؤهم وأتباع أعدائهم من كل شيء وهو قوله تعالى حكاية عن عدوّه الشيطان الرجيم وتسلطه على أوليائه (لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لآَتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلفِهِمْ وَ عَنْ أَيْمانِهِمْ وَ عَنْ شَمائِلِهِمْ وَ لا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ).

وإنما قلنا إنّ ذلك فرع لحكم ذاتيّ لأن الشيء الذي به شيئية أشياء يجب له ألاّ

يكون لشيء منها شيئيّة بغيره وإلا لم تكن به شيئيّتهُ بل بغيره سواء استقلّ ذلك الغير بها أو شاركه وهذه الشيئيّة هي فرع ذلك الحكم وهذا الفرع مركب من إثبات ونفي في كلّ فرد و إلاّ لم يتميز عن ضده فمن والاهم وتبرّأ من أعدائهم تحققت فيه شيئيّة السّعادة، ومن عاداهم تحقّق فيه شيئية الشقاوة ومن تولى ولم يتبرّأ لم يتولّ لأنه لم يتميّز عن العدو ولم يتزيّل ومَنْ تولى عدوّهم ولم يتبرّأ منهم لم يتولّ عدوّهم لأنّه لم يتميز عن الولي ولم يتزيّل وهذا مستضعف أو في حكمه كما ذكره الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام كما في الاحتجاج قال عليه السلام (إنما الناس ثلاثة مؤمن يعرف حقنا و يسلم لنا و يأتم بنا فذلك ناج محب لله و لي، و ناصب لنا العداوة يتبرأ منا و يلعننا و يستحل دماءنا و يجحد حقنا و يدين الله بالبراءة منا فهذا كافر مشرك فاسق و إنما كفر و أشرك من حيث لا يعلم كما يسبوا الله عدوا بغير علم كذلك يشرك بالله بغير علم و رجل أخذ بما يختلف فيه و رد علم ما أشكل عليه إلى الله مع ولايتنا و لا يأتم بنا و لا يعادينا و لا يعرف حقنا فنحن نرجو أن يغفر الله له و يدخله الجنة فهذا مسلم ضعيف)قوله عليه السلام مع ولايتنا أي ردّ علمها إلى الله تعالى لأنها عنده ممّا أشكلت عليه.

قال عليه السلام وأنّ أرواحكم ونوركم وطينتكم واحدة
طابت وطهرت بعضها من بعض

قال الشارح كما ورد في الأخبار الكثيرة أنّ أرواحهم مخلوقة من أعلى علّيّين وأبدانهم من علّيّين وأنوار علومهم وكمالاتهم واحدة طابت الأرواح وطهرت الأبدان أو الجميع بعضها من بعض كما قال الله تعالى (ذُرِّيَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ)أي من طينةٍ واحدة مخلوقة من نور عظمته تعالى انتهى.

أقول : الرّوح الكلّي واحد وهو روحهم عليهم السلام وإنّما تعددُوا بتعدّد الهياكل التي

هي هياكل التّوحيد لاختلاف الجهات التي هي جهات قبولهم لا المراتب فإنها بالنسبة إلى مبدئهم سواء في القرب إلاّ ترتّب بعضهم على بعض ولا الكمّ إلا بتفاضلهم في الترتب، ولا في الكيف إلاّ ما نشأ منه عن تفاضل الترتّب ولا الوقت والمكان إلاّ ما نسب إلى التّرتّب.

واعلم أن للروح في مقام ذكرهم عليهم السلام إطلاقين يطلق ويراد به العقل الكلّي والقلم وهو الركن الأيمن الأعلى من العرش ويطلق ويراد به الروح الكلّي المتوسّط رتبةً بين العقل الكلّي والنفس الكليّة وهو الركن الأيمن الأسفل من العرش وقد أشار إليهما أمير المؤمنين عليه السلام كما في الكافي عَنْ عَلِيِّ بْنِ رِئَابٍ رَفَعَهُ إِلى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام أنه قَال (إِنَّ لله نَهراً من دُونَ عَرْشِهِ وَ دُونَ النَّهَرِ الذِي دُونَ عَرْشِهِ نُورٌ نَوَّرَهُ وَ إِنَّ فِي حَافَتَيِ النَّهَرِ رُوحَيْنِ مَخْلُوقَيْنِ رُوحُ الْقُدُسِ وَ رُوحٌ مِنْ أَمْرِهِ وَ إِنَّ لله عَشْرَ طِينَاتٍ خَمْسَةً مِنَ الجَنَّةِ وَ خَمْسَةً مِنَ الأَرْضِ فَفَسَّرَ الجِنَانَ وَ فَسَّرَ الأَرْضَ ثُمَّ قَال مَا مِنْ نَبِيٍّ وَ لا مَلكٍ مِنْ بَعْدِهِ جَبلَهُ إلا نَفَخَ فِيهِ مِنْ إِحْدَى الرُّوحَيْنِ وَ جَعَل النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله وسلم مِنْ إِحْدَى الطِّينَتَيْنِ قُلتُ لِأَبِي الحَسَنِ الأَوَّلِ عليه السلام مَا الجَبْلُ فَقَال الخَلقُ غَيْرَنَا أَهْل البَيْتِ فَإِنَّ الله عَزَّ وَ جَل خَلقَنَا مِنَ العَشْرِ طِينَاتٍ وَ نَفَخَ فِينَا مِنَ الرُّوحَيْنِ جَمِيعاً فَأَطْيِبْ بِهَا طِيباً).

أقول الظّاهر أنّ المراد بالنهر نهر الوجود المقيّد لأنه يفيض من العرش والروحان والطينتان تفصيل العرش إذا أريد بالطينين الباطنتان فروح القدس هو النور الأبيض من العرش والروح من أمره هو النور الأصفر من العرش ويطلق على كليهما روح من أمر الله والطينتان إذا أريد بهما الباطنتان يطلق عليهما وعلى أحدهما الروح الذي على ملائكة الحجب أي مُوكّل عليهم وهما النور

الأخضر الأعلى عن يسار العرش والنور الأحمر الأسفل عن يسار العرش، وظاهر الطينتين من عليين العليا الأولى جنة عدن وجنّة المأوى وجنة النعيم وجنّة الفردوس وجنّة الخلد وهي طين الجنان والسفْلى طين الأرض وهي مكة والمدينة والكوفة وبيت المقدس والحائر.

وقوله عليه السلام (مَا مِنْ نَبِيٍّ وَ لا مَلكٍ...إلخ) يراد منه والله أعلم أن كل نبي وكل ملك جميعاً ينفخ فيه من الروّح الثانية التي هي روح من أمره وبها العصمة فمن شعاعها كانت الأنبياء معصومين ومن نور شعاعها كانت الملائكة معصومين ومحمد وأهل بيته الطاهرون صلى الله عليه وآله وسلم نفخ سبحانه فيهم من الروحين جميعاً يعني فيهما جميع الروحَيْن ومن سواهم نفخ فيهم من شعاع الثانية وهي روح من أمره روح العصمة.

وأمّا الأولى التي هي باب اللهِ فلم ينفخ منها في أحدٍ ولم تكن عند خلقٍ إلا عند محمد وآله صلى الله عليه وآله وسلم فما كانت لأحد من الأنبياء وساطة وسفارة في شيءٍ قليل أو كثير في الدنيا والآخرة لأنفسهم أوْ لأحدٍ من أُممهم إلاّ إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليه وعليهم السلام ، فإذا سمعْتَ أن أحداً من الأنبياء عليهم السلام كان باباً بين الله وبين أمّته فإنّما هو بين أمة وبين محمد وأهل بيته عليهم السلام الذين هم شفعاء جميع الخَلق وكذلك حكم الطينتين.

ومن الدليل على أنّ من سواهم لا ينفخ فيه من ذات ما ينفخ فيهم وإنما هو من شعاعها ما رواه في البصائر عن جابر الجعفي قال (كنت مع محمد بن علي عليهما السلام فقال عليه السلام يا جابر خلقنا نحن و محبينا من طينة واحدة بيضاء نقية من أعلى عليين فخلقنا نحن من أعلاها و خلق محبونا من دونها فإذا كان يوم القيامة التقت العليا

بالسفلى و إذا كان يوم القيامة ضربنا بأيدينا إلى حجزة نبينا ﷺ و ضرب أشياعنا بأيديهم إلى حجزتنا فأين ترى يصير الله نبيه و ذريته و أين ترى تصير ذريته محبيها فضرب جابر يده على يده فقال دخلناها و رب الكعبة ثلاثا) .

ومنه عن أبي الحجاج قال (قال لي أبو جعفر عليه السلام يا أبا الحجاج إن الله خلق محمدا و آل محمد ﷺ من طينة عليين و خلق قلوبهم من طينة فوق ذلك و خلق شيعتنا من طينة دون عليين و خلق قلوبهم من طينة عليين فقلوب شيعتنا من أبدان آل محمد و إن الله خلق عدو آل محمد من طين سجين و خلق قلوبهم من طين أخبث و خلق شيعتهم من طين دون طين سجين و خلق قلوبهم من طين سجين فقلوبهم من أبدان أولئك و كل قلب يحِن إلى بدنه).

أقول قد ذكرنا مرارا أن المراد بقولهم عليهم السلام من دون ذلك أو من فاضل طينة كذا كما في بعض الأخبار هو الشعاع وكذلك إذا قيل من نضح كذا ومنْ عرق كذا وقد يستعمل النضح والفضل بمعنى الجزء والقسيم والأدلة الخارجة فارقةٌ، و ذلك كما في البصائر عن بشر بن أبي عقبة عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام قال (إن الله خلق محمدا من طينة من جوهرة تحت العرش و إنه كان لطينتة نضح فجبل طينة أمير المؤمنين عليه السلام من نضح طينة رسول الله ﷺ وكان لطينة أمير المؤمنين عليه السلام نضح فجبل طينتنا من فضل طينة أمير المؤمنين عليه السلام و كانت لطينتنا نضح فجبل طينة شيعتنا من نضح طينتنا فقلوبهم تحن إلينا و قلوبنا تعطف عليهم تعطف الوالد على الولد و نحن خير لهم و هم خير لنا و رسول الله ﷺ لنا خير و نحن له خير)هـ.

فاستعمل عليه السلام النضح والفضل في الجزء والقسيم وعلى الأصل من كون

المراد منه الشعاع في قوله فجبل طينة شيعتنا من نضح طينتنا فلا يشتبه عليك بعد التنبيه وأيضا لا يذهب عليك ما في بعض الأحاديث كما في هذا الخبر من أنّهم إذا خلقوا من رسول الله أو من أمير المؤمنين عليه السلام كانوا مُتأخّرين عن مقامهما مع أنّا نقول إنّهم في مقام واحدٍ وقد ورد هذا عنهم ذلك وأنّهم خُلِقوا من نور واحدِ.

روى الصدوق في كتاب المعراج عن رجاله إلى بن عباس عليه الرضوان قال (سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و هو يخاطب عليا عليه السلام يقول يا علي إن الله تبارك و تعالى كان و لا شيء معه فخلقني و خلقك روحين من نور جلاله و كنا أمام عرش رب العالمين نسبح الله و نقدسه و نحمده و نهلله و ذلك قبل أن يخلق السماوات و الأرضين فلما أراد أن يخلق آدم خلقني و إياك من طينة واحدة من طينة عليين و عجننا بذلك النور و غمسنا في جميع الأنوار و أنهار الجنة)الحديث.

وفي رياض الجنان بإسناده مرفوعاً إلى جابر بن يزيد الجعفي قال قال أبو جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام (يا جابر كان الله و لا شيء غيره و لا معلوم و لا مجهول فأول ما ابتدأ من خلق خلقه أن خلق محمدا صلى الله عليه وآله وسلم و خلقنا معه من نور عظمته فأوقفنا أظلة خضراء بين يديه حيث لا سماء و لا أرض و لا مكان و لا ليل و لا نهار و لا شمس و لا قمر يفصل نورنا من نور ربنا كشعاع الشمس من الشمس نسبح الله و نقدسه و نحمده و نعبده حق عبادته ثم بدأ الله تعالى أن يخلق المكان و كتب على المكان لا إله إلا الله محمد رسول الله علي أمير المؤمنين عليه السلام ووليّ الله وصيه به أيدته و نصرته ثم خلق الله العرش فكتب على سرادقات العرش مثل ذلك)الحديث.

فذكر في الحديث الأول أنهما عن طينة واحدة وفي الثاني أنهم خلقوا معَهُ

لأن المراد بكونهم معه ﷺ من طينة واحدة في وقت واحد من السرمد وما دل على تأخّرهم عنه ﷺ فالمراد به ترتبهم عليه ولا ريبَ أنّهم متأخرون عنه رتبةٌ لا وقتاً مغايرا بل هم معه في سرمد واحدٍ وإن كان له أوله حتى أنّه مقدّر عندهم عليهم السلام بثمانين ألف سنة وهو وقت الحرف الذي فضل عليّا عليه السلام من العلم، وبه كان أفضل منه روى ذلك جابر بن عبد الله في تفسير قوله تعالى (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ) قال (قال رسول الله ﷺ أول ما خلق الله نوري ابتدعه من نوره و اشتقه من جلال عظمته فأقبل يطوف بالقدرة حتى وصل إلى جلال العظمة في ثمانين ألف سنة ثم سجد لله تعظيما ففتق منه نور علي عليه السلام فكان نوري محيطا بالعظمة و نور علي محيطا بالقدرة ثم خلق العرش واللوح والشمس وضوء النهار)الحديث.

فأخبر أنّ نوره ﷺ بقي يطوف بالقدرة ثمانين ألف سنة والظاهر أن المراد منه أن يطوف على حكم الولاية هذه المدّة التي هي مقدار سبق ظهور الولاية على النبوّة التي هي العظمة وجلال العظمة، فلمّا وصل نازلاً إلى مقام النبوّة سجد لله تعظيماً لأنه هو شأن النبوة بخلاف الحال الأوّل الذي هو شأن الولاية فإنّه مقام ربوبيّة لا مقام عبوديّة فقام بالنبوّة وقام علي عليه السلام بالولاية بعد محمد ﷺ وهو قوله (فكان نوري محيطاً بالعظمة) أي النبوّة ونور علي محيطا بالقدرة أي الولاية والإحاطة في المقاميْن لهذين العظيمين القيام بموجب ما يراد منه في حكمة، فعبّر عن القيام بجميع أحكامها بالإحاطة بها فظهر ما أوردنا ومما نبهنا عليه أنّ أرواحهم ونورهم وطينتهم واحدة وإن تعدّدوا وإنّما ذلك كنور السّراج لا كالسراج ونوره كما إذا نسب إليهم من سواهم بل هم كالسراج من السراج

كما قال علي عليه السلام (أنا من محمد كالضوء من الضوء)وهذا هو شأن البدل وإليه الإشارة بقوله تعالى(ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الله عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

و مما يشير إلى أن طينة شيعتهم من شعاع طينتهم وفرع عنها لا من حقيقتها ما تقدم في حديث محمد بن مروان في الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله (لَمْ يَجْعَل لِأَحَدٍ فِي مِثْلِ الذِي خَلقَنَا مِنْهُ نَصِيب وخَلقَ أَرْوَاحَ شِيعَتِنَا مِنْ طِينَتِنَا وَ أَبْدَانَهُمْ مِنْ طِينَةٍ مَخْزُونَةٍ مَكْنُونَةٍ أَسْفَل مِنْ ذَلِكَ الطِّينَةِ)الحديث.

و ما في رياض الجنان عن ابن عباس أنه قال: قال أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله قال فقلت يا أمير المؤمنين عليه السلام كيف ينظر بنور الله عز و جل قال عليه السلام لأنا خلقنا من نور الله و خلق شيعتنا من شعاع نورنا فهم أصفياء أبرار أطهار متوسمون نورهم يضيء على من سواهم كالبدر في الليلة الظلماء).

أقول : ويدخل في اسم الشيعة الأنبياء عليهم السلام بل لهم الاسم و هم الشعاع وسائر المؤمنين من شعاع نور الأنبياء عليهم السلام.

وروي في البصائر عن عبدالغفار الجازي عن أبي عبد الله عليه السلام قال (إن الله خلق المؤمن من طينة الجنة و خلق الناصب من طينة النار و قال إذا أراد الله بعبد خيرا طيب روحه و جسده فلا يسمع شيئا من الخير إلا عرفه و لا يسمع شيئا من المنكر إلا أنكره قال و سمعته يقول الطينات ثلاثة طينة الأنبياء و المؤمن من تلك الطينة إلا أن الأنبياء هم صفوتها و هم الأصل و لهم فضلهم و المؤمنون الفرع من طينة لازب كذلك لا يفرق الله بينهم و بين شيعتهم و قال طينة الناصب من

حمأ مسنون و أما المستضعفون فمن تراب لا يتحول مؤمن عن إيمانه و لا ناصب عن نصبه و لله المشية فيهم جميعا)هـ.

أقول : ظاهر هذا الكلام الأخير وهو قوله ولله المشيئه فيهم جميعا ينافي قوله لايتحول مؤمن عن إيمانه وذلك لأن روايات تكليف الذر داله على أن الله تعالى قال لأصحاب اليمين للجنة ولا أبالي ولم يشترط فيهم البداء وقال لأصحاب الشمال للنار ولا أبالي واشترط فيهم البداء ولم يشترط في أصحاب الجنة فقوله ولله فيهم المشيه جميعا مناف لهذا ، ورفع الإشكال أن عدم اشتراط البداء في المؤمنين من الفضل والجود فجرت الحكمة مطابقة لمقتضى الفضل والجود كما جرت على ذلك المقتضى باشتراط البداء في الناصبين ، وفي الواقع أن الحكم الغير المشروط والمشروط هما من الممكنات المقدورات له تعالى والشرط فيهما وفي كل شيء حكم قيام الأشياء به قيام صدورٍ وعدم الاشتراط في أصحاب الجنّة من الفضل والجود ولو شاء صَرَفَ ما شاء إلى ما شاء كما شاء فلا منافاة بين الحَديثَين.

وقوله عليه السلام (طابت وطهرت) لأنّ المراد بالطّيب والطهر التخلص من الرذائل والنقائص الظّاهرة والباطنة من الذنوب النفسانيّة والجسمانيّة في التكليفات الشرعية أوالتكليفات الوجوديّة من السّفاح الظاهري كما وقع عقد النكاح على غير الوجه الشّرعي لخلل في لفظ العقد أو في القصد كما لو وقع على غير المقصود إنكاحه أو نكاحه أو بغير رضى الطرفين أو أحدهما أو من يعتبر رضاه أو قصده في الطرفين أو أحدهما أو لكونه ممن قد حصل له النّصاب قبل أن يفارق منهنّ شيئاً أو لكونها في عدة الغير أو نكاحه أو فاقدين للولي الّذي يتوقف النكاح عليه أو أحدهما، أو لكونهما محرمين أو أحدهما أو أَحدهما كافر أو بينهما رضاع

أو مصاهرة محرّمان أو جمع محرم كالأختين أو على العمة والخالة بغير رضاهما أو كونهما مِنَ المحارِم أو نكح الزوجة بظنّ أنّها أجنبية أو المطلقة ثلاثاً قبل أن تنكح زوجا غيره أو تسعا للعدة أو متلاعِنَيْنِ أو ظهار قبل التكفير أوْ إيلاء كذلك أو خلع أو مباراة قبل الرجوع في البذل في العدة وغير ذلك.

أو السفاح الباطني كما لو كان الصداق المعيّن من حرام على أشكال أو كانا أو أحدهما مبغضين لأئمّة الهدى أو أحدهم عليهم السلام عن بصيرة أو معتقديْن أو أحدهما كون العقد والنكاح على الكتاب والسنّة والولاية والبراءة غير مبيح للنكاح مع البصيرة وما أشبه ذلك أو نكح زوجته بظن أنّها أجنبيّةٌ أو بشهوة الأجنبية وما أشبه ذلك.

ومن ترك شيء من الواجبات والمندوبات وفعل شيء من المحرمات والمكروهات من جميع ما يريد الله من عباده من أمر التوحيد فما دونه إلى أرش الخدش فما فوقه بحيث يكون الطيب الطاهر الخالص من هذه النقائص وما أشبهها لطيب طينته وطهارة طبيعته في جميع أحواله وأعماله وأقواله واعتقاداته ينطبق طريقه على الصراط المستقيم بغيرِ تكلف بل باستقامة فطرته وطهارة خِلقته فيكون في جميع أحواله لا يفقده الله سبحانه حيث يحبّ أبداً ولا يجده حيثُ يكره أبداً فذلك الطيب الطاهرُ ، فقوله (طابت وطهرت) يريد الأرواح والنور والطينة وأرواحهم هي ماء الحياة والنور الأصفر وهي واحدة، وإنما تعدَدَتْ رقائقها لما قلنا سابقاً من تعدد جهات التمكين والتمكن اللذين بهما ترتب بعضهم على بعض في دهرٍ واحدٍ لهم هو لغيرهم سرمد إضافي وطيبُها لحقيقةِ ما هم أهله من نحو ما ذكرنا.

ونورهم هو وجودهم المعبر عنه بالفؤاد والكنه والحقيقة والنفس وهو واحد لعدم تمايزهم فيه أو يراد به العقل وهو أيضاً لهم واحد، وإنْ حَصَل لهم تمايز معنوي فيه باعتبارِ تعدد جهات التمكين والتمكن كما في الأرواح وهو النور الأبيض وطيبُه كما أشرنا إليه ولأنه لا ينظر إلى نفسه بل إلى جهة ربه ، كما أنّ الفؤاد لا ينظر إلا إلى ربه فالروح قد استولى عليهَا نورُ ربّها حتى لم يَبقَ منها إلاّ صورة حدودها والعقل قدِ استولى عليه نورُ ربه حتّى لم يبقَ منه إلاّ معنى حدوده وقال السهروردي في قصيدته في صفة الواصلين:

منهمُ مـــن عفا ولم يبق للشكوى
ولا للدموع فيـــــــه مقيـلُ
ليـس إلاّ الأنفاس تخبـر عنـــه
وهـو عنـها مبـــــرءٌ معـزولُ

والفؤاد قد اضمحلّ في النور فهو نور ربه قال صفي الدين:

أنحلـني الحـبُّ في هـواك فلـــو
تفقَدتْـني المنـــون لـم تـــــرني

وإليه الإشارة بقول أمير المؤمنين عليه السلام (اتَّقُوا فِرَاسَةَ المُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ الله).

وطينتهم طيبها وطهرُها لأنها هندسة الإيمان بالله وهيئات امتثال أمر الله واجتناب نهيه وحدود مراقبة الله وكيفية الصّدق مع الله في كل المواطن وهيكل توحيد الله وصورة عبادة الله وطاعته وما كان هكذا لا يكون إلاّ هكذا كما وصفنا سابقاً. وقوله عليه السلام (بعضها من بعض) يريد أنّها شيء واحد فإذا فرضتَ بعضاً

منها فهو من البعض الآخر وذلك الآخر من ذلك البعض لأن ما لا يكون هكذا لا تتحقّق فيه الوحدة الحقيقيّة لأنّك إذا فرضتَ بعضاً لشيء وهو حين فرض فصْله مغاير للبعض الآخر ، بمعنى أنه لم يكن منه بل هما معا من شيء آخر غيرهما فهذا ليس واحداً حقيقيا حين الاجتماع لأن أجزاءهُ مغايرة بعضها لبعض حين الفصل بخلاف ما إذا كان كلّ واحد من الآخر، فإن هذا شيء واحد لا يتكثّر بالفصل بل هو واحد في الفصل كما هو قبل الفصل فتأمل وتفهّم وتدبر فإنه دقيق جدّاً.

والمراد أنّ أرواحهم ونورهم وطينتهم في الطيب والطهر ممّا أشرنا إليه من النّقائص واحدة لا تفاضل فيها بوجه من الوجوه ، ثم أكّد هذا الاتّحاد بقوله (بعضها من بعض) وهذا المعنى يظهر منه أنه لا يريد بالنور الفؤاد وإنما يريد به العقل إذ لو أريد به الفؤاد لزم تساويهم في الفضل وقد ثبت عنهم تفاضلهم في الدرجات فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أفضل منهم بإجماعهم ونصوصهم المتواترة معنى، وإجماع شيعتهم إلاّ ما يظهر من بعض الجهّال منهم ممن لا يعد من العلماء بل ولا من شيعتهم العارفين فإن منهم من يجعل الأربعة عشر سواء ، ومنهم من يجعل محمداً وعليا صلى الله عليهما وآلهما سواء ، ومنهم من يفضّل علياً على محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهذا ملحق بالغرابية الكفرة القائلين بأن محمد بعليّ أشبَهُ من الغراب بالغراب والذباب بالذباب وقالوا بُعِث جبرائيل إلى علي فغلط إلى محمد ويلعنون لعنهم الله صاحب الريش يعنون به جبرائيل عليه السلام ، ومنهم من يستثني محمدا وعلياً و سوّي بين الباقين.

وأما المعتبرة أقوالهم من العلماء فأجمعوا على فضل النبي صلى الله عليه وآله وسلم على الكل وبعده فضل علي عليه السلام على الباقين ثم اختلفوا فمنهم من قدّم فاطمة عليها السلام على الباقين كما

هو في الذكر ، ومنهم من فضّل الحسنين عليهما السلام عليها وعلى التسعة من ذريّه الحسين عليه السلام والتسعة سواء ، ومنهم من جعل فاطمة عليها السلام بعد الأئمة عليهم السلام وهم سواء إلاّ علي فإنه أفضل ، ومنهم من جعل محمّداً صلى الله عليه وآله أفضل الخلق أجمعين ثم علي عليه السلام ثم الحسن ثم الحسين ثم القائم ثم الأئمة الثمانية ثم فاطمة عليها السلام وهذا هو الذي يترجّح عندي ومنشأ اختلاف الكل اختلاف الأحاديث ظاهرا.

ثم القائلون بالتفاضل اختلفوا هل ذلك لزيادة العلم أو له وللعمل أو عناية من الله تعالى أو لزيادة سائر الصفات في بعضهم على بعض كالقوّة والشجاعة والكرم وغير ذلك وليس هذا محل بيان هذا.

و إيراد أدلّة القائلين، والأصح عندي أن التفاضل لزيادة جميع الصفات للفاضل ومن فتشّ عن أدلة ذلك وجدها في أحاديثهم وكان ممّا يشتبه فيه كثيرا حتى خفي على فحول العلماء زيادة علم بعضهم على بعض لورود أحاديثهم بأن نورهم سواء وعلومهم سواء ، وأن اللاحق منهم يحيط بجميع ما عند السابق عند آخر دقيقة من عمر السابق، والحق أنّها مخصّصة وأن العلوم التي يتساوون فيها هو ما يحتاج إليه جميع الخلق ويتفاضلون فيما يخصّ كل واحد.

روى الحسن بن سليمان الحلي في مختصر بصائر سعد بن عبد الله الأشعري بإسناده إلى أيوب بن الحر عن أبي عبد الله عليه السلام قال (قلنا الأئمة بعضهم أعلم من بعض فقال نعم و علمهم بالحلال و الحرام و تفسير القرآن واحد)هـ.

أقول : وهذا ما قلنا من أن ما يتساوون فيه من العلوم هو ما يحتاج إليه الخلق لأن كلاً منهم حجة مستقل على سائر الخلق فلا يجوز أن يكون حجة عليهم وليس عنده جميع ما يحتاجون إليه، وأما ما يتفاضلون فيه فهو ما يخصهم من

معرفة الله سبحانه لأن معرفة كلّ شخص هو كنه ما ظهر له الله سبحانه وتعالى به وهو حقيقته التي هي آية ربه الكبرى له ولا ريب أنه ظهر لمحمد ﷺ قبل أن يظهر لعلي فعند محمد ﷺ حرف من العلم لا يعلمه علي وقد تقدّم الإيماء إلى طول ذلك الحرف وعرضه وأنه ثمانون ألف سنة في وقت القدرة من السرمد، وظهر سبحانه لعلي قبل الحسن وللحسن قبل الحسين وللحسين قبل القائم وللقائم قبل الثمانية ولهم قبل فاطمة صلى الله عليهم أجمعين فهم فيما ينتقل ويحوّل من العلوم سواء وأمّا ذات الشيء فلا ينتقل إلى غيره فافهم.

ولا ينافي هذا كونهم سواء فإنهم سواء آمنا بالله وما أنزلت إلى نبيه ﷺ وما أنزل إليهم (لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَ نَحْنُ لهُ مُسْلِمُونَ).

والحاصل أن هذه الحقيقة التي هي آية الله الكبرى وبها التفاضل هي الوجود المعبر عنه بالفؤاد فينبغي أن يحمل قوله ونورهم على العقل وذكرنا في تفسير النور أنه هو العقل أو الفؤاد لبيان أن النور قد يطلق على كل واحد منهما وقد يقال للعقل نور وللفؤاد سر كما في بعض الأخبار ولو أبقينا الكلام على إطلاقه أو عمومه ولم يخصّص النور بالعقل أمكن حصول الوحدة في الفؤاد ولا ينافيه التفاضل كما نقول إنّ النور المتشعشع من السراج واحد حقيقة وإن اختلفت مراتبه باختلاف القرب إلى السراج وإن حملنا الاختلاف على ترتب بعضهم على بعض لأنا لا نريد به إلاّ ذلك الترتب الذي قدرّ وقته في السرمد بالنسبة إلى الزمان أو الدهر ثمانين ألف سنة.

قال عليه السلام خلقكم الله أنوارا فجعلكم بعرشه محدقين

قال الشارح رحمه الله مطيفين أي مستفيضين من علمه أو طائفين بالعرش

الصّوري في الأجساد المثالية كالطواف بالبيت انتهى.

أقول : إمّا أن الله تعالى خلقهم أنوارا من نوره قبل أن يخلق شيئا من خلقه فهو معلوم متواتر معنى في أحاديثهم ، وإمّا أنه سبحانه جعلهم بعرشه محدقين فهو أيضاً لا إشكال فيه إنما الإشكال في جعلهم بعرشه محدقين بعد أن خلق العرش فهم قبل خلق العرش يسبحونه في الكان والمكان، أم خلق العرش قبل أن يخلقهم فلمّا خلقهم جعلهم محدقين بالعرش أم ظهروا مع العرش أي خلقوا مع خلقه فلم يظهر العرش في الوجود إلا بهم أو لم يظهروا في الوجود إلا في العرش أم فيه تفصيل كما يأتي.

والمعروف من إطلاقات رواياتهم أن العرش يطلق ويراد به أحد معاني نذكر بعضها ليتميّز بعضها من بعض بالمقام أي بخصوص مقام الإطلاق ، فيطلق ويراد به الملك وملكوت الأشياء وأسبابها والعلم الباطن وأصل مطلع البدع وعلم الكيف والكون والقدر والحد والأين والمشية، وصفة الإرادة وعلم الألفاظ والحركات والترك وعلم العود والبدء وعرش الأحديّة على ما اصطلحنا عليه كما هو المفهوم من أخبارهم من أن الأحديّة المعروفة صفة فعل وعرش الوحدانية والمثل الأعلى بمعنى التقدس والمثل الأعلى بمعنى الألوهيّة والربوبية والرحمانية، والمثل الأعلى بمعنى الآية الكبرى و النبأ الأعظم والاسم الأكبر والأسماء الحسنى والخلق والرزق والحياة والممات وعلى اللّوح المحفوظ وعلى ألواح المحو والإثبات وعلى كل فرد فيما تحته من الأفاعيل وعلى محدد الجهات وعلى كل فلك فيما تحته وكل عنصر فيما تحته (فَسُبْحانَ الذِي بِيَدِهِ مَلكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَ إِليْهِ تُرْجَعُونَ).

وممّا يدلّ صريحا على تعدد المراد ما رواه في التوحيد بإسناده إلى حنان بن سدير (قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن العرش و الكرسي فقال إن للعرش صفات كثيرة مختلفة له في كل سبب وضع في القرآن صفة على حدة فقوله رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ يقول الملك العظيم و قوله الرَّحْمنُ عَلى العَرْشِ اسْتَوى يقول على الملك احتوى وهذا ملك الكيفوفية في الأشياء ثم العرش في الوصل متفرد من الكرسي لأنهما بابان من أكبر أبواب الغيوب و هما جميعا غيبان و هما في الغيب مقرونان لأن الكرسي هو الباب الظاهر من الغيب الذي منه مطلع البدع و منه الأشياء كلها والعرش هو الباب الباطن الذي يوجد فيه علم الكيف و الكون و القدر و الحد والأين والمشية و صفة الإرادة وعلم الألفاظ و الحركات والترك و علم العود والبدء فهما في العلم بابان مقرونان لأن ملك العرش سوى ملك الكرسي و علمه أغيب من علم الكرسي فمن ذلك قال رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ أي صفته أعلم من صفة الكرسي و هما في ذلك مقرونان ، قلت جعلت فداك فلم صار في الفضل جار الكرسي قال إنه صار جاره لأن علم الكيفوفية فيه و فيه الظاهر من أبواب البداء وأينيتها و حد رتقها و فتقها فهذان جاران أحدهما حمل صاحبه في الضرف و بمثل صرف العلماء و يستدلوا على صدق دعواهما لأنه يختص برحمته من يشاء و هو القوي العزيز فمن اختلاف صفات العرش أنه قال تبارك و تعالى رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ و هو وصف عرش الوحدانية لأن قوما أشركوا كما قلت لك قال تبارك و تعالى رَبِّ العَرْشِ رب الوحدانية عما يصفون و قوما وصفوه بيدين فقالوا يَدُ الله مَغْلُولَةٌ وقوما وصفوه بالرجلين فقالوا وضع رجله على صخرة بيت المقدس فمنها ارتقى إلى السماء و قوما وصفوه بالأنامل فقالوا إن محمدا

قال إني وجدت برد أنامله على قلبي فلمثل هذه الصفات قال رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ يقول رب المثل الأعلى عما به مثلوه و لله المثل الأعلى الذي لا يشبهه شيء و لا يوصف ولا يتوهم فذلك المثل الأعلى و وصف الذين لم يؤتوا من الله فوائد العلم فوصفوا ربهم بأدنى الأمثال و شبهوه بالمتشابه منهم فيما جهلوا به فلذلك قال وَ ما أُوتِيتُمْ مِنَ العِلمِ إِلا قَلِيلًا فليس له شبه و لا مثل و لا عدل و له الأسماء الحسنى التي لا يسمى بها غيره و هي التي وصفها في الكتاب فقال فَادْعُوهُ بِها وَ ذَرُوا الذِينَ يُلحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ جهلا بغير علم ، فالذي يلحد في أسمائه بغير علم يشرك و هو لا يعلم ويكفر به و هو يظن أنه يحسن فلذلك قال وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِالله إِلا وَهُمْ مُشْرِكُونَ فهم الذين يلحدون في أسمائه بغير علم فيضعونها غير مواضعها يا حنان إن الله تبارك و تعالى أمر أن يتخذ قوم أولياء فهم الذين أعطاهم الله الفضل و خصهم بما لم يخص به غيرهم فأرسل محمدا ﷺ فكان الدليل على الله بإذن الله عز و جل حتى مضى دليلا هاديا فقام من بعده وصيه عليه السلام دليلا هاديا على ما كان هو دل عليه من أمر ربه من ظاهر علمه ثم الأئمة الراشدون عليهم السلام).

أقول آخر هذا الحديث الشريف ليس فيه ظاهرا استشهاد على ما ذكرنا من أمر العرش وإنّما ذكرته لبيان أن المراد بهذا الكلام هو بيان بعض ما يطلق عليه العرش من مراتب إطلاقاته العليا فإن قوله تعالى(فَسُبْحانَ الله رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ)أن المراد بالعرش هنا المثل الأعلى كما ذكر عليه السلام وأشار بهذا الكلام إلى أنّ من دعاه بأسمائه الحسنى فقد وصفه بما له تعالى من صفاته وسمّاه بأسمائه التي ظهر بها لمن عرفه بها وهو تأويل قوله (الرَّحْمنُ عَلى العَرْشِ اسْتَوى) أي وصف

نفسه لعباده الصالحين بصفاته وسمّى نفسه لهم بأسمائه عليهم السلام ليعرفوه بها وأسماؤه الذين سمى نفسه بها، وأمر عباده أنْ يدعوه بها هم محمد وآله المعصومون صلى الله عليه وآله وسلم وصفاته التي وصف نفسه بها لمن أحب أن يعرفه كما يحبّ هي ولايتهم عليهم السلام ومن ألحد في أسمائه تعالى بأن وَصَفَهُ بولاية أعدائهم التي هي صفات النقص تعالى الله عن ذلك وسماه بأعدائهم الذين هم الأسماء السوأى وزعم أن الله تعالى أمر أن يدعى بها فقد أشرك من حيث لا يعلم لأنه اتّخذ رجالاً أولياء وقد نهى الله تعالى عن ولايتهم وأتّباعهم وأمر بالبراءة منهم وعدل عمّن جعلهم الله أولياء وأدلاّء هادين، وأمر بولايتهم وأتّباعهم ونهى عن عداوتهم وعن البراءة منهم وأمر بالبراءة من أعدائهم.

فمعنى العرش هنا المثل الأعلى أي (فَسُبْحانَ الله رَبِّ العَرْشِ)أي ربّ المثل الأعلى الذي هو ما وصف نفسه به من ولاية أوليائه وسمّى نفسه بهم لمن أراد أن يدعوه بها أي أُنزهه بهذا الوصف وبهذه التسمية عما يصفه الملحدون به من تلك الأوصاف القبيحة وسمّوه بتلك الأسماء السوأى، الذين هم أعداءُ أولياء الله وأسمائه الحسنى وهذا المعنى الذي ذكرته لك من هذا الحديث صريح ظاهر لمن خاطبهُ به أولياؤه صلوات الله عليهم فإذا كان هذا المعنى الذي هو المثل الأعلى الذي هو العرش في بعض إطلاقاته كما ذكره الصادق عليه السلام في هذا الحديث صريحاً وتلويحاً فمعنى استوائه تعالى على هذا العرش ظهوره تعالى بتلك العزّة المراد من هذا المثل الأعلى وهو العرش هنا وهو قوله تعالى(سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ)ولقد أجاد عبد الحميد بن أبي الحديد في هذا المعنى بنسبة معرفته حيث قال في مدح علي عليه السلام في قصيدته الرائيّة:

صفاتُكَ أسمـاء وذاتُـك جوهـــر
بـريء المعاني عن صفات الجواهرِ
يجلّ عن الأعْراض والأيـــن والمتى
ويكبـرُ عــن تشبيــهه بالعناصِــر

يعني أنّ صفاتك أسماء الله تعالى وذاتك جوهر منزهٌ عن صفات الجواهر من الأعراض والوقت والمكان والموادّ ولهذا قال بعض أعداء الدين منهم أن الشيخ عبد الحميد غَلاَ في عليّ عليه السلام في هذين البيتين وأنا أقول إنّه قصّر في هذين البيتين وفي غيرهما.

ومعنى استوائه على هذا العرش أيضاً ظهوره بعزّته فيهم حتى تكرّموا وتقدسوا عن كل ما ليس له سبحانه قال تعالى (وَ لله العِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلمُؤْمِنِينَ وَ لكِنَّ المُنافِقِينَ لا يَعْلمُونَ).

ومعنى استوائه على هذا العرش أيضاً ظهوره بهم لمن سواهم بما شاء ، كيف شاء لأنهم أبوابه إلى خلقه وأعضادهُ لهم ووسائله إليه.

وقد تقدم أن المثل الأعلى بمعنى الآية والدليل وبمعنى التقدس كما ذكرنا هنا وفي كلّ واحدٍ إطلاق العرش يصدق عليه باعتبار، وما ذكرنا مما أشير إليه في الحديث صريحاً وتلويحاً ومن غيره مما يطلق عليه العرش باعتبارٍ كل واحد قد كتبت عليه أسماؤهم عليهم السلام وروي عن أبي سلمان راعي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول (ليلة أسري بي إلى السماء قال لي الجليل جل جلاله آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِل إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ قلت وَ الْمُؤْمِنُونَ قال صدقت يا محمد من خلفت في أمتك قلت خيرها قال علي بن أبي طالب قلت نعم يا رب قال يا محمد إني

اطلعت إلى الأرض إطلاعة فاخترتك منها فشققت لك اسما من أسمي فلا أذكر في موضع إلا ذكرت معي فأنا المحمود و أنت محمد ثم اطلعت الثانية فاخترت منها عليا و شققت له اسما من أسمي فلا أذكر في موضع إلا ذكر معي فأنا الأعلى و هو علي يا محمد إني خلقتك و خلقت عليا و فاطمة و الحسن و الحسين و الأئمة من ولد الحسين من سنخ نوري من نور و فرضت ولايتكم على أهل السماوات وأهل الأرض فمن قبلها كان عندي من المؤمنين و من جحدها كان عندي من الكافرين يا محمد لو أن عبدا من عبيدي عبدني حتى ينقطع أو يصير كالشن البالي ثم أتاني جاحدا لولايتكم ما غفرت له حتى يقر بولايتكم يا محمد تحب أن تراهم قلت نعم يا رب فقال لي التفت عن يمين العرش فالتفت وإذا أنا بعلي و فاطمة و الحسن و الحسين وعلي بن الحسين و محمد بن علي و جعفر بن محمد و موسى بن جعفر و علي بن موسى و محمد بن علي و علي بن محمد و الحسن بن علي و المهدي في ضحضاح من نور قيام يصلون و المهدي في وسطهم كأنه كوكب دري بينهم و قال يا محمد هؤلاء الحجج و هذا الثائر من عترتك يا محمد و عزتي و جلالي إنه الحجة الواجبة لأوليائي و المنتقم من أعدائي)هـ.

أقول قد بيّن في هذا الحديث معنى كتابتهم على العرش وعلى الأشياء.

ومعنى كونهم محدقين هو كونهم في ضحضاح من نورٍ قياما يصلّون لأنّ المراد بكتابتهم إثبات صورهم وأشباحهم أوْ في أشَبْاحِهم لا إثبات حقيقتهم لأنّها فوق مراتب الصور والأشباح.

ومعنى الضحضاح هو سناءُ النور والمراد به نور شفّافية العرش وصقالته التي تنطبع فيه الصور والأشباح كما ترى في المرآة لأنّ الصور إنّما تظهر في صقالتها

وهو ضحضاح من نورها وشفافيّتها وإنما ظهرت صورهم في ضحضاح من نور العرش لأنّ العرش حقيقتهم هنا وله إطلاق آخر وهو عبارة عن معانيهم ورقائقهم وصورهم وطبائعهم وهذه الأربعة الأشياء هي أركانُهُ فالعرش كالشجرة والأركان كأصلها وأغصانها وهذه الصورة ضحضاح بالنسبة إلى تلك الحقيقة، وقد أشار علي بن الحسين عليه السلام إلى هذه الأركان كما رواه في التوحيد عنه عليه السلام (قال إن الله عز وجل خلق العرش أرباعا لم يخلق قبله إلا ثلاثة أشياء الهواء و القلم و النور ثم خلقه من أنوار مختلفة فمن ذلك النور نور أخضر اخضرت منه الخضرة و نور أصفر اصفرت منه الصفرة و نور أحمر احمرت منه الحمرة و نور أبيض و هو نور الأنوار و منه ضوء النهار ثم جعله سبعين ألف طبق غلظ كل طبق كأول العرش إليأسفل السافلين ليس من ذلك طبق إلا يسبح بحمد ربه و يقدسه بأصوات مختلفة و ألسنة غير مشتبهة و لو أذن للسان منها فأسمع شيئا مما تحته لهدم الجبال و المدائن والحصون و لخسف البحار و لأهلك ما دونه له ثمانية أركان على كل ركن منها من الملائكة ما لا يحصي عددهم إلا الله عز و جل يسبحون الليل و النهار لا يفترون و لو حس شيء مما فوقه ما قام لذلك طرفة عين بينه و بين الإحساس الجبروت والكبرياء و العظمة و القدس و الرحمة و العلم و ليس وراء هذا مقال)هـ.

أقول : بناء على ما قررنا مراراً أنّ العرش في هذا الحديث ثالث رتبة للحقيقة المحمدية ، والهواء الذي هو العمق الأكبر ، والقلم الذي هو الوجود المسمى بالماء الأول الحامل للعرش (وَكانَ عَرْشُهُ عَلى الْماءِ)، وهذا باعتبارٍ أنه الاسم المربّي وهو اسمه البديع ، والنور هو الدواة الأولى وأرض الجرز أو هو الماء

الحامل للعرش ثاني مرتبة للحقيقة المحمدية، والأولى نفس المشية وصورتها وعالم فأحببت أنْ أُعْرَف.

والأنوار الأربعة أعني الأبيض معانيهم والأحمر طبائعهم والأصفر رقائقهم والأخضر أشباحهم وصورهم هي الخامسة من مراتب العرش إن جعلنا قوله ثم خلقه بمعنى جعله وإن جعلناه تفسيراً للأوّل كان مرتبة رابعة للعرش وضمير ثم جعله ضمير العرش وهذه الأطباق وهذه الألسن مظاهر تلك الأشباح وشؤونها تسبح الله وتقدّسه وتعبده بالثناء عليهم ونشر فضائلهم وهو تأويل قوله تعالى (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ) أي بحمد الله تعالى يعني يسبّح الله بنشر مدائحهم على ألواح الموجودات ، وقوله (وبينه) أي بين الشيء من كل ما دون العرش إلى الثرى من جميع الأفراد وبين إحساسه بشيء من تلك الأنوار الذي هو علة فنائه وإضمحلاله الجبروت أي العقول الحائلة بتعقلّها لمعانيها عن الإحساس بتلك الأنوار، والكبرياء من عجائب الملك الدالة على القدرة وهي أعظم حائل بينه وبين الإحساس بتلك الأنوار والعظمة من أشعّة الملكوت المانعة من الإحساس بتلك الأنوار والقدس الظاهر من نطق ألسنة الحوادث بشهادة نقائِصها وفقرها كذلك والرحمة الظاهرة بالحياة التي هي الحجاب الأعظم كذلك والعلم الذي تحصل منه هذه المراتب الخمس في كل شيء بنسبته وهو أشدّها وأغلظها ولهذا قال عليه السلام (وليس وراء هذا مقال).

وممّا يدل على أن أسماءهم مكتوبة على كل شيء أحاديث لا تكاد تنضبط من الفريقين ولم يوجد حديث يشتمل على جميع الأشياء إجمالا فضلاً عن التفصيل لكنها متفرقة في الأحاديث ولنورد منها واحداً وبه يعرف مَنْ عرَف، وهو ما رواه

في الاحتجاج عن القاسم بن معاوية بن عمّارٍ (قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام هؤلاء يروون حديثا في معراجهم أنه لما أسري برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأى على العرش مكتوبا لا إله إلا الله محمد رسول الله أبو بكر الصديق فقال سبحان الله غيروا كل شيء حتى هذا قلت نعم قال إن الله عز و جل لما خلق العرش كتب على قوائمه لا إله إلا الله محمد سول الله علي أمير المؤمنين و لما خلق الله عز و جل الماء كتب على مجراه لا إله إلا الله محمد رسول الله علي أمير المؤمنين و لما خلق الله عز و جل الكرسي كتب على قوائمه لا إله إلا الله محمد رسول الله علي أمير المؤمنين و لما خلق الله عز و جل اللوح كتب فيه لا إله إلا الله محمد رسول الله علي أمير المؤمنين و لما خلق الله إسرافيل كتب على جبهته لا إله إلا الله محمد رسول الله علي أمير المؤمنين و لما خلق الله جبرئيل كتب على جناحيه لا إله إلا الله محمد رسول الله علي أمير المؤمنين و لما خلق الله عز و جل السماوات خلق على أكنافها لا إله إلا الله محمد رسول الله علي أمير المؤمنين و لما خلق الله عز و جل الأرضين كتب في أطباقها لا إله إلا الله محمد رسول الله علي أمير المؤمنين و لما خلق الله عز و جل الجبال كتب في رؤوسها لا إله إلا الله محمد رسول الله علي أمير المؤمنين و لما خلق الله عز و جل الشمس كتب عليها لا إله إلا الله محمد رسول الله علي أمير المؤمنين و لما خلق الله عز و جل القمر كتب عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله علي أمير المؤمنين و هو السواد الذي ترونه في القمر فإذا قال أحدكم لا إله إلا الله محمد رسول الله فليقل علي أمير المؤمنين ولى الله).

أقول: قد دلّ هذا الحديث وأمثاله على أن أسماءهم مكتوبة على كل شيء والعنوان في ذكر الكتابة إنما هو للعرش وقد أشرنا إلى أن كلّ شيء يطلق عليه

اسم العرش باعتبار وذكر هذا الحديث وغيره لخصوص علي أمير المؤمنين ﵇ لا يدل على التخصيص بل أحاديثهم الصحيحة على أن كلما يجري لواحد منهم يجري للآخر، هذا في الظاهر وأما في الباطن فالمراد بأمير المؤمنين هو علي ﵇ والأئمة إلا في إمرة المؤمنين فإنها لا تصح لغيره صلوات الله عليه ولعن الله من تسمّى بها غيره من جميع الخلق.

فقوله ﵇ (خلقكم الله أنواراً فجعلكم بعرشه محدقين) يريد به ما أشرنا لكم من الكتابة ككتابة الصورة في المرآة والنور في السراج والحركة في المتحرك والقوة في ذي القوة والإدراك في ذي الإدراك والطعم في ذي الطعم والحياة في الحي والصوت في الصائت ومنه وما أشبه ذلك، وفي الاختصاص عن سماعة (قال كنت عند أبي عبد الله ﵇ فأرعدت السماء و أبرقت فقال أبو عبد الله ﵇ أما إنه ما كان من أمر هذا الرعد و من هذا البرق فإنه من أمر صاحبكم قلت من صاحبنا قال أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه)هـ.

أقول وقد أشرنا إليه فيما تقدم ودلّت عليه أحاديثهم أنهم يظهرون في الصور كيف ما شاؤوا وهذا الظهور في كلّ شيء لكل شيء ففي العرش كونهم محدقين به ظهورهم فيه بأشباحهم وبإيجاداتهم وتأثيراتهم باللهِ وبإيجادِ الله وصنعه لما صنع بهم من خلقٍ ورزقٍ وحياة وممات فافهم.

وأما كونهم أنواراً فهو معلوم وقد تقدم بعض الإشارة إلى ذلك وملخّص البيان أنّ المراد بالأنوار الأنوار الوجوديّة يعني أن الله سبحانه خلقهم من النور لم يكن فيهم شيء من الماهيّة والإنيّة إلا ما يقوّم به الوجود تقوّم الظهور في أصل وجودهم، وكذا في وجوداتهم الشرعية فهم أنوار لا ظلمة فيهم لا في أكوانهم

الوُجودية ولا في أكوانهم الشرعيّة لأنّ الأكوان مطلقاً لا تتقوّم إلاّ بمقوم من الأعيان لأنّ ظهورها يتوقّف على شيء من الإنيّة تتخصَّصُ به وهذا الشيء المقوِّم بكسر الواو وإن كان ظلمة في حقيقته إلا أنه بالنسبة إلى نورية ذلك الكون وقوته وسعته يكاد ذلك المقوم بكسر الواو يضمحلّ ويفنى في نفسه.

وأما في حكمه فليس له ذكر ولا اعتبار له لفنائه واستيلاء الأنوار العظيمة عليه فلا يكون نور في الإمكان أخلص في النورية من جميع الشّوائب والنقائص منهم بعد المشيّة فلذا قال عليه السلام (خلقهم الله أنواراً) فافهم ما أشرنا إليه.

ومحدقين أي مطيفين يعني محيطين بالعرش إما بمعنى أنهم مكتوبون على كل جهةٍ من جهات العرش بحيث يصدق عليهم أنهم محيطون به حقيقةً بالاجتماع أو التفريق وإما بمعنى أنّ كل واحد على الانفراد حامل للعرش، وإمّا بمعنى استنارته بأنوارهم أو بمعنى أنّهم المظهرون لما أودع الله فيه لأنه خزانة الفيض وهم الخزنة والحفظة وهم المفاتيح أو أنّهم الخازنون بإذن الله تعالى فيه أو عندهم لما ظهر به من صفة رحمانيته فيه ومن أثرها الذي به قام كل شيء أو بمعنى أنّهم مستفيضون من علمه مما ظهر به فيه.

قال الشارح رحمه الله (أو طائفين بالعرش الصوري في الأجساد المثالية كالطواف بالبيت) انتهى.

أقول يجوز أن يكون بمعنى طوافهم بالعرش المعنوي العقلي على المعاني التي ذكرناها كلها وبالعرش الروحي والنفسي والطبيعي والهيولاني والمثالي والجسمي والجسماني وفي كلها على المعاني المذكورة كلها إلاّ أن الطواف في المعنوي معنوي وفي الصوري صوري وهكذا كل شيء بحسبه لأن التحصيل من شيء والحفظ

له والفتح لخزائنه وخزن نفائسه فيه والحمل له والإنفاق على الغير مما خزن فيه وما أشبه ذلك طواف به.

وكذا إذا كان المراد بالعرش قلبهم أو ذاتهم أو ذاتياتهم أو ظاهرهم أو أفعالهم وتخصيص طوافهم بالعرش الصوري وفي الأجساد المثالية غفلة أو قصورٌ في معرفتهم.

قال عليه السلام حتى مَنّ علينا بكم

قال الشارح رحمه الله بأن جعلكم أئِمتَنا.

أقول قد ثبت أنهم النعمة الكبرى وآلاء الله العظمى على كلّ من سواهم في كل مقام ولما خلقهم الله سبحانه في التعين الأوّل حيث أحبّ أن يعرف بأن يعرفوه بما عرّفهم من نفسه وأن يعرفه من سواهم بهم وبسبيل معرفتهم جرت حكمته على أن خلق ما شاء من خلقه على ما هم عليه فخلقهم ليس معهم شيء من الخلق فبقوا يوحّدونه ألف دهر قبل أن يخلق شيئاً غيرهم .

وفي رواية ألف ألفِ دهرٍ.

وهم إذ ذاك يوحّدونه ويعبدونه بتوحيده صاعدين ويعبدونه ويوحدونه بعبادته نازلين إلى أن خلق لهم أهل محبّته وطاعته من الأنبياء والمرسلين وأتباعهم من المؤمنين ومن الصافيّن المسبحين بصنائعه وأفعاله من الملائكة الحافين حول عرشه، ومَنْ منهم على أرجاء سماواته وأراضيه وسائر خلقه فأشهدهم أمر مَنْ خلقَهُمْ لأجْلهم وأنهى إليهم العلم بهم وجعلهم الهداة لهم إلى ما فيه نجاتهم وأعضادُهُمْ إلى كلّ خَيْرٍ مِنْ سعادةِ الدّنيا والآخرة بحيث لا يسعد من سعِد إلاّ

بِهِمْ ولا يشقى من شقي إلاّ بمخالفتهم وترك متابعتهم، فبفضل وجودهم أوجد الله من سواهم وبفاضل عقلهم عقلوا وبهداهم اهتدوا وبمتابعتهم نجوا من الهلكات وبهم يرزقون وبهم تقبل أعمالهم ويدفع عنهم ما يكرهون من البلايا الّتي استحقّوها بأعمالهم، فهم أصل كل خير وبهم يدفع كل شرّ فلا منّة أعظم من منّةِ الله تعالى بهم على عباده المؤمنين. فقول الشارح (بأن جعلكم أئمّتنا) يمكن أن يراد منه كلّما أشرنا إليه فإن أراد ذلك فبها وإلاّ فقد ذكرنا لك فيما أشرنا إليه أصول المنن الذين تنزّلوا بها لإصلاح أنعامهم في دار التكليف وليستعدّوا فيها بالزاد المبلّغ إلى دار الجزاء والمعاد إلى أن يستقرّ كلّ شيء في دارِ قراره التي لا يظعن عنها وهو تأويل قوله تعالى (وَالله جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لكم مِّن جُلُودِ الأَنْعَام بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ).

وكذلك إذا استقر الفريقان المؤمنون في الجنّة والكافرون في النار قدروا لأهل الدارين مقتضى أعمالهم من ثمار أمثالهم مما لا يتناهى من فيض الفضل وقدر العَدْلِ فقد من الله علينا بهم منّ أول ذكرِنا الذي لا نهاية له إلى آخر ذكرنا الذي لا غاية له فافهم.

قال عليه السلام فجعلكم في بيوتٍ أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه

قال الشارح إشارة إلى أن هذه الآيات التي بعد آية النور وردت فيهم كما أن الآيات التي بعدها وردت في أعدائهم كما ورد في الأخبار المتكثرة والمراد بالبيوت البيوت المعنويّة التي هي بيوت العلم والحكمة وغيرهما من الكمالات، والذكر

فيها كناية عن الاستفاضة منهم أو الصوريّة التي هي بيوت النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام في الحياة ومشاهدهم بعد الوفاة انتهى.

أقول: يجوز أن يكون المراد أن تلك الأنوار التي كانت محدقة بعرشه أنزلها في هذه الأجساد الشريفة وهي بيوت تلك الأنوار ومخازنها التي أذن أن يرفع شأنها ويعلّى قدرُهَا على ما سواها بما حلّ فيها من تلك الأنوار، وإنّما كانت الأجساد بيوتاً لأنها مَساكنُ تلك الأنوار كلّ نور في مخزنٍ، فالنور العقلي في الدماغ وهو رأس القلب ومساكن إحساسه، والنور النفسي في الصّدر أي صدر القلب ووجهه الخيال، والنّور الروحي بين الصدر والدماغ في الهواء الذي بينهما، والنور الطّبيعي تحت الصدر في الدخان الحامل للروح الحيواني، والنور المادّي في الدم الأصفر في الجانب الأيسر من القلب الصنوبري، وتلك الأنوار هي النجوم المذكورة في قوله تعالى (فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُوم) وهذه البيوت هي مواقعها يعني أنّها تتعلق بتلك الأجساد ويجوز أن يكون المراد بالبيوت هي تلك الأنوار ومعنى جعلها في بيوت جعلها بيوتاً وهو كناية عن تنزّلها وجمودها وظهورها، كما تقول نزل المطر في الثلج أي جمد فكان ثلجاً ويشير إلى هذا المعنى ما رواه في الكافي عن الصادق عليه السلام وقد تقدم وهو في قوله تعالى(وَصَل الله طَاعَةَ وَلِيِّ أَمْرِهِ بِطَاعَةِ رَسُولِهِ وَطَاعَةَ رَسُولِهِ بِطَاعَتِهِ فَمَنْ تَرَكَ طَاعَةَ وُلاةِ الأَمْرِ لَمْ يُطِعِ الله وَلا رَسُولَهُ وَهُوَ الإِقْرَارُ بِمَا أُنْزِل مِنْ عِنْدِ الله عَزَّ وَجَل خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَالتَمِسُوا البُيُوتَ التِي أَذِنَ الله أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ فَإِنَّهُ أَخْبَرَكُمْ أَنَّهُمْ رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ الله وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ القُلُوبُ وَالأَبْصَارُ)الحديث.

فإنه قال عليه السلام (والتمسوا البيوت) يعني بها البيوتُ المذكورة في الآية ، وفي هذه الزيارة ثم قال فإنه يعني الله تعالى قد خبركم أنهم (رِجَالٌ) الآية وهذا صريح في المدّعى لمن وعَى، وهذا على قراءة من لم يقف على (اسْمُهُ) وقرأ (يسبّح) بالبناء للمفعول ووقف على (الآصال) ويبتدأ بقوله (رِجَالٌ) أي هم رجال فأخبر الصادق عليه السلام أن رجال خبر وأن المبتدأ الذي هو هم يعود إلى البيوت لأنه عليه السلام قال التمسوا البيوت التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ثم قال عليه السلام فإنه يعني الله تعالى قد خبّركم أنهم يعني البيوت (رجال) وهذا ظاهر صريح صحيح فإنه كثير الاستعمال في القرآن وفي كلام سادات الزمان عليهم السلام مثل (وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا)ومثل قوله تعالى (وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا)فقد سمى الرجال قرى وسماهم بيوتاً وسمّاهم أبوابا ومثل ذلك قوله تعالى (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا)أي أوّل إمام وضع حجةً وإماماً للناس الإمام الذي وضع أي وُلِدَ ببكة أي وضعته أمه في وسط الكعبة وهو علي بن أبي طالب أمير المؤمنين وسيد الوصيين صلوات الله عليه لأنه أول خليفةٍ نُصِبَ إماماً وهادياً للناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأبانه عمّن يلتبس به عند الجهال بقوله تعالى (لَلَّذِي بِبَكَّةَ) أي وضع ببكة (مُبَارَكًا) له في ذريته الطيبين عليهم السلام (وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ) كما قال تعالى (إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)(فِيهِ آيَاتٌ بَيِّـنَاتٌ) أي فيه الأئمة الأطهار عليهم السلام آيات بيّناتٌ وهو قوله تعالى (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ)قال الصادق عليه السلام وقد تقدّم مكرراً قال عليه السلام (فأي آية في الآفاق غيرنا أراها الله أهل الآفاق) وقال عليه السلام (وقال وَما نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِها فأي آية أكبر منا)الحديث. فهذا من معنى بيّنات وقوله (مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ)في قول الله عز وجل حكاية عن دعوته

(وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ)وهم الأئمة عليهم السلام وقوله تعالى (وَجَعَلَهَا) أي إبراهيم (كَلِمَةً بَاقِيَةً)في عقبه وهم الدعوة والكلمة الباقية في عقبه إلى يوم القيامة.

وفي الكافي عن الباقر عليه السلام أن قتادة قال له (وَالله لقَدْ جَلسْتُ بَيْنَ يَدَي الفُقَهَاءِ وَقُدَّامَ ابْنِ عَبَّاسٍ فَمَا اضْطَرَبَ قَلبِي قُدَّامَ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَا اضْطَرَبَ قُدَّامَكَ قَال لهُ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام وَيْحَكَ أَ تَدْرِي أَيْنَ أَنْتَ أَنْتَ بَيْنَ يَدَيْ بُيُوتٍ أَذِنَ الله أَنْ تُرْفَعَ وَ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لهُ فِيها بِالغُدُوِّ وَالآصالِ. رِجالٌ لا تُلهِيهِمْ تِجارَةٌ وَ لا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ الله وَ إِقامِ الصَّلاةِ وَ إِيتاءِ الزَّكاةِ فَأَنْتَ ثَمَّ وَ نَحْنُ أُولئِكَ فَقَال لهُ قَتَادَةُ صَدَقْتَ وَالله جَعَلنِيَ الله فِدَاكَ وَالله مَا هِيَ بُيُوتُ حِجَارَةٍ وَلا طِينٍ).

أقول وقد تقدم أن البُيوت تطلق عليهم وعلى ولايتهم ويجوز أن يكون المراد بالبيوت المساكن الظاهرة والمشاهد المنوّرة كما ذكره الشارح ويدل عليه ما رواه القمي عن الباقر عليه السلام (هي بيوت الأنبياء وبيت علي عليه السلام).

وروي (من أفاضِلها).

وعنه عليه السلام (هِيَ بُيُوتَاتُ الأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ وَالحُكَمَاءِ وَأَئِمَّةِ الهُدَى)رواه في إكمال الدين .

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام (هِيَ بُيُوتُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم).

وقوله عليه السلام (أذن الله أن ترفع) يراد بالإذن المعنى الظاهري وهو الأمر يعني أمر الله برفع شأنها وتعظيمها وبنائها والمراد بالبناء عمارتها لا رفع بنيانها وتعليته في الصورة إذ لا فائدة فيه إلاّ إذا اقتضى الحال توقف التعظيم عليه فإنه يدخل في الأمر به هذا إذا أريد بها المساكن الظاهرة والمشاهد المنورة ولو أريد بها أنوارهم

وحقائقهم كما تقدم أو أجسامهم، كذلك كان الأمر بتعظيمها ورفع شأنها واجبا في الحكمة فهو أولى لأنه هو المقصود بالذات وأما تعظيم المشاهد والمساكن فإنما هي بالعرض وإذا أريد بالإذن المعنى الباطني فهو القدر والقضاء والحكم أي إيجاد ذلك في اللوح المحفوظ والرخصة لذلك في ظهوره في الأكوان والأعيان الوجودية وفي الأكوان والأعيان الشرعية سواء أريد بالبيوت الحقائق أم الأنوار أم الأجسام أم البيوت التي هي المساكن الظاهرة والمشاهد المنوّرة فإنه سبحانه قد قدر وقضى وأمضى ما حكم وحتم بها سمعتَ منها ورأيتَ وما لم تسمع ولم تر حتى كان من ذلك ما نصّ تعالى على تكوينه وكونه في محتوم حكمه مما كان وما يكون في قوله تعالى (يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ الله بِأَفْوَاهِهِمْ وَالله مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ هُوَ الذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)وهو قوله الحقْ الكائن الذي لا مردّ له من الله.

وقوله عليه السلام (ويذكر فيها اسمه) اقتباس من الآية وبيان للمراد منها والمراد من الذكر الفعل والتلقّي والقول والعمل بالجنان واللسان والأركان والمراد من الاسم صفة مستحق التسبيح والتقديس والتحميد والتهليل والتكبير وما أشبه ذلك من الدال على الاسم والصفة كسبحان الله وسبحان رب السموات والأرض، سواء كان باللسان في المقال أم بالطبيعة في الحال أم بالجنان في الاعتقادات والمراقبات والتلقيات أم بالأركان في الأعمال فكل واحدٍ من الذكر والاسم منه تمكين وتمكّن وإيجاد وشرع وجودي ووجود كوني فعلي وانفعالي وحكم في قدرٍ وقضاءٍ وإمضاء وعمل وقول وحال ووجود شرعي فعلي وانفعالي، وحكم تكليفي وحكم في قدر وقضاء وإمضاء وعمل وقول وحال

وكل واحدٍ من الشرع الوجودي ومن الوجود الكوني ومن الوجود الشرعي والحكم التكليفي تجري فيه الحكمة والعناية الإلهية على جهتين.

أحديهما أنه يأمر ويريد الأمر به ووقوع متعلقه وهو واقع كائن وكذا أنه ينهى ويريد النهي عنه وعدم وقوع متعلّقه وهو أيضاً غير واقع.

وثانيتهما أنه يأمر ويريد الأمر به ولا يريد وقوع متعلقه وهو غير واقع وينتهي ويريد النهي عنه ولا يريد عدم وقوع متعلّقِه وهو واقع.

وهذان الحكمان لمشيته وإرادته في أمره ونَهْيه جاريان في الكونَ الوجودي وشرعه وفي الكون الشرعي ووجوده في المراتب السبعة باعتبار متعلقاتها المشية والإرادة والقدر والقضاء والإذن والأجل والكتاب فالتمكين لطف الفاعل وهو عرشه الذي يظهر عليه بالعلّة الفاعلية وهو استواؤُه عليه والتمكن قدرة القابل وهي كرسيه وظاهر علمه تعالى، وهـو الذي وسع ذلك العرش وإليه الإشارة بما رواه في التوحيد عن زرارة قال (سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله عز وجل وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماوَاتِ وَالأَرْضَ السماوات والأرض وسعن الكرسي أم الكرسي وسع السماوات والأرض فقال بل الكرسي وسع السماوات والأرض والعرش وكل شيء في الكرسي)انتهى.

والإيجاد هو العلة الفاعلية وهو فعله تعالى قال علي عليه السلام في خطبته المعروفة باليتيمة (علةُ ما صنع صُنْعهُ وهو لا علة له) والوجود الكوني فعل وهو مادة الموجود وانفعال وهو صورة الموجود فالوجود هو المادة والماهية هي الصورة فالمادة من التمكين والصورة من التمكن فالفعل هو العلة المادية وهو المقبول والانفعال هو العلة الصورية وهو القابل، والحكم في الكائن منها في خلقه الثاني

سواء طابقت الإرادة الرضا أم خالفت في قدر وقضاء وإمضاء وإذن وأجل وكتاب والعمل من الفاعل تمكين وصنع وقول من والمفعول تمكن وقول وقبول والقول من الفاعل سؤال وصنع وعمل، ومن المفعول جواب وفعل وامتثال والحال من الفاعل وقوع فعله وتعلقه بمفعوله ومن المفعول تعلق الأطوار بأوطارها والوجود الشرعي فعل وهو الأمر والنهي الذاتيّانِ والعرضيان وذلك مادة الثواب والعقاب وتوابعهما في التتميم والتكميل وانفعالا وهو القبول والامتثال والعمل المطابق للأمر والنهي أو عدم القبول وعدم الامتثال والعمل المخالف للأمر والنهي وذلك صورة الثواب والعقاب وتوابعهما في التتميم والتكميل وله تمكين وتمكّن وإيجاد كما في الوجود الكوني قال تعالى(فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلهُ يَجْعَل صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ وَهَـذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا)يخلق بالعمل الموافق لأمره ونهيه الثواب على صورة ذلك العمل ويخلق بالعمل المخالف لأمره ونهيه العقاب على صورة ذلك العمل وهذا صراطه المستقيم (وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا)(وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلف)(بَل طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ)، والحكم التكليفي الذي هو مادة الثواب مع الموافقة والعقاب مع المخالفة أمر ونهي ذاتيان لوجود الغاية التي لأجلها جرى التكليف في كل فرد من أفرادهما وعرضيّان قسمان ما كان متمّماً فكالذاتيين إلاّ أنه تابع فهو عارض وما كان مكمِلاً فقد توجد الغاية في بعض أفراده وقد لا توجد وهو قسمان.

أحدهما: ما شرع لوجودها في بعض أفراده وهو الموظف المستدرك عند فواته إلاّ إذا كان للوقت وقد خرج.

وثانيهما: ما شرع لمحض التكميل وليس من حقه الاستدراك لأنه وإن وجد في بعض أفراده تلك الغاية على جهة الاتفاق أو لأنه من مكمّلات القابل لها فقد يكون له مدخل في ذلك في الجملة إلاّ أنه ليس بمراد على جهة الطلب.

وأما الإباحة فما كان منها فيه الرخصة بأصل الخلق للامتنان ومصالح النظام فعمل العامل به للرخصة لاحق بعمله بالأمر العرضي والتارك للاحتياط كذلك وعمله وتركه للإهمال لاحق بالنهي العرضي وذلك لأن أحكامها معلومة في الكتاب الحفيظ.

وإنّما دخلت في الإباحة لأن الناس في سعة ما لم يعلموا وليس على العباد أن يعلموا حتى يعلّمهم الله فلا تظهر أحكامها إلاّ بعد التكليف لا أنّها لا حكم لها أصلاً كما قد يتوهم من أنها خلقت هكذا مهملة ثم حدّدت بالأحكام بل كانت الأحكام في الأسباب والعلل والكليّات قبل قوابلها الجزئية وظهرت الأحكام الخاصة في الوجود مع متعلّقاتها وقوابلها على جهة التساوق والتّضايف وما كان منها فيه الرخصة بتَسْوية الشارع فالعملُ به والترك له مع العلم بالتسوية لاحق بالأمر العرضي، وليس لهذا حكم في اللوح الحفيظ غير هذه التسوية في هذا الوقت ويجوز تبدّله باختلاف الوقت أو الموضوع والحكم الإلهي في الكائن منها في خلقه الثاني سواء طابقت الإرادةُ الرضا أم خالفت في قدرٍ وقضاء وإمضاء وإذن وأجل وكتاب كما في الوجود الكوني لأنه وجود مثل هذا الوجود ففي هذا أولى والأولوية في الشدّة والضعف والعمل من الفاعل تمكين وصنع وأمر ونهي، ومن المفعول تمكن وامتثال وَدُعاء والقول من الفاعل دعوة وضع وأمر ونهي ومن المفعول استجابة وامتثال وعمل وفعل والحال من الفاعل وقوع تكليفه

وتعلّقه بالمكلّف ومن المفعول عمل معنوي وقول وصفي وهو مطابقة صفات الأطوار للأوطار.

والحاصل أن الوجود الشرعي كالوجود الكوني وإن اختلفت العبارة في بعض المواضع ففي الحقيقة المراد واحد إلاّ أن الوجود الكوني في الحقيقة كالوجود الشرعي لأن الأصل والعلّة والباطن واللّب والعلّة الماديّة والعلة الصوريّة والعلة الغائيّة بل والعلّة الفاعلية باعتبار توسّط الشرعي بين الفاعل وبين الكوني هو الوجود الشرعي. وأما الوجود الكوني فهو الفرع والمعلول والظاهر والقشر فكلّ هذه المراتب في الحقّ ذكر الله تعالى على اختلافها فيذكرون بهذه المراتب اسم الله سبحانه في تلك البيوت بأسمائه التي هي وجوه هذه المراتب المذكورة.

ومعنى آخر هذه الأمور المذكورة وهى أسماؤه تعالى التي يذكرونه بها في البيوت الّتي هي مواقع هذه الأمور المذكورّة والتي هي مأخذها والتي هي أظلتها والتي هي حقائقها والتي هي مشارقها والتي هي مغاربها والتي هي تطورُها (أَ وَ لَمْ يَرَوْا إِلى ما خَلقَ الله مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلالُهُ عَنِ اليَمِينِ وَ الشَّمائِلِ سُجَّداً لله وَ هُمْ داخِرُونَ).

ومعنى آخر إن هذه الأمور المذكورة بجميع ألسنتها تسبّح الله تعالى وتذكر اسمه الذي هو الثناء عليهم بنشر فضائلهم وبث ممادحهم صلوات الله عليهم في بيوت، هي ما أشرنا إليه وهي ولايتهم وهي آثار رحمة الله التي هي ذواتهم وهي هذه الأمور ذواتها وأحوالها فالتمكين اسم لله تعالى والتمكن اسم لله تعالى والاثنان اسم واحد له تعالى والإيجاد اسم واحد له تعالى والثلاثة التمكين والتمكن والإيجاد اسم واحد له تعالى وهكذا كل واحد من هذه الأمور المذكورة

اسم والكل اسم وبعضها اسم وكل واحد منها ذكر والاثنان ذكر لله واحد والكل ذكر واحد والبعض ذكر واحد وكلها وكل واحد منها ذاكر ومذكور به ومذكور فيه.

قال عليه السلام وجعل صلواتنا عليكم وما خصنا به من ولايتكم طيبا لخلقِنا وطهارة لأنفسنا وتزكية لنا وكفارة لذنوبنا

قال الشارح وجعل عطف على إذن بالخبرية أو الإنشائية الدعائية ولا بأس به لكونه بصورتها كما في قوله تعالى (حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الوَكِيلُ) صلواتنا عليكم وما خصنا به من ولايتكم طيبا مفعول ثان لجعل لخلقنا (بالضّم) أي جعلكم الله في بيوت تصير للصلاة فيها لإظهار الولاية سبباً لكرامة الله علينا بالأخلاق الحسنة أو يكون عطفاً على من وهو أظهر وطهارة لأنفسنا من الرذائل كما حلاّنا بالفضائِل وتزكية لنا من الأعمال القبيحة أو في القيامة انتهى.

أقول: ويجوز أن يُراد بالصَّلاة المجعولة عليهم قولنا (اللهم صل على محمد وآل محمد) ظاهراً بأن تسأل الله تعالى لهم أن يرحمهم وأن يرحم بهم وأن يصلهم برحمته وأن يمدهم بمدده الذي استوى به على عرشه لجميع خلقه بهم من جميع رحمانيّته التي غّيبت العرش بظهوره بها عليه، وباطِناً بأن يكون نريد من قولنا اللهم صل على محمدَ وآل محمد هو أنا نسأُلك يا ربنا الصلاة عليهم إجابة لما أخذت علينا من العهد المؤكد لهم بأن نعبدَك بحبّهم وبالقيام بحدود فروعهم وأوامرهم ونواهيهم التي ندبتهم بها إلينا ونَدبتنا إلى إجابتهم في دَعْوتهم إليك في كلّ ما دلّوا عليه كما أشار إليه موسى بن جعفر عليه السلام قال قال الصادق عليه السلام (من صلى على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فمعناه أني أنا على الميثاق و الوفاء الذي قبلت حين قوله أَ

لسْتُ بِرَبِّكُمْ)انتهى رواه في مختصر بصائر سعد الأشعري، وظاهر هذا الوجه هو المراد من قوله عليه السلام هنا ظاهراً وما ذكره الشارح ليس مراداَ ظاهراً لأنّه لا يتّجه إلاّ على معنى لا يريده وسنذكره إن شاء الله تعالى.

وأمّا باطن هذا الوجه كما دَل عليه هذا الحديث الشريف فهو مراد له عليه السلام قطعا بل حقيقة الإرادة له وأما ظاهرهُ الذي قلنا إنه المراد ظاهراً فإنما كان مراداً له عليه السلام ظاهراً لأنه جزئي لهذا الباطن أو جزءٌ لأنّ معنى هذا الباطن تعاهُدٌ منّا لما أخذ علينا من الميثاق لهم بالقيام بجميع التكاليف التي هي صُوَرُ ولايتهم وهياكلها وأداء منّا لتلك الأمانة فقولنا (اللهم صل على محمد وآل محمد) من ذلك والطهارة من الحدث الأصغر والأكبر الظاهرين والباطنين من ذلك، والطهارة الترابية أيضاً من ذلك في مواضعها المشروعية والصلاة بجميع أصنافها ظاهرة وباطنة من ذلك، والزكاة ظاهرة وباطنة من ذلك والصيام ظاهراً وباطناً من ذلك ، والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأحكام الله في جميع أبواب الشريعة من ذلك وآداب الله في جميع فرائضه وسننه وما دعا إليه من معرفته بصفاته التي وصف بها نفسه لعباده ومعرفة أنبيائه ورسله وحججه وكتبه وملائكته وآياته وأمثاله والنظر في عجائب مصنوعاته في الآفاق وفي الأنفس بل جميع ما لله فيه رضاً من اعتقاد واجتهاد وعملٍ وقولٍ وحال وفعل من أحوال الدنيا والآخرة من ذلك.

وأمّا أنّ جعل صلواتنا عليهم بمعنى أن الله جعلهم في بيوت تصير الصلاة فيها وإظهار الولاية سبباً للكرامة من الله ...إلخ، فمِمّا لا معنى له إلاّ على تأويلٍ بعيد ووقوع مثل هذا المعنى من مثل الشارح مستغرب ، نعم لو أرادَ جعلهم في

مقاماتٍ الله بأن جعلهم أركاناً لمقاماته تعالى وكون الصلاة فيها عبارة عن توجّهنا إلى تلك المقامات في جميع أحوال عباداتنا ومعارفنا ودعائنا ليكون المعنى أنّهم ذلك الوجه الذي يتوجّه إليه الأولياء في كل حال من الطاعات وإظهار الولاية لهم من المحبّة لهم والاقتداء بهم والرد إليهم والتسليم لهم، والبراءة من أعدائهم سبباً لكرامة الله كان معنىً صحيحاً إلاّ أنه لا يريده بوجهٍ.

وهنا معنى آخر أنّ الصلّوات يجوز أن يراد بها الصلوات اليومية وكونها عليهم بمعنى أنها لهُمْ فإنّ الصلاة وإن رجحنا ثبوت الحقيقة الشرعية على مصطلح أهل الأصول كما هو الحق في المسألة لكنا قد قرّرنا هناك أنّها قد نقلها الشارع من اللغة عن معناها اللغوي المعروف واستعملها بوضع جديد، وإنما أخذ هذا اللفظ نقلاً من اللغة واستعمله في مراده بعد أن هجر المعنى الأول ليكون أدل على فهم مراده مما لو وضع لفظا لم يعرفوه في لغتهم وأقرب تناولاً لهم وآنس لهم باستعمال لغتهم في لغته وأبلغ استمالة لقلوبهم وأشرنا إلى أن هذا تحقيق هذه المسألة في الظاهر ، وأما في الحقيقة قلنا فيه سر عجيب لا يعرفه إلاّ من لطف حسّه وكشف عن عين بصيرته الغطاء، والإشارة إليه أن الواضع واحد وهو الله تعالى على الصحيح وهو الذي وضع الألفاظ الشرعية واللغوية فوضع لفظ الصلاة على ذات الأركان المخصوصة وعلى الدعاء من باب التشكيك وقلنا بعد ذلك ولنقبض العنان فللحيطان آذان (وَتَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ)، وإنما قلنا هناك هذا الكلام لأنه من العلوم الظاهرة ونحن في هذا الشرح لم نسلك فيه إلاّ كشف الأسرار لأنه هو المطلوب منا في هذا الشرح.

فنقول مرادنا هناك إن لفظ الصلاة وضع على ذات الأركان المعلومة لأنّها

في الحقيقة دعاء وصلاة وعلى الدعاء المعروف لأنّه صلاة ولكن تحقق الدعاء في الصلاة التي هي صورة الولاية باطن وعام في ذات الأركان وتحقق الصلاة في الدعاء المعروف باطن وخاص يعني أن معنى الدعاء في ذات الأركان باطن عام كمعنى ذات الأركان في الدعاء المعروف إلاّ أنّه خاص، فكان المعنى من مدلول لفظ الصلاة يوجد في ذات الأركان قويا شاملا لكل خير وكل مطلب وفي الدعاء ضعيفا خاصّا ببعض الخير والمطلب فلذا كان الوضع فيهما من باب المشكك وقد قلنا أيضاً أنّ معنى صلّى معدّى بعلى هو معنى دعا معدّى باللّام لدفع اعتراض مشهور.

فإذا عرفت هذا فلك أن تجعل قوله عليه السلام وجعل صلواتنا عليكم أي الصلاة اليومية عليكم أي دعاءنا لكم فإنّها باللّسان والأركان والجنان لأنها طلب من الله بكلّ مَشعَر وجارحةٍ وحركة وسكون وهيئة كل نوع وصنفٍ من أنواع المدد وصنفِه، وإنّما كانت الصلاة اليوميّة وسائر الصلوات الواجبات والمندوبات مجعولةً عليهم صلوات الله عليهم لأنّها في الحقيقة صورةُ ولايتهم وحكايةُ مَدِحهمْ وذكْر ثنائِهم فمعنى عليهم لهم أو الصلاة عليهم بمعنى الدعاء لهم ومعنى لهم ما قلنا إنها صورةُ ولايتهم وحكاية مدحهم وذكر ثنائِهِمْ أو أنها من فروعهم أو أن الله تعالى تعبّد عباده بطاعتهم وطاعتهم عبارة عن امتثال الخلق أوامر الله والإخلاص في عبادته تعالى، كما أمر سبحانه ومعنى كون ذلك هو طاعتهم أنهم لله سبحانه وحده فطاعتهم طاعته وعبادته، وإنّما لم نقل إنّ عبادتهم عبادته لأن عبادتهم إن كانت عبارة عن عبادته تعالى وحده لا شريك له فهي عبادته لأنهم ينطقون عن الله (ومن استمع إلى ناطق فقد عبده فإن كان الناطق ينطق عن الله فقد عبد الله) الحديث.

وإن اعتبر كونهم فيها معه أو كون العبادة لهم بمعنى أنها ليست له كان شركاً أو كفراً وكان ذلك معصيتهم لأن العبادة لا تكون طاعة لله تعالى ولا تكون تلك العبادة طاعتهم حتى تقع لله وحده لا شريك له على الوجه الذي أسّسُوه كما تقدم من كونهم أسماءه التي يدعى بها ووجهه الّذي يتوجه إليه من قصده سبحانه وبابه الذي يؤتى منه، ودليلهم إليه وشرط قبوله للأعمال من العباد فعبادة الخلق لله سبحانه التي يقبلها وأمرهم بها هي وقوعها على الوجه الذي أسّسُوه فإذا كانت كذلك خالصة لله سبحانه وحده لا شريك له صح كونها عبادة الله حقاً وصح كونها طاعتهم لله، لأن الله سبحانه خلقهم له لا لأنفسهم ولا لغيره.

وهذه الوجوه التي فسّرنا بها معنى لهم مجملة.

وتفصيلها إن الله سبحانه منزّه عن كل ما سواه من كل شيء ثم إنه اصطفى مما خلق صفوة ليس في جميع خلقه ما يساويهم عنده ولا يدانيهم ليعرفوه بما عرّفهم من أنفسهم وخلق لهم خلقه ليمدّهم من ثمرات أعمالهم من خيراتٍ وصفهم بها قال تعالى (فَاجْعَل أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ)وقال تعالى(إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ) أي إليهم ولهم كما قال تعالى (الطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِين) ومن شرور وصف بها أعدائهم وبَرَأهم منها قال تعالى (الخَبِيثاتُ لِلخَبِيثِينَ) ثم قال (أُولئِك)أي الطيبون مبرّؤون ممّا يقولون ومعنى (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ) أنه إلى أوليائه لأنّ الحوادث لا تداني الأزل سبحانه فإذا كانت الصلوات كما سمعت زكت وطابت وكانت طيباً لخلق العاملين له وطهارة لأنفسهم ...إلخ.

وقول الشارح (بالضم) خلاف المعروف وخلاف ما في النسخ المشهورة بل لم أقف في شيء من النسخ الصحيحة مما وقفت عليه على الضم ولم أسمع من أحدٍ

ذلك، وإن كان يجوز وقوعه ولم أقف عليه ومعناه أيضاً يجوز ولكن المعروف المشهور في النسخ الذي يقبله العقل السليم والطبع المستقيم هو الفتح هنا والمراد به طيباً لمَوْلدنا لأن غير شيعتهم لم تطب مواليدهم كما نطقت به أخبارهم فإذا تألّفت البنية من الطينة الطيبة التي قبلت ولايتهم والماء العذب الذي هو الماء الثجاج النازل منهم على هيئة ولايتهم وصورة صفتهم طاب خلقهم (بالفتح) وإذا طاب خلقهم (بالفتح طاب خلقهم بالضم) لأنه صفة البنية، ولمّا أخذ على الخلق الميثاق بالطاعة لهم عليهم السلام والردّ إليهم والتسليم لهم في كل شيء وكان الخلق كلهم متساوين في رتبة القبول وعدمه كان الناس أمّة واحدة كان من قبل طيّب المعدن والعنصر لأن قبوله صلاته عليهم بكلّ معنى فجعل الله سبحانه تلك الصلوات عليهم وقبول ولايتهم سبباً لطيب مولدهم وطينتهم وخلقهم (بالضمِّ) وطهارة لأنفُسهم لطيب الماء الذي خمّرت به طينتهم وهو ماء ولاية أئمتهم عليهم السلام وتزكية لهم، لأنهم بانقيادهم والتسليم لأئمتهم عليهم السلام قبلت أعمالهم على ما هم عليه من المعاصي والذنوب بمجرد عملهم ببعض الطاعات لإيمانهم بالحق وأهله وبراءتهم من الباطل وأهله وتلك التزكية من قوله تعالى (فَمَنْ يَعْمَل مِنَ الصَّالِحاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كاتِبُون)وقوله تعالى (إِلاَّ مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِل عَمَلاً صالِحاً فَأُوْلئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَنات)وقوله تعالى (إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لكَ عَلَيْهِمْ سُلطانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الغاوِينَ)وروي زكريا بن آدم قال (دخلت على أبي الحسن الرضا عليه السلام فقال يا زكريا بن آدم شيعة علي رفع عنهم القلم قلت جعلت فداك فما العلة في ذلك قال لأنهم أخروا في دولة الباطل يخافون على أنفسهم وأموالهم و يحذرون على إمامهم يا زكريا بن آدم ما أحد من

شيعة علي أصبح صبيحة أتى بسيئة أو ارتكب ذنبا إلا أمسى و قد ناله غم حط عنه سيئته فكيف يجري عليه القلم)رواه إبراهيم بن سليمان القطيفي في رسالته في الفرقة الناجية.

وفيها عن فرات بن أحنف قال (كنت عند أبي عبد الله عليه السلام إذ دخل عليه رجل من هؤلاء الملاعين فقال و الله لأسوأنه من شيعته فقال يا أبا عبد الله أقبل إلي فلم يقبل إليه فأعاد فلم يقبل إليه ثم أعاد الثالثة فقال ها أنا ذا مقبل فقل و لن تقول خيرا فقال إن شيعتك يشربون النبيذ فقال و ما بأس بالنبيذ أخبرني أبي عن جابر بن عبد الله أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانوا يشربون النبيذ فقال ليس أعنيك النبيذ إنما أعنيك المسكر فقال شيعتنا أزكى و أطهر من أن يجري للشيطان في أمعائهم رسيس و إن فعل ذلك المخذول منهم فيجد ربا رءوفا و نبيا بالاستغفار له عطوفا و وليا له عند الحوض ولوفا ثم قال أخبرني أبي عن علي بن الحسين عن أبيه عن علي بن أبي طالب عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن جبرئيل عن الله تعالى أنه قال يا محمد إني حظرت الفردوس على جميع النبيين حتى تدخلها أنت وعلي وشيعتكما إلا من اقترف منهم كبيرة فإني أبلوه في ماله أو بخوف من سلطانه حتى تلقاه الملائكة بالروح والريحان وأنا عليه غير غضبان فيكون ذلك حلا لما كان منه فهل عند أصحابك هؤلاء شيء من هذا فلم أو دع)انتهى.

ومن الأدلة على قولنا في تعليل تزكية شيعتهم لأنهم بانقيادهم إلى آخره من الرسالة المذكورة روى ابن عباس زيادة على الحديث الذي رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم منها قال ابن عباس (فقلتُ يا رسول الله أوصني فقال عليك بمودة علي بن أبي طالب والذي بعثني بالحق نبيّاً لا يقبل الله من عبدٍ حسنةً حتى يسأله

عن حب علي عليه السلام وهو تعالى أعلم فإن جاء بولايته قبل عمله على ما كان منه وإن لم يأت بولايته لم يسأله عن شيء وأمر به إلى النار)انتهى.

ومثله ما رواه الصدوق بسنده إلى ميسر قال (سمعتُ أبا الحسن الرضا عليه السلام يقول لا يُرى منكم في النار اثنان لا والله ولا واحد قال قلتُ فأين ذا من كتاب الله فأمسك هنيّةً قال فإنني معه ذات يوم في الطواف إذ قال يا ميسّر اليوم أُذِن لي في جوابك عن مسألتك كذا قال قلتُ فأين هو من القرآن قال في سورة الرحمن وهو قول الله عز وجل فيومئذٍ لا يسأل عن ذنبه منكم إنس ولا جان قال إنّ من قد غيّرها ابنُ أرْوى وذلك أنها حجة عليه وعلى أصحابه ولو لم يكن فيها منكم لسقط عقابُ الله عن خَلقه إذ لم يسأل عن ذنبه إنْسٌ ولا جان فلم يعاقب إذاً يوم القيامة)انتهى.

وكفّارة لذنوبهم لأنّ قبولهم الولاية دخولهم في الرحمة الّتي هي تلك الصلوات التي جعلها الله منهم عليهم تزكية لهم فلم تكن في حقيقتهم ظلمة تقتضي مقارفة الذنوب ولكن حين كسروا بعد التكليف الأوّل ورجعوا إلى الطين أصابهم لطخ من مجاورة أهل النار، وبذلك اللطخ قارفوا الذنوب ولمّا كانت هذه الذنوب ليست من حقيقتهم وإنّما هي من لطخ طينة أعداء أئمّتهم عليهم السلام اقتضت الحكمة أن ترجع تلك الذنوب على أولئك الأعداء لأنها من طينتهم كما هو شأنُ العدل نعم إنّ ذلك اللطخ إنّما جاز أن يتعلق بالمؤمن الذي حقيقته من نور مع إنّ ذلك اللطخ ظلمة، لأن في المؤمن شيئاً من الظلمة وهو الذي تقوّم به وجوده وهو وإن كان قد استولى عليه نور الوجود بحيث لا يقتضي من نفسه الذنوب إلاّ بمعونة غيره إلاّ أنه قد بقيت فيه شائبة الظلمة والسواد فلذا يكون لونه أزرق وهذه

الزرقة من لون تلك الظلمة المشوبة بالنور فكان بينه وبين ذلك اللطخ مناسبة فتعلق به اللطخ المقتضي للمعصية فكان ذلك الشيء بضمه إلى ذلك اللطخ صالحا للمعصية فكانت هذه الذنوب وقعت بمقتضيَيْن مقتض ذاتي وهو اللطخ ومقتض عرضي وهو ذلك الشيء من المؤمن فما كان من الذاتي رجع إلى الكافر وما كان من العرضي رجع إلى المؤمن، فلما انبسط على المؤمن نور الولاية وتخلله ماء المحبّة زال عنه ذلك العرضي لأنه كالثوب لمّا أصابته نجاسة من بول الغير وأصابه الماء الجاري زالت عنه النجاسة فرجع الثوب إلى أصله من الطهارة.

وروى الفقيه أبو محمد الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة قدس الله روحه في كتابه المسمى بالتمحيص عن عمر النيسابوري قال (قلت لأبي عبدالله عليه السلام إني لأرى من أصحابنا من يرتكب الذنوب الموبقة فقال لي يا عمر لا تشنّع على أولياء الله إنّ ولينا ليرتكب ذنوبا يستحق بها العذاب فيبتليه الله في بدنه بالسقم حتى يمحّص عنه الذنوب فإن عافاه ابتلاه في ولده فإن عافاه في ولده ابتلاه في أهله فإن عافاه في أهله ابتلاه بجار سوء يؤذيه فإن عافاه من بوائق الدهر شدّد عليه خروج نفسه حتى يلقاه وهو عنه راضٍ قد أوجب له الجنّة)انتهى.

وعن أبي الصباح الكناني قال (كنت أنا و زرارة عند أبي عبد الله عليه السلام فقال لا تطعم النار أحدا وصف هذا الأمر فقال زرارة إن ممن يصف هذا الأمر يعمل بالكبائر فقال أ و ما تدري ما كان أبي يقول في ذلك إنه كان يقول إذا ما أصاب المؤمن من تلك الموبقات شيئا ابتلاه الله ببلية في جسده أو بخوف يدخله الله عليه حتى يخرج من الدنيا و قد خرج من ذنوبه) انتهى .

والأحاديث في ذلك كثيرة. وإنما كان طهر المؤمن من الذنوب بالبلايا لأن

البلايا قسمان، قسم بلاء حسن وقسم بلاء سوء. فالأول هو الذي به يبتلي الله المؤمن قال تعالى (وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً) وهو التمحيص والتخليص من الذنوب وإنّما يجد المؤمن ألمهُ لأنّ الذنوب من فيح جهنم فإذا انفصلت عنه تألّم بالانفصال بعد الاتّصال به للزومها له فهي كالجزء من صفته أو منه، وإنما لم يتألم بها قبل التوبة منها أو الابتلاء بسببها لأنه قبل ذلك حال الاتّصال كانت كالجزء منه والشيء لا يتألّم بجزئه وإنما يتألم بانفصاله منه وعليه تأويل ما روي أنّ من يخرج من النار يتألّمون بها عند خروجهم منها وقد تقدم في بيان (سَعِدَ مَن والاكم) أن البلاء منه سعادة المؤمن وأنه من ولاية آل محمد ﷺ والصلاة عليهم من ولايتهم فظهر لك سرّ أنه سبحانه جعل صلواتنا عليهم وما خصّنا به من ولايتهم كفّارةً لذنوبنا إن جعلنا أنَّ البلاء هو المكفر، لأن الولاية هي الربوبيّة والولي يصلح ما هو وَلِيّ عليه كلّ شيءٍ بما يناسبه كما يصلح الصيقل السيف بالصّقالة والصائغ الذهب المغشوش بالتصفية وهذا للسيف والذهب من البلاء الحسن وهو مِنْ تدبير الولي لِما هو وَليّ عليه لأن الولي له ربوبيّة على ما هُوَ ولي عليه فهو له فلذا قلنا أنّ هذا البلاء للمؤمن من ولايتهم فلذا يكفر الذّنوب أما أنه عليه السلام مع ما أبطن أظهر فإنه قال (وجعل صلواتنا عليكم وما خصّنا به من ولايتكم طيبا لخلقنا وطهارة لأنفسنا وتزكية لنا) فأبطن فيها ثم أظهر فقال (وكفارة لذنوبنا) فبناء على أن ذنوب شيعتهم تكفّرها البلايا في الدنيا كما تقدم في الأحاديث لأنهم عليهم السلام فسّروا ذلك التكفير بالبلايا في الدنيا وهذا المعنى ظاهر في ظواهرِ أحاديثهم وفي بواطنها أن حبّهم وولايتهم تكفر الذنوب والسرّ في ذلك أنّ حبّهم وولايتهم نور من كلّ ظلمة وحياة من كل موتٍ وطهر من كلِ دنسٍ

ورجس وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين، فإذا تفضّل الله بهما على عبد كان منيراً ظاهره ببعض الأعمال الصالحات وباطنه بحسن الاعتقاد والاقتصاد والسّداد فإذا وقعت منه سيئةٍ فلم تصدر من قلبه بل وقعت منه وقلبه منكر عليه فتكون مجتثةً ليست متأصِّلةً فيه مع تأصّل النور فيه لأنه خلق من طينة أئمتهم وهي نور ومن ماء ولايتهم وهو نور وحين خاطبهم في الذر أجابه فغمسه في رحمته وهي نور، فالأنوار متأصلة فيه ولا نفاد لها وظلمة السيّئة مجتثة نافدة لعدم تأصّلها وقلّتها فإذا وقعت منه وندم عليها استولت عليها تلك الأنوار فمحقتها بواسطة الندم لأن الندم على فعل السيئة من نور ولايتهم إذ معناها تجديد العهد المأخوذ عليه وكذا عدم الإصرار ومنه عدم العزم على البقاء على المعصية فإن تلك الأنوار تمحوها كما نقول في النهر الجاري إذا تنجّس موضع منه فتغيّر بالنجاسة فزال التغير بتدافعه فإنه يطهر ولا يحتاج إلى نزح ما فيه النجاسة الذي هو مثل البلاء للمؤمن الذي يكون مكفّراً للسيّئة بل تلك الأنوار التي أشرنا إليها هي أنهار تجري من الكوثر وهي بكثرة جريانها وتدافعها تزيل التغيّر الذي حدث من المعصية المجتثة فيطهر صاحبها ولا يحتاج إلى البلاء الذي هو نزح المتنجّس وإزالة النجاسة، لأن حبهم يستهلك الذنوب كما أن الماء الذي له مادة تجري يستهلك النجاسة فلا تحمل خبثاً كما هو حكم الكر إذا لم يتغير منه ما لا يبقى بعده كر لم يتغيّر وكالجاري إذا لم تتغير المادة فالتغير في المؤمن الذي لا يبقى معه كرّ غير متغيّر هو ولاية أعدائهم فإن من كان كذلك والعياذ بالله كان نجسا لا يطهر (أولِئكَ الذِينَ لمْ يُرِدِ الله أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ)، وأما الذي يبقى معه حال المعصية أصل الإيمان الذي هو بمنزلة بقاء كرّ طاهر يطهر بزوال النجاسة

كما مثلنا لأن المحب خلقه الله من النور وغمسه في الرحمة فيعود إلى الرحمة.

وفي الكافي بسنده إلى أبي عبيدة الحذاء قال (سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام عَنِ الاسْتِطَاعَةِ وَ قَوْلِ النَّاسِ فَقَالَ وَ تَلا هَذِهِ الآيَةَ وَ لا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذلِكَ خَلَقَهُمْ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ النَّاسُ مُخْتَلِفُونَ فِي إِصَابَةِ القَوْلِ وَكُلُّهُمْ هَالِكٌ قَالَ قُلتُ قَوْلُهُ إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ قَال هُمْ شِيعَتُنَا وَلِرَحْمَتِهِ خَلَقَهُمْ وَهُوَ قَوْلُهُ وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ يَقُولُ لِطَاعَةِ الإِمَامِ الرَّحْمَةُ التِي يَقُولُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُل شَيْءٍ يَقُولُ عِلمُ الإِمَامِ وَوَسِعَ عِلمُهُ الذِي هُوَ مِنْ عِلمِهِ كُل شَيْء) انتهى، وأمثال ذلك فإذا أبطن الإمام عليه السلام في قوله وكفارة لذنوبنا كان مما يريد ما ذكرنا لك.

قال عليه السلام فكنا عنده مسلمين بفضلكم ومعروفين بتصديقنا إياكم

قال الشارح (فكنا عنده) في علمه بأنّا من المصلّين عليكم أو الموالين لكم أو مطلقا (مسلّمين) بالتسليم القلبي الحقيقي (بفضلكم) على العالمين (ومعروفين بتصديقنا إياكم) بالإمامة والفضيلة وهذه فضيلة لنا يجب علينا شكرها والتحدّث بها انتهى.

أقول: يقول (فكنا) تفريع على جعله لصلاتنا وما خصّنا به الخ، وقوله عنده أي في كتابه الحفيظ يعني كنّا عنده مكتوبين بأسمائنا وصفاتنا في اللوح المحفوظ بأنّا مسلّمون (بتشديد اللام) أي منقادون لطاعتكم وللاقتداء بكم والولاية لكم والبراءة من أعدائكم ووفّقنا لذلك بسبب تفضلكم علينا بما أنتم أهله من النور والهداية والنصيحة والدعاء لنا بذلك أو بسبب تفضّل الله علينا بكم حين جعلنا لكم مواليّ وَأتباعا الحمد لله رب العالمين ، أو الباء بمعنى اللاّم أي منقادين ندين

بفضلكم على جميع الخلق وإنّما خلق خلقه لكم ويؤيد نسخة تشديد اللاّم قوله بتصديقنا إيّاكم وعلى نسخة (تخفيف اللاّم) يكون المعنى كنا بسبب ما أجراه علينا من فضله مما ذكر سابقاً ولاحقاً مسلمين منقادين أي يسلّم منّا الناس لما بنا من العدل والإنصاف وعدم التعدّي على أحد وعدم التجاوز لحدود الله مما أمدّونا من فضلهم من التأييدات والتوفيقات أو يسلم منا رسول الله ﷺ لم نؤذِه في أهل بيته ولا أحكام شريعته كما في تأويل قوله تعالى (وَأَمَّا إِنْ كانَ مِنْ أَصْحابِ اليَمِينِ فَسَلامٌ لكَ مِنْ أَصْحابِ اليَمِينِ)، أو بمعنى أن من لم يتول ولم يتبرأ ولم يتابع الأئمة عليهم السلام في أفعالهم وأعمالهم وأقوالهم ليس بمسلم أي ليس بكامل الإيمان الذي هو الإسلام الكامل كما قال تعالى (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ الله الإِسْلامُ) أو ليس بمسلم بل هو كافر كفر الجاهلية الأولى وإنما كنا عند الله مسلمين بفضلهم وإنما يقال إن كل من سوى شيعتهم كافر، لما روي في كثير من الأخبار مثل ما رواه في الخصال بسنده عن مالك الجهني قال سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم من ادعى إماما ليست إمامته من الله ومن جحد إماما إمامته من عند الله عز وجل ومن زعم أن لهما في الإسلام نصيبا)انتهى.

وقوله عليه السلام (ومعروفين بتصديقنا إياكم) أي معروفين عند الناس بأنّا أتباعكم وشيعتكم المصدّقين لكم فيما قلتم وفعلتم وعملتم أو معروفين عند الأمم الماضية بذلك أو في كتبهم فإنها نزلت من السماء بوصف محبيهم ووصف أعدائهم كما أخبر الله تعالى في كتابه (بَل تُؤْثِرُونَ) يعني أعداءهم (الحَياةَ الدُّنْيا) أي ولاية الأول وتصديقه أي تسميتهم له بالصّديق (وَالآْخِرَةُ) أي ولاية علي عليه السلام لمحّبيه

(خَيْرٌ وَأَبْقى)فإنه عندهم هو الصدّيق الأكبر والفاروق الأعظم أو معروفين عند أهل السماء من الملائكة المستغفرين لشيعتهم ومحبيّهم لا يحصي عددهم إلاّ الله.

روى القميّ في قوله تعالى (الذِينَ يَحْمِلُونَ العَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ)إلى قوله (وَذلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ)عن أبي عبد الله عليه السلام (أنه سئل هل الملائكة أكثر أم بنو آدم فقال والذي نفسي بيده لعدد ملائكة الله في السماوات أكثر من عدد التراب في الأرض، وما في السماء موضع قدم إلا وفيها ملك يسبحه ويقدسه ولا في الأرض شجرة ولا مدر إلا وفيها ملك موكل بها يأتي الله كل يوم بعملها والله أعلم بها، وما منهم أحد إلا ويتقرب كل يوم إلى الله بولايتنا أهل البيت ويستغفر لمحبينا ويلعن أعداءنا ويسأل الله أن يرسل عليهم العذاب إرسالا).

وإنما خص عليه السلام ملائكة الأرض بهذا مع أنه لا يختص بهم فإن الله سبحانه يقول (الذِينَ يَحْمِلُونَ العَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلذِينَ آمَنُوا ...إلخ)، وقد قال أبو جعفر عليه السلام (الذِينَ يَحْمِلُونَ العَرْشَ يعني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والأوصياء من بعده يحملون علم الله وَمَنْ حَوْلَهُ يعني الملائكة يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلذِينَ آمَنُوا يعني شيعة آل محمد رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلماً فَاغْفِرْ لِلذِينَ تابُوا من ولاية فلان وفلان وبني أمية وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ أي ولاية علي ولي الله وَ قِهِمْ عَذابَ الجَحِيمِ رَبَّنا وَأَدْخِلهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ التِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلحَ مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ يعني من تولى علياً عليه السلام فذلك صلاحهم وَقِهِمُ السَّيِّئاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ يعني يوم القيامة وَذلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ لمن نجاه الله من ولاية فلان وفلان)الحديث.

وأمثال ذلك مما يدل على أن جميع الملائكة يستغفرون لمحبيهم لأنّ السؤال ليس بهذا الصّدد وإنما هو بصدد كثرتهم وإنهم يسبّحون الله ويقدسونه وربّما اقتضى المقام استغراب أن جميع الملائكة إنّما تسبيحهم هو الثناء عليهم والاستغفار لشيعتهم بل للثناء على شيعتهم بمثل ما هو مذكور في الآيات المذكوره كقوله (تابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلك)وكقوله (وَأَدْخِلهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ التِي وَعَدْتَهُمْ)بل قد يقتضي الإنكار، فإذا كان المقصود لهم من أحاديثهم مفرّقاً فيها خفّ على الناس من أعدائهم ومن ضعفاء شيعتهم وقول الباقر صلوات الله عليه (وَالذِينَ يَحْمِلُونَ العَرْش)(يعني رسول الله ﷺ إلى آخره) لا يراد منه اختصاص الاستغفار للشيعة بمن حول العرش من الملائكة إذا فسر الذين يحملون العرش بمحمد وأهل بيته وإن كان لو فُسر الذين يحملون العرش بالملائكة كانوا من المستغفرين، لأن ذكره عليه السلام لذلك لبيان باب أعظم وفتح قفل مقفل محكم من العلم وأدرج من حول العرش من الملائكة معهم عليهم السلام وأخبر أن الذين يحملون العرش على أي تفسير ومن حول العرش يعني ممن دونه إلى ما تحت الثرى إذ كل ذلك حول العرش يستغفرون لشيعتهم.

فإن قلت : إن علياً عليه السلام داخل في الأوصياء بل هو أوّلهم وأخصّهم بذلك وهو السبيل في الآية فيلزم أن يكون المعنى في حقّه عليه السلام رب اغفر للذين تابوا واتّبعوني وهذا النمط من الخطاب قد يتوحش منه بعض الناس وقد يتخذه بعض الأعداء دليلاً للطعن عليه صلوات الله عليه وعلى المذهب.

قلتُ هذا المعنى لا بأس به ولا مطعن على المحقّ ومن وجب عليه تعريف نفسه لتوقف الدعوة والهداية والتوفيق عليه مع أنّ مثل هؤلاء الذين تجوّز عليهم

الاعتراض عليه يقنعون أن يقال لهم إن السبيل هو الإسلام والإيمان وما أمر الله به وإن كان يقال لهم إن الإسلام والإيمان وما أمر الله به لا يتم إلاّ بولايته فإنه يكون أخف على نفوسهم على أنه يقال أيضاً يجوز أن يكون المراد من السبيل هي ولاية محمد وأهل بيته عليهم السلام ولا يلزم أن يعني كل واحد منهم ما يخصّ نفسه بل ما يشترك فيه هو وغيره أو ما يخص غيره ولا محذور في شيء مع أنّا نقول إنهم كثيراً ما يستغفرون لشيعتهم ويدعون لهم ولا يكادون يتّقون فيه ولا يستترون به وأعداؤهم يسمعون ذلك وأمثاله ولا يتوهّم فيهم أحدٌ شيئاً لأنّ الحقّ لهم ومعهم وفيهم وبهم فلا يجد الناقد فيهم ما يكره، وأمّا النفوس التي عرقت فيها الوساوس والشياطين فلا عبرة بما يوسوسون به.

والحاصل أنّ الذين يحملون العرش مطلقاً أي سواء كان المراد بهم الملائكة أو الملائكة العالين أو محمداً وأهل بيته عليه وعليهم السلام وسواء كان المراد بالعرش العرش الأعلى الذي هو المشية فهم عليهم السلام يحملونها لأنهم محالّها أو ما دونه من نحو ما تقدّم يستغفرون للشيعة، والأخبار مشحونة بذلك فهم معروفون في السماء عند محمد وآله صلى الله عليه وآله وسلم وعند العالين من الملائكة وعند المقرّبين منهم وعند سائرهم، وإنما كانوا معروفين بتصديقهم أئمتهم واتباعهم أوْ هم معروفون عند الله بذلك التصديق ومعنى كونهم معروفين عند الله أنّه تعالى ميّزهم بما قِبلوا ممّا دعا إليه أو من المعرفة التي هي علّة المحبّة أي محبوبين عنده تعالى أوْ أنّه سبحانه أعطاهم بتصديقهم محبّته والتصديق هنا هو بالصّلاح والمعرفة والتصديق بمتابعة الأقوال والأحوال والأعمال والأفعال والاعتقاد وبالتسليم لهم والردّ إليهم.

قال عليه السلام فبلغ الله بكم أشّرف محل المكرمين وأعلى منازل المقربين وأرفع درجات المرسلين

قال الشارح أشرف محل المكرمين وأفضل مراتبهم وأعلى منازل المقرّبين من المرسلين وأرفع درجات المرسلين وهي درجات نبيّنا صلى الله عليه وآله فيلزم منه أفضليتهم على الأنبياء كما ذكره العلاّمة النيسابوري في تفسير قوله تعالى (وَأَنْفُسَنا وَأَنْفُسَكُمْ)بأنه لا تزال الشيعة قديما وحديثاً يستدلّون بهذه الآية على أفضلية علي عليه السلام على جميع الأنبياء عليهم السلام بأنه نفس النبي صلى الله عليه وآله وهو أفضل، وقال ويؤيده ما روي عنه صلى الله عليه وآلهأنه قال (من أراد أن ينظر إلى آدم في علمه وإلى نوح في عبادته وإلى إبراهيم في خلّته وإلى موسى في هيبته وإلى عيسى في زهده وإلى يحيى في ورعه فلينظر إلى علي بن أبي طالب عليه السلام فإن فيه سبعين خصلة من خصال الأنبياء بأن كل واحدٍ منهم أمتاز عن سائرهم بخصلةٍ واحدة بهذه الخصال فمن اجتمع فيه جميعها فهو أفضل والأخبار عندنا متواترة بذلك في جميع الأئمة عليهم السلام) انتهى.

أقول: قوله عليه السلام (فبلّغ الله بكم) يجوز فيه معنيان. أحدهما ما ذكره الشّارح من أنّ الله تعالى بلّغهم عليهم السلام أشرف محل المكرمين الخ، فتكون الباء زائدةً على هذا الوجه وهو وإن كان بعيداً عن مفاد هذا الكلام إلاّ أنّه محتمل على بُعْدٍ إما أنّه محتمل فلأنه يجوز أن يكون معطوفاً على قوله (خلقكم الله أنوارا فجعلكم بعرشه محدقين) فرتّب على خلقهم وجعلهم محدقين بعرشه أنْ بلّغهم سبحانه من جزيل فضله ما ألحقهم بمقام نبيه محمد صلى الله عليه وآله الذي هو أشرف محل المكرمين وأعلى منازل المقرّبين وأرفع درجات المرسلين على الحقيقة لأنّ هذا الأشرف والأعلى والأرفع متفاوت المراتب والحقيقي منها مرتبة محمد صلى الله عليه وآله وأمّا أنّه على بعد فلأنه

عليه السلام إنما ذكر هذا لأنه جعله غاية لطاعتهم والاقتداء بهم والولاية لهم والبراءة من أعدائهم وهو قوله عليه السلام (وجعل صلواتنا عليكم وما خصنا به من ولايتكم طيبا لخلقنا ...إلخ) بمعنى أنّ الله سبحانه وتعالى بلغ بهم محبيّهم الدرجات الرفيعة كما يأتي.

وثانيهما أن المراد أنّه سبحانه حين جعل الصلوات عليهم والولاية لهم طيبا لخلق محبّيهم المصلين عليهم المتوالين بهم وطهارة لأنفسهم وتزكية لهم وكفارة لذنوبهم حتى قبل من شيعتهم القليل من أعمالهم وأثابهم عليه الجزيل من ثوابه فقال تعالى (فَمَنْ يَعْمَل مِنَ الصَّالِحاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لهُ كاتِبُونَ)(بلغ بهم أشرف محلّ المكرمين ...إلخ).

ثم لما كان تبليغ الله سبحانه لعباده المؤمنين المتوالين بهم المحبين لهم أعالي الدرجات إنما هو على حسب قيامهم بواجب حق ساداتهم عليهم السلام وطاعتهم ومحبتهم وولايتهم والبراءة من أعدائهم وكانت تلك الأعالي متفاوتة لا تكاد تتناهى في مقامها وجب أن يعتبر فيها باعتبار المبلّغين بفتح اللام وباعتبار تلك المراتب في العلو والدنو وفي الذاتي والعرضي وجهان.

أحدهما أن نقول يراد بالمبلّغين (بفتح اللام) الأنبياء والمرسلون بعد محمد وآله صلى الله عليه وآله وسلم فإنّهم مستثنون لأنّهم إما أن نقول هم المبلّغ بهم بفتح اللام من سواهم أو هم المبلِّغون بكسر اللام بإذن الله من سواهم ومعنى إن الله سبحانه بلّغ الأنبياء والمرسلين أعلى الدرجات يعني أعلى درجات التابعيّة مما لكل واحد من إمكانه بأن يبلّغ الأنبياء أعلى درجات النبوّة التابعية كلّ واحد منهم ما يمكن في حقّه على حسب قيامه بمقتضى ولايتهم، وأن يبلّغ المرسلين أعلى درجات الرسالة

التابعية كل واحد منهم ما يمكن في حقّه على حسب قيامه بمقتضى ولايتهم فبلّغ بهم وبطاعتهم الأنبياء أقصى مراتب الأنبياء والمرسلين أقصى مراتب المرسلين والأوصياء أقصى مراتب الأوصياء يعني أقصى ما يقتضيه إمكان كلّ واحدٍ من مقامه بعمله فإن كل واحد منهم بلّغه الله تعالى بهم ما اقتضاه إمكانه من رتب التابعيّة لأنّهم أجمعين اتباع محمد وآله ﷺ والمتبوعيّة في كل مرتبة عالية له ولأهل بيته ﷺ.

وثانيهما: أن يراد بالمبلّغين (بفتح اللام) المؤمنون والصالحون، من شيعتهم وتبليغ الله لهم على حسب قابليتهم بمحبّة أئمتهم وولايتهم لهم والاقتداء بهم من التابعيّة فعلى هذا الوجه وهو أن المبلّغين (بفتح اللام) هم المؤمنين والصالحون يكون المراد من قوله أشرف محل المكرمين إن المكرمين هم المؤمنون الخواصّ والخصيصون وهم الذين أكرمهم باتباع أئمتهم عليهم السلام ورفعهم بهم عن مقام من سواهم من سائر خلق الله من الطائع والعاصي لأنّه جعلهم بذلك مكرمين قد بلغوا ما خلقهم الله له من الخير يعني أنه بَلّغَهُم ببركة أئمتهم أقصى ما يمكن في حقهم من المراتب العليا وإنْ أريد بالمكرمين أهل العصمة من الأنبياء والمرسلين بقرينة عطف مقاميهما على مقامهم كان المراد بالتبليغ الانضمام إليهم والمجاورة لهم وإيصالهم إلى صفات ما وصلهُ الأنبياء والمرسلون وإليه الإشارة بقوله تعالى (فَأُولئِكَ مَعَ الذِينَ أَنْعَمَ الله عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَداءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً)، فأشار تعالى هنا إلى هذا المعنى المشار إليه بقوله (مَعَ) وبقوله (رَفِيقاً).

وأمّا التبليغ فيراد منه أنه سبحانه بلّغ مَنْ شاء ما شاء من الدرجات العاليات

بمحمد وآله ﷺأو أنّ محمداً وآله ﷺبلّغوا من شاءوا ما شاءوا من الدرجات العاليات على حسب ما اقتضته قوابلهم بالله سبحانه كما علّمهم وأمرهم وأذن لهم وأعانهم وهو الفعّال لما يريد فهو سبحانه هو المبلّغ بكسر اللام وحده لا شريك له بهم في الفرضين.

قال عليه السلام حيث لا يلحقه لاحق ولا يفوقه فائق

ولا يسبقه سابق ولا يطمع في إدراكه طامع

قال الشارح حيث لا يلحقه لاحق ممن هو دونكم ولا يفوقه فائق منهم على الأنبياء كأولي العزم وإن فاقوا على غيرهم لا يفوقون عليكم والنبي ﷺوأمير المؤمنين عليه السلام مستثنيان بالأخبار ولا يسبقه سابق في فضيلة من الفضائل عليكم ولا يطمع في إدراكه طامع لأنهم يعلمون أنها موهبة خاصّةً من الله تبارك وتعالى بكم لا يمكن الوصول إليها بالسعي والاجتهاد انتهى.

أقول يحتمل هذا الكلام معنيين.

أحدهما وهو الظاهر أن الضمير البارز في يلحقه ويفوقه ويسبقه وإدراكه يعود إلى أشرف محل وأعلى منازل وأرفع درجات لأن المراد به شيء واحد وهذا ظاهر على الوجه الذي ذكره الشارح وهو الذي قلنا أنه بعيد عن مفاد الكلام مع أنه يخالف ما أراد هنا أن أريد بمَعُود الضمير في يلحقه واحد منهم عليهم السلام كما هو محتمل على ما يأتي وإن أريد به أشرف وأعلى وأرفع ارتبط الأول مع الثاني إلا أنّ فيه بُعْد الأول كما ذكرنا سابقا، فعلى ظاهر ما أراد هنا مرتبا على ما ذكر في الأول، يكون المعنى أنّ الله تعالى بلّغكم محلاً عالياً بحيث (لا يلحقه لاحق) أي لا يدركه لاحق يعني لا يصل إليه غيرهم أو لا يكون محل لأحدٍ غيرهم يساويه في الشرف والرفعة (ولا يفوقه فائق) أي لا يكون محل ومقام أشرف منه ولا خيراً منه (ولا

يسبقه) مكان (سابق) باعتبار سبق أهله إيّاهم ولا يطمَعُ أحد أي لا يكونُ أحدٌ يُؤهِّلُ نفسه لإدراك مَحلِّهم بل الخلق كلهم يجد كلّ واحدٍ منهم في نفسه القصور عن إدراكه فلا يطمع فيه طامع، ومعنى إدراكه هو ما يراد من يلحقه فلعلّهُ أتى بالثاني في الإدراك لبيان اللحوق وفي يطمع لأنه أخص مَنْ يلحق لأن لا يلحقه يشمل من طمعَ وعجز ومن لم يطمع وأمّا لا يطمع فلا يعم ويحتمل أن بينهما عموماً وخصوصاً من وجهٍ لأن بعض من لم يلحق يطمع وبعض من لم يطمع يلحق فتخصّص أحدهما بالآخر حتى كان المراد مِنْ أحدهما هو المراد من الآخر وإنّما أتى بهما ليجمع بين عدم الطمع لظهور القصور من كلّ أحدٍ وعدم اللّحوق لانحطاط كل من سواهم عن ذلك المقام.

وثانيهما إن الضمير البارز في يلحقه ويفوقه ويسبقه وإدراكه يعود إلى الواحد منهم وهذا مبني على أن المبلّغ (بفتح اللام) يراد به محبّهم الذي يصلّي عليهم ويتوالى بهم الذي جعل الله تعالى صلاته عليهم وما خصّه به من ولايتهم طيباً لخلقه وطهارة له الخ،كما هو الظاهر كانوا عليهم السلام هم الذين بلّغ الله بُهم محبهم أشرف محلّ المكرمين إلى آخر الكلام فيحتمل راجحاً ألاّ يُراد بقوله (حيث لا يلحقه) أي بمعود الضمائر البارزة ذلك المحل لأنّ ذلك المحل الذي بلغه المحبّ المذكور يلحقه لاحق ويفوقه فائق ويسبقه سابق ويطمع في إدراكه طامع وإنما يراد به الإمام عليه السلام الّذي هو واحدٌ منهم عليهم السلام فإنّه حقيقة هو الذي لا يلحقه لاحق ولا يفوقه فائق ولا يسبقه سابق ولا يطمع في إدراكه طامع وكلام الشارح في هذا معلوم لأنه ظاهر في هذا حيثُ يقول (كأولي العزم وإن فاقوا على غيرهم لا يفوقون عليكم والنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين عليه السلام مستثنيان بالأخبار) انتهى.

ويؤيد هذا المعنى الثاني ما بعد هذا من الزيارة من قوله عليه السلام (حتى لا يبقى ملك مقرّب...إلخ) وقوله (والنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين عليه السلام مستثنيان بالأخبار) ليس بجيّد لأنّ المراد بهذا المقام أو بهذا الولي ما يجتمعون فيه، لأنّ لهم حالتين حالة يجتمعون فيها الأربعة عشر المعصومون عليهم السلام وهي ما يحتاج إليه جميع الخلق فإنهم فيه سواء لا يزيد أحد منهم على أحد ولا ينقص وهذه الحالة هي المشار إليها في هذه الزيارة في جميع فقرَاتها. وحالة يزيد فيها بعضهم على بعض وينقص بعضهم عن بعض، وفي هذه الحالة لا يختص الاستثناء بالنبي وعلي صلى الله عليهما وآلهما لأن مقاماتهم متفاوتة كتفاوتهم فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم سبقهم ولا يبلغ أحد منهم مقامه وعلي عليه السلام بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم سبقهم ولا يبلغ أحد منهم بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم مقامه وكذلك الحسن عليه السلام بعد علي عليه السلام ثم الحسين عليه السلام ثم القائم عليه السلام ثم الأئمة الثمانية ثم فاطمة عليهم أجمعين صلوات الله وسلامه، وهذه الحالة ليست مرادة هنا فلا يتّجه استثناؤه وإلاّ توجّه استثناء آخر أيضاً وآخر ويحتمل مرجوحاً أنه أراد بمعود الضمائر محلهم العالي المذكور وإن قوله (لا يفوقون عليكم) مجاز، أي لا تفوق محالّهم على مَحِلّكم وإنما جعلناه مرجوحاً مع أنه هو الظاهر من كلامه السابق حيث جعلهم هم الذين بلّغهم الله أشرف محلّ المكرمين...إلخ، لأنّ الظاهر من كلامه الأخير الذي نحن بصدده أنه هو المعنى الذي جعلناه راجحاً بدليل قوله (وإن فاقوا على غيرهم لا يفوقون عليكم) إذ الأصل في الاستعمال الحقيقة وقولهم إن الاستعمال أعم من الحقيقة احتمال مرجوح لا يخرج عن الأصل ما لم يكن راجحاً أو مساوياً واحتمال أنّه أراد لا يدفع الإيراد.

ثم إنّا قد أشرنا سابقاً أنّ هذا المحل الذي لا يلحقه لاحق إذا أريد به الذاتي جَازَ

باعتبار أن يراد به الحال به أي الذي بلّغه الله ذلك المحلّ وهو كناية عن تقريبه إليه وباعتبارٍ آخر يراد به مرتبته وهو صفته التي جَزَاهُ الله إيّاها فعلى الاعتبار الأوّل يجوز أن يراد به المقامات المعبّر عنها بأنّا كما في الحديث القدسي قال تعالى (خلقتُ الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي)(باطنُكَ أنا وظاهرك للفنا) انتهى.

ونقل في الإنجيل قال تعالى (اعرف نفسك أيّها الإنسان تعرف ربك ظاهرك للفنا وباطنك أنا)انتهى ، وأنْ يُراد به معانيه سبحانه ، وعلى الاعتبار الثاني يجوز أن يراد به معانيه بالنسبة إلى مقامه أو أبوابُه بالنِّسبة إلى معَانيه وإذا أريد به العرضي جاز أنْ يُراد به الذاتي الإضافي فيفيد معنى قوله عليه السلام (من عرف نفسه فقد عرف ربّه)، لأنّه من المقامات الدنيا والمعاني الجزئيةِ والأبواب الخاصة في كل بحسبه وأنْ يراد منه نسبته إلى مَن بلغوا تبعيَتهُ مِنَ الاتباع لأن الحكم العرضي إنما هو في نسبتهم إليه لأن المراد منها بلوغهم المحلّ الذي ينسب إليه بالتّبعيّة كما تَقَدم لأنّه ذاتي بالنسبة إليهم وهو الإضافي المذكور لا فرق بينهما إلا أن الأول أريد فيه من الذاتي الحقيقي عند الإطلاق في رتبة الاتباع هو الذاتي الإضافي، لأنه يصدق عليه أنه لا يلحقه لاحق ولا يفوقه فائق الخ لعظيم التوفية منهم عليهم السلام لمحبّيهم وكمال التّصفية ، وفي الثاني أُريد نسبة الحقيقي إليهم وهي وإن كان الواقع منه هو الإضافي إلا أنه لما أريد المبالغة في الإكرام والترغيب ذكروا الذاتي الحقيقي كما ورد عنهم عليهم السلام في كثير من ترغيّباتهم لشيّعتهم بأنّ من كان كذا أو فعل كذا فهو معنا في درجتنا ولمّا دلّ الدليل العقلي والنقلي القطعيان على أنّ بلوغ الذاتي الحقيقي لغيرهم مستحيل وجب أن يصار إلى أقرب مثالٍ وصفة يمكن أنْ يبلغهَا التابع بحسن أعماله على ما ذكرنا سابقا مكرّراً فافهم.

قال عليه السلام حتى لا يبقي ملك مقرّب ولا نبي مرسل ولا صدّيق ولا شهيد، ولا عالم ولا جاهل ولا دنيّ ولا فاضل ولا مؤمن صالح ولا فاجر طالح ولا جبّار عنيد ولا شيطان مريد ولا خلق فيما بين ذلك شهيد إلا عرّفهم جلالة أمركم وعظم خطركم وكبر شأنكم وتمام نوركم وصدق مقاعدكم وثبات مقامكم وشرف محلكم ومنزلتكم عنده وكرامتكم عليه وخاصّتكم لديه وقرب منزلتكم منه

قال الشارح رحمه الله (حتى لا يبقى) أي لم يبق أحد في عالم الأرواح والأجساد إلا عرّفهم في الكتب المنزلة وعلى ألسنة الأنبياء والمرسلين وصدّق مقاعدكم إنكم صادقون في هذه المرتبة وإنها حكّمٌ كما قال تعالى (فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ) انتهى.

أقول قول الشارح (أي لم يبق أحد في عالم الأرواح والأجساد) يوهم حصر تعريفه تعالى لهم عليهم السلام في هذين العالمين وهو مقامه أعلى من أن يقتصر فهمه على حصر تعريف الله إيّاهم في أهل هذين العالمين فيحتمل أنه اقتصر عليهما على جهة التمثيل أو جريا على ما تعرفه العوام ويمكن أن يعتذر له بأنه اقتصر عليهما لأن ما سواهما داخل فيهما إما من باب التبعية أو أن كل شيء له روح وجسم بحسبه ولا يختص الجسم بهذا المعروف بل كثيرا ما يقال روح الأرواح وذات الذوات ويراد أن الأرواح جسم لتلك الروح والذوات جسم لتلك الذات وفيما تقدم في حديث جابر بن يزيد من الكافي عن أبي جعفر عليه السلام قال (يَا جَابِرُ إِنَّ اللهَ أَوَّلَ مَا خَلَقَ خَلَقَ مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله وسلم وَعِتْرَتَهُ الْهُدَاةَ الْمُهْتَدِينَ فَكَانُوا أَشْبَاحَ نُورٍ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ قُلْتُ وَمَا الأَشْبَاحُ قَالَ ظِلُّ النُّورِ أَبْدَانٌ نُورَانِيَّةٌ بِلا أَرْوَاحٍ)الحديث.

فسمى الأشباح وهي مقادير لا مادة تحلّها أبدانا والبدن محركة من الجسد ما سوى الرأس كذا في القاموس ، وفسر الجسد بالجسم وإنما سمي بدنا لأنه بدن للمادة روحه المادة فهو جسدها ولأجل أن روحه المادة قال عليه السلام (ظل النور) أي هيئته كما أن الصورة في المرآة ظل الشاخص وهيئته وهي بدن له فكذلك ما في هذا الحديث.

والحاصل أنه إن أراد ما أشرنا إليه وإلا فهو المراد لأنه الله سبحانه بفضله على جميع خلقه عرف كل شيء مما خلق من حيوان ونبات وجماد من جوهر وعرض مقام محمد وأهل بيته الطاهرين صلى الله عليه وآله وسلم وأخذ عليه الميثاق بالطاعة لهم كما دلّت عليه الأخبار ومن ذلك ما تقدم في حديث حمران بن أعين في ذكر عبدالله بن شداد الليثي حين مرض وعاده الحسين عليه السلام (فلما دخل من باب الدار طارت الحمّى عن الرجل فقال قد رضيت بما أوتيتم به حقاً حقاً والحمّى لتهرب منكم فقال له والله ما خلق الله شيئا إلا وقد أمره بالطاعة لنا يا كبّاسة قال فإذا نحن نسمع الصوت ولا نرى الشخص يقول لبيك قال أليس أمركِ أمير المؤمنين عليه السلام ألاّ تقربي إلاّ عدوّاً أو مذنِبا لكي يكون كفارة لذنوبه فما بال هذا)الحديث .

فقد نطقت الحمّى بلسان عربي مبين حين ناداها الحسين عليه السلام وهي ليست في الظاهر من الجواهر والكلام المسموع منها فعل الأجسام وقد أقسم عليه السلام وأخبر أنّه ما خَلق الله شيئا إلاّ وقد أمرَهُ بالطّاعةِ لهم فكيف يأمر الله شيئاً بطاعتهم ولم يعرّفه مقامهم منه، وقد ذكرنا مراراً في هذا الشرح أن الله تعالى خلقهم له وخلق الخلق لهم وأن الله سبحانه أشهدهم أمر خلقه وكل ذلك وأمثاله صريح في أنّه عزّ وجل عرّف كُل شيء إيّاهم.

وأما ما ذكره عليه السلام فإنه جار على المتعارف في الظاهر ويعلم من الأدلة الخارجة أنه يريد كل شيء لأنهم ذكروا في أحاديثهم العموم فلا يجوز أن يريد هنا الخصوص لئلا تختلف أحاديثهم باطنا وفي الواقع على أنه عليه السلام قد أجمل ذلك كله بقوله (ولا خلق فيما بين ذلك شهيد) أي فيما بين كلّ ما ذكر من الوسائط والأعراض والفواصل والنسب والأوضاع والأسباب والشروط والموانع والمسببات وهو ما ذكر من الإثني عشر المذكورة وما بينها كالملك المقرب والشيطان المريد، فإنّ الملك في الطرف الأعلى من الغيب الجزئي والشيطان المريد في الطّرف الأسفل من الغيب الجزئي وما بينهما من ذرّات الوُجود من الغيب والشهادة من البسائط من الجواهر والأعراض، وكالنبي المرسل والجبّار العنيد فإن النبي المرسل في الطرف الأعلى من النور الجامع والجبار العنيد في الطرف الأسفل من الظلمة الجامعة وما بينهما من ذرّات الوجود من الغيب والشهادة من المركبات والكليات من الجواهر والأعراض وكذلك ما بين كل متخالفين من المراتب في الذوات والصفات فإنها كلّها خلق شهيد يعني أشهده الله معرفتهم بأخذ الميثاق عليه لهم كما سمعتَ من كلام الحسين عليه السلام في شأن الحمّى وممّا أشرنا إليه حركتك، و سكونك، ونومك، ويقظتك، وفرحك، وحزنك، وضحكك، وبكاؤك، وشبعك، وجوعك، وريُّكَ ، وعطشك، وصحّتك، ومرضُك، ونموّك وذُبُولك، وطاعتك، ومعصيتك، وأمثالك، وطبايعك، وأطوارك، وأوطارك، وأحوالك، ووجودك، وعقلك وعلمك وجهلك، وموتك، وحياتك، وكل شيء منك من عين أو معنى، فإنه خلق فيما بين ظاهرك وباطنك وأوّلِك وآخِرك وذاتك وصفاتك ودنياك وآخرتك شهيد أي أشهده الله معرفتهم وأخذ عليه

الميثاق لهم بالطاعة وهو تأويل (وَلا رَطْبٍ وَلا يابِسٍ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ)وقوله تعالى (وَكُل شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِين)وتأويل (وَحَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً)(يا وَيْلَتَنا ما لِهذَا الكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصاها)مع قوله تعالى (هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ).

قوله عليه السلام (إلاّ عرّفهم جلالة أمركم) أي لم يبق مما ذكر شيء إلا عرّفهم عظم أمْرِكم أي ولايتكم وسلطانكم والسلطان الذي لهم عليهم السلام هو ما أقامَهُم فيه من أن الله سبحانه إنما خلقهم له لا لأنفسهم ولا لغيرهم وهذا المقام أعلى مقاماتهم وخلقَ ما سواهم لهم وهو معنى (إِنَّا للهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُون)في حقّهم لأنهم خلقهم له عزّ وجل وفي حقنا لأنه تعالى خلقنا لهم ومن خلقهم لهم حقيقة، فهم له بعين تلك الحقيقة لأنهم له تعالى وحين خلق ما سِواهم أشهدهم خلقهم كما أشهدهم خلق أنفسهم أي أنّ إشهاده تعالى لهم خلق خلقه فرع وصفة لإشهاده تعالى لهم خلق أنفسهم وهو سر التشبيه في قولنا كما أشهدهم وأنهى تعالى إليهم علم خلقه وعلم أمرهم به في خلقه من صنع وتقدير وتبليغ وأداء في التكوينات والتشريعات فترجموا لهم أمر الله تعالى علىً حسب قوابلهم في التكوينين في متقن التدّبير في تربيتهم وإصلاحهم استنطاقاً لهم بما أودع الله سبحانه في حقائقهم من تسبيحه وتهليله وتقديسه وعبادته بطاعتهم والولاية لهم والبراءة من أعدائهم وبمحبتهم والتسليم لهم والردّ إليهم ونشر فضائلهم وبَثِّ مدائِحهم والثناء عليهم وهو قوله تعالى (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ)وقولهم عليهم السلام في الزيارة الجامعة الصغيرة (يُسَبِّحُ اللهَ بِأَسْمائِهِ جَمِيعُ خلقه)وقد ذكرنا هذا المعنى فيما مضى مراراً في المواضع المختلفة تنبيهاً على اتحادها.

فتدبر معنى ما أوْردتُه هنا وتفهّمه فإنّك ترى أمراً عظيماً جليلاً كبيراً لا تحتمله عقول أولي الألباب وهذا هو الوصف الظاهر من سلطانهم وأمرهم، أما سمعتَ ما قدّمنا من قول الصادق عليه السلام (إنّ أمرنا هو الحق وحق الحقُّ وهو الظاهر وباطن الظاهر وباطن الباطن وهو السر وسرّ السرّ وسّر المستسرّ وسرّ مقنّع بالسّر).

فإن قلت إذا كان هذا الذي أشرت إليه لا يكاد أن يدركه من لطف حسّه وصفى ذهنه وكشف عن عين بصيرته مع أنه ظاهر أمرهم فشأن باطن أمرهم لا يدركه غيرهم وهو كما ذكرت ولكن كيف يصح أن يقال إنه لم يبق شيء من خلق الله تعالى كما تضمنه كلامه عليه السلام إلاّ عرّفهم جلالة أمرهم لأن ما أشرت إليه لا يفهمه إلاّ آحاد شيعتهم الخصيصُون وهو ظاهر أمرهم وقد بيّنتَ أنّ المعرَّفين(بفتح الراء) هم جميع الخلق من الحيوانات والنباتات والجمادات من الذوات والصفات الذاتية والفعلية وأكثرهم لا يعرفون مما وصفتَ حرفا واحداً.

قلتُ: المراد بقوله عليه السلام (إلا عرَّفهم جلالة أمركم) أنّه تعالى عرّف كلّ شيء جلالة أمرِهم بأن يعرف مما يظهر له من ظاهرهم جلال وعظمة لا يحتمله وهذا المعنى يتساوى فيه جميع من سواهم فإن الأنبياء والمرسلين يظهر لهم من شأنهم عليهم السلام ما لا يحتملونه وليس ذلك منتهاهم ولا جزء من مائةِ ألفِ جزءٍ، وإنما يعرفون منه ما يحتملونه وما يحتملون منه إلاّ بقدرهم وإليه الإشارة بقوله تعالى (أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها)وذلك كما تقبل المرآة من ضوء الشمس والذي احتملوه من شعاعهم هو ما كتبوه في حقائقهم التي هي نفس ذلك المكتوب وكذلك الجمادات ظهر لها من شأنهم ما لا تحتملهُ لأنّها إنما احتملت من شعاعهم ما كتبوه في حقائقها التي هي نفس ذلك المكتوب، وذلك كما يحتمله الحجر من

ضوء الشمس فقد عرّف سبحانه كل واحدٍ مِنْ خلقه جلالة أمرهم عليهم السلام على نحو ما أشرنا إليه وكيف لا يعرف مخلوق وهو مخلوق لأنّه إنّما خُلِقَ بما قَبِل وإنّما قَبِل بما عَرَفَ وإنما عَرفَ بما قَبِل فلو لم يعرف لم يقبل ولو لم يقبل لم يخلق.

والخطر محركة مثل الشيء وعديله ولا يستعمل إلاّ في الشيء الذي لهُ قدر ومَزِيّة والشأن الخطب وهو الأمر تقع فيه المخاطبة والحال والمراد من عظم الخطر عظم القدر في علو الذات أو الصفات، على نحو ما أشرنا إليه لأن كل أحد وكل شيء أراه الله تعالى عِظَما (بكسر العين وفتح الظاء المعجمة) من علوّ ذواتهم لا يقدر على اكتناهه ومن سمو صفاتهم لا يعرف قدره ويراد من كِبَرِ الشأن (بكسر الكاف وفتح الباء الموحدة) أنه سبحانه أوصل إلى كل شيء تعريفا لشأن ذواتهم وصفاتهم لا ينال أحد من معناه إلا ما احتملته قابليته من آثار معنى ذلك التعريف.

ففي الحقيقة نزل التعريف من الله سبحانه لخطرهم وشأنهم على حقيقة ما هما عليه في حقهم فهم قبلوا التّعريف كما أراد لم يشركهم في ذلك شيء من خلق الله في شيء من تلك الحقيقة وَلاَحَتْ آثارُهُ على هياكل ما سواهم على حسب قوابلهم.

وقوله عليه السلام فيما يأتي (موالي لا أُحصي ثناءكم ولا أبلغ من المدح كنهكم ومن الوَصفِ قدركم) حكاية وتعليم لمن سواهم وإلا فإنه عليه السلام يحصي ثناء نفسه وآبائه الستة وابنه العسكري وفاطمة عليهم السلام ومدحَ وصفهم ووصفَ قدرهم والباقي يبلغ من كنههم ما اجتمع معهم فيه وما دونه وإنما كلامه هنا لغيرهم.

وقوله عليه السلام (وتمام نوركم) يريد به أن نورهم عليهم السلام تام ليس فيه في رتبة الإمكان نقص والمراد من النور حقائقهم وصفاتهم وأفعالهم وأعمالهم وكلّ ما لهم وإليهم ومنهم وعنهم وبهم.

فإن قلت كيف لا يكون في نورهم نقص بقول مطلق، وقد قلت كما مر أن بعضهم أعلم من بعض وبعضهم أفضل من بعض، وقد قلتَ إنهم كلهم محتاجون إلى المدد من الله تعالى أبداً فهم دائما في الزيادة وذلك يدل على نقص فيهم قبل الزيادة بها تمّوا وقبل الزيادة الثانية هم ناقصون وبها تمّوا وهكذا فلا يفارقهم النقص.

قلتُ مرادنا بنفي النقص في وجوه.

أحدُهَا: أنهم في كل مقام تامّون قبل الزيادة وبعدها لأنهم قبل الزيادة الجديدة لم يكن شيء ينبغي أن يكون لهم فلا يكون بل كلّما ينبغي فهو حاصل لهم وما لم يحصل قبل حصوله لا ينبغي لتوقّفه على أسباب كونه وعينه وقدره وقضائه، ولا يراد منهم شيء يتوقّف على ما لا ينبغي ليحصل النقص بفقده وفاقد ما لا ينبغي له ليس ناقصا بسبب فقده.

وثانيها: إنّ الزيادة المتجدّدة ليست للتتميم ليكونوا قبلها ناقصين وإنما هي للتكميل والزيادة للتكميل لا تستلزم النقص قبلها وإن فرض في مراتب الكمال لا ينافي التمام لأن التمام راجع إلى الذات والتكميل راجع إلى الصفات.

وثالثها: إن التمام المذكور إضافيّ أي بالنسبة إلى من دونهم من سائر الخلق فإنهم لم يجعلهم الله أولياء على ما خلق وأبوابا لأحكام سلطانه وفيهم نقص عما يرادُ منهم فعله أو تبليغه أو أداؤه وإن قلنا بتفاوت ما بين حالتيهم قبل الزيادة وبعدها.

ورابعها: إن المراد بقولنا ليس فيه في رتبة الإمكان نقص أن ذلك النور التام ليس فيه نقص في رتبة الإمكان المسَاوي الذي تساوى فيه الوجود والعدم وهو مقام الكون أي المشاء مشيّة الكون لأنّه في هذه تام ليس فيه نقصٌ وإلا لظهر النقص في ما تحته من آثاره وأفعاله.

فلمّا وجدنا أفعاله ومصنوعاته وآثارُ أفعالِه وصفاته سبحانه وتعالى ليس فيها نقص في شيء بل هي محكمة في غاية الإتقان وكمال الصّنع قطَعنا بأن عِللهَا التي هي العلّة المادية والعلّة الصوريّة والعلّة الغائيّة بل ما هو فوق ذلك وكل ذلك هم عليهم السلام ومنهم وما تترتّب عليه يجب أن تكون تامّة بل أتمّ من معلولاتها قطعا وتفضل عليها لا أقل من سبعين مِثْلاً، وإنما كان كذلك لأنه سبحانه إنما خلق الأشياء على حسب أسبابها وما تترَتب عليه وكل ذلك من نورهم ولا نريد بالإمكان الإمكان الراجح الذي هو مظهر البدع والإفاضات المخترعة لا من شيء التي لا نهاية لها ولا غاية قال سبحانه (وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلمِهِ إلاَّ بِما شاء) أي لا يحيطون بشيء من علمه الذي هو راجح الوجود إلا بما شاء أي أن علمه المساوي الوجود وهو المشاء بالمشية الكونية المتعلقة بالأكوان يحيطون به لأنّهم محلّ تلك المشيّة لا المشاء بالمشيّة الإمكانية المتعلّقة بالإمكان الذي هو محل الرجحان وفي هذه الآية وجه آخر وهو أن المراد بالعلم الذي لا يحيطون بشيء منه هو العلم الواجب الذي هو ذاته سبحانه وتعالى والمحاط به هو العلم المشاء الحادث، فعلى هذا الاستثناء منقطع وعلى الأول يحتمل ثلاثة وجوه.

أحدها: إنه متّصل لأنّ العلِمَيْن حادثان.

وثانيها: إنه منقطع لأن الثاني ليس من الأول ولا يطلق عليه حقيقة ولا يدخل في مفهومه إلاّ لفظاً بل لا يكاد يتناوله ليحتاج إلى إخراج ما لولا الاستثناء لدخل فيه في حال أنه لم يكن داخلاً في الواقع وإنما أتى به لبيان ما يحيطون به.

وثالثها: أنه ليس بمتصل ولا منقطع وإنه قسم ثالث وإنما لم يتعرض له أهل العربية لأنهم لا يعرفونه وإنما يعرفه من عرف حقيقة هذا المشار إليه فإذا نظر

إلى ما قرّره علماء العربية وجده لا يدخل في واحد منهما ووجب عليه في دليل الحكمة أن يجعله قسماً ثالثاً كما هو شأن جميع أحوال برزخ البرازخ لأنه لا يدخل في حكم الوجوب ولا حكم الحدوث، ولهذا قال الأكثر منهم بالوجوب وقال أهل العصمة عليهم السلام بالحدوث ودلّت أخبارهم بإشاراتها على أنه لا أول له إلاّ عين ذاته أوجده الله بنفسه ولم يكن قبله شيء إلاّ الأزل الحق تعالى ولا معه شيء غيره والله سبحانه بكل شيء محيط.

وإنما أذكر هذه الأشياء وأمثالها وإن لم أكن بصددها تنبيها لطالب الحكمة على بعض الأسرار الإلهيّة والعلوم المخزونة المكنونة لعلّه يقرع باب الحكمة على النحو الذي لا يفتح لأحدٍ بابها إلاّ به.

وأما أن بعضهم أعلم من بعض وأفضل من بعض فلا يستلزم نقص المفضول هنا لأنّ المراد بالمفضول هو من لم يوجد في وقت الفاضل ورتبته، فإذا وجد ساواه في جميع ما وصل إليه من ربّه إلاّ هذا الحرف وهو سبق الوقت والرتبة مثالُهُ إذا كان عندك سراج ثم أشعلت منه سراجاً مساوياً له في القدر في النور والفتيلة والدهن فإنه مساوٍ له والأول وجد قبله، والثاني وإن ساواه ولكنه أشعل منه فهو أفضل من الثاني، فهذا مرادنا بذلك وهو قول علي عليه السلام (أنا من محمد كالضوء من الضوء) فافهم.

وأما أن كلهم محتاجون إلى المدد فحق ولكن لا يستلزم النقص كما قلنا في الوجه الأول لأنه سبحانه لا يمدّهم بشيء كان عنده مكونٍ قبل الإمداد ليكونوا فاقدين لما يحتاجون إليه لوجوده في رتبة أعلى من رتبتهم فينزل عليهم وإنّما يوجد الله سبحانه الإمداد في ظهوره عليهم كما توجد الشمس مدد نورها المشرق على

الأرض في إشراقه على الأرض لا قبله، لأنه لا قابل له غيرها فهو متوقف على وجود الأرض توقّف ظهورٍ إذ ليس له كون قبل ظهوره عليها، ألا ترى إلى صورتك في المرآة فإنها حين ظهرت في المرآة تامّةً لا نقص فيها وتبقى موجودة مدّة مقابلتك لها وفي تلك المدة لا تتصور نقصاً فيها غير افتقارها إليك مع أنّها لا تقوم لحظة إلاّ بما تُمِدَّهَا من ظهورك لها بها فهي في كلّ لحظة طريّة جديدة بل في الحقيقة إنّما تقوّمَتْ بالمدد تقوّم صُدُورٍ ومع هذا فلا تمدّها بما ليس منها ولها بل عدمها لازمٌ لوجودِها فما فُقِدَ من كونها لحق بإمكانها فَكَمَنَ فيه بعد انخلاع لباس الكون وما وُجدَ لها بالمدد، فهو ما كمن في إمْكانِها بعد ما ألبسَتهُ ما نسجت له منه بتعيّناته وتشخَّصاته حلّة الكون المناسبة للمستمدّ فظهر لها على حسب حالها من الوقت والمكان والرتبة والجهة والوضع بِمَعْنَيَيْهِ الأخيرين أعني نسْبة الأجزاء بعضها إلى بعض ونسبة الأجزاء إلى الأمور الخارجة ومن الكيف والكّم وغير ذلك.

فإذا عرفت ما أشرنا إليه هنا وسابقا ظهر لك أنّ الصورة لا تستغني عن المدد لحظة وإلا لاستغنتْ أبداً وأن المدد كل لحظة جديد ما كان قبل الآن وأنه لا يكون من غير مالها ولا منها وأن الصُور بذلك نهر مستدير على نفسه يعني كرة مجوفة تدور على وجه ظهورك بها لها لا إلى جهة.

فإذا عرفتَ هذا في الصورة مع أنّها أبداً ليسَت ناقصةً إلا نقص الافتقار إلى ظهورك لها بها عرفتَ أنهم عليهم السلام أبداً تامون مع استمرار استمدادهم من فيضه تعالى الأعلى الذي هم به متقومون على نحو ما أشرنا لك به منَ التمثيل بالمرآةِ فتفهم واقرأ وَارْقَ.

وقوله عليه السلام (وصدق مقاعدكم) المقاعد جمع مقعد وهو مكان القعود والمراد

بها مراتبهم الّتي رتّبَهُم الله فيها مثلاً رتبهُم الله في المقامات يعني أن الله سبحانه وله الحمد كان ولا تعيّن له بل هو كنز مخفي فأول ظهوره فيما أحب من تعريفهِ نفسَهُ بهم وكل ما سوى هذا المقام لا يعرف إلا شؤون هذا المقام وهو الذي عناه الحجة عليه السلام في دعاء شهر رجب في قوله (ومقاماتك التي لا تعطيل لها في كل مكان يعرفك بها من عرفك) وهو قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم(أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه)وقول علي عليه السلام (من عرف نفسه فقد عرف ربه)وذلك لأن أول هذه المقامات وأشرفها مقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم فهو أعرف الخلق بالله سبحانه فيعرفون أي الخلق المعبود جل وعلا بصفات الصّفَات وهي صفات أفعاله وصفات مظاهره.

وأما هم صلوات الله عليهم فيعرفونه تعالى بهذه الصفات والمظاهر أنفسها لأنهم أنفسها وليس في الإمكان معرفة أعلى من هذه ولم يتعرّف تعالى بمقام أعلى منه ولهذا قال في دعاء شهر رجب (لا فرق بينك وبينها إلاّ أنهم عبادك وخلقك) والمراد من المستثنى هو المراد من المستثنى منه وإنما ذكر الضمير في المستثنى للبيان بتعريفها بما تظهر فيه آثار الخلق وإلاّ فالمراد واحد، ولهذا لمّا أخذ في تبيين المستثنى المنصوص عليه بالعبودية والخلق أنث الضمير ليعلم أنّ المراد منهم تلك بقوله (فتقها ورتقها بيدك بدؤها منك وعودُها إليك).

فإذا عرفت هذا المقعد الحق الذي كما يُدّعى من دونه هو الباطل عرفتَ أنه في غاية الصدق في الإمكان وكيف لا وقد نص عليه الحجة عليه السلام بقوله (لا فرق بينك وبينها).

والمقعد الثاني فيما دون ذلك وهو معانيه التي لا تعرف إلا هي ولا يعرف إلا بها. والمقعد الثالث فيما دون الثاني وهو مقعد الأبواب وهم في هذا المشهد

سبيل الله إلى خلقه وسبيل خلقه إليه. والمقعد الرابع فيما دون الثالث وهو كرسي الإمامة والقاعد عليه الإمام المفترض الطاعة من الخالق سبحانه والحجة على الخلق. والمقعد الخامس فيما دون ذلك مقعد الأفعال والأعمال ومنها الأداء والتبليغ والصدق في هذه المقاعد وإن كان في نفسه مختلفا اختلافا شديدا إلا أنه يجمعه شيء واحد وهو الصدق مع الله في كل المواطن على حدّ لا يبلغه من سواهم بحيث لا يفقدهم حيث يحب ولا يجدهم حيث يكرَهُ. وذلك لأن هذا الصدق في هذه المقاعد الخمسة هو ما عناه الصّادق عليه السلام (وأدنى حَدّ الصدق ألاَّ يخالف اللسانُ القلب ولا القلبُ اللسان) ومثل الصّادق الموصوف بما ذكرنا كمثل النازع روحه إن لم ينزع فماذا يصنع وهذا مثال لهم لا لغيرهم فإن كان أحدٌ من غيرهم بهذه الصّفة فإنه بنسبة مقامه لم يبلغ غاية الصدق لأنّ ما يدل عليه هذا اللفظ إذا أريد به المفهوم يكون مُشَكِكا متفاوت المراتب وأمّا إذا أريد به المعنى فلا يزاحمهم فيه أحد.

وقوله عليه السلام (وشرف مَحَلّكم ومنزلتكم عنده) الشرف الرفعة، والعلو، والقدر، والمـحَل (بفتح الحاء) المكان وبفتحها وبكسرها المكان والوقت، والمنزلةُ مكان ومكانة ورتبةٌ ووقتٌ فقد عرّفَ كل خلقه علوّ مكانهم ورفعته وسبق وَقِتهِمْ وقُرب مكانتهم فالمكانة في الإمكان كمُحدّب مُحدّد الجهات في الأجسام، والرتبة فيه كالمُحدد في الأجسام والوقت فيه من السرمد في المكانة كالزمان في محدّب المحدّد وفي الرّتبة كالزمان في المحدِّدِ.

وأما المكان فالمكانة فيه كالمحدّب في المَكان والرتبة فيه كالمحدد في المكان والوَقْت في المكان كالمكان في الوقتِ يعني أنهما متساوقان وكل رتبة من أحدهما

في رتبة مُسَاوِقة، كما ذكرنا في بعض رسائلنا في الزمان والمكان والجسم فإنّا بينا أن زمان محدّب محدد الجهات في اللّطافة كالمحدّب وكَمكانِه وزمان المحدد في اللّطافة كالمحدد ومكانه وزمان فلك البروج فيها كفلك البروج ومكانه وزمان السماوات السبع في اللّطافة مثلها ومثل مكانها، بل كل سماء مكانه وزمانه مثله وزمان الأرض وسائر الجمادات مثلها ومثل مكانها كذلك فكلما لطف الجسم لطف زمانه ومكانه بنسبة لطافته وكلّما كثف كثف فكذلك حكم وقت مراتبهم ومكانها في مقام أو أدنى حرفا بحرف لأن الإمكان الراجح الذي هو مكان الإبداع والحقيقة المحمدية وفلك الولاية المطلقة والسرمد الذي هو وقت هذه الثلاثة، وهذه الثلاثة كلها من شبهٍ واحد يعني كل مرتبةٍ من واحدٍ منها كمثل مساويها من الآخرين في اللّطافة والشرف والرتبة والرفعة.

وقوله عليه السلام (وكرامتكم عليه) الكرامة بمعنى العزازة أعني عدم النظير أو قلّة النظير لا بمعنى ضد الذّل فكرامتهم عليه أنهم عنده ليس لهم مثل ولا نظير.

وقوله عليه السلام (وخاصتكم لديه) أي عنده أو أن لدى أخصّ من عند لأنّ لدى قد تستعمل لأقرب مراتب ما تصدق عليه العند أو لأعلى من أعلى مراتب ما تصدق العند لأنّ لدى يقال لما يختصّ به من دون كل ما سواه كما في قوله عليه السلام (وباسمك الذي استقرّ في ظلّك فلا يخرج منك إلى غيرك)، وأمّا عند فلما في ملكه وخزائنه وفي كل ما تحت يده فلدى للأشرف والأقرب فهي أخص من عند فلذا ذكر الخاصة بـ (لدى) لا بـ (عند) ومعنى خاصتكم لديه أنهم له قد استخلصهم له في القدم من بين سائر الأمم كما قال علي عليه السلام في خطبة الغدير والجمعة فيؤول معنى (وكرامتكم عليه) إلى معنى وخاصتكم لديه وبالعكس وقد تقدّم بيان ذلك مراراً.

وقوله عليه السلام (وقرب منزلتكم منه) حتى قال (من أطاعهم فقد أطاعني ومن عصاهم فقد عصاني) وقال عليه السلام (لا فرق بينك وبينها إلاّ أنهم عبادك وخلقُكَ) وذلك لأنه سبحانه خلقهم في القرب وأقامهم في القرب حتى جعلهم معانيه وأبوابه وبيوته ومعرفته وعبادته والثناء عليه، كما أشار إليه عليه السلام في الزيارة الجامعة الصغيرة التي أوّلها (السَّلامُ عَليْكَ أَيُّها النَّبيُّ وَرَحْمَةُ الله وَبرَكَاتُهُ السَّلامُ عَليْكَ أَيُّها النَّبيُّ المُرْسَلُ وَالوَصيُّ المُرْتَضى وَالسَّيِّدَةُ الكُبْرى وَالسَّيِّدَةُ الزَّهْرَاءُ وَالسِّبْطَانِ المُنْتَجَبَانِ وَالأَوْلادُ الأَعْلامُ وَالأُمَنَاءُ المُنْتَجَبونَ) حيث قال في آخرها إشارة إلى أنهم الثناء عليه (يُسَبِّحُ الله بِأَسْمَائِهِ جَميعُ خَلقِهِ وَالسَّلامُ عَلى أَرْوَاحِكُمْ وَأَجْسَادِكُمْ وَالسَّلامُ عَليْكُمْ وَرَحْمَةُ الله وَبرَكَاتُهُ)انتهى ، وجعلهم ظاهره في خلقه وأسماؤه وصفاته ونعمه وحججه على خلقه ومظاهر صفاتـه وأفعاله في خلقه صلى الله عليهم أجمعين والحمد لله رب العالمين.